

مضائق زوما

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

هذه الترجمة كتب :

THE CIVILIZATION OF ROME

تأليف

Donald R. Dudley

الفصل الأول

مقدمة

على بعد ما يقرب من ستة عشر ميلا من مصب نهر «التبير» Tiber تتجاه الداخل توجد مجموعة من التلال المنخفضة — عددها سبعة كما تناقلته الروايات — تشكل موقعاً مناسباً لاستيطان مبكر. وعلى التل الذي قد تكون قمته العريضة المستوية أكثر اجتذاباً للرعاة الوافدين من الجبال الشرقية تدل الحفريات على وجود بقايا سكنى تؤرخ بين القرن التاسع والقرن السابع قبل الميلاد — وقد عثر على جبانة هذه الجماعة في الوادى الواقع أسفل التل، وأجريت أعمال التنقيب في مقابرها، وأكثر ماتحتويه هذه المقابر أهمية هو نموذج لأكواخ مستديرة ذات سقف مخروطى، تشبه أكواخ «الكابنا» Capanna التي ما يزال بينها الرعاة من غصون الأشجار والطين في منطقة كمانا الرومانية. وقد عثر على مثل هذه المكتشفات في أماكن متعددة من إقليم «لاتيوم» Latium ولكن هناك اهتماماً خاصاً بهذا الاكتشاف بالذات، إذ أن هذا التل ما هو إلا تل «البلاتين» Palatine والوادى هو «السوق الرومانية» Roman Forum، وكما ورد في الأساطير استوطن «رومولوس» Romulus مؤسس روما على تل البلاتين، حيث أقيم كوخ مستدير، هو منزل «رومولوس» وأحيط بتقديس حتى عصر الإمبراطورية باعتباره نصبا تذكاريًا قومياً، وقد جاءت تواريخ عديدة في العالم القديم تحدد تاريخ تأسيس روما، ولكن التاريخ الوحيد المعترف به رسمياً هو عام ٧٥٣ ق. م.، وحتى يوم الإنشاء قد عرف بالتحديد فهو في التقويم اللاتيني الذي عثر عليه في بلدة «أنزيو» Anzio يقابل الحادى والعشرين من أبريل في بداية «أعياد الباليس» — عندما تأسست روما «Parilia Romæ Condita» (والباليس

Pales كانت إلهة قطعان الماشية وأسرابها ، وما يزال الواحد والعشرون من أبريل ينظر إليه باعتباره عيد ميلاد روما ، وهكذا نجد أن الحفريات والأساطير تجمع على أن أصل نشأة روما يرجع إلى استيطان حدث على تل البلاتين حوالى عام ٨٠٠ ق . م . قام به رعاة قادمون من الأراضى اللاتينية الداخلية. والرعاة والأكواخ المستديرة ومهرجان « الباليس » كلها تعطينا مثلا واضحا لهذا التسلسل الذى يعتبر أحد مفاتيح التاريخ الرومانى .

ومهمة مؤرخ التاريخ الرومانى هى أن يقتفى أثر الارتباط المتصل لهذه البدايات الساذجة أطول من اثنى عشر قرنا بقليل . فما أن جاء عام ٦٠٠ ق . م . حتى كانت روما ، قياسا على مستويات تلك الأزمنة ، قد أصبحت مدينة غنية مزدهرة تخضع للملكية ، من المحتمل أنها لم تكن من أصل قومى . وفى حوالى عام ٥٠٠ ق . م . أطيح بهذه الملكية وخلفتها جمهورية ، وفى عام ٢٧٢ ق . م . كانت الجمهورية الرومانية تسيطر على اتحاد كبير يضم كل شبه الجزيرة الإيطالية جنوب « جنوا » . وكان من نتائج الحروب التى استغرقت المائة والخمسين عاما التالية أن أصبحت روما هى القوة الوحيدة فى عالم البحر المتوسط وخليفة لإمبراطورية الإسكندر المترامية الأطراف . وخلال القرن الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد استمرت حركة التوسع حتى وصلت أقصى حد لها أثناء حكم الإمبراطور « تراجان » Trajan (عام ٩٨ م — ١١٧ م) إذ كانت فى ذلك الوقت « عظمة السلام الرومانى اللامحدودة » « Immensa Romanac Pacis Maiestas » تمتد من اسكتلندا حتى السودان ، ومن شواطئ المحيط الأطلنطى عند البرتغال حتى جبال القوقاز — وهى منطقة تساوى فى أيامنا هذه ثلثى مساحة الولايات المتحدة القارية ، وربما كان يسكنها أقل من نصف سكان الولايات المتحدة بقليل ، وفى هذه الإمبراطورية العالمية الواسعة كان كل التراث الحضارى للعالم القديم — سواء كان التراث اليونانى أو الشرقى أو السامى أو الغرب أوربى — قد اندمج

ثم انتشر . ولكن أعباء هذا التوسع — الأعباء الاقتصادية والسياسية والاجتماعية — قد هدمت البناء السياسى الذى تميزت به الجمهورية الرومانية هدماً تاماً . فنذ عصر أوغسطس ١٣ ق.م - ١٤ م) أصبح العالم الرومانى خاضعاً لحكم ملكية مركزية قوية تتحكم فى كل موارد الدولة. أما القرون الثلاثة التى تلت حكم «ماركوس أوريلوس Marcus Aurelius (١٦١م - ١٨٠م) فقد كانت سنوات التدهور والسقوط ، سنوات الغزو البربرى والتدهور الاقتصادى . وما أن جاء عام ٤٧٦م — حيث انتهى هذا الكتاب — حتى كان الجزء الغربى من الإمبراطورية قد انهار تماماً ، وعلى أنقاضه قامت الممالك البربرية التى انبثقت منها أمم أوروبا الحديثة . ومع ذلك يجب أن نلاحظ أن الإمبراطورية الشرقية التى كانت تحكم من القسطنطينية لم تسقط ، إذ كانت أقوى دول العالم نفوذاً وأكثرها حضارة خلال الجزء الأكبر من العصور الوسطى ، وأخيراً استسلمت للأتراك فى عام ١٤٥٣م عندما كان العالم على وشك اكتشاف الدنيا الجديدة . والأهمية الجوهرية لهذه القرون الاثنى عشر من التاريخ الرومانى هى فى حد ذاتها سبب يجذب اهتمام كل الرجال الأذكياء ، ولكن هناك ما هو أروع من ذلك ، فما خلفته روما من دعاتير سياسية وقانون ولغة ودين وأدب وفنون وأعمال أخرى عديدة بجانب ذلك كان جداراً ثابتاً ، قد لا يتحطم أبداً ، فى البناء الذى شيدته الحضارة الغربية . وإذا كان لا بد من أن نفهم أنفسنا فيجب أن نفهم ما هى روما أولاً .

وما يدعو للأسف أن الأجزاء الأولى من هذه القصة حتى القرن الرابع قبل الميلاد على الأقل أجزاء غامضة بصورة مشينة . ولدينا ما يعتبر سرداً تاريخياً مسلسلًا ، وخاصة كتابات « ليفى » Livy و« ديو نيسيوس الهاليكارناسى » Dionysius of Halicarnassus ولكنها ترجع إلى وقت متأخر ، كما أنها قد شوهت عمداً . وعمل ليفى الرائع (المسمى منذ تأسيس المدينة والمكون من ١٤٢ كتاباً) ليعطينا صورة وطنية ، نصف ملحمية للتاريخ الرومانى ،

فيه قورنت الفضائل البطولية التي ترجع إلى روما القديمة بالانحطاط المنتشر في الأزمنة المتأخرة مقارنة مفصلة . ففي الكتب العشرة الأولى يسرد ليفي قصة روما حتى عام ٢٩٣ ق.م وفي مقدمته الشهيرة يعتبر صريحاً فيما يختص بالمسحة الأسطورية لأجزاء هذا التاريخ الأولى على الأقل ، أما كتاب الآثار والمخلفات الرومانية القديمة Roman Antiquities لمؤلفه « ديونيسيوس » الذي يؤرخ فيه الأحداث حتى الحروب البونية فهو أقل أهمية من ذلك بكثير ، ولكن ما وصلنا مما كتبه يصل إلى أحداث عام ٤٤٦ ق.م . تقريباً ولكون هذا الكاتب يونانيا فهو يهتم اهتماماً زائداً بالموازنة بين التاريخ اليوناني والتاريخ الروماني — وفي الغالب ما تكون هذه الموازنة خيالية — ويصور الرومان على أنهم من سلالة اليونان . وقد عاش هذان المؤرخان في عصر أوغسطس ، وبذلك يكونان قد عاشا بعد عصر روما الملكية بخمسة قرون . ولكن ما هي المصادر التي اعتمدا عليها ؟ إننا نسمع عن عدد من المؤرخين — أمثال فاييوس بيكتور « Fabius Pictor » و « كنيوس أليمنتوس » Cincius Alimentus وغيرهم — كانوا يكتبون في روما في القرن الثاني قبل الميلاد . أما بالنسبة لمصادر أقدم فترة من تاريخ روما ، فيبدو أنهم قد انكبوا كلية على دراسة تراث تاريخي يوناني كان قد تشكل في صقلية وجنوب إيطاليا منذ القرن الرابع قبل الميلاد تقريباً . ولكن هذا لا يفي بالغرض تماماً ، إذ كان اهتمام اليونانيين « بروما » اهتماماً سطحيّاً فقط ، كما أن المؤرخين الرومان أنفسهم قد دفعهم ميلهم إلى تبجيل أصل نشأة المدينة والتغنى به وتفسير تاريخ روما القديمة على ضوء الأحداث السياسية لعصرهم إلى سلوكهم الطريق الخطأ بصفة مستديمة . وقد كان هناك بالطبع تقارير رسمية من نوع ما ، إذ كانت المعاهد الدينية منذ الأيام الأولى من عصر الجمهورية تحتفظ بقوائم أسماء الموظفين العموميين ، كما أضيفت إلى هذه القوائم ملحوظات عن الانتصارات التي أحرزت والمعاهدات التي أبرمت والمعجزات التي تحققت وما شابه ذلك ، وما إن أوشك القرن الرابع قبل الميلاد على

الانتهاء حتى كان قد نتج عن ذلك تقرير تاريخي يقابل تقرير الأنجلو - ساكسون الزمنى Anglo Saxon Chronicle ولكن عدد التقارير التي تخلفت بعد الغزو الغالى الذى حدث فى عام ٣٩٠ ق. م . ليس مؤكداً ، بل ومن المشكوك فيه تماماً عما إذا كان أى مؤرخ روماني قد استطاع أن يستغل مواد مثل هذه المصادر استغلالاً منظماً ومحكماً ، إذا حدث أن وقعت بين يديه ، كما أن علم الحفريات لا يستطيع أن يصلح من أخطاء السرد التاريخي ، اللهم إلا إذا حدث ذلك بالصدفة ، ففي المدينة نفسها كانت مباني الإمبراطورية الضخمة قد طمست مباني المدينة ولم يتخلف إلا القليل من بقايا روما القديمة . وإذا حدث أننا تغاضينا عن الأساطير - وقد كان ليفي حكيماً عندما سردها - فليس أمامنا سوى أن نعطي صورة عامة للتاريخ الروماني والتشريعات الرومانية منذ البداية حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، نضاهيها بالمعلومات الجغرافية عن إيطاليا والشعوب التي سكنتها .

وعلى الخريطة تبدو معالم إيطاليا الطبيعية بسيطة ، فقوس جبال الألب الضخمة بعز لها شمالاً عن وسط أوروبا . وعند الحافة الغربية من هذا القوس تتصل جبال الألب البحرية Maritime Alps بجبال الألبين . وبين جبال الألب والألبين يوجد سهل وادى « البو » po الذى يصب فى رأس البحر الإدرىاتيكى وتمتد أرض إيطاليا على شكل شبه جزيرة من جنوب خليج جنوا تجاه الجنوب الشرقى لمسافة أطول من ٥٠٠ ميل ولا يزيد عرضها فى أى نقطة على ١٥٠ ميلاً . وفى طرفها الجنوبي الغربى يوجد مضيق ضيق يفصل شبه الجزيرة عن جزيرة صقلية . وجبال الألبين عبارة عن عمود فقرى من الجبال يمتد على طول شبه الجزيرة ، يصل ارتفاعها فى مناطق عديدة إلى أكثر من ٨٠٠٠ قدم . وعبر مضيق مسينا تكملها جبال صقلية الأكثر ارتفاعاً . ولكن هذه الوحدة الظاهرية تخفى بين طبيعتها تنوعاً متبايناً فى المناخ ونوع التربة ، فقد كان التنوع الإقليمى يميز دائماً حياة إيطاليا . فمن الناحية الجغرافية ينتمى وادى « البو » إلى أوروبا القارية . وجبال الألبين عبارة عن مجموعة جبال وليست سلسلة

واحدة ، وقد ساعدت وديانها المتباعدة وأخايدها العميقة وهضابها العالية على ظهور مجتمعات رعوية معزولة الواحدة عن الأخرى . وفي الغرب ، بين الجبال والبحر توجد ثلاث مناطق تتكون كل منها من سهل وتل تكفل وجود ظروف ملائمة للزراعة ، وهذا أمر شاذ . وهي « اتورريا Etruria » التي تنحصر بين نهري ارنو Arno والتير ، و « لاتيوم Latium » ، وهي المنطقة المحيطة بروما ، وكبانيا Campania وهي المنطقة المحيطة بنابولي . والتربة البركانية التي تتكون منها المنطقتان الأخيرتان تربة خصبة بشكل ملحوظ ، فالمنتجات الوفيرة التي أخرجتها هاتان المنطقتان عندما زرعتا لأول مرة قد تعلق أسطورة « العصر الذهبي البدائي » في إيطاليا حينما كانت الطبيعة والأرض تستجيب بتألق لكل احتياجات الإنسان . أما في الشرق فالجبال أكثر انحداراً ناحية البحر والسهل الوحيد الفسيح فيها هو سهل « أبوليا » Apulia الشهير بماشيته وأغننامه ، وأنهار شبه الجزيرة أنهار قصيرة ونادراً ما تصلح للملاحة وعلى ذلك فالتنقل يجب أن يتم عن طريق البر أو البحر . وأكثر الموانئ صلاحية تقع في الغرب ؛ ففي أيامنا هذه تعتبر جنوا ولجهورن Leghorn ونابولي مراكز لعبارات المحيط من السفن ، كما أنه توجد موان أخرى صالحة تستخدمها السفن الأصغر حجماً ، وعلى شاطئ الإديريات يمكنكم موانئ خليج « تارانو » من القيام برحلة سريعة وسهلة إلى أرض اليونان والبحر الإيحي ، أما فينيسيا فقد جاء إنشاؤها بعد الفترة الرومانية ، واتصالاتها بالعالم الخارجي تفسر الكثير من تاريخ إيطاليا . وفي الشمال الشرقي توجد ممرات من السهل اجتيازها في جبال « جوليان الب » Julian Alps توصل إلى وادي الدانوب ووادي السافا ، ومنهما إلى سهول المجر والبحر الأسود الواسعة . أما في الشمال والشمال الغربي فالممرات التي توصل إلى فرنسا وسويسرا أكثر ارتفاعاً إلا أنه ما يزال من الممكن اجتيازها ، وحتى ممرات جبال « بنين ألب » Pennine Alps العالية قد عبرتها فلول المهاجرين والجيوش الغازية . وتمتد إيطاليا جنوباً حتى صقلية ، وصقلية لا تبعد عن « رأس

بيون « Cape Bon في أفريقيا سوى ٩٠ ميلا فقط ، وكما تعلمنا من الحرب العالمية الثانية ، فقيام دولة بحرية قوية في إيطاليا تستطيع أن تشطر البحر المتوسط وبالتالي تستطيع إيطاليا أن تغزو أفريقيا .

وجانب كبير من علم الحفريات وعلم الأجناس الخاصين بإيطاليا لا يزال غير موثوق به ، فما زالت هناك مساحات واسعة ، وخاصة في الجنوب ، لم تكتشف بعد ، وما هيمننا الآن هو أن نكون فكرة ما عن الشعوب التاريخية التي اصطدمت بهم روما باعتبارهم حلفاء أو أعداء لها أثناء غزوها لإيطاليا ، وعن تطورهم ما بين ٧٠٠ ، ٥٠٠ ق . م . ومن المتفق عليه بصفة عامة أن أقدم السلالات — وهي من جنس بحر متوسط مثل « الأيبيريين » في أسبانيا — كان في بداية هذه الفترة قد ابتلعهم الغزاة الذين أتوا فيما بعد أو دفعوهم إلى أقل مناطق شبه الجزيرة ملاءمة للعيش . وقد ترك « الليجوريون » Ligurians آثاراً لاستعمارهم للأرض التي تحمل اسمهم ، ولكنهم يلعبون دوراً غير ذي بال في التاريخ الروماني . أما عن الغزاة فيبدو أن أقدمهم قد جاء عبر بحر الأدرياتيكى من « البلقان » حوالي عام ١٠٠٠ ق . م . واحتلت جماعة منهم وهم « الفينيتى » Veneti الأراضى الواقعة حول رأس بحر الأدرياتيكى ، وجماعة أخرى استقرت في سهل « أبوليا » الفسيح وجزء كبير من « كالابريا » Calabria وهذه الشعوب كانت تشتغل بتربية الحيوانات ، شهيرة بالخيل وبآلهة الخيل عندهم ، ودراسة صناعة الفخار القومية في الوقت الحالى هي المصدر الرئيسى لمعرفة الحياة في « أبوليا » ، فما أن جاءت نهاية الفترة التي نحن بصدددها حتى كانت بلدة « كانوسا » Canosa تنتج أواني رائعة مزينة بالزهور ، من الممكن رؤيتها الآن في متحف نابولى ، امتزجت فيها الأساليب الهلينية بالأساليب القومية . وكانت لغات هذه الشعوب لغات هندية — أوروبية ويمكن دراستها من أسماء أماكن كثيرة وما يقرب من ٢٠٠ نقش . وقائمة الكلمات التي أخذتها اللغة اللاتينية عنها قائمة صغيرة ،

فكلمة « جندولا » Gondola في الألهجة الفينيسية يرجع أصلها إلى
الكلمة الثنتية « جانديا » Gandeia (ومعناها قارب صغير) .

والأهم من ذلك كان هؤلاء الغزاة القادمين من وسط أوروبا والذين ما أن
جاء عام ٧٠٠ ق.م حتى كانت كل الأراضي المرتفعة من جبال الأبين في حوزتهم
بالفعل ، وهم يكونون فرعاً من الشعوب اللاتينية . ويبدو أنهم استقروا
كرعاة في إقليم « لاتيوم » في فترة ليست سابقة على عصر الحديد ، أي القرن
التاسع والثامن قبل الميلاد ، وكانت المنطقة التي قاموا فيها بأول استيطان
لهم هي « تلال ألبا » Alban Hills وهي إقليم مرتفع ذات جبال مخروطية
الشكل وبحيرات قائمة كانت فوهات لبراكين ، وهي من أجمل المناطق في
إيطاليا ، وعبادة الإله « جوبيتر لاتياريس » Jupiter Latiaris المنتشرة
على جبل « كافو » Cavo أعلى تل في المنطقة وعبادة الإلهة « ديانا » Diana
في الغابة المقدسة الواقعة على بحيرة « نيمى » Nemie والقصاص التي تروى
سيادة مدينة البالونجا القديمة تؤيد الرأي القائل بأن هذه المنطقة كانت أول
موطن للشعوب اللاتينية في إقليم لاتيوم . أما الاستقرار في القرية المقامة
على تل البلاتين — والتي يمكن رؤيتها بسهولة عبر السهل — فقد كان
متفرعا من هذا الموطن . ولكن اللاتين لم يستمروا في اشتغالهم بالرعى
فقط ، بل كانوا أول من استصلح سهل « لاتيوم » لزراعته ، والفضل في ذلك
يرجع إلى وضع نظام محكم للصراف . وما إن جاء القرن السادس حتى كانت
بعض مدنهم تنعم بحياة رغدة كما دلت الحفريات في هذه البقع مثل « براينستي »
Praeneste و « فداي » Fidenae .

وتجاه الشمال الشرقي كان يسكن شعب « السابين » Sabines وهم سلالة
خشنة مكونة من رعاة وفلاحين . وحالهم حال اللاتين ، إذ كانوا يتطعمون إلى
ما وراء التلال بحثاً عن سهل ، وقد أسسوا مقرهم على تل « الكويرينال »
Quirinal أحد تلال روما في نفس الوقت الذي تأسست فيه القرية اللاتينية

على تل البلاتين . وفيما بعد قامت هجرة سايبينية على نطاق واسع إلى روما في القرن الخامس قبل الميلاد، كما هو مأخوذ به . و نرجع إلى الشمال مرة أخرى، فنجد شعوبا استقرت في الأرض التي لا تزال تحمل اسمهم وتعرف هذه الشعوب في مجملها باسم الامبريين Umbrians وقد أدى اتصالهم بشعوب أتورريا الأكثر تحضراً إلى رفع مستوياتهم الحضارية ، كما أدى إلى نمو المدن وازدهارها . وهناك شعوب تمت لهم بصلة القرابة وهم البيكني Piceni التي كانت تستوطن ساحل بحر الأدرياتيكى ما بين بلدة أنكونا Ancona ومصب نهر سانجرو Sangro ، وحضارتهم المادية يمكن التمعن فيها في المتحف المقام في بلدة أنكونا وهي تضم بعض منتجات الفن اليونانى الرائعة التي من الجائز أنها جاءت هذا المكان عن طريق « تارنتوم » Tarentum وتشير إلى وجود حركة تجارية نشطة على ساحل الإديرياتيكى في القرن السادس والخامس قبل الميلاد . أما الأراضى الأكثر وعورة المعروفة الآن باسم « أبروتزى » Abruzzi فقد استمر يقطنها مجتمعات رعوية بدائية أثناء الأزمنة الرومانية .

أما الحزام العريض المكون من التلال في المنطقة الواقعة شرق إقليم كمانيا فقد كان موطن السامنيتر Samnites الذين أصبحوا فيما بعد أخطر أعداء روما أثناء الصراع من أجل السيادة على إيطاليا ، وقد كانت حضارتهم حضارة بدائية في بداية الفترة ويشير نظامهم القبلى إلى بقايا الطوطمية Totemism فقد دفعهم ضغط السكان على المقومات الغذائية وأراضى المرعى إلى إيفاد جماعات من الشباب المحارب ليفتحوا أرضا جديدة بعد احتفالهم الدورى بالربيع المقدس ولكن اتصالهم بمدن كمانيا اليونانية خلق منشطاً حضارياً ، فما إن جاء القرن الرابع حتى انفرج الستار عن اتحاد قوى بين السمينيين كما أصبح هناك مدن غنية ، حضارتها مزيج من الحضارة اليونانية والحضارة السمنية ، وبلدة كابوا Capua أوضح مثال على ذلك .

كانت كل هذه الشعوب تتكلم لهجات متقاربة تماماً ، انبثقت منها

ثلاث لغات أصبحت هي السائدة وهي: اللغة الامبرية، واللغة اللاتينية واللغة الاوسكانية، والأخيرة كانت هي اللغة الرسمية لوسط وجنوب إيطاليا حتى القرن الأول قبل الميلاد. ومن الممكن دراسة صلة هذه اللغات باللغة اللاتينية بقراءة النقوش ووثقتين طويلتين إلى حد ما، « فلوحات إيجوفيوم Tabulae Iguvinae التي عثر عليها في بلدة جوبيو Gubbio أي « إيجوفيوم » Iguvium بإقليم أومبريا في القرن الخامس عشر سجل عليها أعمال جمعية من جمعيات الكهنوت مشابهة لجمعية « أرفال للأخوة » Arval Brethren في روما. ولوحة بانتيينا Tabula Bantina التي عثر عليها في بلدة بانتيينا في عام ١٧٩٤، عبارة عن تنظيمات محلية. وبمقارنة هذه اللوحات باللغة اللاتينية نجد من الواضح أن اللغة الأوسكانية واللغة الأومبرية أخوة، بينما اللغة اللاتينية ابنة عم لهما.

وكانت الشعوب السكتية هي آخر كل الشعوب التي غزت إيطاليا، وسواء أتوا من بلاد الغال أو من الدانوب، فقد عبروا جبال الألب إلى وادي البو في القرن السادس قبل الميلاد وطردهوا الأتروسكيين من هذا المكان، بينما دفعوا الهلثيين إلى ركن منزوى وتمت لهم السيطرة التامة على هذا الإقليم حتى إنه سمي « بلاد الغال القريبة » Gallia Cisalpina وكثير من المدن الشهيرة الواقعة في شمال إيطاليا مثل ميلان وفيرونا وبرسكيا - من الممكن إرجاع أصلها إلى المدن السكتية Oppida التي قامت في هذه الفترة.

وكانت أرقى الحضارات في إيطاليا هي حضارة اليونان في جنوب إيطاليا وحضارة الأتروسكيين في وسطها وقد جاء وقت كان يبدو فيه أنه من المحتمل أن تكتسب الحضارة الأتروسكية مركز الزعامة على كل شبه الجزيرة، والبقايا المادية التي تخلفت عن الحضارة الأتروسكية تعد من بين أجمل الآثار في إيطاليا، وخاصة في هذه البقاع مثل « كايري » Caere وتاركوينى.

Tarquiniis و فولكي Vulci بجباتهم الضخمة ومقابرهم الغنية بالزخارف .
ومن المحتمل أن تؤدي وسائل البحث الجديدة إلى خروج اكتشافات
قد تكون أكثر روعة وأهمية من المناطق الأتروسكية التي لا يزال من
الضروري التنقيب فيها ، وأعمال الفن الأتروسكي معروضة عرضاً دقيقاً في
متاحف فلورنسة Florence وروما . وفي الأزمنة الحديثة أصبح التخصص
في الدراسات الأتروسكية أمراً شائعاً ، وعلى رأس هؤلاء المتخصصين
يقف العلماء الإيطاليون . ومع ذلك لا يزال الكثير من المشاكل والألغاز
بغير حل . فمن الممكن قراءة الحروف الأبجدية الأتروسكية التي هي قوية
الشبه بالحروف اليونانية واللاتينية كما أن المقاييس الصوتية لحروفها الستة
والعشرين معروفة لدينا ، إلا أن دراياتنا باللغة ضعيفة تماماً ، رغم أنه يمكن
قراءة النقوش القصيرة إذ يبدو أنها لا ترجع إلى اللغات الهندية الأوروبية
الأخرى المنتشرة في إيطاليا . والأهم من ذلك أن هناك مشكلة أصل الأتروسكيين .
فهل أتى هؤلاء من آسيا الصغرى كما قال هيرودوت في القرن الخامس قبل
الميلاد ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل كانوا أبناء حضارة ازدهرت في
أناتوليا Anatolia في نهاية المليون الأول ؟ أم كانوا من أصل إيطالي
قومي كما يفترض ديونيسيوس الهاليكارناسي ؟ ما يزال النقاش مفتوحاً
لمعالجة هذه المشاكل .

ولكن اهتمامنا يتركز في الاتصال الذي كان بين أتوريا وروما وفي
طبيعة الأثر الذي تركه الأتروسكيون في روما . وفي هذا الأمر لدينا صورة
واضحة إلى حد ما . ففي بدء تعرف روما على الأتروسكيين كان مصدر
قوتهم هو الأراضي الواقعة بين نهري أرنو والتير التي ما تزال تحمل اسمهم
«أتوريا أوتوسكاني» Tuscany وحضارتهم كانت نوعاً من حضارات المدينة
الدولة، مثلها في ذلك مثل بلاد اليونان القديمة أو إيطاليا في عصر النهضة .
فقد كان هناك اثنتا عشرة مدينة (وهو عدد مقدس) تشكل في مجموعها
الحلف الأتروسكي . ويبدو أن هذه المدن كانت من الناحية السياسية تحت

حكم الملوك ، وفي بعض منها كان حكم الأقلية يحل محل الأسرة المالكة ، وكانت ثروتهم قائمة على المصنوعات المعدنية وعلى التجارة ، فقد نقبوا عن الحديد في البيا Elpa والنحاس في أتوريا . وكانوا صناعا مهرة في صنع منتجات الذهب والفضة وكانت لهم اتصالات تجارية وثيقة ببلاد اليونان ، ومصر ، ولبنان ، واتصالات أكثر قوة بقرطاجنة . ولما كانوا منافسين ليونان ماسيليا Massilia وصقلية في مضمار النشاط التجاري في غرب البحر المتوسط ، كان من الطبيعي أن يصبحوا حلفاء لقرطاجنة . وكما نمت ثروتهم امتد نفوذهم إلى ما وراء أتوريا . فقد وقعت كثير من المدن اللاتينية تحت نفوذهم بما فيهم روما وكانوا يسيطرون على وادي البو وكبانيا لفترة ما مع أنهم قد طردوا من كليهما فيما بعد .

ولم يتخلف عنهم كتابات أدبية ، وتاريخهم معروف لدينا من مصادر أعدائهم ولا نستطيع أن نتصل بالأتروسكيين اتصالا مباشرا إلا عن طريق فنههم . ورغم أن هذا الفن لم يكن أصيلا في صياغته وأسلوبه إلا أنه كانت له صفات مميزة معينة كانت من الممكن أن ينتج عنها قطع فنية رائعة ، وقد أبدع فنههم في تصوير الأشكال الغريبة والخارقة للطبيعة - عبارة عن حيوانات خيالية مثل الكيميرا (له رأس أسد وجسم عنزة وذيل ثعبان) في بلدة أرينزو Arezzo والذئب على الكابيتول وشخصيات مقدسة ذات حيوية فوق طاقة الإنسان مثل أبوللون في بلدة « فيئي » Veii . ونفس المواهب جعلت هذا الفن يبدع في تصوير النزعة الواقعية البحتة . إن الفن الأتروسكي يصور بحيوية فائقة حياة كلها ترف وامتعة على الأرض ، وكأبة وقصاص بعد الممات .

والتراث الروماني يؤيد الرأي القائل بأن فكرة الخارق للطبيعة كانت تسيطر على الأتروسكيين . فقد فاقوا كل الشعوب الأخرى في فن التأليه - في تفسير مشيئة الآلهة عن طريق البرق وقراءة أحشاء ذبائح القرابين والأنواع الأخرى من التنبؤ .

وهكذا كانت الحضارة الأتروسكية في خطوطها البسيطة وهي حضارة كان لها أثر قوى على تاريخ روما الأول ولكنه كان أثراً وقتياً .

وكان استيطان اليونان في صقلية في جنوب إيطاليا جزءاً من حركة الاستعمارية واسعة قامت منذ القرن الثامن حتى القرن السادس قبل الميلاد ، وعن طريق هذا الاستعمار غرست في سواحل البحر المتوسط من أسبانيا حتى روسيا أروع وأخصب ابتكار من الابتكارات التي توصل إليها العقل اليوناني ألا وهو المدينة الدولة اليونانية Polis . وكانت بلدة كوماي Cumae أقدم « مدينة دولة » في إيطاليا ، إذ أنشئت في عام ٧٥٠ ق . م . في الوقت نفسه الذي أنشئت فيه روما نفسها . ومواقع هذه المدن الجديدة التي قامت حول خليج « تاراتو » وعلى سواحل كيبانيا وشرق صقلية قد اختارها باحثون حنكتهم التجربة بعناية فائقة . وكون الكثير منها مدناً وبلدان ذات أهمية فائقة في أيامنا هذه يوضح مدى الإيقان الذي تم به إنجاز هذا العمل ، فهذا هو حال نابولي (نيبوليس) Neapolis وتاراتو (تارتوم) Tarentum وسيراكوزة وريجيو ريجيون) Rhegion . وكلية مستعمرة في العالم الحديث لها معان معينة لا تنطبق إطلاقاً على هذه المدن التي أقامها يونان الغرب . ولما كانت هذه المدن منذ البداية مستقلة استقلالاً تاماً عن المدينة الأم ، فقد فاقتها مراراً وتكراراً في ثرائها وحضارتها . إذ أصبح ترف مدينة سيباريس Sybaris وتراثها مضرراً للأمثال . وما إن جاء القرن الرابع قبل الميلاد حتى كانت سيراكوزة أعظم مدينة في العالم الهليني . وهكذا نمت الحضارة اليونانية وازدهرت بعزم وقوة في أرض إيطاليا حتى أصبح جنوب إيطاليا يعرف باسم « اليونان العظمى » Magna Graecia إن اسم فيثاغورس (عاش ٥٣٠ ق . م .) وامبدوكليس (عاش ٤٥٠) وأرشميدس (٢٨٧ - ٢١٢ ق . م .) قرائن تشهد على المساهمة الكبرى التي ساهم بها يونان الغرب في ميادين الفلسفة

والعلوم . وقد احتضنوا الحركة السفسطائية التي ظهرت في القرن الخامس
وهي حركة تدعو إلى التعليم والتنقيف . وقد تطور الأدب والفنون
تطوراً فائقاً . أما بالنسبة لفن المعمار فإن بايستوم Paestum وسيجستا
Segesta قد تقفان مع دلفي Delphi والومبيا Olympia لتكون أمثلة
من أعمال اليونان الخالدة ، وهكذا فإن يونان الغرب كانوا مساهمين
بمعنى الكلمة في الحضارة الهلينية وهي أروع وأكثر الحضارات تقدماً في
ذلك العصر . ولما كان الأمر كذلك فهم ذوو أهمية قصوى باعتبارهم مؤثراً
حضارياً في إيطاليا من القرن السابع حتى القرن الثاني قبل الميلاد على الأقل ،
ولكن لم يكن هناك أى بادرة تدل على أنهم سيسيرون على إيطاليا سياسياً ،
ففي الواقع لم يكن بينهم هم أنفسهم أى اتحاد ، وهم بذلك يشاركون تماماً في
ضعف الحضارة اليونانية بنفس القدر الذى يشاركون به في قوتها - ألا وهو
التنافس المهلك بين مدينة وبين أخرى والصراع العنصرى بين الطبقات فى المدينة
نفسها . وحتىحكام سيراكوزة فى أوج سيطرتهم وسطوتهم لم يسيطروا
أبداً على جزيرة صقلية كلها . إن مدن إيطاليا اليونانية لم تبرهن أنها قرين
للمجتمعات الإيطالية النامية وهى مجتمع السمنين فى بادى الأمر ومجتمع
روما فى آخر الأمر .

كانت شعوب إيطاليا قبل توسع النفوذ الرومانى من أصل ينتمى إلى
أجناس مختلفة يتكلمون لغات مختلفة ، وتدور فى فلك حضارى يجمع بين
الحضارات المدنية الرائعة والمجتمعات القبلية نصف الترحالية ، وكانت
الوحدة السياسية لا بد أن تفرض على مراحل متفاوتة ولم يحدث أن امتدت
هذه الوحدة السياسية من جبال الألب حتى مضيق مسينا إلا عندما أدخلت
« بلاد الغال القريبة » فى النهاية ضمن إيطاليا فى أيام يوليوس قيصر . وبعد
انهيار الإمبراطورية الغربية لم يحدث أبداً أن تحققت مثل هذه الوحدة مرة
أخرى حتى عام ١٨٧٠ عندما تشكلت الدولة الإيطالية الحديثة . أما الوحدة
الثقافية فقد كانت لا تزال أكثر بطئاً . فى القرن الثانى قبل الميلاد نجد أن

الشاعر انيوس Ennius قال إن له ثلاثة قلوب، لأنه يتكلم اليونانية واللاتينية-
والاوسكانية ولم يكن في وسع الرجال أن يتكلموا عن روما وإيطاليا
باعتبارهما وحدة واحدة، يربطهما مصير مشترك إلا في عصر أوغسطس .
« هكذا ستكون عظمة Sit Romana Potens Italia Virtute Propago
الجنس الروماني وهو مرتبط بفضائل إيطاليا » .

لقد كان هذا في رأي الشاعر فرجيل هو تفسير سيطرة الرومان
على العالم وقد كان العمل التاريخي الخالد الذي حققته روما هو أنها خلقت
إيطاليا. أما تحقيقها للوحدة السياسية والثقافية في عالم البحر المتوسط كله فلم
يكن إلا تكراراً لمهمتها على نطاق أكثر اتساعاً .

الفصل الثاني

روما القديمة حتى عام ٥٠٠ ق م

إن إقامة مستعمرة لاتينية على تل البلاتين ومستعمرة سابينية على تل الكويرينال لم يؤد حتى هذا الحين إلى وجود مدينة روما . والروايات المتواترة التي تقول بأن رومولوس Romulus قد أسس روما في ٢١ أبريل عام ٧٥٣ ق.م تنطوي على الحقيقة التالية ؛ هي أن إنشاء مدينة في فجر تاريخ إيطاليا كان إجراء دينياً سياسياً يقوم بتنفيذه زعيم واحد طبقاً لطقوس دينية رسمية لا يحد منها. فبعد أن يوثق المؤسس البطل ثوراً وبقرة معا يجب عليه أن يشق بمحراث برنزي الأخدود المقدس Pomoerium الذي سيحدد رقعة المدينة . وفي داخل المدينة وفوق أعلى تل تخصص مساكن للآلهة الذين يصبحون فيما بعد حمائها . ثم يخطط الطريقان الرئيسيان وهما الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب Cardo والطريق الممتد من الشرق إلى الغرب Decumanus وبعد تحديد مساحة المدينة بهذه الصورة فإنها تصبح بذلك صورة مصغرة تتفق والبقعة المقدسة من السماوات بجهاتها الأصلية الأربع ، والأركان الأربعة السماوية . كانت هذه هي طقوس التأسيس ولكن إلى أي مدى كانت تمتد المدينة الأولى ؟ ومن كان البطل المؤسس ؟ لا يمكن الإجابة عن أي من هذين السؤالين إجابة مؤكدة ، على الرغم من أن علماء الآثار يزعمون أنهم قد اكتشفوا تخطيطات الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب Cardo والطريق الممتد من الشرق إلى الغرب Decumanus تحت أساس بعض المباني التي أقيمت في عصر متأخر وأنهم عثروا على نقطة التقاطع (على وجه التقريب) عند معبد فيستا Vesta القديم في السوق الروماني . والمعروف أن هذه الطقوس والأفكار الدينية السكامة ورائها كانت إترسكية الأصل . وفوق السكايتول ، أي قلعة روما ، دفن الثالوث الإترسكي العظيم جوبيتر Jupiter وجونو Juno ومينرفا Minerva .

ومن المؤكد أن طقوس تدشين مدينة روما قد أجريت تحت ظل
فقوذ إترسكى ، وربما في ظل حكم ملك إترسكى قام بدور المؤسس . ومنذ تلك
اللحظة شقت حياتها الخاصة Fatum وسارت في طريقها المقدر لها الذى
كانت الآلهة على علم به ، والذى كان يتكشف للناس عن طريق العرافة .
القد كان هذا اتحادا بين العناصر اللاتينية والسابينية والإترسكية التى كان
الكابيتول لها بمثابة القلعة ومركز العبادة المشتركة . ويمتد بين التلال الثلاثة
وإدى ملىء بالمستنقعات من الممكن صرف المياه عنه لإقامة مركز مشترك
للحياة الاقتصادية والسياسية . ومن الممكن أن نرى حتى الوقت الحاضر
، كلواكسما Cloaca Maxima وهو المصرف الكبير الذى كان ينزح
مياه السوق الرومانية وهو يلتقى بالنهر عند جزيرة التيبير عن طريق بوابات
مقدسة هائلة يرجع تاريخها إلى عهد أوغسطس .

وما إن تم إنشاء المدينة الجديدة ، حتى ازدهرت الحياة بها بفضل
المزايا الأخرى التى يتمتع بها موقعها . وكانت جزيرة التيبير الواقعة في
مجرى النهر أسفل الكابيتول مباشرة تعتبر موقعا ممتازا لإقامة قنطرة .
وفي ذلك المكان أقيمت القنطرة المقدسة المعروفة باسم قنطرة سوبليكووس
على أيدي جماعة من الكهنة تباشر صيانتها وهذه الجماعة اشتق اسمها من
تلك الوظيفة ألا وهى بناء القناطر ويمكن مقارنة روما الأولى وجزيرة التيبير
بما كانت عليه باريس وجزيرة أيل دى لا سيتيه في الماضى . وكان الطريق
الذى يمتد عبر التيبير في ذلك المكان على جانب كبير من الأهمية إذ كان
يربط بين إتروريا وكامبانيا وهما أكثر المناطق ازدهارا في إيطاليا . وكان
بشمال شرقى المدينة طريق هام آخر يودى إلى وادى التيبير ومن هناك إلى
وإدى البو عن طريق ممرات سهلة في جبال الأبنين . وفي أوستيا بالقرب
من مصب النهر كانت توجد مناطق هامة لاستخراج الملح الذى كان من
أهم السلع في ذلك العصر . وهكذا ازدهرت روما كمركز للتجارة والصناعة

اليدوية في نهاية القرن السادس ، وذلك على الرغم من أنها اضطرت إلى الاشتباك في صراع طويل من أجل السيطرة على وادي التير وانزاعه من غريمته فيني الإتريسية .

ولم يكن من المستطاع إقامة هذه الحياة الحضرية إلا على أساس الزراعة ، ومن الممكن الحكم على مساحة المزارع الأولى للشعب الروماني بالموكب المقدس الذي كانت تقوم به جماعة إخوة آرفال Arval . وكان يسمى أمبارفاليا Ambarvalia لمباركة حاصلات كل عام . وتعرف أربع نقاط لوقوف الموكب تبعد خمسة أو ستة أميال عن المدينة في الطرق المتفرعة إلى الجنوب والشرق . وعلى ذلك كانت هناك منطقة تقع على الضفة اليمنى للنهر يبلغ طولها حوالي ١٢ ميلا وعرضها ستة أميال تقريبا بها رأس جسر يقع شمالي النهر ويشتمل على تلال يانيكولوم والقاتيكان . وكانت هذه هي أول منطقة ريفية rus تمد روما بالمواد الغذائية . وقد اتسع نطاقها فيما بعد فشملت معظم سهل لتيوم Latium .

ولم تكن أرضا سهلة في زراعتها . ولم يكن من المستطاع تخفيف تربتها لزراعة المحاصيل وملائمتها صحيا للإنسان والحيوان إلا بعد إقامة نظام محكم للصراف . وفي نهاية القرن التاسع عشر اكتشف علماء الآثار نظام تخطيط القنوات المذهل cuniculi وهي القنوات المنحوتة في الصخور التي تمتد في معظم إقليم كامبانيا الرومانية . ويبلغ عمقها حوالي خمسة أقدام ويتراوح عرضها بين قدمين وثلاثة أقدام وتمثل عملا هندسيا هاما قامت بتنفيذه إدارة مركزية واستمر العمل به أجيالا متعاقبة . وكما أن الهولنديين انتزعوا أراضيهم من البحر بالصبر والسكح كذلك انتزع الشعب الروماني أراضيهم من المستنقعات .

وكانت حاصلات الغلال هي أساس هذه الزراعة المبكرة . وكانت تزرع الخضروات لتباع في سوق الخضروات بالمدينة (forum Holitorium) .

أما عن الفواكه فقد أتاها التين في وقت مبكر ولم يظهر الكرم والزيتون إلا في فترة متأخرة، وربما نشأ ذلك عن اتصالهم بالزراعة اليونانية. وكانت الماشية والأغنام ترعى بالمراعى، بينما كانت تقعات الخنازير في الغابات التي ما تزال تشغل رقعة كبيرة من الأرض. وكان أصحاب الأراضي والفلاحون الذين ظلوا يعملون في هذه الأراضي خلال قرون متعاقبة هم عصب الأمة الرومانية التي بلغ عددها نحو عام ٥٠٠ ق م بضع مئات الألوف من الأنفس. وربما كان من بين هؤلاء سكان المدينة نفسها الذين كان يتراوح عددهم بين عشرين ألفاً وخمسة وعشرين ألف نسمة.

وكانت الوحدة المنزلية هي الأسرة (familia) وتتكون من الزوج والزوجة والأبناء غير المتزوجين وعميد الأسرة الذين كانوا يعيشون سوياً في المنزل (domus). وكان الموتي يقيمون هناك أيضاً إلى حد ما إذ أن الأجداد كانوا يكرمون في احتفال سنوي كما كانت تماثيلهم الشمعية تحفظ في المنزل وتتمتع الموتي حتى القبر محمولة على أعناق المشيعين. وكان مصدر السلطة في هذا المجتمع الصغير هو الأب (pater familias) الذي كان يعزز سلطاته (patria potestas) وهي فكرة قانونية لم تكن تمنحه حقوقاً على الممتلكات التابعة للأسرة فحسب، بل كان يتمتع بسلطة الحياة والموت على من يعولهم. وقد وضع التراث الروماني في مصاف أبطاله بعض الآباء القساة الذين لم يترددوا في الحكم على أبنائهم بالموت لعدم ولائهم للدولة. ومن الناحية العملية يبدو أن هذه السلطة المطلقة كانت تحد منها مجالس الأسرة التي كانت تحال إليها أخطر القضايا. وعندما كان يشب الأبناء ويتزوجون كانوا يتركون المنزل ليقيموا أسرة جديدة في منزل آخر.

وكانت الأسر التي تربطها صلة القرابة تؤلف العشيرة الرومانية gens وهي من المنظمات الاجتماعية الكبيرة الأخرى. وكانت العشائر الأرستقراطية

تفخر بنسبها الذي كان يرجع إلى مؤسس يحاط بالتكريم سواء كان بشراً أم إلهاً . فكانت عشيرة يوليوس gens Julia التي كان ينتمى إليها يوليوس قيصر ترجع إلى الإلهة فينوس عن طريق أينياس وبريام ملك طروادة . وقد يقال إن بعض شجرات النسب في ويلز تمتد إلى بريام نفسه ، ولكنها تتعثر في خطواتها الأخيرة . وعلى الرغم من أن العشائر لم تلعب دوراً رسمياً في السياسة الرومانية فقد كانت من الناحية العملية ذات وزن كبير . وكان التزاوج بين عشائر النبلاء وسيطرة هذه العشائر على الدولة في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد تعنيان أن عدداً قليلاً من الأسر العظيمة كانت تسيطر في ذلك الوقت على روما بنفس القوة التي كانت تسيطر بها الأسر الأرستقراطية الكبيرة على إنجلترا في القرن الثامن عشر .

وكان وضع المرأة الرومانية متناقضاً ، فطبقاً لما كان يبدو أنه من أقدم أشكال الزواج الروماني كانت العروس وكل ممتلكاتها تؤول كلية إلى قبضة زوجها (in manum) . ومن الناحية القانونية كانت علاقتها به علاقة الابنة بأبيها . وكانت تنبذ صلاتها بأسرتها كي تصبح عضواً في أسرته . والحقيقة أنها باعتبارها سيدة رومانية matrona كانت تعامل على أنها شريكة في الزواج . وكانت تدير شؤون المنزل وتقوم بتربية الأطفال . كما لم تكن تلزم جناح الحريم من المنزل مثل نساء أثينا في القرن الخامس . ولكنها كانت تنجول بالمدينة وتحضر الاحتفالات العامة وتجلس إلى مائدة الغذاء بوصفها المضيفة . وبالإضافة إلى ذلك انتشر شكل آخر من أشكال الزواج ، حيث لم تكن تطبق فكرة سيطرة الزوج على زوجته وجميع ممتلكاتها . وقد رأى البعض في هذا الشكل بقاء للمجتمع الذي تسيطر فيه الزوجة ، أو أرجعوه إلى تأثير إترسكي . ومن المحتمل إلى حد بعيد أنه قد استمد من المعاني التي تنطوي عليها وجهة النظر الرومانية في الزواج (matrimonium) . وكانت وجهة النظر هذه ترى أن الزواج اتحاد لمدى الحياة بين رجل واحد وامرأة واحدة عقد بينهما طواعية واختياراً من أجل إنجاب الأطفال ، ويقوم على

أساس المحبة المتبادلة *affectio maritalis* . ومثل واحد على ذلك خير من صفحات عديدة من الشرح . وفيما يلي نقش كتب على قبر زوجة وأم رومانية باللغة اللاتينية القديمة التي لا يمكن أن يتجاوز تاريخها القرن الثاني قبل الميلاد .

« أيها الغريب ، إنني أقول لك قولاً موجزاً ، قف واقراً . هذا قبر غير جميل لامرأة جميلة أطلق عليها أبراهام اسم كلوديا . وقد أحببت بعلمها من صميم قلبها ، وأنجبت ابنين ، تركت أحدهما حياً على الأرض ودفنت الآخر تحت الثرى . كان حديثها مرحاً ومظهرها لائقاً . كانت تدبر شؤون المنزل وتغزل الصوف . لقد قلت قولاً فاذهب لحالك » .

Hospes, quod deico paullum est, asta ac pellege
Heic est sepulcrum hau pulcrum pulcrae feminae:
nomen parentes nominarunt Claudiam
Suom mareitom corde deilexit suo:
gnatos duos creavit: horunc alterum
ir terra linquit, alium sub terra locat.
Sermone lepido, tum autem incessu commodo.
Domum servavit, Lanam fecit, Dixi. Abei.

وعلى الرغم من نزعة التحرر التي سادت الأزمنة المتأخرة ، فإن هناك أدلة كافية تثبت أن فكرة ذلك الزواج الذي تم بين كلوديا وزوجها ظلت قائمة حتى أواخر عصر الإمبراطورية . وقد ظلت هذه الفكرة منذ ذلك التاريخ وبعد أن ساندتها المسيحية ، قائمة دون انقطاع حتى العصر الحديث .

وتعكس الديانة الرومانية تجربة الشعب الروماني التاريخية في جميع فترات تاريخه . وهو في هذه المرحلة المبكرة يستلقت النظر لمظهرين هما الطابع البدائي لأفكاره والتنظيم القانوني لطقوسه . وقبل نشوء العقل والمنطق كان الإنسان البدائي يرى أن العالم من حوله خاضع لقوى غير مرئية يظهر نشاطها في الظواهر الطبيعية كالليل والنهار والمواسم والرياح والطقس ونمو

النبات والحيوان ثم تحملهما ، ومجريات الحياة الإنسانية من الميلاد حتى الممات . وكان الروماني يطلق على هذه القوى اسم « الأرواح النشطة » numina وكان يواجهها في علاقة شخصية . وقد وصفت وجهة النظر هذه في حذق بالغ في دراسة حديثة قام بها بعض علماء جامعة شيكاغو بأنها «علاقة الأناوالأنت» بالكون . وكان عدد مثل هذه الأرواح غير نهائي ، غير أن الإنسان لا يهتم إلا بتلك الأرواح التي يؤثر نشاطها عليه ، فهو يهتم بصفة منتظمة ببعض الأرواح مثل تلك التي تتحكم في المحاصيل والمماشية ويهتم في بعض الأحيان ، بل على وجه الخصوص بأرواح مثل المعبود أوبوس او كوتيبوس Aius Locutius (من وقف وتكلم) الذي كانت آيته الوحيدة أنه أطلق إنذاراً بمقدم الغال . وقد نظمت العلاقات بين الإنسان وهذه الأرواح كما وضعت مجموعة من القوانين التي تحدد الطقوس المعترف بها ، وحتى ذلك الوقت لم تظهر مسألة إقامة المعابد أو التماثيل العقائدية كما لم يكن هناك وجود للأساطير ، فالغرض من الطقس الديني هو حث الروح على القيام بوظيفتها بطريقة مرضية للمعابد أى أن تدخل في مساومة معها ، والحقيقة أنها مسألة أخذ وعطاء do ut des (أى أعطيك شيئاً لتعطيني شيئاً) . وعلى ذلك فقد كان كل إنسان كاهناً لنفسه عند التعامل مع الأرواح التي تؤثر على منزله ومزرعته أى آلهة المنزل التي كانت ترعى الخزانة ، فكان يانوس Janus يحرس المدخل ، وترمينوس يحرس حدود المزرعة، وسيا Seia تحرس الغلال في الأرض، وسيجيتيا Segetia تشرف على الغلال المخزونة، وفلورا Flora إلهة القمح النامي، ورونكينا Runcina التي كانت تشرف على اقتلاعه من الأرض ، وتوتيلينا Tutilina التي كانت تحرسه في المخازن . وما كان يقدم للروح فهو تضحية كحيوان أو جزء منه ، أو مقدمة من اللبن أو عسل النحل أو الجبن أو كعكة مقدسة . وكانت قيمة كل منها تتوقف على مقدار النعمة المتوقعة . وفي الغالب لم تكن التضحية تكتمل إلا بعد أن يقدم الإله الخدمة المنشودة . وكانت التضحية يعرب

عنها على هيئة وعد « كندر » *Votum* وعند إتمام هذه الشروط يجب الوفاء
بالتندر . ومن هنا ظهرت الصيغة التي تتردد في النقوش ألا وهي :

« لقد أوفى التندر برغبته إلى الإله الذي كان جديراً به » . وعلى أساس
من هذه الروحانية القديمة ظهرت — تحت النفوذ الإترسكي فيما يبدو عبادة
عدد من المعبودات التي كانت لها صورة البشر ، لاسيما تلك المعبودات التي
تعبدتها الدولة . فقد أقيمت عبادة جوبيتر وجونو ومينيرفا في معبدهم الكبير
على السكابيتول . وكما أن روما نمت وأصبحت إمبراطورية عالمية كذلك
أصبح جوبيتر سيد السماء . وكان لساتورنوس *Saturnus* إله الزراعة في
الأصل معبد في السوق الروماني منذ زمن بعيد جداً . وكان لفولكانوس
Vulcanus إله الزلازل والبراكين مكان مقدس بالقرب منه، وهي منطقة
كثيراً ما أظهر فيها آيات قوية . وكان مارس يعبد على أنه إله بذر الحبوب
والحرب فكلا العمليتان الموسميّتان تبدآن في شهر مارس . وكانت عبادة
الإلهة فيستا أكثر أهمية من العبادات السابقة وربما أقدم منها ، ولم تتخذ هذه
الإلهة قط صورة بشرية . ويقوم معبدها الدائري القديم في وسط السوق،
وفي داخله يشتعل اللهب المقدس الذي كان يتحتم بقاؤه موقداً على الدوام .
وكان يضم الأشياء الغامضة التي كان أينيّاس قد أحضرها من طروادة والتي
كانت تتوقف سلامة روما على الاحتفاظ بها ، وكانت المحافظة على هذه العبادة
البالغة الأهمية من واجب عذارى فيستا اللاتي كانت بقايا مسكنهن وبستانهن
virgines maximae التي أقيمت تمجيداً لرئيسات هؤلاء العذارى
من أمتع المشاهد . ولما كانت رعاية هذه الديانات الرسمية تتطلب قيام تنظيم
مستمر فقد أنشئت كلية الكهنة الذين كان يبلغ عددهم في الأصل تسعة ثم
أصبح عددهم خمسة عشر فيما بعد ، وكان على رأسهم السكاهن الأعظم
Pontifex Maximus . وكانوا يقومون بصوغ الصيغ المقدسة ويرعون
جميع الواجبات الدينية العامة، ويضعون تقويم الأعياد الدينية الذي ينسب

إلى نوما Numa والذي يعتبر أقدم التقويمات الرومانية . وثمة كلية مقدسة أخرى وهي كلية العرافين التي كانت تفسر مشيئة الآلهة استنادا إلى البرق والطيور وإطعام الفراخ المقدسة ، ومن الحيوانات ذوات الأربع ، ومن العلامات المنذرة . وكانت مشورتهم تقدم إلى الموظفين العموميين قبل اتخاذ أى إجراء رسمى ، وكان من حق الموظف الرسمى قبولها أو رفضها . كانت هذه هي الديانة الرومانية كما نعرفها في بدايتها ، فهي خالية تماما من أى باعث على الإشباع الروحى لدى المتعبد ولا تقدم أية مجموعة من القواعد الأخلاقية . ومن ثم كان الرومان في مرحلة متأخرة على استعداد لاعتناق عبادات أجنبية يمكن أن تفي بهذه الاحتياجات الإنسانية الأساسية .

ويتضح لنا مما سبق قوله إن النقد التاريخى الحديث لن يسمح بأى شيء يمكن أن يسمى تاريخا سياسيا أو روايا روما القديمة إلا إذا كان لذلك صيغة العمومية المطالقة . فقد تم تأسيس المدينة تأسيساً رسمياً . ولا يستبعد أن يكون ذلك قد وقع قرابة التاريخ التقليدى أى في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد . ولا شك في أنه قد قام هناك نظام ملكى ، وربما كانت الأسماء التقليدية للملوك السبعة تمثل شخصيات تاريخية بنفس الصورة التي يعتبر بها الملك آرثر البريطاني شخصية تاريخية . وكون بعض الملوك من اللاتين والبعض الآخر من السابين أو الإترسكيين إنما يتفق وما هو معروف عن البناء العنصرى للشعب الرومانى . ومن المعقول تماما أن يكون آخر الملوك الإترسكيين قد طردوا على يد ثورة أوليجركية نشبت في نهاية القرن السادس . ومن الواضح أيضا أن هذا كان رد فعل للأرستقراطية التي تقيم في البلاد ضد مصالح المدينة في مجال التجارة ، وهو الصراع الذى قدر له أن يلعب دورا في الصراع الطبقي الأخير الذى نشب في أوائل عصر الجمهورية . وقد لا يكون في الإمكان تجاوز هذه الخطوط الرئيسية في التاريخ السياسى ، وتلك الصورة العامة للمجتمع الرومانى ونظامه . وهكذا فإنه ليس لدينا من

مصادر لهذا التاريخ عدا قناة كلواكا ماكسيما ، بدلا من قصيدة اغتصاب لوكرينيا مثلا ، ثم قنوات صرف المياه من سهل كميانيا الروماني بدلا من قصيدة هوراتيوس عند القنطرة ، وقد يبدو هذا انتصارا غير ذى بال .

ومن ناحية أخرى فعلى المؤرخ الحديث أن يحيط علماً بالقصص الواردة في كتب ليفي العشرة الأولى ، وفي كتاب ماكولي بعنوان « قصائد روما القديمة » ، مثل قصة كوربولانوس البالغة التأثير ، وقصة فرجينيا التي تفوقها تأثيراً على النفس والأسطورة البدائية التي تدور حول صرف مياه بحيرة ألبا ، والحرب بين فاليريوس كورفوس والعملاق الغالي وإلى آخر هذه القصص . وقد رسمت هذه القصص التي خلق منها المؤرخون الرومان رواية وطنية تقليدية ، الصورة الفكرية التي كانت لدى الرومان عن ماضيهم وطابعهم ، وأصبحت هذه القصص أسطورة اجتماعية حية . وبذلك كان لها تأثير عميق على النشاط السياسي في العصور اللاحقة ، ومثال ذلك قصة كاتو والحزب « الروماني القديم » في القرن الثاني قبل الميلاد . وبنفس الصورة تماما كانت القصص المعروفة أو المعتقد بها عن « الآباء المؤسسين » أو « حرب الاستقلال » . تؤثر في كثير من الاحيان على مجريات السياسة في الولايات المتحدة الأمريكية . كما لم تفقد هذه الأساطير الرومانية كل حيويتها إلى اليوم . فعرض مسرحية كوربولانوس في فرنسا وقت أن بلغت فضاء ستايفيسكي ذروتها ، أثار مظاهرات عنيفة في شوارع باريس .

إن روما القديمة تقدم أنظمة سياسية يمكن مقارنتها بمشيلاتها في إيطاليا واليونان على نطاق واسع ، كما أنها كانت منتشرة بين الشعوب الكلتية والجرمانية . فقد كان هناك أولا الملك (rex) . وحتى لو لم يكن التراث التاريخي مجمعا على القول بوجوده ، فمن الممكن استنباط هذه الحقيقة من كثير من النظم الباقية في الدين والسياسة . فإن لقب « الملك » كان يحمله بعض الكهنة الذين تولوا عنه مهامه الدينية . وكان السكاهن الأعظم يعيش

في القصر regia الذى كان المسكن التقليدى للملك المعبود «نوما». كما أن أقدم نقش في روما ، وهو النقش الموجود على القبرية cippus القديمة تحت الحجر الأسود Lapis Niger في السوق الرومانى ، يقول : « إن حيوانات التضحية مقدسة للملك ». أما في عهد الجمهورية فإذا مات قنصل أو اعتزل منصبه كان يختار مسئول يسمى الملك المؤقت interrex وتعرف فترة حكمه بالملكية الانتقالية interregnum ولكن إذا اعتبرنا وجود الملك حقيقة مؤكدة، فإن طبيعة سلطاته ومجالها موضع خلاف . ويبدو أن الملكية كانت انتخابية أكثر من كونها وراثية ، حيث كان يجرى الانتخاب بواسطة رؤساء الأسر الأرستقراطية الكبرى . ومن المحتمل أن الشعب هو الذى كان يصدق على انتخابه . وكان استطلاع مشيئة الآلهة يلعب دوراً رئيسياً في هذا الانتخاب ، إذ كان ينبغى أن يتأكد رضاء الآلهة عن الملك . وبعد أن يتم انتخابه كانت سلطاته فيما يبدو بعيدة المدى إن لم تكن مطلقة ، فكان هو الذى يعلن الحرب ويعقد السلام ، وهو القائد الأعلى في ميدان القتال . وكان هو مصدر القانون ورئيس دين الدولة الرسمى . وكان له سلطة الحياة والموت على المواطنين التى كان يرمز لها بالعصى والبلطة fasces التى كان يحملها أتباع الملك . وصدق من قال إن سلطات الملك في الدولة تقابل سلطات رب الأسرة pater familias بين أفراد الأسرة . وقد أخذ القناصل باعتبارهم المسئولين الرسميين في عهد الجمهورية الرداء القرمزى واحتفالات النصر والأتباع حملة الفموس عن الحكم الملكى .

وكانت الطبقة الأرستقراطية تتألف من ملاك الأراضى الأغنياء الذين يزعمون أنهم من نسل رؤساء الأسر الكبرى (patres) ممن اشتركوا في تأسيس الدولة . ونواة مجلس الشيوخ الرومانى هو المجلس الذى كان يضم من الناحية التقليدية مائة أرستقراطى ، ويقوم بإسداء النصح للملك . وكانت أول حقبة من الصراع الطبقي الرومانى — ولاشك في أنه كان صراعاً طويلاً —

هي الصراع الذي نشب بين الملكية والأرستقراطية والذي انتهى بقيام الجمهورية . ويبدو أن لفظة الشعب *populus* كانت تعنى فى الأصل الشعب الرومانى كله ، دون النظر إلى طبقة بعينها ، منظماً لمن أجل أغراض عسكرية أو سياسية . ويرجع أصل المجالس الشعبية المتأخرة إلى الاجتماعات التى كان يدعى إليها الشعب ليعلمن عن موافقته على المقترحات الهامة ، مثل انتخاب الملك أو إعلان الحرب . وكان عامة الشعب *plebs* هم ذلك القطاع من المجتمع الذى كان الفقر أو ضعة الأصل تحول دون انضمامه إلى صفوف الأرستقراطية . ويبدو أنه ليس هناك ما يدعو إلى النظر إليهم على أنهم سكان المدينة الفقراء باعتبارهم طبقة مميزة عن الفلاحين ، أو أن ننسبهم إلى أصل جنسى مستقل ، كما يحدث فى بعض الأحيان . ومن الواضح أن جذور الصراع الطبقي الهائل الذى نشب فيما بين عام ٥٠٠ وعام ٣٠٠ ق م تسكن فى هذه الفترة ، غير أن نظام التبعية *clientela* الاجتماعى الغريب كان يقف بينهما . وفى هذا النظام يضع عدد من المواطنين الفقراء أنفسهم باعتبارهم تابعين تحت حماية رجل عظيم الثراء يصبح راعياً لهم *patronus* ويمدهم بالتأييد القانونى والعون المالى ، غير أن المزايا لم تسكن كلها فى جانب واحد ، ففى استطاعة التابعين أن يقدموا إلى راعيهم خدمات هامة . وهنا أيضاً تظهر البوادر السياسية للجمهورية . وقد كان هذا البنيان كله يقوم على أساس المصالح المتبادلة ، ولكن قيامه على أسس إنسانية هى الولاء *fides* والواجب ، إنما يبرز طابعه الرومانى البحت . وكانت أقصى العقوبات ، طبقاً لتصوير فرجيل للعالم الآخر ، تفرض على أولئك الأثمة الذين خدعوا تابعاً وهم على قيد الحياة .

إننا الآن نتحدث عن فترة تبعد قرنين عن طلائع الأدب اللاتينى فإن أحداً لا يؤمن فى الوقت الحاضر بالقصائد القبيلية التى وصفها نيبور Niebuhr ذات مرة بأنها الوسيلة التى نقلت أساطير فجر التاريخ الرومانى . ولكن

هناك أدلة كثيرة على أن روما - تحت تأثير الحضارة الإترسكية - كانت في القرن السادس قبل الميلاد من أكبر مراكز التطور الفني شمالى ماجنا جرايسكا Magna Graecia فإن تماثيل الآلهة وزخارف الطين الملون في معبد جوبيتر على السكايتول من صنع الفنان الإترسكى فولسكا Vulca . وقد أزيلت عند إعادة بناء المعبد في عهد سولا ولكن بلىنى أعرب عن إعجابه بعد مضى قرن على ذلك التاريخ بتماثيل مماثلة قديمة للآلهة التي ظل بعضها قائماً في روما والبلدان الريفية . ويبدو من الواضح أن هذه التماثيل كانت تستهوى أبناء جيله كما يروق فن المعمار الرومانى والآثار الإيطالية البدائية أبناء جيلنا . وإن اكتشاف تماثيل مدينة فيي Veii وكونسكا Conca في العصر الحديث تمكننا من تفهم ما يعنيه . ويبدو أيضاً أن روما في القرن الرابع قبل الميلاد كانت مركزاً لصناعة الأدوات البرونزية الجيدة ، مثل خوذة فيسكورينى الموجودة الآن في فيلا جيوليا Villa Giulia ويحتمل أن أصل هذا الفن يرجع إلى قرن أو بعض قرن من هذه الفترة . وثمة تحفة فنية من الأعمال المفقودة التي ترجع إلى روما القديمة لم تزل باقية ، ألا وهي الذئب البرونزى الكبير الذى يحتمل بدرجة كبيرة أنه هو الذئب الأصيل الذى كان قائماً فوق السكايتول والذى يرجع إلى القرن السادس قبل الميلاد .

ونحن لانعرف اللغة اللاتينية السابقة على الأدب اللاتينى إلا من عدد قليل من النقوش ومن الأناشيد مثل أنشودة ساليارى Carmen Saliare وأنشودة الأخوة آر فال ، ومن شذرات قليلة مكتوبة باللغة اللاتينية القديمة اقتبسها المؤلفون المتأخرون . وعلى الرغم من ضآلتها فإنها تؤيد ما يقوله بوليبيوس من أن اللغة اللاتينية القديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن لغة عصره (أى في القرن الثانى قبل الميلاد) بحيث كانت تكاد تغلق عن الأفهام . ولكن دراسة معنى الكلمات تبين كذلك أن اللغة اللاتينية القديمة وهى لغة مجتمع زراعى بسيط قد تطورت كما تطورت الديانة الرومانية بفعل التجربة .

التاريخية التي مر بها الشعب الرومانى . فقد كان لفظ *laetus* مثلا يعنى « سميئا » أو « غنيا » وكان توصف به الأرض أو المحاصيل ولفظ *laetare* يعنى « التسميد » ولفظ *laetamen* كان يعنى « الروث » . وفى لغة العرافة اصطلاح *laetum auspicium* ينبىء عن الرخاء ، ومن ثم كان لفظ *laetus* يعنى « مسرور » أو « ناجح » . وكان كل من *egregius* و *eximius* ومعناهما « ممتاز » يستخدمان فى الأصل للدلالة على حيوان يختار من بين القطيع ليسكون جائزة . كما كانت كلمة *cohors* تعنى فى الأصل فناء بالمرعة أو حظيرة ثم أصبحت تعنى قطاعا من معسكر حربى ثم باتت فى النهاية تتخذ للدلالة على الوحدة العسكرية التى ترابط فى ذلك المكان . وكانت لفظة *Agmen* تعنى فى الأصل أى قطع من الدواب السائمة ، وأصبحت فيما بعد تتخذ للدلالة على طابور زاحف من الجنود . ولفظتا *impedire* و *expedire* كانتا تعنيان تقييد الحيوانات وفك قيدها ، أما فيما بعد فقد اكتسبتا معان عسكرية خاصة بالإضافة إلى المعنى العام وهو « العرقلة » أو « إطلاق السراح » وكلمة *probus* كانت تستخدم للدلالة على المحاصيل التى تنمو بريا . أما *luxuria* فتعنى النباتات التى تتحول إلى بذر ، أما كلمة *pauper* فكانت تعنى الأرض أو الحيوان الذى يأتى بإنتاج هزيل . ولم تسكتسب هذه الكلمات دلالات أخلاقية وعامة إلا فى عصر متأخر . والغالبية العظمى من الأقوال اللاتينية المأثورة ، شأنها فى ذلك شأن أمثال إنجلترا والولايات المتحدة حتى وقت قريب ، كانت تعكس تجربة الأجيال المتعاقبة من سكان الريف .

الفصل الثالث

روما وإيطاليا حتى عام ٢٨٠ ق. م

ثمة مسألتان هامتان تشغلان القرنين الأولين من عهد الجمهورية الرومانية هما : الصراع الطبقي بين الأرستقراطية وعامة الشعب في المجال الداخلي ، وتوسع السلطة الرومانية في جميع أنحاء إيطاليا من خليج جنوة إلى مضيق ميسينا في المجال الخارجي . وليس من السهل بأية حال تفسير هذه الفترة ، إذ يسود المصادر التاريخية حتى زمن الغزو الغالي وما بعده طابع شبه أسطوري فإن كوروليانوس Coriolanus أقرب صلة إلى الأساطير منه إلى التاريخ . فلا شك في أن كينكيناتوس وكاميلوس من الشخصيات التاريخية ، غير أن قصة أعمالهما قد نمت لتتفق ودورهما كبطلين من أبطال التاريخ الوطني والملحمي . ونحو أواخر القرن الرابع ينقش الضباب ، فقد أطلق على أبيوس كلاوديوس كايكوس Appius Claudius Caecus الذي كان قنصلا لعامي ٢٩٦ و ٣٠٧ عبارة « أول شخصية محددة المعالم في التاريخ الروماني » . ففي بداية هذه الفترة أحرز الرومان النصر في معركة بحيرة ريجيلوس Regillus بفضل التدخل المباشر من جانب البطلين كاستور Castor وبولوكس Pollux وفي النهاية دخلا في حرب مع بيروس Pyrrhus وهو أحد سلالة القواد العظام الذين أبرزتهم للعالم انتصارات الإسكندر . وما حدث يبدو أشبه بالأحداث التي مر بها التاريخ الإنجليزي خلال القرنين الممتمدين من عصر الفريد Alfred العظيم حتى حروب مارلبورو Marlborough . ولما نشوب الصراع السياسي بين الطبقات هو وجه الخلاف بينهما . ففي المكتابات التاريخية يكشف هذا الصراع عن نفسه في مراحل متلاحقة منتظمة ، يتميز كل منها

بإصدار تشريعات تكشف تفاصيلها عن امتيازات جديدة ينالها العامة (plebs)، وقد أجبرت أجيال من التلاميذ على استظهار هذه القوانين كالأقوال كانت قوانين محددة ومفصحة عن مكنونها شأنها شأن الهيكل العظمى للإنسان . ولكن مثل هذا الانتظام يثير في الواقع أشد الارتياح . ففي الصراع الطبقي الهائل الذي نشب في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد واستغل الصراع القديم بين الطبقات للدعاية السياسية من جانب جميع الأطراف المتنازعة . وليس من اليسير أن نحدد مقدار ما تعكسه المصادر التاريخية من الفترة المتأخرة على الفترة الأولى . وبالإضافة إلى ذلك فإنه ليس من العسير في كثير من الأحيان أن نبتين متى انتزع العامة تشريعا معينيا باعتبارها حقا لهم ، ومتى تنازل الأشراف عن هذا التشريع بوصفه قانونا . ولكنه من الممكن على أقل تقدير أن نقيم أهداف الجانبين واستراتيجيتهما ونشهد أجهزة الجمهورية وهي تعمل عملها خلال الصراع الطويل الذي قدر له أن يخضب الفكر السياسي والغربي في كثير من الأوجه . وبالمثل فإننا فيما يتعلق بغزو إيطاليا سوف لانهم بتفاصيل الحملات بقدر اهتمامنا بالمسائل الكبرى مثل معاملة روما لأعدائها المقهورين وبسط حقوق المواطنة الرومانية ووظيفة هذين النظامين السكبريين ، الأوهما المستعمرة الرومانية Colonia والمجلس البدئي الروماني Municipium .

وكانت علاقات روما باللاتين ذات أهمية عظمى ففي خلال الحكم الملكي كان لها مركز الصدارة في حلف لاتيني كان هدفه في الأصل هو الاشتراك في عبادة جوبيتر لاتياريس Jupiter Latiaris على جبل ألبا . ومن المحتمل أن هذا أصبح يدل على درجة معينة من السيادة السياسية ، وعندما طرد الملوك من روما وجد اللاتين في ذلك فرصتهم ليزعزعوا من كيانها . ولاشك أن ذلك يرجع إلى أن معاهدة التحالف كانت قد أبرمت مع الملك . ولسنا على يقين مما إذا كانت الجمهورية الناشئة قد حاولت تأكيد حقوقها ثانية . ولو كان الأمر كذلك فإنها قد باءت بالفشل في هذا المسعى ، ذلك لأن روما واللاتين قد عقدوا في عام ٤٩٣ ق . م معاهدة كنيند متساويين ، وهذه هي

« معاهدة كاسيوس Foedus Cassianum الشهيرة التي كانت مازال قائمة محفورة على لوحات برونزية في السوق الرومانية في عهد شيشيرون . ويعطينا ديونيسيوس Dionysius في كتابه (١٠٦،٩٥ — ٣) موجزا للمعاهدة فيقول:

« فلتنقم دعائم السلام بين الرومان وجميع المدن اللاتينية طالما ظلت السماء والأرض قائمتين في مكانيهما، وألا يشن أحدهما الحرب على الآخر، أو يستدعى أعداء أجناب، أو يتيح طريقا أميناً لطرف ثالث يشن الحرب على أي منهما، بل يجب أن يساعد كل منهما الآخر بكل ما له من قوة عند التعرض للهجوم، وليتقاسما بالتساوي جميع الأسلاب والغنائم التي يستوليان عليها في حروب مشتركة . ويجب الفصل في جميع القضايا المتعلقة بالعقود الفردية خلال عشرة أيام بين الأشخاص الذين تم بينهم التعاقد، ولا يجوز أن يضاف أو يحذف أي شيء من هذه المعاهدة إلا باتفاق جماعي بين الرومان وجميع المدن اللاتينية . هذا مثال رائع على معاهدة عقدت بين طرفين متساويين foedus aequum . على الرغم أن من الجدير بالملاحظة أن روما عقدت المعاهدة مع جميع المدن اللاتينية مجتمعة .

وعلى هذا الأساس الراسخ من التحالف اللاتيني استطاعت روما أن تدعم مركزها ضد المدن الإترسكية في الشمال والسابين في الشمال الشرقي وشعبي الأيكوي Aequi والفولسكي Volsci في جبال الأبينين . وقد كان هذان الشعبان الأخيران أكثر الشعوب بربرية وأكثر الخصوم شدة وعنفا . وقد طال أمد الحروب وبطؤت عملية تقدمها ، ذلك لأن موسم الحملات اقتصر على أوائل الصيف . وكان من المحال من الناحية العملية الاستيلاء على مدينة محاطة بالأسوار . كما أن هناك بعض أجزاء من المصادر التاريخية يصعب فهمها . ومثال ذلك قصة هجرة أتوس كلاوسوس السابيني Attus Clausus وأتباعه إلى روما حيث فتح أرضا وانضم إلى طبقة الأشراف وأصبح الأصل الذي انحدرت عنه عشيرة كلاوديوس Gens Claudia

الشهيرة ، وهل يمثل ذلك طرد السابين لحزب موال لروما ؟ أم أنه يخفي وراءه قيام السابين بغزو لروما ؟ وأغرب من ذلك الأساطير التي تدور حول حصار كاميلوس لمدينة فيي Veii الذي دام عشر سنوات واستيلائه عليها في النهاية عام ٣٩٦ ق م . ومثل هذه الأساطير لا يمكن فهمها إلا بالتوغل في عالم السحر والتنجيم ، ومصير النظم الإتروسكية disciplina Etrusca وكانت هاتان المدينتان اللتان كانتا تنافسان لسنوات عدة على وشك الوقوع في أزمة في دورة حياتهما . وبالنسبة لمدينة فيي كانت قد مضت ثمانية عصور من العصور التسعة أو العشرة التي كان مقدر الشعب الإتروسكي أن يهلك بعدها . وكانت روما تقترب من رقم ٣٦٥ المشنوم ، وهو عدد السنوات التي تمر بها منذ تأسيس رومولوس لها . وأصبح كلاهما يواجهان هلاكاً مفاجئاً ، ولكن قد تكتب الحياة لواحدة منهما مرة أخرى . وكانت هذه المدينة هي روما . والفضل في ذلك يرجع إلى قيادة كاميلوس الرائعة والمستنيرة . ولقد استدعت الآلهة إلى خارج مدينة فيي بواسطة ذلك الاحتفال الرهيب المعروف باسم evocatio وتم الاستيلاء على المدينة ومحقت عن آخرها . وكل هذه القصة الغربية برمتها قد أوضحها مؤرخا عالم بلجيكي (١) . ولقد كانت مليئة بالكوارث مثلها في ذلك مثل قصة غزو الكورتينين للمكسيك ، وبالرجوع إلى التاريخ الغفل من المبالغة يتضح لنا أن روما في الوقت الذي تم فيه غزو فيي ، كانت تسيطر بإحكام على وادي التير الأذني وإتروريا الجنوبية وسهل لاتيوم Latium بأسره وجزء كبير من الأراضي الجبلية الواقعة إلى الشرق .

ولكن خلال سنوات قليلة حدثت كارثة مفاجئة هددت بالإطاحة بكل هذه المغانم . وكانت هذه الكارثة هي غزو الغال الكبير في عام ٣٩٠ ق م .

(١) ج . هوبو J. Hubaux في مؤلفه « روما والفيي » Roma et Veies

وقد أوضحنا في فصل سابق كيف غزا الغاليون في القرن السادس وادى « البوا » بحثا عن أراض جديدة لاستيطانها . ولم تكن هذه هجرة لشعب بأكمله ، بل كانت لا تعدو إغارة للسلب والنهب على نطاق واسع . ووقع الهجوم الأول على مدينة كلوسيوم Clusium الإتروسكية . وعند ما حاولت روما حماية كلوسيوم انقض الغاليون عليها . وقد واجه لأول مرة جيش روماني — على ضفاف نهر أليا Allia الذي يقع على بعد بضعة أميال شمالي روما — هجوم المحاربين السكاتيين الوحشي . وساد الذعر وحلت الهزيمة المنكرة وظل يوم ١٨ يوليو — وهو يوم أليا — فيما بعد ذلك يوما أسود في التقويم الروماني . وواصل الغاليون تقدمهم بقصد سلب المدينة وحرقتها على الرغم من أن حامية السكاييتول من المحتمل أنها صمدت لهم . وأصبح برينوس Brennus أول من تمكن من البرابرة من فتح روما ، ولم يخلفه فاتح آخر لمدة ثمانمائة عام . وبعد أن فرض السكاتيون جزية مهينة انسحبوا نحو الشمال عبر الأبنين تاركين وراءهم اسما لم يفقد رعبه تماماً حتى غزو يوليوس قيصر Julius Caesar للبلاد الغال .

وقد أرجأت الأزمة الاقتصادية والصراع الداخلي اللذان أعقبا غزو الغال أية فتوحات لروما في إيطاليا إلى النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . ثم أعقب ذلك سبعون عاما من الحروب التي تكاد لا تنقطع خرجت روما في نهايتها منتصرة على جميع أعدائها ، وعلى استعداد أيضاً لأن تلعب دوراً هاماً كدولة من دول البحر الأبيض المتوسط . وقد تحققت في هذه الفترة أعمال عظيمة في الحرب السياسية ، لا تكاد تقل أهمية عن الانتصارات التي أعقبت الحرب البونية الثانية . ولسوء الحظ لا تمدنا مصادرنا التاريخية إلا بالجانب الروماني من القضية فحسب ، بل وعلاوة على ذلك فهناك غموض يكتنف نواحي كثيرة منها . ولو كانت معلوماتنا في هذا الصدد أفضل مما هي عليه لما بدا لنا بعض القواد مثل لوكيوس بابيريوس

كورسور Lucius Papirius Cursor أو بوبليوس ديكويوس موس
Publius Decius Mus أو أبيوس كلاوديوس كايكوس Appius
Claudius Caecus أقل كفاية من القواد والساسة الذين ظمروا في عصر
شيشيرون . وظلت روما تواجه أكثر أعدائها عزماً وأشدّهم خطراً
في صورة اتحاد السامنيين القوي حتى قيام الحرب البونية الثانية ، لأن نفوذ
السامنيين قد امتد زهاء عام ٣٥٠ ق . م من بلادهم الجبلية إلى السهول
الساحلية في الشرق والغرب . وقد أدى اتصاهم بالحضارة اليونانية إلى نمو
مدن غنية في إقليم كامبانيا Campania وأهمها كابوا Capua أكبر
مركز صناعي في إيطاليا وشهيرة بصناعة المنتجات البرونزية والحديدية
والخزف . وقد كان هناك نزاع بين السامنيين المتأخرين القاطنين للسهول
الساحلية وبنى جلدتهم الذين كانوا أكثر تخلفاً من سكان التلال . بينما كانت
المدن اليونانية مثل نيابوليس Neapolis تتطلع حولها بحثاً عن يحميها
من سيطرة السامنيين قبل فوات الأوان . وكانت روما البطل الوحيد
بالنسبة لسكل منهما . وقد كان تدخل روما في كامبانيا بناء على دعوة
نيابوليس . ولا يعرف سوى القليل عن الحرب السامنية الأولى ، ولكن
تمكن روما من السيطرة على كامبانيا — بغض النظر عن وقت حدوثه —
كان بمثابة فوزها بجائزة عظيمة الخطر . ففضلاً عما كانت عليه كابوا من ثراء
فإنها كانت تضم أيضاً أكثر الأراضي الزراعية إنتاجاً في إيطاليا ، وهي
بركانية التربة وتدر ثلاثة محاصيل رئيسية سنوياً في أجود حقولها . وكانت
توجد بمحاذاة الساحل سلسلة من المرافئ الطبيعية — لاسيما بوتولي
Puteoli وناپولي Naples — ذات علاقات تجارية ثابتة فيما
وراء البحار .

وكانت مدن الحلف اللاتيني التي ظلت تحالف روما في إخلاص وولاء
زهاء نصف قرن تتطلع نحو نفوذ روما هذا بعين الغيرة . فقد ظلت تمثل

الجانب الخاسر لفترة من الزمن . فعلى الرغم من أنها كانت مضطرة إلى الإسهام في الحروب الرومانية إلا أنها لم تسكن تحصل على نصيب عادل من تلك الانتصارات التي تحرزها روما . أما الآن فإن غزو روما لكامبانيا جعل في إمكانها التفوق عليها ، وأتاح لها هذا الغزو وتحقيق مكاسب اقتصادية من شأنها بمجرد تدعيمها ورسوخ قدمها أن ترجح كفة روما ضد هذه المدن ترجيحاً تاماً . ولكن فكرة الحرب لم تخطر لهم ببال في بادئ الأمر . فقد تقدمت لروما بطلب إعادة النظر في معاهدة كاسيوس ، وهي المعاهدة التي كان يقوم عليها التحالف . ولكن من المحتمل وإن لم يكن من المقطوع به أن المقترحات التي تقدمت بها كانت تدعو إلى إقامة اتحاد فدرالى وأن يكون قنصل من القنصلين ونصف أعضاء مجلس الشيوخ في روما من اللاتين . وما كان الرومان ليقبلوا شيئاً من هذا القبيل . فلجأ اللاتينيون إلى الحرب بعد أن خاب أملهم . وانضم إليهم شعب الفولسكى Volsci والأيكوى Aequi والهيرنيكى Hernici وبعض مدن كامبانيا التي منيت مؤخراً بالهزيمة . وواجهت روما ائتلافاً بشعاً يضم شعوباً من أصل واحد ، تحتفظ بجيوش مدربة ومسلحة على نفس النمط الذي كانت عليه جيوش روما وأعقبت ذلك ثلاث سنوات من القتال المرير الذي يمكن أن نتبين فيه لأول مرة خططاً عسكرية رومانية قد أحكم رسمها وتم تنفيذها بدقة . وفي نهاية هذه الحروب سحق الاتحاد اللاتينى وأجبر على طلب الصلح . وقد أتاحت لنا التسوية التي تلت ذلك (في عام ٣٣٨ ق م) أوضح دليل لدينا على سيادة روما على إيطاليا في المجال السياسى . وقد رفضت روما التعامل مع الاتحاد اللاتينى باعتباره اتحاداً ، وبذلك انتهى أمر الاتحاد . ثم تفاوضت روما مع المدن اللاتينية كل على حدة بما يتفق ومقتضيات كل حالة فسمحت لبعض هذه المدن بالتمتع بحقوق المواطنة الرومانية كاملة ، بينما سمحت للبعض الآخر بحقوق المواطنة دون حق التصويت

أو تولى الوظائف في روما . وقد دمرت استحكامات بعض المدن التي كانت أشد إصراراً من غيرها على مناصبة روما العداء ونفت كبار الساسة منها . ولكن الغالبية العظمى منها احتفظت بقوانينها وموظفيها العموميين . وكان مواطنوها ملزمين بالخدمة في الجيش أثناء الحروب الرومانية ، غير أنها كانت تتمتع أيضاً بحق المشاركة في انتصارات روما . وكان كل فرد من مواطنيها يتمتع بحق التجارة *ius commercii* مع روما وحق الزواج *ius connubii* من الرومان ، أى أنهم كانوا يستطيعون التعاقد مع المواطنين الرومانيين . وكانت هذه العقود تعدسارية المفعول في ظل القانون الروماني ، كما كان بوسعهم الزواج من الرومان دون أن يفقد أى طرف من الطرفين حقوقه . وبالإضافة إلى ذلك كانوا يستطيعون في معظم الأحوال الحصول على حقوق المواطنة الرومانية كاملة بالهجرة إلى روما أو بالانضمام إلى مستعمرة رومانية . وكانت روح هذه التسويات روحاً كريمة على أية حال . وهى بالنظر إلى معايير العالم القديم تشير الدهشة حقاً . وربما استحق نظام الامتيازات على درجات ، والولاء الوثيق في يوم من الأيام دراسة دول حلف الأطلنطي ، لكن روما كانت تحتل نقطة الارتكاز . ولا غرو فكل الطرق تؤدي إلى روما .

ولم يكن من المحتمل أن يسلم السمنيون بضياح كامبانيا ضياحاً لارجعة فيه طالما أن قوتهم العسكرية ما زالت باقية . وظلت روما طوال ثلاثين عاماً تقوم بسلسلة من الحملات ضدهم ، وقد عرفت هذه الحملات في التاريخ القديم بالحرب السمنية الثانية (٣٢٦ - ٣٠٤ ق م) والحرب السمنية الثالثة (٢٩٨ - ٢٩٠ ق م) . ولا يثق العلماء المحدثون كثيراً في رواية « ليفي » عن تلك السنوات . ومن الصعب ألا نخرج بشعور مؤداه أن ليفي يعالج هذه الحروب على اعتبار أنها فاتحة حرب أشد منها هو لا ضد قرطاجة ، وأن كثيراً من الأحداث التي وصفها هو صورة مشابهة لتلك

الأحداث التي وقعت فعلا في الحروب البونية . وهكذا فإن كارثة ممرات كاوديوم Caudine Forks وما نتج عنها في روما يماثلان كارثة كاناي Cannae وعواقبها ، والعداء المستعر في قلب القائدين السمنيين جافيوس بونتيوس Gavius Pontius ، وجيليوس إيجناتيوس Gellius Egnatius كان أشبه بعداء هاميلكار Hamilcar وهازيبال . ولكن سبب استطالة الحروب مع السمنيين واضح على الأقل ، لأن الرومان كان عليهم تعلم أساليب الحرب في الجبال بشكل قاس ، وكان المقصود بالفرقة الرومانية أن تحارب في السهول ، وكانت وحدات السمنيين المتحركة أكثر تأقلا بطبيعة الحال . ولذلك وقعت كوارث مثل كارثة ممرات كاوديوم (عام ٣٢١ ق م) حيث أجبر جيش روماني بأسره على الاستسلام ، ومعركة لاوتولاي Lautulae التي وقعت بعد بضع سنوات . وكان على الرومان أيضاً أن يتغلبوا على السمنيين جماعة بعد أخرى وأن يستولوا على أراضيهم أخذوداً بعد آخر ، من أخاديد الجبال . ولم يكن هناك مركز واحد يمكن أن يضع احتلاله حداً للحرب . وكانت خطة الرومان ترمي إلى محاصرتهم في الجبال وتمزيق قواتهم والسيطرة على الممرات الرئيسية بإقامة القلاع ، وكان من أقوى إجراءاتهم أثراً حرمان السمنيين من مراعيهم الشتوية بالاستيلاء على السهول . وفي الحرب الثالثة حاول السمنيون الخروج من مأزقهم ونجحوا في إقامة ائتلاف كبير معاد لروما . وكان الغاليون والأميريون Umbrians والأتروريون الشماليون من أهم الحلفاء فيه . ولا بد أن جيليوس إيجناتيوس الذي تعزى إليه هذه السياسة كان سياسياً حكيماً وقائداً محنكاً أيضاً . وكانت هذه هي المرحلة التي تعرضت فيها روما لأشد الأخطار ، واسكنها أطاحت بالائتلاف الشمالي في معركة يائسة خاضتها في سنتيوم Sentinum بإقليم أومبريا Umbria (عام ٢٩٥ ق م) وكانت الجولة الأخيرة على وشك البدء . وقد رسم ليفي صورة مؤثرة للجحود التي بذلها السمنيون لتكوين جيش ، وللقسم الرهيب الذي أخذه

جنودهم على أنفسهم بالانتصار أو الموت . ولقد وضع انتصار روما في أكويلونيا Aquilonia على هذا الجيش الأخير من جيوش السمنيين، (عام ٢٩٣ ق م) حداً للحرب . ومنح العدو المنهزم المرتبة الثانية من مراتب المواطنة الرومانية . وقد ترك الصراع مع السمنيين ذكرى مؤلمة وقائمة ، لا تزول في التراث الروماني . فقد كانت هذه هي الحرب التي لا يمكن تعويض خسائرها . وظل الكثير من السامنيين على عداثهم لروما . وقدر لهم أن يكونوا عصب المقاومة ضد روما في الحرب الاجتماعية التي نشبت بعد ذلك بقرنين .

وبصورة مخالفة تماما يصور لنا التاريخ الحرب مع تارتيم Tarentum وبيروس ملك إبيروس Epirus (٢٨٠—٢٧٥ ق م) . وقد أفرغ انتصار الرومان على السمنيين المدن اليونانية الواقعة على خليج تارتيم ، فاستغاثت تارتيم وهي أكبر هذه المدن وأكثرها ثراء ببيروس ليكون مخلصها . وكان العالم اليوناني بعد الإسكندر — مثل أوربا بعد نابليون — يغص بالقواد الأكفاء ذوى المواهب العظيمة والطموح الأعظم . وكان بيروس ملك إبيروس من بين هؤلاء . لقد كانت تراوده بالفعل أحلام للانتصار على مقدونيا نفسها ، أما الآن فقد بعث ارتباط تارتيم به الأمل في نفسه لإقامة إمبراطورية غربية عظيمة ، تضاهي انتصارات أجاثوكليس Agathocles أوديونيسيوس السيراكوزي . وهكذا توجه بيروس إلى إيطاليا بجيش من المرتزقة يضم ٢٠,٠٠٠ يوناني ، وهم أقدر المحترفين على القتال في زمنهم ، وعشرين من الفيلة الحربية بالإضافة إلى معلوماته عن كيفية استخدام الفيلق المقدوني الذي لا يقهر . وقد جاء ورأى وانتصر في معركتين (وكان على شفا الهزيمة في الثانية أكثر من الأولى) وفاز في إحداها وخسر الأخرى ثم انسحب . وكان أول قائد هلينستي عظيم واجه الرومان وهزموه في النهاية . وليس هناك ما يدعو إلى العجب في أنه حظى في التاريخ الروماني بمسكاة

العدو المحبب للنفوس . ومنذ ذلك الوقت أصبحت السيادة في إيطاليا مبدأً جوهرياً في سياسة روما . وقدر له أن يلعب دوراً هاماً كالذى لعبه مبدأً مونرو في العالم الجديد .

وكان الصراع في الجهة الداخلية قاسياً قسوة حروب الغزو التي نشبت من أجل إيطاليا . وكانت الثورة التي أدت إلى قيام الجمهورية من عمل الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض . وكانت سلطات الملك التنفيذية وهي نشر العدالة وقيادة الجيش والقيام بالمهام الدينية قد أصبح يتولاها نفر من الموظفين العموميين الذين كانوا هم أنفسهم من الطبقة الأرستقراطية ويسيطر عليهم مجلس الشيوخ الروماني سيطرة فعالة ، وهو لسان حال الطبقة الأرستقراطية . لكن هذا التغيير قد أثر على حريات الشعب . ولا عجب أن بقية المواطنين الرومان لم يكونوا على استعداد لاحتلال حكومة تحكم عليهم بالانحطاط في كل من الميادين الاقتصادية والاجتماعية والقانونية والسياسية . وهكذا بدأ صراع الطبقات في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد . وظل قائماً أكثر من مائتي عام حتى حقق عامة الشعب جميع أهدافهم . وكانت عامة الشعب الروماني في القرن الخامس قبل الميلاد ، بل وبدرجة أكثر من ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد تتألف من عناصر مختلفة مثل تلك العناصر التي اتحدت لفرض قانون الإصلاح عام ١٨٣٢ بالإنجلترا . وكانت توجد على الأقل أربع فئات رئيسية بينهم وهي أصحاب الحرف من سكان المدن الذين لم يكونوا يرتبطون بالأرستقراطية عن طريق نظام التبعية ، والفلاحون الأحرار والتجار والأثرياء والمهاجرون الفقراء . وكانوا يحتاجون في المقام الأول إلى الأسلحة السياسية لمواصلة الصراع ، وكان في متناول أيديهم سلاح واحد بسيط للغاية وفعال تماماً هو الانسحاب secessio أي مغادرة روما في جماعات . وقد فعلوا ذلك أكثر من مرة وإن كان من غير الممكن الجزم بعدد المرات التي قاموا فيها بذلك . وحدث أول رحيل كما جاء في

الروايات المتواترة في عام ٤٩٤ ق م ، ومن الواضح أن أول جولة في هذا الصراع حدثت في ذلك العقد . وقد خرج عامة الشعب منها بموظفيهم العموميين وترايبنتهم وجهازهم السياسي الخاص وهو الجمعية الشعبية Concilium Plebis ليكون نداءً للموظفين العموميين ومجلس الشيوخ في الجانب الآخر . وبعد أن تطورت سلطات الترابنة تطوراً كاملاً أصبحت بعيدة المدى إذ كانوا يستطيعون الاعتراض على أعمال أى موظف عام أو أية قوانين أو قرارات يصدرها مجلس الشيوخ إذا كانت تتعارض مع مصالح عامة الشعب أو أى فرد من أفراد الشعب . وكان لهم حق تدبير الأمر نحو جمع الشعب داخل الجمعية الشعبية وإقناعهم بإصدار قرارات كانت تعرف باسم المراسيم الشعبية plebiscita . وكانوا يتمتعون بالحصانة الشخصية كما كان الشعب حريصاً على حمايتهم من كل عنف . ولكنهم كانوا يعملون في نطاق محدود فلم يكونوا موظفين عموميين تابعين للجمهورية ولم يتمتعوا بسلطة القيادة imperium ولم يكن في وسعهم التدخل في اختصاصات القوادى في ميادين القتال . وأهم من ذلك أنه في وسع كل تربيون أن يعترض على قرارات التربيون الآخر . ومع ذلك فقد أصبح عامة الشعب منظمين فيما هو أشبه بدولة داخل الدولة .

وكان انتصارهم العظيم الثانى فى منتصف القرن الخامس عندما حصلوا على مجموعة مدونة من القوانين . وكانت هذه المجموعة هى الألواح الاثنا عشر الشهيرة التى قال عنها لىق إنها منبع جميع القوانين الرومانية العامة منها والخاصة . وكان حق تفسير القانون العرفى القائم مع الرواية الشفوية يقتصر من قبل على الطبقة الأرستقراطية ، ومن أهم الدعامات لوضعهم المميز ولم يكن فى استطاعتهم أن يتخلوا عن هذا الامتياز بسهولة على الرغم من غموض تفاصيل الصراع الذى نشب حوله ، ولكن الشئ المؤكد هو أنه قد شكلت لجنة من عشرة أعضاء قاموا بدراسة قانونية مقارنة من نوع ما . ويقال إنهم زاروا أثينا حيث ظلت تطبق قوانين سولون أكثر من قرن

من الزمن . ومن المؤكد أنهم زاروا مدن ماجنا جرايكا (اليونان العظمى)
Magna Graecia وأسفرت جهودهم هذه عن تصنيف للقانون العام والخاص
والدينى والجنائى الذى صدر فى صياغة قانونية وفى شكل قانونى بتصديق
الجمعية الشعبية عليه ، ونقش على ألواح برونزية فى السوق الرومانية . وكان
التلاميذ يدرسونها فى عصر شيشرون . وظلت بعض بنودها سارية المفعول
حتى العصور البيزنطية . وقد وصلنا حوالى ثلثها من مصادر مختلفة معظمها
باللغة اللاتينية المستحدثة التى توحى بأنه أجريت عدة تعديلات لها ويمثل
ذلك نقطة البداية لكل معالجة تاريخية للقانون الرومانى .

ومما يثير الحيرة بعض الشئ أننا نلمس عقب تدوين الألواح الاثنى عشر
مباشرة موقفا عدوانيا شعبيا آخر أسفر فى عام ٤٤٥ عن قانون يسمح
بالتزواج Connubium بين الأشراف وعامة الشعب ويبدو كما لو كانت
الطبقة الأرستقراطية قد عملت على استبعاد هذا الحق الاجتماعى الحيوى
الهام من الألواح الاثنى عشر ، وقد انتزع منها على أنه يمكن إلحاقه بالقوانين
المدونة على الألواح بعد ذلك . وكان هذا الحق لا يفيد بالطبع غير الأثرياء
من عامة الشعب .

ومرة أخرى كانوا هم الذين أفادوا من امتياز آخر تم تحقيقه فى ذلك
الوقت وهو إمكان أن ينتخب أحد القناصل من عامة الشعب . ولكن
بالنسبة لهذا الامتياز فقد استرد الأشراف بيد ما قدموه باليد الأخرى .
فقد ألغى منصب القنصل بشكاه القديم وحل محله الترابنة العسكرية
الذين كانوا يتمتعون بسلطات القنصل وعددهم ثلاثة . وقد كان هؤلاء من
الأشراف ومن عامة الشعب . وظهر منصب جديد هو منصب الكنصور
Censor (٤٤٣) . وكان قاصرا على الأشراف ويتمتع بسلطات
غاية فى الأهمية . إذا كان الكنصور يشرف على سجلات المواطنين
وتملكاتهم ويعين للخدمة فى صفوف الفرسان ويحتفظ بأخر قائمه لأعضاء

مجلس الشيوخ . أما الرقابة على الآداب العامة التي استطاع عن طريقها رجال من أمثال كاتو الأكبر أن يحيطوا منصب الكنسورية بأهمية كبيرة — فقد كان تطوراً متأخراً ولكن حتى أواخر القرن الرابع وضع أيوس كلاوديوس كايكوس Appius Claudius Caecus برنامجاً سياسياً يقوم على شغل هذا المنصب المرموق .

وقد يظن البعض أن الفقراء من عامة الشعب لم يفوزوا حتى ذلك التاريخ بشيء ذي بال . ولكن تأسيس المستعمرات وإعادة توزيع الأراضي العامة قبل عام ٣٩٠ كافيان لتخليصهم من أخطر مشاكلهم الاقتصادية . وكانوا لا يهتمون اهتماماً كبيراً بفرص العمل في السياسة . ولكن المحنة التي أعقبت الغزو الغالي تسببت في تجديد الصراع . وكان هذا الصراع في طوره الجديد يهتم بصفة رئيسية بشكاوى عامة الشعب الفقراء التي كان على رأسها التعطش إلى الأرض وقسوة قوانين الديون الرومانية . وكانت كلتا المشكلتين ترتبطان ببعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً . فلما كانت الزراعة هي أساس الاقتصاد الروماني ، فقد كان تعارض مصالح كبار ملاك الأراضي والفلاحين يشكل المشكلة السياسية الأساسية . وكان من الممكن الاستفادة من الإقطاعات الكبيرة لسبب بسيط هو أن أصحابها كانوا يمتلكون رأس المال اللازم لدفع نفقات التحسينات وتوزيعها على سنوات الضيق . أما الملكيات الزراعية الصغيرة فلم تكن فلاحها مريحة كما أن قوانين الديون زادت الطين بلة وأصبح الموقف ميؤوساً منه نتيجة لقوانين الديون ، فلم يكن الفلاح يستطيع أن يرهن شيئاً بضمان أرضه . وكان كل ما يستطيع أن يرهنه هو شخصه أي القيمة الاقتصادية لعمله . وقد خلق هذا الوضع ارتباطاً nexum بينه وبين دائته ، ولم يكن هناك مفر من تنفيذ هذا الارتباط بكل دقة . ومن ثم فقد ترتب عليه أن تدهور وضع المدين إلى مرتبة رقيق الأرض . ولو عجز عن الوفاء بدينه لما كان

هناك ما يمنع من الحكم عليه بالسجن ، أو بيعه في سوق النخاسة ، بل قتله أيضا . ويمكن إحالة الديون غير المسددة إلى أبنائه بحيث كان من الجائز أن يرث الطفل ساعة ولادته عيما من العمل لا يستطيع النهوض به قط طيلة حياته . وكان المصدر الوحيد الذى يمكن عن طريقه تهذئة التعطش إلى الأرض هو الأراضى العامة *ager publicus* وهى الأراضى التى كانت تستولى عليها روما فى حروب الغزو . وبعض هذه الأراضى كان يوزع دائما على صورة إقطاعيات للفلاحين ولكن معظمها يباع لمن يستطيع شراءه ، وبذلك عززت معظم هذه الأراضى نمو الإقطاعيات الكبيرة . وأصبح من الضرورى تحديد مساحة الأراضى التى يمتلكها شخص واحد . وكان هذا هو هدف قانون ليكينيوس سيكستوس *Lex Licinia Sextia* المشهور الصادر فى عام ٣٦٧ ق م . أما عن القيود التى فرضت وقتذاك ، فلا يمكن تحديدها . تقول الروايات المتواترة إن الأرض كانت تحدد بـ ٥٠٠ فدان رومانى *iugera* من الأراضى الصالحة للزراعة أو لرعى الماشية والأغنام . غير أنه قد استغلت كثير من بنود هذا القانون المزعوم فى الأزمنة الزراعية الأخيرة التى نشبت فى القرن الثانى قبل الميلاد بحيث أصبح من العسير علينا أن نكون على يقين من نصوصه الأصلية . وعلى الرغم من ذلك فما لا شك فيه أنه قد تم تنفيذ مشروع عظيم للإصلاح الزراعى فى ذلك الوقت وأنه قد لقي مقاومة عنيفة ونبهنا الرواة بأن صراعا دام عشرة أعوام نشب قبل إصدار هذا القانون . وكان الإصلاح الزراعى دائما يعد انقلابا خطيرا فى العالم اليونانى الرومانى .

ويبدو أن النظام الجديد لمنح الأراضى والعمليات الشبيهة بعمليات المصارف الرسمية فى تقديم القروض والديون قد خففت من حدة الخطر الاقتصادى الأكبر الذى واجهته البلاد . ولكن نظام الارتباط ظل دون إصلاح حتى عام ٣٢٦ (أو عام ٣١٣ كما تقول رواية مخالفة) عندما منح

قانون بويتيليا Lex Poetilia لعامة الشعب ما أسماه ليفي ميثاقا جديدا يقضى بإلغاء نظام الارتباط والحبس أو السماح بارتئان الأرض .

وقد حققت الإصلاحات الثورية التي حدثت عام ٣٦٧ مكاسب سياسية، فقد أعيد نظام القنصلية وتم الاتفاق على ضرورة أن يكون أحد القنصلين من عامة الشعب . ومرة أخرى حاول الأشراف تعويض الخسائر التي لحقت بهم بإنشاء وظيفة جديدة وكانت في هذه المرة وظيفة البرايتورين praetors الذين سلبوا القناصل معظم اختصاصاتهم القضائية . ولكن سمح لعامة الشعب بتولى منصب الكنسورية ٣٣٩ والبريتورية عام ٣٣٧ كما أصبح الانضمام للكليات الكهنوتية الكبرى — آخر معقل من معاقل الأشراف القوية — مكفولا لعامة الشعب في وقت ما بعد عام ٢٩٢ ق م . ووصل الصراع إلى مداه عام ٢٨٧ ق م عندما أصبحت قرارات الجمعية الشعبية Concilium Plebis لها قوة القانون ، بمقتضى قانون هورتنسيوس .Lex Hortensia

وهكذا وبعد مضي قرنين من الصراع المرير حصل عامة الشعب على جميع أهدافهم . وقد تم له ذلك بالالتجاء إلى أقل قدر من العنف ، وعن طريق الإجراءات القانونية السلمية . وقد أثارت الإجراءات الإعجاب في كل من العصرين القديم والحديث وأوضحت الاختلاف بينها وبين ألوان الصراع الطبقي العنيف الذي كانت تتميز به مدن الدول اليونانية . ومن الإنصاف أن نتبين فيها الحد الأقصى الذي بلغته الأعمال السياسية العظيمة في الجمهورية الرومانية ، وأن نذكر أنفسنا استنادا إلى بعض الألفاظ مثل « مجلس الشيوخ » « الجمعية الشعبية » والاستفتاء الشعبي ، و « التصويت » (بل الدكتاتورية أيضا) بمدى ما خلفته هذه الأعمال السياسية المجيدة وأورثته للأجيال التالية . غير أن نتائجها تثير الدهشة والعجب ، فلم يعد للأرستقراطية بعد ذلك أى سند قانوني لما تتمتع به من امتيازات ، وأصبح مركزهم في الدولة يقوم على ما كان في استطاعتهم السيطرة عليه عن طريق نفوذهم

auctoritas ومكاثتهم dignitas وهو ذلك الوضع غير الرسمي الذي تضفيه عليهم ثروتهم وأتباعهم الكثيرون وسمعة أسرهم والأعمال الشخصية المجيدة التي يحققها كل منهم . أما بالنسبة للقرن ونصف القرن التاليين اللذين امتدا حتى عهد الأخوين جراكوس Gracchi ، فقد كانت كل هذه الأشياء تكفي لتجعل من هذه الفترة العصر الزاهر لسيادة الطبقة الأرستقراطية في روما . وكانت النتيجة التي تمخض عنها الصراع بين الطبقات تعد إلى حد ما نصراً للديمقراطية والسكن الجمهورية الرومانية لم تكن جمهورية ديمقراطية قط سواء في ذلك العصر أم فيما بعد .

وعندما قام بعض المراقبين السياسيين اليونان من ذوى الخبرة أمثال المؤرخ بوليبيوس بدراسة الدستور الروماني بعد مضي ما يقرب من قرن كامل وجدوا أنه يمثل تمثيلاً صادقاً فضائل « الدستور المختلط » ، فقد كانت الجمعيات الشعبية عنصراً ديمقراطياً وكان مجلس الشيوخ يمثل الديمقراطية . كما كان الموظفون العموميون وعلى رأسهم القناصل يباشرون سلطات الملك . وكانوا يعتقدون أن هذا الدستور المختلط كان يمنح روما الاستقلال السياسي الذي كان سبباً حقيقياً لنجاحها . وقد اتفق بوليبيوس اليوناني وكاتو الروماني — على حين أنهما لم يتفقا إلا قليلاً في غير ذلك — على أن الدستور كان ينهلوى على ميزة كبرى وهي أنه كان ثمرة قرون من التجارب السياسية . وقد قال كاتو « إن جمهوريتنا لم تخلق على أكتاف رجل واحد بل بجهود الكثيرين كما لم تقم خلال حياة شخص واحد بل خلال قرون وأجيال عديدة ، ويؤكد بوليبيوس أن الرومان لم يجلسوا ليضعوا دستورهم بل أخذوا يطورونه في مدرسة التجارب السياسية الشاقة .

وتستلقت الخاصيتان التاليتان بالذات أنظار الباحثين في العصر الحديث وهما : أولاً أن الشعب الثلاث ألا وهي : المواطنون ، ومجلس الشيوخ ، والجمعيات الشعبية جميعاً كانت تستطيع استصدار التشريعات : وثانياً

ضآلة عدد الموظفين العموميين الذين يتولون السلطات التنفيذية وهم قنصلان وبراياتور واحد أو اثنان في بعض الأحيان للشئون القانونية وكويستوران. quaestors للشئون المالية وأربعة أيديليز aediles لشئون الشرطة والإشراف على المدينة وكنسوران Censors — وإن كان الأخيران يعملان في فترات متقطعة — لا يكاد عددهم جميعاً يبلغ اثني عشر موظفاً عاماً أى كانوا أقل عدداً من أعضاء مجلس الوزراء في الدولة الحديثة . ولقد أمكن تحاشي الأخطار الناجمة عن ترك السلطة في أيدي هذا العدد الصغير من الأفراد بتحديد فترة شغلهم لمناصبهم بعام واحد ، وتعيين زميل واحد أو زميلين للموظف في كل درجة من حقهما معارضته . وقد مارس الشعب الروماني — عن طريق مجالسه الشعبية المتعددة — السلطة العليا إلى حد ما ، نظراً لأنها كانت تلتخب الموظفين العموميين وتستمع إلى القضايا الرئيسية وتبت في مسائل السلام والحرب . ولكنها كانت لا تجتمع إلا بدعوة أحد الموظفين العموميين . وكان مجلس الشيوخ الذي يعقد جلساته بانتظام أكثر ملائمة للمناقشة ، وكان يضم كل من له خبرة سياسية إلى حد بعيد . وكان الموظفون العموميون يرجعون إلى مجلس الشيوخ أكثر مما يرجعون إلى الشعب لأنهم كانوا أعضاء في مجلس الشيوخ . وبعد انتهاء فترة توليهم لمناصبهم كان مستقبلهم السياسي يتحدد داخل جدران هذا المجلس . وكان من الطبيعي في هذه الحالة أن يميل الموظفون العموميون بصورة مطردة إلى أن يصبحوا اليد التنفيذية لمجلس الشيوخ أكثر من ميلهم إلى انتهاج سياسة خاصة بهم . وكانت هذه الحقيقة بالإضافة إلى الحكمة والحكمة السياسية التي كان مجلس الشيوخ يمارس على هداها سلطته بصفة عامة هي السبب في سيادته الفعالة لقطاع ميدان السياسة الرومانية من عام ٣٠٠ ق م حتى عهد الأخوين جراكوس .

ولقد علق الباحثون المحدثون أيضاً على ما كانت تتسم به سياسة روما من سخاء في إيطاليا في هذه الفترة . ونجاح نظام المستعمرات يعد من

الأسباب التي مكنت روما من انتهاج مثل هذه السياسة . والمستعمرة الرومانية — بمقارنتها بالمستعمرة اليونانية — تنتهي إلى نظام آخر ذى طبيعة خاصة ، فقد كانت المستعمرة اليونانية مشروعا خاصا ينبثق من البلد الأم لإقامة مجتمع جديد ، بينما كانت المستعمرة الرومانية تقام باعتبارها إجراء من قبل الدولة وكان الأساس في اختيار موقعها يرجع إلى اعتبارات استراتيجية واقتصادية في آن واحد . وكان يتم تقرير عدد المستعمرين مقدما . وكما يستدل من اسمها فإن الناحية الاقتصادية كانت أقدم عهدا من الناحية الاستراتيجية ، فإن فعل *colere* يعنى فلاحه الأرض بينما كان لفظ *colonus* يعنى في البداية الفلاح المستأجر للأرض . وفي بعض المستعمرات كان جميع المواطنين يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية كاملة التي كان يمكن لأي مستوطن أن يحصل عليها . وقد أنشئت مستعمرات أخرى بالاشتراك مع اللاتين وكان المواطنون بها يتمتعون « بالحقوق اللاتينية » ولا يمكن الاعتماد كثيرا على تواريخ إنشائها لاسيما للمستعمرات القديمة . ولكن يبدو أنها تنحصر بين فترتين رئيسيتين هما ٤٥٠ — ٣٩٠ ق م و ٣٥٠ — ٢٦٣ ق م . وخلال هاتين الفترتين نسمع عن اثنتي عشرة مستعمرة للمواطنين الرومان وثلاثين مستعمرة لاتينية وربما وفرت أراضيها جميعها الأرض لستين ألف مواطن وعائلاتهم . وأكثر هذه المستعمرات شهرة في علم الآثار هي أوستيا Ostia التي تعرفنا على تطورها الكامل منذ أن كانت مستعمرة في أواخر القرن الرابع (أو ما قبله) حتى أصبحت ميناء كبيرا في عصر الإمبراطورية . وتدل الصور الشمسية الملتقطة من الجو في المناطق المجاورة للمستعمرات الرومانية غالبا على النظام « المئوي » أي تقسيم الأراضي العامة إلى مجموعات كل منها مائة قطعة ، وكانت هذه هي الوحدة الأساسية للأراضي الممنوحة ، وكانت هذه المستعمرات تقع عند تقاطع الأنهار أو الموانئ والمواقع الأخرى للملاحة لاتخاذها قاعدة لجيش مقاتل . وكانت في وقت السلم مركزا لإشعاع

للحضارة الرومانية وفي وقت الحرب معقلا لروما . ولم يتزعزع ولاؤها حتى في أثناء محنة الحرب البونية الثانية . ولاغرابة في أن المؤلف الروماني أولوس جيلبيوس Aulus Gellius سماها « صورة مصغرة للشعب الروماني وانعكاسا له » وهكذا حدث تطور فعال ومبكر في أرض إيطاليا لنظام كان من المقدر له أن يلعب دورا كبيرا في صبغ الأقاليم الغربية بالروح الرومانية . ومعظم هذه المستعمرات الاثنتين والاربعين اليوم مدن إيطالية تزخر بالنشاط . ولقد بدأت مدن تاريخية كثيرة في أوروبا مثل كولوني ولنكونن حياتها كمستعمرات رومانية . وإجراء دراسة مقارنة لعملية إقامة المستعمرات الرومانية وافتتاح غرب أمريكا أمر مرغوب فيه إلى درجة كبيرة .

وترجع الولايات الإيطالية المعروفة باسم مونوكيبيا municipia إلى أصل مخالف يبدأ ببسط سلطة روما على إقليم كامبانيا . وقد منح عدد من مدن كامبانيا الوضع الواضح المميز للمونيكيبيوم أى أنها قد دخلت في حلف مع روما وأنها قد تبادلت معها الحقوق الاجتماعية . ولكن هذه المدن احتفظت بموظفيها العموميين ودستورها وطقوسها الدينية ، ولم يكن بوسع مواطنيها الحصول على حقوق المواطنة الرومانية إلا عن طريق الهجرة إلى روما . وكما كان الحال مع نظام المستعمرات colonia ، فقد طبق نظام المونيكيبيوم على المستعمرات الغربية حيث تطور في اتجاهات جديدة .

ولعب التقدم في العلوم التطبيقية دوره أيضاً في توحيد إيطاليا . فقد بدأ السكسنور أبيوس كلاوديوس كايكوس عام ٣١٢ ق م في إنشاء الطريق الكبير الذي يمتد من روما إلى كابوا (ويبلغ طوله ١٣٢ ميلا) والذي ما يزال يحمل اسمه إذ يسمى بطريق أبيوس Via Appia وكان هذا هو أول طريق من سلسلة الطرق الرومانية الكبرى التي لعبت دوراً خطيراً في نشر الحضارة بأوروبا . ولما كان هذا الطريق يتألف من أربع طبقات ، إحداها من أحجار

والفلاج، والأخرى من الحصى والزلط والثالثة من الأسمنت ثم الغطاء العلوى،
مدرجة بعناية، وتعتبر الأنهار بقناطر أو جسور ممهدة كما تسير فوق مستنقعات
البونتس على سدود مبنية على شكل بواكى، فقد كان يمثل فى جميع الأجواء
شربانا حيويًا صالحًا لانتقال الناس والبضائع بين روما وكبانيا. وبعد الحرب
التي دارت مع بروس مد الطريق إلى برنديزيوم Brundisium أى إلى ٢٣٤
ميلا. وفى الوقت ذاته أنشئ طريق شمالي كبير ألا وهو طريق فلامينيوس
Via Flaminia بين روما وأريمينوم Ariminum (وتعرف بريمي
Rimini وطوله ٢٣٠ ميلا التي تقع على ساحل الأدرياتيك. وفى القرن التالي
أقيم امتداد لهذا الطريق من هذه النقطة إلى بلاكينتيا Placentia (أى إلى
مسافة ١٧٦ ميلا وسمى طريق أوريلوس Via Aurelia ولعب نفس الدور
فى عز وبلاد الغال فيما وراء جبال الألب، الذى لعبه الخط الحديدى الباسيفيكي
السكندى بالنسبة لكندا. وكانت هناك طرق رئيسية أخرى تربط روما بمدن
إتروريا الكبرى ناحية الشمال الغربى وسامنيوم صوب الجنوب الشرقى .
ولعل القارى الحديث يبدى استعدادا أكبر لتصور الطرق البرية عن تصور
السكك الحديدية . وهذه مقارنة مفيدة فهذه الطرق بصفة خاصة يمكن
مقارنتها فعلا بشبكات الطرق فى ألمانيا وإيطاليا التي أنشئت خلال العقد
الرابع من القرن العشرين . ولقد كان الهدف الأول من الطرق الرومانية
الكبرى فى إيطاليا مثلها كان الهدف فى ألمانيا هدفا إستراتيجيا إذ كانت ترمى
إلى تحقيق سلامة وسرعة انتقال الجنود والمؤن . وفيما بعد أصبحت لأهميتها
الاقتصادية الأهمية الأولى على الرغم من أنها لم يكن فى مقدورها قط أن تلعب
نفس الدور الذى تلعبه الطرق الكبرى الحديثة فى حركة نقل الحمولات الثقيلة .
فى العالم القديم كانت السلع الثقيلة تنقل عن طريق البحر كلما كان ذلك
ميسورا ، بالنظر إلى أنه لم يكن فى الإمكان الحصول إلا على حيوانات
الجر وبغال الحمل فحسب لأغراض النقل البرى .
وقد امتد نظام شبكات الطرق الرئيسية الرائع هذا الذى افتتح فى

إيطاليا بحيث شمل كل جزء من أجزاء الإمبراطورية . ولقد كان عملا رومانيا بحتا . فلم يكن في وسع الممالك الهلنستية العظيمة أن تخرج بما يشبه هذا العمل الفذ ، كما يسر السفر برأ و زاد من سرعة الانتقال أكثر من ذى قبل حتى قيام عصر السكك الحديدية

وكان الجيش الذى فتحت روما إيطاليا به يتألف من جنود مرابطين يستدعون عند الحاجة من بين المواطنين ، وكان كل مواطن متمتع باللياقة البدنية يخضع للخدمة العسكرية كجزء من التزاماته تجاه الدولة ، وكان يؤدي هذا الواجب على نفقته الخاصة فى بداية الأمر بحيث كان ينخرط فى الجيش دون أن يتقاضى أجرا كما كان هو الذى يزود نفسه بأسلحته ومعداته الخاصة . ويعزى النظام العسكرى الذى كان يقضى بأن تقوم أغنى طبقة من بين المواطنين بإعداد سلاح الفرسان ، والطبقة التى تليها شراء سلاح المشاة ، بينما تعد الطبقة الفقيرة القوات ذات الأسلحة الخفيفة — يعزى تقليديا — إلى الملك سيرفيوس توليوس Servius Tullius فى القرن السادس قبل الميلاد . ولكنه يرجع على الأرجح إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ولما طال أمد الحملات وأصبحت المعارك تدور فى أنحاء بعيدة عن روما تكشفت عيوب هذا النظام ولم يعد يفي بالغرض ، وقد اتخذت خطوة حاسمة أثناء الصراع الأخير الذى نشب مع شعب فيبي بأن تقرر دفع راتب stipendium عن الخدمة العسكرية . وفيما بعد بدأت الدولة تقدم أسلحة ومعدات ذات مواصفات محددة ، وكانت هذه أولى مرحلة من مراحل تكوين جيش محترف على الرغم من أن مثل هذا التطور كان ما يزال فى طى المستقبل .

وكانت الوحدة الرئيسية هى الفرقة legio وكانت هذه تتألف من ٥٠٠ من المشاة و ٣٠٠ من الفرسان ، وكان كل قنصل فى القرن الرابع فيما يحتمل أو فى القرن الثالث كما هو مؤكد يقود جيشا يتألف من فرقتين .

وكانت خطط تحريك القوات تتبع الأساليب اليونانية ، ولعل اليونانيين أنفسهم قد نقلوها عن الإترسكيين. ومما تناهى إلى علمنا أنه قد كانت هناك ثلاثة خطوط للقتال تقوم على أساس قنات السن: أولها الشبان الذين كانوا رماة الرماح (hastati) ، وثانيها المشاة الثقيلة التسليح الرئيسية (principes) ، ثم قدامى المحاربين فى الاحتياطى (triarii) . وكان يستفاد من سلاح الفرسان فى حماية أجنحة تشكيلات المشاة لا باعتباره سلاحاً مستقلاً . وقد نشأ عن ذلك جيش يصلح للقتال فى الأراضى المنبسطة السهلة ، ولكن الحملات الطويلة الأمد التى قامت بالقتال فى جبال سامنيوم Samnium دلت على أنه من الضرورى إيجاد تشكيل يتوفر له قسط أكبر من المرونة ، ومن ثم قسمت الفرقة إلى كتائب manipuli لها القدرة على العمل باعتبارها جماعات مستقلة . ثم أصبح على الحلفاء فى النهاية أن يقدموا قوات مساعداة للاشتراك فى الحملات الحربية ، والغالب أن هذه القوات كانت تؤلف الألساحة التى لم يكن الرومان يتفوقون فيها على غيرهم مثل سلاح الفرسان .

وكان هذا الجيش يعد بالنظر إلى الأحوال السائدة فى إيطاليا فى القرن الرابع جيشاً عاتياً مرهوب الجانب ، كما أنه كان دون شك متنوع المهارات والفنون . فقد واجه حماس السكتيين الممثل فى الغالين . وواجه تسكتيكات السمنين القوية المحكمة ، والدربة والخبرة اللتين كان يتمتع بهما بيروس وجنوده اليونانيون ، وكانت له الغلبة على كل هؤلاء جميعاً . ولكن هذا الجيش كان يحمل بين أطوائه عوامل الضعف التى كان لابد أن تتكشف سريعاً . فلم توضع لأسلحته ومعداته مواصفات دقيقة . كما أنه على الرغم من شجاعة الجنود فقد كان يعوزهم التدريب الكافى ، كما كان جل همهم هو لإنهاء الحرب والعودة إلى مزارعهم . وأهم من ذلك أن القيادة العليا كانت تعاني من نقائص خطيرة وقد يتصافى أن يكون أحد القنصلين قائداً قديراً ، غير أن هناك الكثير من الأمور التى كانت تحول

دون أن تتوافر المقدرة والكفاءة لسكل منهما . وقد كان من الممكن بطبيعة الحال أن يستدعى رجل ذو سجل مشرف في ميدان القتال في حالة الطوارئ ليتنصب قنصلاً أو دكتاتوراً ، كما كان الحال مع كاميلوس Camillus . ولكن أحداً في روما لم يكن على وعى بالشئون الإستراتيجية العليا لأنه لم يكن هناك من كان يكرس جل وقته للتفكير فيها . ووفقاً للمعايير الحربية اليونانية لم تكن روما تضم قوات بالمعنى الصحيح حتى ذلك الوقت ، بل إنه لم يقدر لها ذلك حتى نشوب الحرب البونية الثانية . والحقيقة أن الدروس التي لقنت روما إياها في هذا الصراع الميرير هي التي أحالت الجيش الروماني إلى قوة قدر لها أن تسيطر على العالم طيلة القرون الخمسة التالية . والفرق بين الجيوش الرومانية قبل زحف هانيبال وبعده هو ذلك الفرق بين جيوس بول ران (١) وجيوتس جيتسبرج (٢) .

وكان لعودة بيروس إلى اليونان في عام ٢٧٥ ق م أن أصبحت لروما السيادة على إيطاليا . وقد جرت هناك عمليات تطهير قليلة قبل أن تصبح سيادتها هذه مطلقة ، لا ينازعها فيها منازع ، فقد تم احتلال ريجيوم Rhegium عام ٢٧٠ ق م وبرنديزيوم Brundisium عام ٢٦٧ ق م، وثار البيسكيينيون Piceni عام ٢٦٨ ق م وتم قهرهم في العام التالي . بيد أن هذه المرحلة لم تكتمل حتى عقد تحالف مع أبوليا Apulia وميسابيا Messapia عام ٢٦٦ ق م . وكان قد مضى أكثر من ١٢٠ عاماً أي بعد أربعة أجيال من الناس على أقرب تاريخ لغزو الغالين في عام ٣٩٠ ق م . وكانت التسويات التي تمت بين روما وبين مختلف المجتمعات الإيطالية

(١) بول ران Bull Run قناة في شمال شرق فرجينيا بالولايات المتحدة كانت مسرحاً للحرب التي دارت في عامي ١٨٦١ و ١٨٦٢ (المترجم)
(٢) جيتسبرج Gettysburg بلدة جنوب غرب مدينة يورك الواقعة جنوبي بنسلفانيا ، دارت بها معارك سنة ١٨٦٣ (المترجم)

تشبه على وجه العموم تلك التسويات التي عقدت مع اللاتين في عام ٣٣٨ ق م، فقد كانت تسودها سياسة فرق تسد ذاتها التي لم يكن يخفف من حدتها غير منح الامتيازات لكل من الأعداء السابقين والحلفاء على حد سواء ، مرتبة تدريجياً وفق قدرة كل منهم . صحيح أن حقوق المواطنة الكاملة لم تكن تمنح إلا في النادر ، فالسايينيون وحدثهم هم الذين حصلوا عليها آنذاك . أما السامنيون والإترسكيون والأمبريون Umbrians فقد حصلوا على ما قد يطلق عليه نصف حقوق المواطنة وهو civitas sine suffragio فلم يكن في وسعهم أن يسموا في رسم السياسة الرومانية ، ومن المحتمل أيضاً أن إقامتهم في روما لم تكن تؤهلهم أيضاً لنيل حقوق المواطنة الكاملة . وأما المدن الإغريقية الشهيرة الواقعة في الجنوب ، فقد أصبحت دولا حليفة (civitates foederatae) . وكانت كل هذه العناصر الجديدة التي ضمت إلى الاتحاد الروماني تعرف إجمالاً بالحلفاء الإيطاليين (socii Italici) وكانت تشكل حركة خارجية أقل نصيباً في الامتيازات من اللاتين ، إلا أنهم قد احتفظوا مثل اللاتين بدساتيرهم الخاصة كما كانوا ينتخبون موظفيهم العموميين ويصدرون تشريعاتهم الخاصة ويتعبدون للآلهة التي تختص بهم . ولم يكن يؤدون أية جزية إلى روما وإن كانوا ملزمين بتزويد القوات المسلحة الرومانية بفرق من الجنود . ولقد أظل السلام الروماني Pax Romana شبه الجزيرة الإيطالية من بيزا وريميني إلى مضيق مسينا ، كما قدر له أن يرفرف على عالم البحر المتوسط بأكمله فيما بعد . وبدأ القانون الروماني واللغة اللاتينية هذا التوسع الذي أتاح لهما السيادة زهاء عام ١٥٠ ق م . والحقيقة أن هذه كانت نقطة البداية للوحدة الثقافية والاجتماعية التي لم تنفصم قط انفصاماً تاماً حتى العصور الوسطى .

وكانت المزايا التي عادت على إيطاليا من وراء إقرار السلام وزيادة الرخاء من اياها عظيمة . أما بالنسبة لروما فقد كانت أجل وأعظم من ذلك .

فقد بلغت مساحة الأراضي العامة - أرض الشعب الروماني العامة *ager publicus populi Romani* - إبان حروب الغزو ما يقرب من عشرة آلاف ميل مربع أي خمس مساحة شبه الجزيرة الإيطالية. وكانت هذه تمثل ضيعة عظيمة الثراء مختلفة الجوانب صالحة للتنمية . وكان جزء كبير من الأرض مخصصاً للملكيات الصغيرة على النمط التقايدى للزراعة الرومانية. كما كانت تقسم أيضاً إلى المراعى الضخمة التي كانت تعرف باسم *Pascua* في سامنيوم وأبوليا وكالابريا *Calabria* . كانت هذه المناطق تضم مراعى الأغنام والقطعان، الصيفية والشتوية. وتضم أيضاً طرق الدواب (*calles*) الشهيرة التي كانت تمر بها القطعان الضخمة من الحيوانات مرتين كل عام، كما كان الحال مع طرق الدواب التي كانت تمتد بين ويلز، وإنجلترا قبل إنشاء الخطوط الحديدية . كان هذا لوناً جديداً من ألوان الاستثمار بالنسبة للرومان ، حيث كان بوسع نفر قليل من الأشخاص الذين أوتوا من الثراء ما يمكنهم من شراء المراعى الضخمة أو استثمارها من الدولة أن يجمعوا لأنفسهم ثروات طائلة .

وعلى النقيض مما كان من أمر صغار الملاك فقد تحولت تلك الجماعات الضخمة من الرعاة التي أصبحت تباشر هذه المراعى الشاسعة فيما بعد إلى عنصر خارج عن القانون ، تحول في سرعة إلى السلب والنهب وجنح إلى التمرد والثورة . وإلى جانب ذلك كانت هناك موارد إيطاليا الغنية من الغابات التي لم تكن قد استغلت في معظمها لاسيما بعض المناطق مثل سيليا *Sila* في بروتيوم *Bruttium* وقد كانت هذه الموارد من الأهمية في مجال بناء السفن ما كان لأشجار البلوط في إنجلترا بالنسبة للسفن الخشبية في البحرية الإنجليزية القديمة .

وبلغت مساحة إيطاليا الرومانية حوالى عام ٢٦٠ ق م - أى في بداية الحرب البونية الأولى - قرابة ٥٢٠٠ ميل مربع، كما أن عدد سكانها كان

يبلغ أربعة ملايين نسمة ، وفقاً لإحدى التقديرات التي تحظى بقبول كبير .
ويتفق الرقمان بدقة فائقة مع أرقام ولاية كارولينا الشمالية في العصر
الحديث . ولعل روما نفسها كانت تضم ١٢٥٠٠٠ نسمة . وكان عدد
سكان إيطاليا الرومانية في عالم القرن الثالث ق م يناهز عدد سكان مملكة
مقدونيا . أما عدد سكان المملكتين الهلينستيتين العظيمةتين الأخرتين فكان
يربو على ذلك إلى حد كبير إذ بلغ في مصر عشرة ملايين ، وسوريا نحو
٣٠ مليون نسمة . غير أن أحداث القرن التالي قد دلت على أن روما
كانت تستحوذ بالنظر إلى ما كانت تتسم به نظامها من رسوخ وصلابة
وما كان يتمتع به مواطنوها من روح معنوية عالية ، على موارد تفوق
موارد أية دولة أخرى في العالم .



الفصل الرابع

روما والبحر المتوسط (٢٨٠ - ١٢٣ ق م).

إن سلسلة الحروب الرهيبة التي نشبت مع قرطاجة ، والمعروفة باسم « الحروب البونية » قد تركت في عقول الرومان أثراً لا يمحي . وانتهت الحرب البونية الأولى بعد صراع دام ثلاثة وعشرين عاماً بما يشبه استنفاد كل منهما لقوى الآخر . أما الحرب البونية الثانية فقد ساقطت روما إلى حافة الدمار على يد عدوها العظيم «هانيبال»، والحروب البونية الثالثة هي التي دفعت قرطاجة إلى الحافة ذاتها وانتهت بسحق نفوذ « قرطاجة » ومحق المدينة نفسها . وهذا ما تعنيه العبارة الكئيبة « السلام القرطاجي » ، وما يدعو للدهشة إلى حد ما أن الكتاب الرومان عندما رجعوا إلى الماضي ، رأوا أن هذا الصراع - لا سيما الحروب البونية الثانية - « حرباً ضروساً » ، فهو صراع على إمبراطورية عالمية في البر والبحر ، كما صورده « لوكريتيوس » . أما فرجيل فقد رأى ، بخيال الشاعر أن القدر قد دبر العدا بين المدينتين منذ نشأتهما ، وأن خيانة « أينياس » ، « لديدو » تعتبر أول التحام بينهما ، و « هانيبال » هو المنتقم الذي جاء ليحقق لعنة « ديدو » . ولكن في الواقع كانت روما و « قرطاجة » على علاقات ودية استمرت أكثر من قرنين . وكانت أول معاهدة تعقدها « روما » مع دولة خارجة عن حدود أراضي «إيطاليا» هي المعاهدة التي عقدها مع قرطاجة في عام ٥١٨ ق م ، وتجددت هذه المعاهدة في عام ٣٤٨ ق م وعام ٢٧٨ ق م . وفي كل مرة كان الهدف هو تقييد نشاط « روما » التجاري غربى البحر المتوسط والحد من مطامع « قرطاجة » في إيطاليا ، ولم يحدث من قبل أن أصبحت « روما » وريثة للصراع القديم الذي نشب بين اليونانيين والقرطاجيين في « صقلية » . إلا عندما قادتها فتوحاتها إلى مضيق « مسينا » .

إن الخضم القوي الذي وقف في وجه روما ، حينئذ كان أغنى مدينة في غرب البحر المتوسط ، أنشأها مستعمرون من مدينة « صور الفينيقية » عام ٨٠٠ ق . م — ومن هنا أطلقت الصفة اللاتينية « پوني Puni » على القرطاجيين— ويبدو أن هدف هؤلاء المستعمرين الرئيسى كان استغلال أحواض الأسماك المرجانية ، وهى أسماك صدفية تستخرج منها الصبغة التى تباع بأسعار مرتفعة . ولكن سرعان ما تبينوا المزايا الطبيعية التى يتمتع بها هذا الموقع والتى أدت إلى قيام مدينة كبرى فى تونس فى العصر الحديث . وتبعد رأس « كاب بون Cape Bon » عن الركن الغربى من صقلية بثمانين ميلا فقط ، والقوة التى تسيطر على طريق الملاحة هذا تستطيع أن تقسم البحر المتوسط إلى شطرين . وفى شرق « كاب بون » توجد موانى صالحة للملاحة فى خليج تونس كما يوجد وادى نهر « باجراداس Bagradas » الخصب الذى يمتد إلى أرض داخلية بعيدة عن الساحل صالحة لزراعة خصبة . ويفضل هذه المزايا الطبيعية أصبحت قرطاجة قوة هائلة فى ظل نظام حكم أوليجركى حاز إعجاب المفكرين السياسيين اليونان لرسوخه . وكان (لقرطاجة) تجارة شحن رائجة مع مصر وشرق البحر المتوسط ، كما كانت تحتكر التجارة فى غرب البحر المتوسط حيث كانت (كورسيكا Corsica و ساردينيا Sardinia) فى قبضة يدها تماما . وفى أثناء صراعها الذى استمر فترة طويلة مع اليونانيين فى صقلية لم يتمكن أحد منهما من طرد الآخر . فكان اليونانيون تحت زعامة سيراكوزة يسيطرون على الجزء الشرقى من الجزيرة ، والقرطاجيون على الجزء الغربى منها . ولكن الفرص الذهبية كانت توجد فى الجزء الغربى حيث آلت إلى قرطاجة إمبراطورية (تارتسوس Tartessus) الواقعة فى جنوب (أسبانيا) . وإلى جانب التجارة الأصبانية الغنية والمتعشمة ، سيطرت قرطاجة على سلسلة من المراكز التجارية الواقعة على ساحل أفريقيا الغربى ، وقد وصل الرائد القرطاجى العظيم (هانو Hanno) حوالى ٥٠٠ ق . م على الأقل إلى (سيراليونى

Sierra Leone) وربما إلى مصب نهر الكونغو . كما أبحرت سفن قرطاجية من مضيق (جيبيرا التار Gibraltar) (جبل طارق) تجاه الشمال إلى خليج بسكاي Biscay وربما إلى ورائه ، على الرغم من أن الربط بين قرطاجة والقصدير السكورنشي يبدو أقل احتمالاً في ذلك الوقت عما كان عليه في وقت من الأوقات .

لقد حققت حكومة أوليجركية غنية تشتغل بالتجارة ، مثلها في ذلك مثل حكومة (البندقية Venice) أرباحاً طائلة من هذه التجارة الواسعة المنتشرة عبر البحار ، كما أقام رجال آخرون واسعوا الثراء مقاطعات زراعية شاسعة في أفريقيا . وقد رأى بعض المؤرخين أن هناك ضعفاً سياسياً في المنافسة بين هذه المصالح المتضاربة . وكانت موارد قرطاجة العسكرية تبعث على الخوف . فعلى الرغم من أن القوات المرتزقة كانت تكون جزءاً كبيراً من جيشها إلا أنها لم تنفتقر إلى الجنود المحنكة من المرتزقة وجنود المشاة الذين كانت تجلبهم من أسبانيا ومن أراضى (البربر Berber) والفرسان من (نومديا Numidia) وكان قوادها على دراية تامة بأحدث أساليب الحرب الهلينستية ، كما كانت أضخم أساطيل العالم تلتقي مراسيها في مينائها التوأمين ، أحدهما للأسطول التجارى والآخر للأسطول البحرى .

وقد اندلعت الحرب البونوية الأولى عندما حاول القرطاجيون السيطرة على (مسانا Messana) ، (وقد صدتهم سيراكوزة ذات مرة) ، وربما كان في مقدورهم أن يسيطروا منها على المضيق الواقع بين صقلية وإيطاليا . وكانت مدينة مسانا طول عشرين عاماً في أيدي (المامرتيين Mamertini) . وعندما لجأ (أبناء الإله مارس) هؤلاء إلى روما طالبين العون تردد مجلس الشيوخ في تلبية مطالبهم ولكن أصرت الجمعية الشعبية (Popular Assembly) على إشعال الحرب (في عام ٢٦٤ ق . م) على الرغم من أنه ليس من المحتمل أن أعضاء هذه الجمعية كانوا يدركون إلى أي مدى قد تؤدي بهم الحرب .

ولم يكن جلاء قرطاجة عن شمال شرق صقلية وانضمام سيراكوزة إلى جانب الرومان إلا المظهر الأول للحرب . فقد استمرت قرطاجة في قتالها ، وتعهدت روما ، بتحريض من سيراكوزة دون شك ، بطرد قرطاجة من الجزيرة . وكان هذا يعنى القضاء على سيادة قرطاجة في البحر ويؤدى إلى بذل روما أول مجهود شاق كى تصبح دولة بحرية ، وقد لاقت توفيقاً ملحوظاً في هذا المجال . والنقش الذى سجل فيه (جايبوس دوبيلوس . Caius Duilius) انتصاره فى موقعة (مولاي Mylae) التى وقعت فى عام ٢٦٠ ق . م ما يزال قائماً ، وقد جاء فيه : (كان أول من أهدى الشعب الرومانى أسلاب معركة بحرية ، وأول من ساق أمامه فى موكب نصره . قرطاجيين أحراراً) . وتلى ذلك سلسلة من أعظم المعارك الحربية التى دارت رحاها فى العالم القديم قاطبة . فبعد الانتصار الذى أحرزه الرومان فى غرب صقلية عام ٢٥٦ ق . م أصبح فى إمكانهم أن يتفوقوا فى الحرب بطريقة أو أخرى على قوات العدو التى كانت ما تزال فى الجزيرة ، وأن تنزل جيشاً فى أفريقيا ليضرب قرطاجة نفسها ضربة قاضية لكن هذه المغامرة باءت بالفشل . فقد انهزم هذا الجيش فى العام التالى . ووقع معظمه فى الأسر بما فيهم قائدهم (ريجولوس Regulus) . أما الأسطول الذى أرسلته روما ليلتقط من ظلوا على قيد الحياة بعد هذه المعركة قد تحطم عن آخره ، ذلك بالإضافة إلى خسائر جسيمة فى الأرواح . وفى أثناء التتال أدرك الرومان أن التغلب على قوة قرطاجة البحرية أسهل فى الواقع بكثير من السيطرة على البحر . وعلى ذلك كانت آخر مرحلة من مراحل الحرب هى القيام بجملة جديدة فى غرب صقلية وحول شواطئها ولكن القرطاجيين عثروا على قائد عظيم فى شخص هاميلكار واستمروا فى دفاعهم الميثوس منه عن ماتبقى لهم من قواعد وهواقعدتى (ليلوبايوم Lilybaeum) و (دريبانا Drepana) مارسالاً وترابانى الحديثة) . وعندما عقد الصلح عام ٢٤١ كانت كلتا القاعدتين ما تزال فى أيدي (البونيين) على شرط أن تجلو قرطاجة عن صقلية .

و (كل الجزر الواقعة بين صقلية وإيطاليا) وأن تدفع تعويضا هائلا .

إن نهاية الحرب لم تكن قد حانت بعد فالجيش المرتزق الجرار الذى يقاده (هاميلكار) فى طريق عودته من صقلية ثار ضد الهيئة الحاكمة وتورطت قرطاجة فى الصراع البشع المعروف (بحرب لامهادنة فيها ولا هوادة) . وهكذا وابت (روما) الفرصة لتزيد من إحكامها للأمر فضممت (سردينيا) إلى ممتلكاتها — وهى جزيرة تقع بين صقلية وإيطاليا — وضاعفت بالفعل كمية التعويض المطلوب فى حالة ما إذا حملتها قرطاجة مشاق تحاشى حرب جديدة فى المستقبل . ولم يكن فى وسع قرطاجة بعد أن انهزمت وهدرت كرامتها إلا أن ترضخ لهذه الشروط (فى عام ٢٣٨ ق م) ولكنها تركت وهى متعطشة للأخذ بالثأر . وكان هاميلكار هناك ليرسم خطة هذا الثأر . وقد لاقى قرطاجة صعابا جمة فى أسبانيا أيضا خلال هذه السنوات، على الرغم من أن تفاصيل الأحداث غامضة . ولكن ربما كانت قوة (ماسيليا) هى التى أجبرت القرطاجيين على التقهقر فى أرض أسبانيا حتى أصبحوا لا يسيطرون إلا على منطقة أوسع بقليل من رأس جسر (جاديس Gades) وفى أسبانيا كانت تتوفر الفرصة لقرطاجة لإحياء قوتها وتجديد صراعها مع روما .

أما من جانب روما فقد واجهت هى أيضاً مشكلات عويصة فى نهاية الحروب البونية الأولى . ولم تكن أية مشكلة من هذه المشكلات أكثر إلحاحا من مشكلة ضرورة التوصل إلى شكل مناسب من أشكال الحكم للمنطقة التى آلت إليها، نتيجة للحملات الأولى التى قامت بها فيما وراء البحار . وقد نشأ عن توسع روما فى إيطاليا تكوين حلف كبير يضم المواطنين الرومان والحلفاء الإيطاليين . وانتشر هذا الحلف فى كل أنحاء شبه الجزيرة وقد يكون من الممكن من الناحية النظرية ، أن يمتد هذا النظام عبر مضيق صقلية، ولكن كانت هناك أسباب عملية قوية لاتباع روما سياسة أخرى ،

إذ كانت المشكلة التي تتطلب حلاً عاجلاً هي كيفية التعامل مع ما كانت تمتلكه قرطاجنة من مستعمرات قبل هذا الوقت في الجزء الغربي من الجزيرة ، فبعض هذه المستعمرات يقطنها شعوب متخلفة من أهالي صقلية ، والبعض الآخر مستوطنون قرطاجيون ولكن كاهم على السواء كانوا في وقت ما خاضعين لقرطاجنة ويدفعون الجزية لها . والمشكلة الآن هي أن روما لم تكن تطالب حلفاءها بالجزية بل بالخدمة في الجيش الروماني ، وهذه المجتمعات الأجنبية من أهالي صقلية لا تستطيع بالتأكيـد أن تقوم بهذا المطلب ، بل قد لا يكون من الإنصاف أن ننتظر منهم القيام به . وكان من الأيسر أن تتركهم روما يدفعون الجزية ، لكن هذه المرة لروما فقط ، لا لقرطاجنة . وبالطبع كان على روما أن تقوم بإدارة هذه المنطقة كلها وبالفصل في القضايا القائمة بين الأفراد ، كما كان عليها أيضاً أن تقوم بجمع الجزية . ولكن كان أمامها في تناول اليد أمثلة تحذو حذوها ، فقد كان الموظفون الرسميون الذين يتمتعون بسلطة البريتور مسئولين عن الفصل في القضايا القائمة بين الحلفاء الإيطاليين ، بينما كان على الكويستوريس النظر في المسائل المالية . وعلى ذلك ، كان من الطبيعي إيفاد بريتور / ليدير شئون الحكم ، يزاوـل سلطته (وهي سلطة الإمبريوم imperium) داخل منطقة (Provincia) غرب صقلية ، وكان يساعده كويستوريس في المسائل المالية كما التفت حوله أيضاً حاشية صغيرة من المساعدين . حدث ذلك في عام ٢٤١ ق م . وتبعاً لذلك أصبح غرب صقلية أول ولاية رومانية ، بينما استمرت مملكة سيرا كوزة لوقت ما خارجة عن نطاق هذه الولاية ، وقد طبق نفس النظام — بعد قتال عنيف — في (كورسيكا) ، و (سردينيا) اللتين تم إخضاعهما في ولاية واحدة عام ٢٢٧ ق م . وعندما أدمجت روما مملكة (سيرا كوزة) في عام ٢١١ ق م . في ولاية صقلية أصبح الموقف جديداً في بعض نقاطه . ذلك لأنه كانت توجد في هذه المنطقة مدن يونانية قديمة العهد على رأسها (سيرا كوزة) نفسها ،

أعظم مدينة ليونان الغرب . وتعتبر النظم الفعالة المتبعة في جمع الضرائب، إحدى دلالات الحضارة الراقية ، وقد كان لسيرا كوزة أحدتها في العالم الهلينستي ، تكلم عنه (شيشرون) بإعجاب بعد هذا التاريخ بمائة وخمسين عاماً . وكان (هيرو Hicro) ملك (سيرا كوزة) هو الذى خطط هذا النظام . على نسق نظام مصر البطلمية ، حيث كانت كل الأراضى مقاطعة ملكية وكل سكانها خاضعين للملك . وعلى ذلك كانت الضرائب من نصيب ملك (سيرا كوزة) بكل ما تشمله من العشر المفروض على محاصيل الحصاد والريع الناتج عن أرض المراعى والخمسون فى المائة من ضرائب المواشى . وقد اشتهرت مجموعة القوانين هذه بعداتها ومروتها . ولكن ما هو طبيعى أكثر من هذا هو أنه كان على روما أن تتولى تطبيق هذا النظام وأن تدج مملكة (سيرا كوزة) فى ولاية صقلية ! وهكذا جاءت العاقبة الخطرة من جراء ذلك ، إذ كانت أول شعوب تقطن وراء البحار تطالب روما بحكمها : أولاً شعوب غريبة على روما أو متخلفة تقطن غرب صقلية وسردينيا وكورسيكا . ثانياً : كانت خاضعة للملكية ذات سلطة مركزية محكمة . وقد نتج عن الوسائل التى اتبعتها روما تغيير جذرى فى طبيعة الدولة الرومانية ، إذ أصبح فى حوزتها الآن شعوب تخضع لها وأراض تحت سيطرتها تفرض عليها جزية تدفع لروما نفسها ، لالأعضاء الحلف الرومانى الآخرين ، وهكذا اكتمل نظام تكوين حكومة لولاية - ظهر هذا النظام شيئاً فشيئاً ، وبصورة عرضية تماماً ، وبالنظر بعين الاعتبار إلى الماضى أكثر من المستقبل . وقد أصبح لهذا النظام آثار بعيدة المدى على روما ، بل وعلى عالم البحر المتوسط .

ولم يقصر توسع روما خلال هذه السنوات على ما اكتسبته من أراض من قرطاج . فقد قامت بسلسلة من الحملات فى « ليجوريا Liguria » وبسطت نفوذها على الأراضى الواقعة وراء « بيزا Pisa » حتى جبالها،

الألب المارitime Alpes ومرة ثانية كان يهدد إيطاليا في ذلك الوقت عام ٢٢٥ ق م . خطر غزو « غالي » واسع ، تقريباً على نطاق الغزو الذي حدث منذ قرن . واضطرت روما إلى تعبئة جيش جرار . وقد قام هذا الجيش بسحق « السكتيين Celts » في موقعة « تيلامون Telamon » وكى تمفادى روما مثل هذه الأخطار في المستقبل، واندفعت تجاه الشمال إلى بلاد الغال القريبة Cisalpine Gaul . وبدأت تقوم بسلسلة من أعمال التنسيق انتهت باختزال هذه الأراضي إلى ولاية ، وأقامت مستعمرات في « بلاكنتيا Placentia » و « كريمونا Cremona » و « مودينا Modena » نشأت عنها مدن سهل لمبارديا الشهيرة . أما في البحر الأدرياتيكي فإن نشاط القرصنة الذي كانوا يقومون به من قواعدهم الواقعة على شاطئ « دلماتيا Dalmatia » اضطرت روما إلى اتخاذ خطوة إيجابية بشأن البحرية وإلى إنشاء قاعدة خاصة بها في « أيبروس Epirus » وهي ألبانيا الحديثة ، جعلتها على اتصال دبلوماسي بمقدونيا وبلاد اليونان .

إن كل هذه الأحداث كانت تعنى تدعيم النفوذ الروماني . لكن كان توسع قرطاجة في أسبانيا أكثر إثارة للدهشة وكان المصمم الأول لمشروع هذا التوسع هو « هاميلكار باركا Hamilcar Barca » وقد يكون جديراً بالذكر حقاً أن نقص القصة الكاملة عن السنوات التسع التي قضها حاكماً لاسبانيا ، إذ يبدو أنه في مرتبة هؤلاء الرجال من أمثال « لوأوتى Lyautey » كرجل يدير مستعمرة . بل وحتى إن عدوا لدوداً لقرطاجة مثل « كاتو الأكبر Cato the Elder » لبشير بإعجاب إلى ما قام به « هاميلكار » وإلى الذكرى الخالدة التي تركها وراءه ، وذلك عند زيارته لاسبانيا بعد نصف قرن من التاريخ . وكان يشترك مع « هاميلكار » في مهمته هذه أعضاء مجلس قرطاجة الأوليجركي ، كما كان المواطنون القرطاجيون الذين يخدمون في جيشه يجتمعون فيما يشبه تلك الاجتماعات

الشعبية - وهذا دليل واضح على الأهمية القصوى التي أضيفت إلى هذا المشروع . ومصالح قرطاجة قبل ذلك الوقت كانت تتركز في « أندالوسيا Andalusia » ، ذلك بالإضافة إلى عاصمتها جاديس Gades ، (قادش الحديثة) المستعمرة القديمة ومينائها الهام « مالاكا Malaca » (مالاجا الحديثة) وخط من المراكز التجارية ، وموانئ الصيد على طول شاطئ الأطلس على غرب خليج (جيبرا التار Gibraltar) وكانت هذه البقعة هي أرض مملكة (تارتيسوس Tartessus) القومية القديمة التي عثر على ثروتها في مناجم (سييرا مورينا Sierra Morena) الغنية . ولكن استحوذ القرطاجيون تحت إمرة (هاميلكار) على ولاية أخرى أكثر ثراء في جنوب شرق أسبانيا بقاعدتها الرئيسية (اليكاتي Alicante) وتمتد هذه الولاية على طول الشاطئ حتى رأس (ناو Nao) وقد فتح القرطاجيون مناجم جديدة تنتج السلقون كما تنتج النحاس ، وطوروا من الزراعة وأنشأوا المدن ، والأهم من ذلك قاموا بتعبئة جيش جرار للمستعمرة من رجال القبائل الأسبانية . لقد كانت هذه المستعمرة وهذه التطورات تعتبر تضخماً في نفوذ قرطاجة يبعث على الخوف ، ذلك لأن الجنود الأسبان كانوا دائماً جنوداً أكفاء - بل وكانوا في بعض الأزمنة أكفأ جنوداً في العالم . ولا غرابة في أن روما وحليفها ماسليا المدينة اليونانية قد أدركا هذا الخطر وأوفدا سفارة رومانية لتستطلع الحال هناك ، في عام (٢٣١ ق م) وقد جاءتهم الإجابة المهذبة أنه قد تم القيام بكل هذه التطورات كي تضمن قرطاجة دفع التعويض الملزومة به في الوقت المحدد .

إن شعور (هاميلكار) الصادق لتعبير عن هذه القصة تعبيراً أكثر دقة - سواء كانت حقيقية أو زائفة . ذلك أنه عندما اصطحب ابنه (هانيبال) معه من قرطاجة إلى أسبانيا جعل الصبي البالغ من العمر تسع سنوات يقسم على مناصبة روما عدواً أبدياً . وعندما قتل هاميلكار في

عام ٢٢٨ ق م . خلفه (هاسدروبال Hasdrubal) زوج ابنته ، وكان يمتلك حيوية ونشاطا . فقد شرع في غزو الهضبة الوسطى الشاسعة وأنشأ عاصمة جديدة رائعة لكل الولاية عند (نوكا كارثاجو Nova Carthago) أي قرطاجة الجديدة (وهي قرطاجنة الحديثة) . وفي عام ٢٢٦ ق م . عقدت معاهدة مع روما حددت نهر (أبرو Ebro) حداً نهائياً للنفوذ القرطاجي في الشمال . وبعد خمس سنوات أُغتيل (هاسدروبال) وخلفه (هانيبال) وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ليصبح ثالث حاكم من عائلته ، بل وربما أعظم حاكم . فقد قام بحملتين عبر الهضبة الأسبانية وتوغل بعيداً حتى وصل إلى (سالامانكا Salamanca) ونهر (دورو Douro) وهكذا أصبح في ذلك الوقت ثلثا شبه جزيرة أيبيريا تقريباً تحت سيطرة قرطاجة من الناحية الاسمية على الأقل . كما أقام اتصالات دبلوماسية عبر جبال (البرانس Byrenee) مع قبائل الغال التي كانت تهدد (ماسيليا) بل وإيطاليا نفسها . وعندما ناشدت إحدى المدن (روما) العون . وهي مدينة (ساجنتوم Saguntum) ، إحدى المدن الأسبانية القليلة التي تتمتع باستقلال ذاتي ، كان كلا الجانبين : الرومان والقرطاجيين ، يرحب بوجود ادعاء يستند إليه ليشعل نيران الحرب الطاحنة .

وهكذا جاء الوقت المناسب لمشروع (هانيبال الواسع) وأصبح في مقدور قرطاجة الآن أن توفي بدينها لروما . إن خطط هانيبال العسكرية وسلسلة المعارك التي تكون في مجموعها أروع نتاج هذه الخطط، توضع بين روائع التاريخ الحربي ، كما يتمتع (هانيبال) بمكانة لا تتزعزع بين أعظم قواد العالم ، ومن دلائل عبقريته أنه كان في استطاعته طوال هذه الفترة الطويلة أن يمتلك ناصية الهجوم على عدو يتمتع بموارد أكثر وفرة ، مثله في ذلك مثل (روبرت . إ . لي Robert E. Lee) . وقد عبر المؤرخون

منذ عصر (بولوبيوس Polybius) عن إعجابهم بجرأة خطة هانيبال لنقله ميدان القتال إلى إيطاليا نفسها ، على الرغم من سيادة (روما) على البحر المتوسط وسيطرتها على صقلية وما تستطيع تعبئته من قوات جديدة جرارة من إيطاليا يقدر عددها بحوالي ٧٠٠,٠٠٠ جندي من جنود المشاة و ٧٠,٠٠٠ من الفرسان . ولكن وضع (هانيبال) في حيز التنفيذ خطة درسها دراسة دقيقة واستغرق إعدادها فترة طويلة من الزمن . فبعبوره لجبال الألب سيكون بين قبائل الغال التي أخضعها روما منذ وقت قصير فقط والتي تتمحرق شوقاً إلى التخلص من القيود المفروضة عليها . لقد كان كل شيء بالطبع يتوقف على قدرته في سحق الجيوش الرومانية في أرض المعركة ، ولكنه كان واثقاً من هذا الأمر . . . ويحق له ذلك . وقد يتزعزع على الأقل تحالف روما مع (سامنيوم Samnium) و (أبوليا Apulia) بسلسلة من الانتصارات على الرومان . ولو أنه تمكن وهو في جنوب إيطاليا من الحصول على إمدادات من قرطاجة فقد تسقط صقلية في يده أو تقف على الحياد . وقد يؤدي نجاحه في هذه الخطط إلى إدخال مقدونيا في الحرب ، عندئذ يمكنه أن يهاجم (روما) من ثلاث جهات وقد يدمرها ، أو على الأقل يفقدها زعامتها لإيطاليا .

كانت هذه هي الآمال التي على ضوءها ترك (هانيبال) قرطاجة الجديدة في أبريل عام ٢١٨ بجيش قد يصل تعداده إلى أربعين ألف جندي . وما إن انتصف شهر أغسطس حتى كان قد وصل إلى منطقة الرون ، وأرسل الرومان إلى هذه المنطقة جيشاً تحت إمرة قنصل هو (بولبيوس سكيبيو Publius Scipio) ليعوق طريق تقدم هانيبال . ولكن الجيش (البوني) تحرك نحو أعلى النهر واختفى عن الأعين . ورأى بولبيوس ما حدث بعينه — فقد كان هانيبال يعبر جبال الألب ، وفي الحال أرسل بولبيوس جيشه إلى أسبانيا ليشتت من خطوط اتصالات البونيين — وهذا

قرار حكيماً في حد ذاته كانت له فوائد جمة عادت على روما . ثم أبحر (بوبليوس نفسه ليواجه هانيبال في شمال إيطاليا . والطريق الذي سلكه هانيبال عند عبوره لجبال الألب قد أثار جدلاً تضاربت فيه الأقوال منذ زمن المؤرخ (بوليبيوس) حتى يومنا هذا ، وقد أتاح هذا الجدل الفرصة أمام العلماء المهتمين بالوصول إلى رأى ليقوموا بكثير من الرحلات الممتعة . وأكثر الطرق احتمالاً قد تكون ممرات جبل (كنييس Cenis) وجبل (جنيفر Genève) . وفي أواخر شهر سبتمبر قاد (هانيبال) جيشاً قد أضناه الجهد وانكمش عدده إلى سهل (البو Po) وحاول (سكيبيو) ، وهو محق في ذلك . أن يشتبك معه في قتال قبل أن يتمكن من استعادة قوته نخرج الرومان بأسرء معركة حاربها الفرسان عند نهر (تيكيينوس Ticinus) وبعد مرور بضعة أسابيع انهزموا هزيمة منكرة في معركة (تريبا Trebia) وذاقوا مرارة الكوارث التي تنذر بها قدرات هانيبال في رسمه للخطط العسكرية . وانتصر هانيبال حينئذ فيما يطلق عليه (معركة وادي البو) لأن القوات الرومانية كانت قد انسحبت إلى ماوراء جبال الأبنين لتنتظر القيام بحملة عام ٢١٧ ق م . بينما تركت (كرميونا) و (بلا كنتيا) ليقاوما الحصار ، وقد صمدتا طوال فترة الحرب .

لقد أنزل الرومان إلى الميدان مالا يقل عن إحدى عشرة فرقة لهذا العام ، فقد أرسلت فرقتان إلى أسبانيا ، وفرقتان إلى صقلية وأربع فرق تحت إمرة القائدين القنصلين الجديدين « سيرفيليوس جمينوس Servilius Geminus » و « جايوس فلامينيوس Caius Flaminius » لتسد الطريق المؤدى إلى روما . واضطر هانيبال إلى عبور جبال الأبنين سالكا الممر المستخدم الآن في السكك الحديدية من بولونيا إلى « فلورنسة » . وقد قاسى من تساقط الجليد في الجبال حتى شهر مايو ، ومن الفيضانات في وادي نهر « أونو Arno » ، وكلما كان هانيبال بعيداً عن روما كان

ذلك في صالح الرومان لكن فلا مينيوس لم يكن كفؤاً هانيبال الذي أغواه إلى الوقوع في كارثة على شواطئ بحيرة (تراسميني Trasi-mene) .
ففي صبيحة يوم مشبع بالضباب دخل الجيش الروماني إلى الأرض المسطحة الواقعة بين البحيرة والتلال . وكان هانيبال يختفي فوق هذه التلال .
وعندما أصبح الجيش كله داخل هذه البقعة ، وقع في الشرك ، وحوصرت القوات الرومانية ، وقد فقدت فرقتين بقائدهما . لقد كانت كارثة لا يمكن التنكر لها ، وكانت الكلمات التي جاءت بالإنباء إلى روما هي (لقد انهزمتنا في معركة جليظة) . وقد كان أمام كلتي الجبهتين أمور كثيرة تتعلق بالطريقة التي سارت عليها الحرب ليمعنا النظر فيها . فبالنسبة إلى روما كان من الواضح أن مواجهة هانيبال في الوقت الراهن لا أمل فيها . وهانيبال القرطاجي من ناحية أخرى ، وجد نفسه عاجزاً عن الاستيلاء على مدينة ذات قوى دفاعية حصينة ، كما لم يكن قد انضم إليه حتى ذلك الوقت أى حليف إيطالي . وقد لا تعود عليه أية فائدة من احتلاله لوسط إيطاليا . فاستغل الانتصار الذي أحرزه ليتحرك جنوباً على طول طريق (فلا مينيوس) حتى وصل (أبوليا) وأصبح جنوب إيطاليا منذ ذلك الوقت قاعدته الرئيسية خلال الفترة الباقية من الحرب .

ولم تتح لروما مثل هذه الحرية في القيام بالمناورات ، فأولا يجب تغيير الأوضاع في الدولة تماماً بما يتناسب مع حالة الحرب ، ومن أجل هذا الهدف عادوا إلى الوسيلة القديمة وهي تعيين دكتاتور . ووقع اختيار الحزب الأرستقراطي على (كوينتوس فابيوس ماكسيموس Quintus Fabius Maximus) . إلا أن هذا الحزب لم يكن قد اندمج بكل حواسه في حالة الطوارئ التي تعتم البلاد . فبدلاً من أن يترك لفابيوس حرية اختيار قائد لفرسانه ، فرضوا عليه (مينوكيوس Minucius) وهو مرشح من قبل الديمقراطيين ، ولكن فابيوس بدأ على الأقل تطبيق سياسة

حرية تستند على حقائق الموقف ، فواجهة هانيبال في أرض المعركة شيء مستحيل ، ولكن من الممكن الإغارة عليه ، وقطع المئونة عنه ، وقد يعمل الزمن في صالح روما . لقد كانت هذه السياسة هي سياسة الحرب التي اتبعها الروس ضد نابليون عام ١٨١٢ وهذه السياسة أ كسبت فايوس صفة (المعطل Cunctator) كما أن جملة (تخطيطات فايوس العسكرية Fabian tactics) أصبحت اصطلاحاً منتشرأ تماماً في عصرنا الحديث . ولكن تطبيق مثل هذه السياسة كان يتطلب إتباع نظام صارم مع أنها طبقت طوال الفترة الباقية من عام ٢١٧ ق م . وكانت القوات الرومانية تراقب الموقف بغضب لا حول له ولا قوة ، بينما كان هانيبال ينشر الدمار في أرض (كيانيا) الخصبه . وعندما لم يمس هانيبال مقاطعات (فايوس) وأصدقاه بأى سوء ، تلبد الجو بالغيوم ولكن عندما قفل راجعاً إلى إقليم (أبوليا) عبر الجبال مستخدماً حيلة لم تتخذ فايوس قط ، بل جعلته يبدو مغفلاً ، أصبح من المحال تحقيق أى نجاح . وتحت زعامة (مينوكيوس Minucius) فاز الديموقراطيون بانتخابات القنصلية لعام ٢١٦ وذلك بسياستهم التي تنادى بمواجهة (هانيبال) وهزيمته في (أبوليا) ، وعلى ذلك تحرك جيش روماني جرار في شهر أغسطس من نفس العام تحت إمرة القنصلين (جايوس ترنتيوس فارو) و (لوكيوس أيميليوس باولوس) واشتبكا مع هانيبال في ميدان قتال اختاره هو — ليسكون أرضاً يضرب فيها ضربته القاصمة . إن معركة كنانا Cannae تعتبر المثل الأعلى للنصر الساحق ، فقد كانت أشنع كارثة منيت بها روما ، قتل فيها خمسة وعشرون ألف جندي ، ووقع في الأسر خمسة عشر ألفاً . أما (فارو) فقد تمكن من الهرب مع عشرة آلاف جندي . وكانت السنوات التي تلت معركة كنانا أحلك سنوات الحرب بالنسبة لروما : فقد تخلت (سامنيوم) وأبوليا عنها ، واستطاع هانيبال أن يسيطر على (كابوا Capua) ثاني مدينة في إيطاليا بعد روما ، كما تم عقد تحالف بين (هانيبال) وفيليب ملك مقدونيا .

والأسوء من ذلك مات «هيرو» ملك سيرا كوزة وتمكن وكلاء هانيبال من ضم خليفته الشاب إلى جانبهم وظهر أسطول قرطاجي في ميناء سيرا كوزة ، وعلى ذلك فقدت روما أعظم مدينة يونانية في غرب البحر المتوسط ، ذلك بالإضافة إلى احتمال ضياع صقلية كذلك .

ولكن كان حلفاء وسط إيطاليا ما يزالون أوفياء ، وكانت روما تواجه مشاكلها بروح لا يشوبها الخوف . فعندما عاد « فارو » من هزيمة المفجعة تسلم قراراً رسمياً يشكره « ذلك لأنه لم يفقد أمله في الجمهورية » بل وحتى استخدمته روما مرة ثانية ولاقى نجاحاً باهراً . وفي نفس الوقت وبعزيمة من حديد ، بدأت روما تستخدم ما لها من مزيتين ، هما الزمن ، وكثرة العدد . فقد تم تعبئة خمسة وعشرين فرقة ، وطبقت تكتيكات « فابيوس » العسكرية بصورة جديدة . وقام شريط من الجيوش التي يسهل تحركها بعزل هانيبال في جنوب إيطاليا كما قامت قوة هائلة تحت إمره « ماركلوس Marcellus » بضرب الحصار حول « سيرا كوزة » وضربت حلقة مزدوجة من الجيوش الرومانية الحصار حول « كابوا » وعسكرت هناك حتى تميتها جوعاً . ولم يكن في وسع أى قوة أن تحل التفاقة هذا الشعبان من حول المدينتين . وكان لسيرا كوزة أقوى التحصينات في العالم القديم ، ومن حقا أن تسترعى انتباه عبقرية العالم الرياضى العظيم والمهندس « أرشميدس Archimedes » ولكنها سقطت في يد « ماركلوس » — بعد حصار دام عامين ونصف عام . ولكن يرفع هانيبال الحصار المضروب حول « كابوا » قام بزحف من « كابوا » إلى أبواب روما نفسها ولكن الرومان لم يتمسكهم الخوف ، بل أقاموا « مزاداً علنياً » يبيعون فيه الأرض التي قام عليها معسكره وقد وصل ثمنها حقاً إلى سعر مرتفع ، ولكن لم يترك أى جندي من جنود الرومان « كابوا » . وفي عام ٢١١ سقطت كل من « كابوا »

وسيرا كوزة ورجحت كفة الميزان أخيراً في صالح روما على المسرح الإيطالي في الحرب .

ولكن في نفس الوقت جاءت الأخبار من أسبانيا تحمل نبأ وقوع كارثة فقد قامت الجيوش الرومانية في أسبانيا ، تحت إمرة الإخوة سكيبيو بأروع حملات لم يأت مثلها منذ عام ٢١٨ ق . م . فهم لم يمنعوا فقط . وصول الإمدادات « لها نيبال » بل عبروا نهر « أبرو » وشنوا الحرب على العدو . ولكن كان من الممكن إرسال الإمدادات من قرطاجة إلى أسبانيا بصورة أيسر من إرسالها من روما ، وقد سمح الأخوان « سكيبيو » لجيوشهما بالانتشار فأبيد كلاهما . وكان لا بد من العثور على خليفة لهما فتطوع الشاب « بوبليوس كورنيليوس سكيبيو » Publius Cornilius Scipio

ومثل هذا الاختيار كان له أن يغير من مجرى الحرب لأن هذا الشاب كان حقيقة أول قائد روماني قدير . وهناك أوجه شبه شيقة بين سيرة حياة « سكيبيو » وبين منافسه العظيم « هانيبال » فقد تولى سكيبيو أيضاً قيادة لها شأن كبير وهو في الخامسة والعشرين من عمره ليحقق انتقاما يليق بعائلته . كما كان على ثقة تامة بخبرته في فنون الحرب ، وكان مثله الأعلى في هذا الميدان هو « هانيبال » لا « فايوس ماكسيموس المعطل » وعندما وصل « سكيبيو » إلى أسبانيا قام بهجوم جرى على « قرطاجة الجديدة » وكتب له النجاح فيه ، وهذه البلدة كانت قاعدة البونيين الرئيسية . وبعد فترة قصيرة انتصر في أول معركة كبرى حاربها في « بايكولا Baecula » ضد « هسدروبال » « شقيق » « هانيبال » الذي كان قائداً محنكاً أقام عظمته اعتماداً على نفسه . ولم يصبح أمام قرطاجة إلا أملاً واحداً فقط . في إحراز النصر — ألا وهو إرسال الإمدادات . « لهانيبال » الذي أقام معسكره في إيطاليا . وفي مايو ٢٠٨ ق م

نزل جيش « بوني » آخر تحت إمرة « هاسدوربال » إلى سهل البوسالسا
بمرات الأبنين . وقد أثار هذا الجيش في النفوس ذكرى غزو عام ٢١٨
الكثيثة ، مثلها أثار الاعتداء الألماني على « أردنيس Ardennes » عام ١٩٤٤
ذكرى الهجوم الخفيف الذي حدث عام ١٩٤٠ . ولكن دخلت الحرب
مرحلة جديدة واتخذ الرومان إجراءً إيجابياً سريعاً وجريئاً رداً على هذا
الزحف . فقامت أربع فرق بقطع الطريق المؤدى إلى الجنوب على « هاسدوربال »
عند نهر (ميتاوروس Metaurus) وزاد من قوة هذه الفرق الجنود
الذين سحّبهم (كلود يوس نيرو Claudius Nero) من القوات التي كانت
تقوم بتغطية هانيبال وقادهم في زحف مسلح قطع ٢٤٠ ميلاً في ستة أيام .
وأحرزت القوات الرومانية نصراً ميبئاً بعد أن توحدت صفوفها ، وكانت
هذه هي أول هزيمة منكرة لجيش قرطاجي في أرض إيطاليا . ولم يعلم
هانيبال بأمر هذه الهزيمة إلا بعد مرور عشرة أيام عندما ألقيت رأس أخيه
(هاسدوربال في معسكره . فانسحب إلى (بروتيوم Bruttium) آخر قاعدة
حصينة يسيطر عليها في إيطاليا .

وما بين عامي ٢٠٨ و ٢٠٦ ق . م قام (سكيديو) بسلسلة من الحملات
طوى فيها الجيوش القرطاجية المعسكرة في أسبانيا طياً . ثم عاد إلى روما
بعد ذلك لكي ينتخب قنصلاً لعام ٢٠٥ ق . م ويعرض خطته الجريئة .
وكانت هذه الخطة تتضمن القيام بحملة إلى أفريقيا قد تؤدي إلى القضاء على
قرطاجة وتضع حداً لهذه الحرب . ولكن (فايوس) عارض هذه الخطة
إذ كان ما يزال يعتقد أنه يحارب السنوات الأولى من الحرب أو ربما
قد تذكر مصير (ريجولوس) . وأبحر (سكيديو) ليقوم بحملته العظيمة على
الأرض الأفريقية بجيش صغير تم إعداده بدقة من الجنود المتطوعين .

وخلال عامين (٢٠٤ و ٢٠٣) من الحرب والمناورات الدبلوماسية
أجبر (سكيديو) قرطاجة على عقد هدنة أو أصبحت على وشك عقد الصلح ،

لكن حزب الحرب فى قرطاجه كان ما يزال نفوذه قويا ولم يكن أمامه إلا مخاطرة واحدة - ألا وهى استدعاء (هانيبال) من إيطاليا . وهكذا بعد خمسة عشر عاما قضاها هانيبال فى إيطاليا قاد القائد العظيم جنوده القدامى عائدا إلى أفريقيا ليواجه آخر دورة من هذا الصراع .

وفى (Zama زاما) فى خريف عام ٢٠٢ التقي قائدان من أعظم قواد عصرهما وجها لوجه . ولا مفر من مقارنة هذه المعركة بمعركة (واترلو Waterloo) وبعد معركة طاحنة طالت يوما بأكمله انهزم القائد المحنك العجوز على يد منافسة الشاب هزيمة ألغت كل روائع انتصاراته . ولم يصبح أمام قرطاجه الآن سوى أن تطلب الصلح .

كان لا بد أن تكون شروط الصلح قاسية ، فلم تكن روما لتغامر وتعطى الفرصة ليتجدد الخطر الذى فلتت منه بصعوبة . فتخلت (قرطاجه) عن بحريتها وعن ممتلكاتها الواقعية وراء البحار وفرضت روما عليها تعويضها هائلا عن الحرب ، ولم تحتفظ قرطاجه إلا بأراضيها الواقعة فى أفريقيا ، ووضعت روما (ماسينسا Masinissa) ملك (نوميديا) على حدود قرطاجه لسكونه حليفا للرومان ، وهكذا قطعت قرطاجه الأمل فى أن تصبح دولة قوية فى حوض البحر المتوسط . كما آلت مكائنها فى أسبانيا وفى الغرب إلى روما .

لقد مزقت آثار الحروب البونيه كل بنيان حياة روما الاقتصادية والاجتماعى والسياسى . وكانت هناك قبل كل شىء خسائر جسيمة فى الأرواح والممتلكات . وإذا أردنا استخدام تعبير حديث نعبر به عن هذا الوضع فإننا نقول : لقد اندفع محراث الحرب المتوهج فى أرض إيطاليا الجميلة . ولكن اندفع هذا المحراث فى الحروب البونيه الثانية خاصة جيشة وذهابا بحركة بطيئة تبعث على الألم طوال خمسة عشر عاما . لقد وصلت

أعمال التخريب إلى حد البشاعة وخاصة في جنوب إيطاليا : حتى إن البعض يعتقد أنه ما يزال من الممكن رؤية آثار هذا التخريب حتى الآن، فنحن نسمع عن أربعمئة قرية قد محقت تماما من « أبوليا » أثناء القتال الذي دار بعد معركة « كناى » وعند الاستيلاء على « تارنتم Tarentum » تم بيع ثلاثين ألفا من سكانها كعبيد . وكانت المزارع هي التي تمد الجيوش الرومانية بالرجال ليلقوا حتفهم بالآلاف في « تراسيمينى » و « كناى » . أما هؤلاء الرجال الذين حاربوا في المعارك التالية وقاموا بحملات أحرزت الانتصارات فقد عادوا ليجدوا مساحات شاسعة من الأراضى قد اختفت تماما عن العالم المتحضر ، فقد دمرت أبنية المزارع وقتلت الحيوانات التي كانت تربي فيها — وبهذه الصورة فقدوا كل ما توفر لهم من رأس مال . وقد يفتقر الكثيرون للوسائل أو الرغبة في مواولة الزراعة مرة أخرى، وقد يتدفقون على المدن — لا سيما روما — ليزيدوا من جموع فقراء المدينة التي كانت تعتمد في حياتها على راع ثرى أو على الدولة ولكن كما هو مألوف عادة ظهر بعض الرجال الذين خرجوا من عقد الصلح بفوائد دجمة . فقد تكونت ثروات ضخمة من جراء إبرام عقود الحرب وأصبحت هناك في روما ، لأول مرة طبقة من رجال الأعمال الأثرياء . وكما حدث في فترة ما بعد الحرب العالمية ، سنحت الفرص المغربية لمن يملك رأس مال لجلب الأرباح وخاصة من شراء أو تأجير أراضى الدولة العامة (ager publicus) وكانت قد زادت مساحتها زيادة هائلة نتيجة لمصادرة أراضى الجماعات المتمردة من سكان جنوب إيطاليا . وكان سعر الأرض في انخفاض مستمر ، والأيدى العاملة متوفرة بأجور زهيدة وكانت تقوم بزراع هذه الأراضى ، وتتمثل هذه القوى العاملة في العبيد الذين جلبتهم الحروب في أفريقيا وأسبانيا وبلاد الغال القريبة، بل ومن إيطاليا نفسها، وأصبحت أرض المرعى — لا الأرض الزراعية — هى محور الاهتمام حينذاك — فالماشية والأغنام كانت تربي في المزارع الشاسعة التي كان يقوم بالعمل فيها جماعات من العبيد . كما كان

من الممكن جمع ثروة من الكروم أو من زراعة المشاتل أو الزيتون وذلك بالنسبة للمقاطعات الصغيرة حيث كان يترك « ناظر العزبة » وزوجته فيها ليتولى الإشراف على الأيدي العاملة المكونة من خمسة وعشرين إلى خمسين عبداً ، بينما يقوم المالك بجولات تفتيشية حتى يتحقق من أنهم لم يخذعوه . هكذا كان حال الريف كما صورته « كاتو » ، في مقالة « عن الزراعة De Agricultura » ، التي كتبها حوالى عام ١٦٠ ق . م . وهكذا اختفى نظام المزرعة الصغيرة من أجزاء واسعة فى إيطاليا وخاصة من « أبوليا » ولاتيوم « وأتروريا » ، أما النتائج الاجتماعية لهذه الحرب فقد كانت ذات أثر بعيد المدى . فما أن مر جيلان على هذا الوقت حتى أدت إلى قيام الانقلاب الهائل الذى حدث فى زمن الأخوين « جراكى Gracchi » . أما فى مجال السياسة فقد أدت الحروب إلى تدعيم مركز مجلس الشيوخ تماماً وانطفاء نجم الحزب الديمقراطى ، إذ كان ازعمائه السياسيين سجل مشين فى الحروب ذلك لأنهم كانوا مرتبطين بسياسة التمور التى أدت إلى مصير مشئوم وإلى وقوع كارثة « تراسيمينى » و « كنى » ، بينما أخرجت قريحة مجلس الشيوخ كلا من سياسة « فايوس » الدفاعية وهجمات سكينيو الرائعة . وفى الواقع أدى تماسك مجلس الشيوخ وشجاعته إلى تطبيق نظام التوجيه المركزى الذى يعتبر عاملاً جوهرياً لنيل النجاح . والحروب لا تكون فى صالح المناقشات التى تدور فى الجمعية الشعبية ، بل هى تدعم من مركز السلطة التنفيذية فقط ، وفى روما كانت السلطة التنفيذية تعنى مجلس الشيوخ . وعلى ذلك فإن نصف القرن من ٢٠٠ — ١٥٠ ق . م كان بالذات فترة سيادة مجلس الشيوخ وذلك بالإضافة إلى وجود حلقة داخلية فيه تحتكر المناصب العليا احتكاراً فعلياً . فمن القناصل الذين تم انتخابهم بين عامى ٢٤٣ — ١٤٣ فى . م كان نصفهم من عشرة عائلات فقط ، بينما كان أربعة قناصل من خمسة من ستة وعشرين عائلة . إن إنجلترا نفسها فى القرن الثامن عشر لم تكن أوليجركية بهذه الصورة .

ولكن أهم ما وجد من تغييرات هو ذلك الذى وجد على وضع روما بالنسبة للبحر الأبيض المتوسط . فقد انتصب عنهم جديد شامخ فى الغرب ، وخلال عشرين عاما من موقعة زاما ، كانت روما قد كسرت إلى الأبد قانون ميزان القوى الذى دام بقاؤه فى العالم الهلينستى أكثر من قرن . وما أن مر خمسون عاما حتى كان النظام الذى تتبعه روما فى إقامة الولايات قد امتد من أسبانيا حتى آسيا ، وأصبحت روما دولة كبرى ذات نظام إمبراطورى وقد رها أن تبقى طوال الفترة الباقية من تاريخها على هذا النظام . ومع ذلك لم تأت الإمبراطورية إلى الوجود عن طريق اتباع أى سياسة استعمارية متعمدة ولا عن طريق إدراك روما نفسها لمصير هى علمية به . كما أن مجلس الشيوخ لم يكن لفترة طويلة راغبا فى تأييد فكرة امتلاك أراض عبر البحار وخاصة فى شرق البحر المتوسط . ولم تسحب روما جيوشها من مقدونيا إلا فى وقت متأخر عام ١٦٨ ق . م وقسمت مقدونيا إلى أربع جمهوريات مستقلة . ولكن شهدت هذه الفترة ظاهرة أخرى من ظواهر السياسة الرومانية أكثر بشاعة ، تبلورت هذه الظاهرة فى التدمير الوحشى الذى تم عام ١٤٦ ق . م . « لىكورنته » و « قرطاجة » ، وليس هناك مجال للشك فى أن روما استحوذت على ولايات أفريقيا (١٤٦ فى م . ومقدونيا (١٤٨ ق . م) وآسيا (١٤٩ ق . م) لما قد تجلبه هذه الولايات لروما من فوائد .

كانت هذه الفترة من أهم الفترات الحاسمة فى « تاريخ الغرب » ، ومن حسن الحظ أن لدينا تقريرا عن هذه الفترة كتبها رجل يتمتع بمزايا لا يتمتع بها أحد وسنحت له فرص فريدة مكنته من متابعة مجرى الأحداث — ذلك الرجل هو « بولوبوس Polybius » المؤرخ اليونانى . كان « بولوبوس » مواطنا من بلدة « ميجالوبوليس Megalopolis » ، وقد لعب دورا رئيسيا فى شئون الحلف « الأخرى » السياسية من عام ١٨٣ — ١٦٨ فى م . ثم

أبعد إلى « روما » مع ألف رجل من مواطنيه بسبب الدور المثير للشكوك الذي قام به الحلف الأخرى خلال الحرب المقدونية الثالثة . وبفضل صداقته بأيميلئوس باولوس وفيما بعد « بسكيبيو إيميليانوس » اطلع على خبايا شؤون السياسة الرومانية وكان حاضرا أثناء وقوع هذه الأحداث الهامة ، مثل الاستيلاء على قرطاجة وتدمير « كورنثه » . والمهمة التي أخذها « بولوبئوس » على عاتقه — والتي لم يكن ليصلح لها تماما أى رجل غيره من رجال عصره — هى تفسير ظهور روما لليونان والرومان على السواء . وآراؤه الخاصة بوظيفة ، التاريخ ، قد أنارت الطريق أمام من يقرأ كتابه . ففي رأيه أن الغرض من التاريخ ليس تكديس ذرات من غبار على أرفف مكتبه ، بل يجب أن يكون التاريخ عمليا فهو معلم رجال الساعة ، وكان « بولوبئوس » يكتب لسياسة الدولة . وقد اعتبر هزيمة المقدونيين على أيدي الرومان فى « بودنا Pydna » عام ١٦٨ فى . م حادثة حاسمة . وما إن جاء هذا التاريخ حتى اضطر الجميع إلى الاعتراف بأنه ليس أمامهم شىء فى المستقبل سوى التسليم بسيادة الرومان وإطاعة أوامرهم .

ولكن لا بد وأن إنجاز مثل هذه الأعمال كان يبدو بعيد المنال فى عام ٢٠٠ ق . م . فقد كان الطابع الدبلوماسى الذى سار عليه العالم الهلنستى يبدو وقد رسخ وجوده لأكثر من قرن . كما كانت هناك ثلاث دول قوية : مقدونيا ، سوريا ، ومصر : وهى الدول التى خلفت إمبراطورية الإسكندر الأكبر العالمية الممتدة من البحر الإدرىاتيكى حتى « البنجاب Punjab » وأى ملك قدير أو طموح من ملوك هذه الدول قد يعتبر نفسه الوريث الشرعى « للإسكندر » ويحاول استرداد تركته . وقد حاول الكثيرون بالفعل ولكن لم يوفق أحد منهم . وقد تم إحياء هذه الإمبراطورية العالمية لا على يد أحد منهم ، بل على يد روما نفسها ولكن تم ذلك بتحويل مركز الثقل إلى إيطاليا وتحقيق مكاسب فى الغرب لتعويض ما فقدته من أراضى شرقى نهر اليوفراتيس Euphrates « الفرات » .

وهناك اختلافات متباينة بين هذه الممالك الهلينستية الثلاث. وربما كانت مقدونيا أعلاهم مكانة بوصفها موطن الإسكندر والفيلق، ذلك الفيلق الذي بفضلها قام الإسكندر بغزو العالم. وكانت نواة قوتها تسكن في مملكة البلقان القديمة — حيث كانت سهول مقدونيا في إمكانها أن تعول عددا كبيرا من السكان. كما كان بها أيضا مناجم ذات أهمية قصوى للفضة والذهب والنيحاس والحديد. ومن هذه المنطقة الحساسة الهامة انتشر نفوذ مقدونيا على أراضي القمح والكروم الغنية في «ترافيا» وبعض جزر شمال بحر إيجه. أما في الجنوب فقد كان سلطانها يتأرجح في كثير من الأراضي اليونانية وكانت تزاوّل هذا السلطان منذ أيام فيليب. وبعد أن انطفأ نجم قرطاجة، أصبحت مقدونيا أقرب مملكة قوية لروما، ويحتمل أن تكون مصدر اللخطر عبر بحر الأدرياتيكى كما دل على ذلك التحالف بين «هانيبال» و«فيليب الخامس».

أما في مصر فقد خلفت سلالة البطالمة اليونانية الفرعنة الذين كانوا من أهل البلدة نفسها واستغلت هذه السلالة الموارد الطبيعية الغنية لوادي النيل بتطبيقها نظام حكم بيروقراطي على درجة عالية من التنظيم. وكانت الأرض تكتظ بالسكان، ذات إنتاج وفير من الحبوب، غنية في ذهبها ونحاسها وحديدها ذلك بالإضافة إلى سلسلة هائلة من المباني الحجرية والرخامية. وتجارة أوراق البردى التي تحتكرها مصر كانت مصدرا هاما من مصادر الدخل، إذ كانت مصر تمد العالم بالبردى وهو أكثر مواد الكتابة استخداما وانتشارا في ذلك الوقت. وكانت مدينة «الإسكندرية» ذات الأجناس المتعددة أعظم مدينة وميناء في العالم كما كانت أيضا المركز الرئيسي للحضارة، شهيرة بمكتبتها ومتحفها الذي كان عبارة عن مؤسسة للبحث العلمي تضم الباحثين والعلماء لسكن لم تكن مصر قادرة على الاحتفاظ بمركزها في مجال النفوذ العالمى. ففي أثناء حكم بطليموس ايفانيس الخامس (٢١٠ — ١٨٠ ق. م) Ptolemy V Epiphanes فقدت مصر كل ممتلكاتها

الواقعة خارج أفريقيا عدا قبرص ، وبدأت مصر مرحلة تدهور تميزت بظهور الحكام الضعاف والخلافات بين أفراد العائلة المالكة . وقد كانت نقطة الضعف هذه بالذات السبب في أن مصر كانت آخر من وقع تحت سلطان روما من الممالك الهلينستية .

أما سوريا فقد كان يحكمها ملوك أسرة سليوكوس Seleucus من عاصمتهم « أنتيوخ » الواقعة على نهر أورونتس Oronates وكانت أكثر الممالك الثلاث اتساعا وأكثرها احتواء على أجناس متعددة، إذ تقع سوريا عند مفترق طرق المرور بين أوروبا وآسيا وأفريقيا حيث كانت تستخدم طرق القوافل الكبيرة في نقل البضائع من الهند ومن بلدان الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط عبر الصحراء . وكان من الممكن أن يكون هذا الموقع مكانا مناسباً للسيطرة منه على العالم ، ولكن الميول الانفصالية في الولايات القومية القديمة الواقعة وراء نهر « اليوفراتيس » كانت دائماً هي نقطة الضعف في حكم ملوك أسرة (سليوكوس Seleucus) . وحقبة أن النفوذ اليوناني أثناء حكم الملك أنتيوخوس الثالث (٢٤١ - ١٨٧ ق . م) قد أعيد بسطه على معظم أجزاء هذه المملكة الشاسعة على أسس أقوى مما كانت عليه في أي وقت منذ عصر الإسكندر الأكبر ، ولكن لم يقدر لإحياء النفوذ هذا أن يدوم .

وفي وسط هذه الممالك الثلاث كان هناك عدد من دول الدرجة الثانية استطاعت أن تحافظ على استقلالها . فقد كانت جمهورية « رودوس » Rhodes البحرية تزاوّل حركة تجارية نشطة في غرب البحر المتوسط في القرن الثالث ق . م ، وقامت بحماية تجارتها هذه ضد خطر القرصنة باستخدامها أقوى أسطول بحري لهذا العصر - وقد أبقى فيها على جزء من الثقافة العالية والحرية السياسية التي ترجع إلى عصر اليونان الذهبي وتأقلمت هذه العوامل مع ظروف العصر الجديد . كما قامت مملكة غنية في

شمال شرق آسيا الصغرى على يد حكام « برجاموم » المنحدرين من عائلة أتالوس Attalus . وكانت لهم زراعة قد تطورت وموارد معدنية ، وكان برجاموم على وشك أن يكون منافساً خطيراً للبردى الذى تنتجه مصر . وعاصمة هؤلاء الملوك كانت أجمل نموذج فى العالم الهلينستى لتخطيط المدن ومركزاً هاماً للفن والثقافة . أما فى بلاد اليونان فإن عدا « روما » لمقدونيا قد أدى إلى إقامة اتحادين فيدراليين هما الحلف الأخرى والحلف الأيتولى وقد قدر لهذين الحلفين أن يكونا آخر تجربة من تجارب اليونان السياسية ولكن لم يكونا بأية حال من الأحوال أقل هذه التجارب شأنًا .

وأخيراً كان هناك كذلك نماذج من المدينة الدولة « City-state » القديمة وهى أثينا واسبرطة والمدن الأخرى ، وكان لهذه المدن مكانة محترمة . ولكن نفوذهم كان قد تضائل وكانوا ما يزالون متعلقين بأحلامهم عن « حرية » تقوم على نسق « حرية » القدماء .

كان هذا هو حال العالم الذى زج فيه بروما فى أواخر الحرب البونوية الثانية . وقد كان دائماً من الناحية الدبلوماسية صراع ذو ثلاثة أركان بين الدول العظمى ، ولما كانت مصالح الدول الأقل شأنًا تفضل طبعاً الاحتفاظ بميزان القوى بين هذه الدول العظمى فقد نشأ نظام لا يختلف عن هذا النظام الذى قام فى أوربا بين عامى ١٨١٥ و ١٩١٤ م .

وكان من الطبيعى أن يكون أول صراع تدخل فيه روما هو صراعها مع مقدونيا ، فى أثناء قيام الحروب ضد فيليب الخامس (٢٠٠ - ١٩٦ ق.م) حاربت روما بوصفها زعيمة لاتحاد يتألف من الدويلات اليونانية ، وعلى رأس هذا الاتحاد يقف الحلف « الأيتولى » وقد رفضت « الجمعية الشعبية » إعلان الحرب فى بادى الأمر ولكن اعتقد مجلس الشيوخ أنه ليس

من اللاتق ألا تستجيب روما لطلب العون الذى تقدم به حلفاؤها كما كان مجلس الشيوخ مدركا تماما للخطر الطويل الأجل الذى يهدد روما فى معركة كنوسكييفالاي Cynoscephalae « (عام ١٩٧ ق م) وهى التحام مباشر بين أعظم أساليب الحروب فى ذلك العصر بين الفرقة الرومانية والفليق المقدونى ، وانتهى اليوم فى صالح الفرقة الرومانية ولكن لما كان الرومان يتمتعون بمزية وجودهم فى أرض محصنة مليئة بالاستحكامات فقد ظل النقاش الحربى للتفضيل بين الفرقة والفليق دائما .

وفى مباحثات الصلح التى تلت ذلك اشترط الرومان شروطا أخف بكثير مما اشترطها اليونان . فقد ألح « الأيتوليون » بالفعل على ضرورة قتل فيليب أو عزله ، فألقى عليهم القائد الرومانى « كونسكتيوس فلامينيوس Quinctius Flaminius » درساً عن الحكمة فى إتباع سياسة كريمة مع العدو المهزوم وضرب لهم مثلا بمعاملة روما لقرطاجة بعد الحروب البونية الثانية . وقد نص الاتفاق على أن يحتفظ « فيليب » بعرشه ولكنه أجبر على سحب حامياته من بلاد اليونان وتخفيض عدد قواته المسلحة إلى حد كبير ودفع تعويض لروما ، وتعهد ألا يشن حربا خارج مقدونيا إلا بإذن من روما ، وهكذا قبلت أطراف مقدونيا . ثم تلى ذلك المشهد الشهير الذى حدث أثناء الأعياد الإستيمية لعام ١٩٦ ق م « Isthmian Games » حين أعلن قلامينيوس Flaminius عن طريق حجابه أن كل المدن اليونانية التى كانت خاضعة لفيليب فى وقت ما ، ستصبح حرة وتعفى من دفع الجزية . وسوف لا تخضع إلا لقوانينها الخاصة . إن تشكك اليونان لم يستطع أن يجد إلا القليل غير هذه الحقيقة ليفسر به هذا التصريح ، وهو ما فسره الأيتوليون الساخطون فقالوا : إن القلاع التى كانت تسيطر عليها مقدونيا فيما قبل أصبحت الآن فى أيدي الرومان ، وحتى هذا التفسير فقد قوته عندما

أعلن فلامينيوس في اجتماع عقد في عام ١٤٦ الجلاء عن القلاع وانسحاب القوات الرومانية من اليونان . وهكذا تركت حكمة اليونانيين السياسية لتتأمل ما تتضمنه سياسة المنفعة الشخصية المستتيرة هذه من جانب روما . وكان لهم أن يقرأوا بوادر هذا الموقف بتشاورم ولكن ليس بمثل هذا التشاورم الذي قرأها به ملك سوريا .

وإذا جاء حكم السماء مطابقاً لما قرأه أنتيوخوس الثالث ، الأكبر) فقد يستطيع أن يستند على مبرر كاف . وكان قد أعاد تثبيت سيطرة أسرة (سلبوكوس ' على مساحات شاسعة من آسيا في الفترة من ٢١٢ إلى ٢٠٦ ق . م . والآن فإن انحطاط شأن فيليب وضعف مصر قد فتح أمامه المجال لاستعيد ممتلكات سوريا القديمة في ترافيا وآسيا الصغرى . وقد كان الحليف الأيتولى هو الذي أغواه بغزو بلاد اليونان ووعده بأن الأحزاب الديمقراطية في كل مكان سترحب بقدومه بوصفه (محرراً) لها ، وستقف في وجه الأقلية الموالية لروما التي كانت تمتلك ناصية الأمور في ذلك الوقت ، كما أن (برجاموم) ورودوس من ناحية أخرى قد أثارا سخط روما على (أنتيوخوس) وذلك بأن نسبا إليه تدبير خطط محكمة للقيام بالغزو في الغرب وكان هذا الادعاء أكثر الإذعاءات قابلية للتصديق لأن أنتيوخوس كان يستخدم (هانبيال) لحسابه كاستشار عسكري . وعلى ذلك طرد الرومان أنتيوخوس في بادئ الأمر من بلاد اليونان ثم طاردوه حتى آسيا الصغرى وهزموه في موقعة (ماجنيسيا Magnesia) الكبرى (عام ١٨٩ ق . م) وبفضل أهل (رودس) تم القضاء على البحرية السورية بوصفها قوة فعالة .

وللمرة الثانية وضعت نصوص الاتفاق لتكون درساً قاسياً . إذ كان على (أنتيوخوس) أن يتنازل عن كل أراضيه الواقعة شمال جبال

(تاوروس Taurus) وتعهد بالألتأ قدمه أوربا . كما دفع تعويضاً هائلا وتنازل عن معظم أسطوله البحري كما وافق على تسليم هانيبال. وهكذا اقتصر إقليم سوريا على منطقة آسيا مرة أخرى . ثم جاءت روما بعد ذلك لتتلب عطاياها وتنزل عقابها بالجبهات الأقل شأنًا، فقد حصلت (برجاموم) على معظم الأراضي التي تنازلت عنها سوريا ، كما استحوذت (رودس) على بعض المناطق وحصلت على امتيازات تجارية هامة ، أما الحليف (الأيتولى) فقد أذلته روما ذلا مريراً بعد وقت قصير وحطت من شأنه حتى أصبح حليفاً رومانياً تحت حمايتها . وهكذا اشتبكت (روما) خلال عشر سنوات مع أعظم دولتين من الدول الهلينستية كل على حدة وغزت أراضيها وأنزلت بهما الهزيمة ، ولم تستحوذ روما على أراض جديدة لنفسها من انتصاراتها، ولكن كان من الواضح أن أية مشكلة تثار في العالم الهلينستي تدخل فيها مصلحة روما من المحتمل أن تحل حسبما تشاء روما .

وبعد عشرين عاما من هذا التاريخ برهن على صحة هذا بصورة لا يمكن إنكارها . ففي السنوات الأخيرة من حكم فيليب الخامس (عام ١٧٩ ق . م) وحتى أثناء فترة أطول من حكم خليفته (برسيوس Perseus) كان هناك إحياء ملحوظ للنفوذ مقدونيا . فقد كانت المناجم تنتج بقوة ونشاط ، واستعاد الجيش قوته وتحسن مركز مقدونيا الدبلوماسية تماما ، وخاصة في بلاد اليونان ، حيث اكتشفت روما أن أكثر النفوذ قوة لا يمكن أن يتوقع هو أيضاً أن يكون محبوباً . وترددت إشاعة هناك استمرت عدة سنين عن قيام حرب أخرى بين مقدونيا وروما . وفي عام ١٧٢ ق . م . صدر عن «برجاموم» نذير بالخطر للمرة الثانية ، واندلعت الحرب في عام ١٧١ ق . م ، لقد كان قتالا مريراً لم يكن في صالح روما في بادئ الأمر . ولكن عثرت روما على قائد محنك في شخص (ايميليوس باولوس Aemilius Paulus) . وفي معركة «بودنا» Pydna (١٦٨ ق . م) واجه كل من الفرقة والفيلق الآخر تحت

ظروف واحدة . وقد يخبرنا (باولوس) بعد مرور وقت طويل على هذه المعركة عن الذعر الذى انتابه عندما رأى الفيلق يندفع مهاجماً مركز قيادته ولكن النصر الذى أحرزه فى ذلك اليوم جعل الفرقة الرومانية هى القوى الحاسمة فى ميادين القتال فى العالم طوال فترة أربعة قرون .

وفى هذه المرة لم يكن هناك مجال للتساؤل عن استمرار قيام الملكية فى مقدونيا فقد حمل (برسيوس) إلى روما وظهر فى مواكب نصر (باولوس) الرائعة فى عام ١٧٦ ، ثم وافته منيته بعد ذلك بعامين وهو فى الأسر . وقسمت مقدونيا إلى أربع جمهوريات مستقلة وأغلقت مناجم الذهب والفضة التى تدر ربحاً وفيراً . وهكذا اهتمت روما بشل حركة عدوها تماماً واسكنها رفضت أن تستحوذ على ميزات اقتصادية أو تضم الأراضى لنفسها ، وهذا تعليق مدهل عن عدم وجود (الاستعمار) بمعناه الحديث ضمن سياسة روما فى ذلك الوقت . ولسكن مما قد يبدو غريباً على الرومان أنفسهم أن المقدونيين كانوا يميلون إلى نظامهم الملكى القديم ميلاً كبيراً بينما كانوا يميلون ميلاً طفيفاً إلى الجمهوريات الجديدة . وقد ظهر رجل مدع يسمى أندريسكوس Andriscus ونال بعض التوفيق ، وعندما تم إخضاعه ظهر آخرون غيره . وما إن جاء هذا الوقت حتى أصبح من الواضح أن هناك حلاً واحداً — وهو لا بد أن تدير روما شؤون البلد بنفسها . وعلى ذلك فى عام ١٤٨ ق . م أعلنت روما أن مقدونيا بالإضافة إلى ايروس (Epirus) و (اليريكوم) ، قد أصبحت ولاية رومانية . لقد كان هذا تغييراً حاسماً فى سياسة روما ، وسرعان ما ظهرت آثاره الكاملة خارج مقدونيا .

وفى الحال ظهرت هذه الآثار فى بلاد اليونان حيث كان صبر روما ينفذ شيئاً فشيئاً خلال بضع سنوات . وفى عام ١٤٦ ق . م تورط الحلف الأخرى Achaean League فى خلاف مع اسبرطة ، وناشدت اسبرطة روما

لللعون . وتهور الحلف الأخرى ووقف ليقاوم جيشا رومانيا يقوده (لوكيوس موميوس) Lucius Mummius ، فترتب على ذلك نتائج خطيرة فقد انهزمت فى الحال قواته العسكرية ، ودمرت مدينته كورنثه عن آخرها وهى زعيمة هذا الحلف ، وقتل معظم رجالها ، أما النساء والأطفال فقد تم بيعهم فى الأسواق كعبيد ، كما نهبت كنوز الفن التى تشتهر بها المدينة أوتم بيعها . لقد كان هذا الإجراء عملا ينم عن وحشية متعمدة هزت مشاعر العالم اليونانى ، جاء بعد خمسين عاما فقط من إعلان (فلاديمينوس) للتحرير ، وقد انحل الحلف الأخرى فى ذلك الوقت وخضعت المدن اليونانية لنهوض حاكم مقدونيا عدا المدن التى كانت تربطها بروما معاهدات .

وفى نفس الوقت قامت روما بمزاولة هذه الوحشية الجديدة فى أفريقيا على درجة أكثر إثارة للمشاعر ، وقد كان من الصعب دائما تفسير دوافع (كاتو) والمتحفظين فى روما الذين دبروا الحرب البونية الثالثة وتحطيم قرطاجة . والدول ذات النظام الدكتاتورى فى العصور الحديثة غالباً ما تجد من الضرورة أن تنادى بنظرية ما عن سمو الجنس أو العقيدة الماركسية وذلك لتسدل الستار على رغبتها المكشوفة فى إبادة عدوها ، وعلى ذلك فقد عزى بعض المؤرخين الهجوم على قرطاجة إلى التنافس الاقتصادى ، وإلى رغبة كبار الإقطاعيين من الرومان فى سحق تجارة تصدير النبيذ والزيتون القرطاجية . وفسره البعض الآخر ، نتيجة لأراء نيكولا ميكيافيللى) ، بأنه قد تكون روما حكيمة فى تحطيمها لقرطاجة قبل أن يسقط موقعها الممتاز فى أيدى ملك (نوميديا) — ولكن لا يبدو كل من التفسيرين حقيقيا — وربما كان قد تخلف عن الحروب البونية الثانية خوف تملكهم تماما من قرطاجة لأنه يبدو من الواضح أن (كاتو) وأصدقاؤه قد عقدوا العزم على تحطيمها وعدم إتاحة الفرصة لها كي تهرب من بين أيديهم . وبدأت الحروب البونية الثالثة عام ١٤٩ ق . م ، وتحملت قرطاجة ثلاث سنوات من الحصار ، وهى فترة أطول مما تحملتها سيرا كوزة . وفى ربيع عام ١٤٦ ق . م اجتاز

الرومان التحصينات واشتبكوا مع القرطاجيين في قتال بالأيدي كان له أن يضع حدا للآلام قرطاجة التي كانت تعانيها منذ وقت طويل . وقبل ذلك بقرنين من الزمن أقام الرومان احتفالا دينيا يكتنفه الورع في بلدة (فيبي Veii) يسمى احتفال (الدعوى evocatio) قاموا فيه باستدعاء إلهة قرطاجة العظيمة (جونو Juno) من المدينة المشؤمة واستمالوها كي تهجر إلى روما لقد شاهد (بولوبيوس) الشهيد الأخير من الحروب البونية الثالثة وهو واقف بجوار القائد الروماني (سكيبيو إيميانوس) (المتحرر) لقد أحرقت المدينة ومحقت عن آخرها وأصبح سافلها عاليها وعاليها سافلها وبذرت بذور المرارة في قلوب رجالها وأنزلت اللعنة بكل من يحاول

إحياءها . وقد تم بيع خمسين ألفا من رجالها في ذلك الوقت باعتبارهم عبيداً ، وهم من ظلوا على قيد الحياة بعد المعركة . وتحولت أراضي قرطاجة الأفريقية ذات مقاطعات زرع الحبوب الشاسعة إلى ولاية رومانية جديدة وهي ولاية أفريقيا . لقد كان ذلك أولاً وقبل كل شيء حللاً نهائياً لمشكلة قرطاجة .

وسرعان ما رويت القصة عن علاقات روما بالدول الهلينستية في ذلك الوقت فبعد موت « أنتيوخوس الأكبر » لم يتول أي حاكم عرش سوريا يتمتع بمكانة مماثلة لمكانة « أنتيوخوس » وكانت سياسة روما تهدف إلى منع هذه المملكة من أن تصبح ولاية قوية . وحادثة تخلي « أنتيوخوس إبيفانيس الرابع » عن غزومصر في الحال وبرضوخ كان نزولاً على أمر المبعوث الروماني الذي رسم حول « إبيفانيس » دائرة وناشده قائلاً (أجبنى نعم أم لا قبل أن تخطو خارج هذه الدائرة) . إن هذه الحادثة لتشير إلى نفوذ روما إشارة قوية . وبعد عام ١٦٠ ق . م كان تدهور نفوذ أسرة (سليوكوس) سريعاً ، ومهد هذا التدهور إلى ظهور ممالك أسيوية جديدة أصبحت فيما بعد مصدراً لمتاعب عديدة لروما ، وخاصة بملكة

بوتوس وأرمينيا ، والأهم من ذلك مملكة بارثيا . أما (مصر) فقد استمرت على ضعفها واستردت استقلالها لأنها كانت نافعة لروما باعتبارها مملكة تخلق التوازن مع سوريا . وكانت (رودس) قد ذابت تماماً مرارة كونها حليفة لروما ومحاولتها لاستعادة قدر ما من احترام الذات . وبعد معركة (بودنا) عاملتها روما معاملة عدائية يكتنفها الشك ، فقد أفسدت نشاطها التجاري إفسادا متعمدا عندما أنشأت ميناء (ديلوس Delos) البحر ، ولما كانت بحريتها عاجزة عن السيطرة على البحار وصل انتشار القرصنة إلى درجة مخيفة في البحر الإيحيى . أما (برجاموم) وهي أبعد مملكة عن روما ، فقد كانت أكثر توفيقا من الممالك الأخرى في استمرار انضمامها إلى جانب الدولة الأقوى الراجح . ولكنها دفعت ثمن ذلك غالبا ، وانتابها قلق لا يهدأ ، وقرار (أتالوس الثالث Attalus III) بوهب مملكته كتركة لروما عند وفاته (١٣٣ ق . م) ليرهن على أنها في ذلك الوقت كانت تفضل أن تكون من رعايا روما على أن تكون حليفة لها . وبعد سحق آخر دعوى لإعلان الاستقلال ، التي قامت تحت زعامة المدعى (أريستونيكوس) Aristonicus تم تنظيم المملكة على أنها ولاية رومانية في آسيا (١٢٩ ق . م) وهكذا امتد نظام الولايات الروماني إلى القارة الثالثة وقد كان هذا إضافة جديدة رائعة لسلطات روما ، مثله في ذلك مثل إضافة شراء لويزيانا Louisiana Purchase التي قامت به الولايات المتحدة .

أما في أسبانيا فقد كان مجرى الأحداث خلال هذا القرن أكثر تعقيدا . فلم تفكر روما في التخلي عن الأراضي التي اكتسبتها من قرطاجنة ، ففي عام ١٩٧ أقامت هناك ولايتين هما « أسبانيا العليا » وأسبانيا السفلى ، . ولكن التوسع إلى ما وراء هذه الولايات لغزو كل شبه الجزيرة الأيبيرية لم يأت إلا بعد القيام بمجهود شاق استغرق قرنين من الزمان . وكانت الأرض نفسها تمتد امتدادا شاسعا ومتنوعة تماما في مناخها وتضاريسها ، فالشعوب

التي تسكنها كانت تتألف من أجناس متنوعة على مستويات حضارية متفاوتة ،
لاسيما وأن المقاومة التي قامت بها قبائل الهضبة الهائلة قد أقحمت جيوش
الجمهورية الرومانية في أعنف المعارك وأشدّها هولاً ، وأكسبت أسبانيا
شهرة أنها « ولاية مخيفة تعشق الحرب horrida et bellicosa provincia »
وهناك مرحلتان من مراحل هذا الصراع لهما شهرة ذاتة: أولاهما المقاومة
العنيفة التي قامت بها « لوسيتانيا Lusitania » (البرتغال الحديثة)
تحت زعامة « فيرياثوس Viriathus » الذي سيطر على أرض المعركة
طوال ثماني سنوات (١٤٧ - ١٣٩ ق . م) « وقد كتب المؤرخ (اييان
Appian) تعليقا عنه قائلا : « على الرغم من أنه كان بربريا إلا أنه أظهر
أبرز مميزات القائد » . وثانيهما المقاومة الأكثر عنفا التي قام بها
الكتالينيين Celtiberi سكان وسط أسبانيا وكانت طريقة بناء القلاع
الهائلة المقامة على التلال وتحصيناتها هي معقل قوتهم . إن حصار إحدى
هذه القلاع ، وهي (نومانتيا Numantia) لم ينته إلا بعد ثمانية أشهر من
الحصار وذلك عندما جاء « سكيبيو إيميليانوس » ، قاهر قرطاجة بجيش
روماني قوامه ستون ألف رجل وأمات أربعة آلاف رجل من المدافعين
عن هذه القلعة جوعا . وعلى هذا النحو كان إيمان مدينة بربرية واحدة
بالحرية والاستماتة في سبيلها .

ولكن تم تدعيم ولايتي أسبانيا وتطويرهما بالتدرج . فقد أقيمت
المستعمرات الرومانية « في إتا ليكا Italica » و « كارتيا Carteia »
واستغل الرومان المناجم بصورة فعالة ، ويقال إن مناجم قرطاجة الجديدة
قد استوعبت أربعين ألف رجل كما شرعوا في القيام بمحركة تجارية واسعة
لتصدير القمح . وأصبح من الممكن جمع ثروات هائلة في أسبانيا ، وقد
أمدتنا هذه الولاية ببعض أقدم النماذج وأبشعها من الحكام الجشعين ، ومع
ذلك قد يأتي بالصدفة حاكم صالح مثل تيبيريوس سيمبرونيوس جراكوس
Tiberius Sempronius Gracchus ، الذي استطاع أن يكسب تجاوب الأهالي

معها مما مهد له الطريق أمام نشر الحضارة الرومانية نشرًا هائلًا في شبه الجزيرة في ظل الإمبراطورية. وقد أقيم طريق حربي طويل بعد الاستيلاء على «نوماتيا Numantia» طوله مائة ميل يمتد من جبال البرانس حتى خليج جبرالتار.

إن القصة الكاملة لزيادة نفوذ روما لا يمكن أن نقصها على ضوء علاقاتها بالدول المستقلة وانتشار نظام إقامة الولايات. فجنبنا إلى جنب مع هذه المظاهر التي ما هي إلا الإجراءات الرسمية للدولة الرومانية، كان هناك نظام غريب للعلاقات الخاصة له تأثير فعال — وهو نظام التبعية — Clientelae الذي كان يربط النبلاء الرومان ذوي النفوذ، بالجماعات غير الرومانية أو بالحكام في إيطاليا وغيرها من الأماكن. وقد وطد هذا النظام العلاقة بين الراعي والتابع في كل عالم البحر المتوسط التي رأينا أنها ظاهرة من ظواهر المجتمع الروماني في أوائل عصر الجمهورية. وقد أوضح بحث أخير كتبه الأستاذ ا. باديان E. Badian إلى أي مدى كانت آثار هذا النظام بعيدة وإلى أي حد من الصعب تقديرها. وقد كانت العلاقة بين النبيل الروماني، بوصفه راع، والمجتمع الأجنبي، سواء كان مجتمعًا في بلد مستقلة أو في ولاية، كانت هذه العلاقة تقوم على أسس أخلاقية قوية لا على أسس صارمة ينص عليها القانون. وبالإضافة لذلك، قد تدوم هذه العلاقة لعدة أجيال ويكون لها تأثير على كل من شؤون السياسة الداخلية والخارجية، وعلى هذه الحالة كانت الروابط التي أقامتها عائلة «سكيبينو» في إسبانيا و«نوميديا»، وعائلة «فابيوس» في أسبانيا، وفلامينيوس في بلاد اليونان، وعائلة دوميتيوس Domitii في بلاد الغال وعائلة «كلوديوس ماركيملوس» في صقلية. وكان على الراعي الروماني أن يقوم بواجبات الضيافة نحو تابعيه عند وجودهم في روما، كما يقوم بإسداء النصح إليهم في مجال السياسة الرومانية، ويحتضن قضيتهم ويحملها إلى مجلس الشيوخ إذا دعت الحاجة إلى إثارتها. كما كان عليهم أن

يردوا كرم الضيافة له ، وأن يقدموا له خدمات نقدية وعينية وأن يسهموا في تبجيله وإعلاء شأنه في روما عن طريق علاقتهم به . لقد كان هذا الرباط قويا بين الروماني وغير الروماني . ومن الواضح أن هذا الرباط كان من الممكن أن يعمل على توسيع نطاق نفوذ روما ، وبالمثل كان من الممكن أن يعزز مصالح من كانوا تحت حماية روما في روما نفسها .

وكانت الطبقة الأرستقراطية، ومجلس الشيوخ لسان حالها، هما المسيطران على السياسة الداخلية في روما خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد. وكانت المؤهلات المطلوبة للانتماء إلى هذه الطبقة المغلقة على نفسها هي الثروة والأصل النبيل كما كان من النادر في ذلك الوقت أن يشق رجل حديث العهد Newman طريقه بنفسه إلى داخل هذه الطبقة . ولكن كان يتوفر عامل الانتخاب الشعبي في مجلس الشيوخ إذ كان يسمح للموظفين الرسميين السابقين بدخول المجلس . ولما كان أعضاء مجلس الشيوخ قد حرم عليهم الاشتغال بالتجارة أو إبرام العقود العامة ، فقد أصبحوا ملاكاً للأراضي ، ذلك بالإضافة إلى النزعة المتحفظة التي تتميز بها هذه الطبقة . كما كان زعيم المميز ، والحشد الكبير من الرفقاء الذين يقومون بخدمتهم في الأماكن العامة، واحتلالهم مكان الشرف في احتفالات الدولة يزيدهم وقاراً . وكان عدد أعضاء مجلس الشيوخ ثلاثمائة عضو ، يتمتعون بعضوية دائمة : هذا إذا لم يقرر « الكنيسوريس » إبعادهم . وكان هذا المجلس ينحقد بدعوة من أحد الموظفين الرسميين، إما في « الكوريا Curia » وهي القاعة الخاصة بالمجلس (وما تزال قائمة في السوق الرومانية على الرغم من إعادة بنائها مرات عديدة)، أو في معبد من معابد المدينة . ويرأس الاجتماع أحد القناصل ، ثم يتقدم أحد الموظفين الرسميين بتقرير يعلن بدء المناقشة ويطلب الأفراد من أعضاء المجلس بإبداء رأيهم في هذه المناقشة (Sententiam dicere) حسب أسبقيتهم . وقد كان مجلس الشيوخ منصة هائلة للخطابة وهي أسمى أنواع الخطابة في

البلد، مثله في ذلك مثل مجلس العموم الإنجليزي والاييرلندي في القرن الثامن عشر، ثم يلي المناقشة أخذ الأصوات الذي يتبلور عنه ما يسمى «بقرار مجلس الشيوخ Senatus consultum» ولم تكن تكتب التقارير عن المناقشات التي تدور في المجلس في ذلك الوقت، ولكن قرارات المجلس «Senatus consulta» كانت تسجل في الخزانة العامة. وكانت الأمور التي تعرض على المجلس من أنواع شتى، وتشمل كل المسائل العامة لهذا العصر. وكان مجلس الشيوخ هو الذي يقرر الحرب والسلام من الناحية العملية، مع أن قراراته هذه كانت تحتاج إلى تصديق «الجمعية الشعبية»، عليها. كما كان أعضاء المجلس يستقبلون مبعوثي الدول الأجنبية، ويشكلون لجان التحقيق، ويصدقون على المعاهدات ويحددون قيمة الضريبة، ويدرجون الأقاليم تحت سلطة القناصل، ويصدرون العقود العامة ويجمعون على منح إمدادات مالية للوظفين الرسميين. وعندما نضيف إلى ذلك أنهم كانوا يتمتعون بالسيطرة التامة على القانون والدين، فمن الواضح أنهم كانوا يزاولون معظم سلطات الدولة. وقد كان في إمكانهم أن يذلوا أى شخص له نفوذ ويحطوا من شأنه في أقصر وقت، وقد يحدث ذلك لأى رجل حتى سكيبيو افريكانوس نفسه قاهر «هانيبال».

وبين جدران مجلس الشيوخ كان هناك عصابة داخلية من العائلات النبيلة تسيطر على المجلس وكانت هذه العصابة دائرة مغلقة على نفسها تماما، يزيد من إحكامها التزاوج بين أفراد هذه العائلات، وكذلك التبني. فأصبح يحكمروما الأقارب الوثيقو الصلة. فشلا تزوج «سكيبيو افريكانوس» من «إيميليا Aemilia شقيقة «إيميلوس باولوس» وعندما لم ينجب أحد أبنائها أطفالا، تبني ابن «إيميلوس باولوس» الذي حمل اسم «سكيبيو إيميليانوس Scipio Aemilianus»، أما ابنتهما «كورنيليا Cornelia» فقد اقترنت بتيتوس سيمبرونيوس جراكوس T. Sempronius Gracchus وهذه السيدة هي

أم الأخوين جراكوس الشهيرة . وتزوج « سيكيبيو ايميليانوس » بدوره من ابنتها « سيمبرونيا Sempronia » ، أى ابنة خالته ، ولكن هذا لم يمنع وجود عداء سياسى مرير بينه وبين « تيريريوس جراكوس Tiberius Gracchus » شقيق زوجته . وكان هناك بصفة مستديمة إلى حد ما أحزاب (factiones) بين النبلاء ، يتجدد التنافس بينهم فى انتخابات الموظفين الرسميين السنوية . وقد قام العالم الألماني « مينسر Münzer » بتحليل هذه الأحزاب وتأثيرها . وقد يظهر اختلاف اتجاهاتهم فى صورة تضارب مبادئهم ، مثل تضارب مبادئ الطبقة المختلفة ، المتعصبة للدين ، المغالية فى وطنيتها التى كان يرأسها « كاتو Cato » ، والطبقة المتحررة والتقدمية المحبة للحضارة الهلينية التى كان يرأسها أفراد أسرة « سيكيبيو » ، ولم يكن لينبع أحزاب سياسية دائمة أو برامج مرسومة بمعنى الكلمة من هذا الأساس المتجانس .

كان من الممكن أن يتوقع النبيل الرومانى العريق قضاء حياته فى خدمة الدولة . فهو قد يشغل كل الوظائف الرسمية كل بدورها ، ويتولى منصب حاكم ولاية من الولايات ، ويقود جيشاً فى ميدان القتال ، ويشترك فى الوفود الهامة التى توفدها الدولة ، ويؤدى دوره على أكمل وجه فى مجلس الشيوخ ، وهناك نقش كتب بلغة القرن الثالث قبل الميلاد اللاتينية القديمة على قبر « لوكيوس سيكيبيو Lucius Scipio » يوضح مدى تفضيل سلك الوظائف العامة عن كل شىء ، وقد جاء فى هذا النقش :

إن معظم الرومان يجمعون على أن هذا الرجل « لوكيوس سيكيبيو » ، أقدر الرجال الأكفاء . لقد كان ابنا لبرباتوس « Barbatus » وقد تولى منصب القنصل ، والكنسور ، والايديل ، فى بلدنا . واستولى على كورميكا ومدينة « اليريا Aleria » ، وقام ببناء معبد للإلهة « تمبستاتيس Tempestates » ، وذلك وفاء لمنذر قطعه على نفسه .

Honc oino ploirime cosentioat Romai
duonoro optume fuise viro

Lucium Scipione, filios Barbati
consol, censor, aedilis hic fuet apud nos,
hic cepit Corsica Aleriaque urbe
dedet Tempestatebus aede meretod

ونحن نلهس نفس الروح وقد ظهرت في نقش آخر كتب على قبر ، بعيد
كل البعد زمانا ومكانا^(١)

بقي الآن أن نأخذ في اعتبارنا تطورا آخر أكثر ارتباطا بإيطاليا فما أن
انتهت الحرب البونية الثانية حتى أعادت روما فرض سيطرتها على بلاد الغال.
القريبة « Cisalpine Gaul » التي اضطرت إلى الانسحاب منها قبل قدوم
هانيبال . وبدأ تنفيذ مشروع هائل خاص بإنشاء مستعمرات وتطوير
المنطقة فقد أجبرت روما « اللجوريين Ligurians » وقبائل البوثي Boii
على التراجع إلى الجبال وذلك بقيامها بسلسلة من الحملات الحاسمة كما رحلت
أربعين ألفا من « الأبواني Apuani » من موطنهم وجعلتهم يستوطنون الأراضي
التي خربتها الحروب في جنوب إيطاليا — وهذا مثل قديم من أمثلة الهجرة،
الإجبارية التي اضطرت كثير من الشعوب القيام بها في ظل الإمبراطورية .
ومقابل هذا زحفت أعداد غفيرة من المحاربين القدماء ومن الفلاحين المتعطشين
للأراضي نحو الشمال إلى أراضي سهل « البو » بعد إخلائها . وقد أنشئت
المستعمرات في « اكوينيا Aquileia » و « بنونيا Bononia » (بولونيا)
الحديثة) و « لوكا Luca » (لوتشا الحديثة) وقد كان لهذه المستعمرات
أن تزدهر وتصبح مدنا عظيمة . كما ظهر المستوطنون الرومان بالقرب من
« مديولانوم Mediolanum » ميلانو الحديثة وقد قاموا بتجفيف المستنقعات
وتوسيع بحاري الأنهار . وبناء شبكة من طرق المواصلات ولم يحدث أن

(١) « هنا دفن توماس جيفرسون » ، صاحب اعلان الاستقلال،
الأمريكي ، والذي اقام تمثال « فرجينيا » رمزا للحرية الدينية وراعى
جامعة فرجينيا .

أصبح أى استعمار قامت به روما أكثر توفيقاً من هذا الاستعمار الذى جعل (وادى البو) جزءاً لا يتجزأ من إيطاليا إلى الأبد .

وجملة ما نعرفه من هذه المستعمرات هو إحدى وعشرون مستعمرة .
أنشئت ما بين : ٢٠٠ ، ١٧٠ ق.م فى بلاد الغال القريبة ، ويكنوم Picenum
وكمانيا وجنوب إيطاليا . ويقدر الأستاذ « تنى فرانك Tenney Frank » .
عدد من استوطنوا بهذه الصورة بين أربعين وخمسين ألف مواطن ، فيما
لا يقل عن مليون فدان من الأراضى الصالحة للزراعة . إن هذا الامتداد .
قوى نظام الزراعة المحدودة ولكن هذا الامتداد قد فاق تزايد المزارع
الشاسعة التى كان يخدم فيها قوى عاملة من العبيد لم يشعر الرومان بتأثيرها
الكامل إلا فى منتصف هذا القرن .

وما حققته روما من أعمال مجيدة فى مجال الأدب خلال هذه الفترة له .
اعتباره ، على الرغم من أننا فى الغالب لانوفيه حقه . ويرجع هذا إلى ضياع
الكثير منه . فلم يظهر لنا من كتاب السكوميديا العشر الأوائل الذين عاشوا
فى القرن الثانى قبل الميلاد ، بأعماله الكاملة سوى « بلاوتوس Plautus
» وترنس Terence » . كما أنه لم تصلنا من المسرحيات التراجيدية أية
واحدة كاملة . ومن أعمال شعراء الملاحم « نايفيوس Naevius » و « لانيوس
Ennius » لم تصلنا إلا شذرات فقط ، كما هو الحال مع « لوكيليوس
Lucilius » شاعر الهجاء . وليس هناك إلا عمل واحد كامل كتبه كاتو عن
الزراعة « De Agricultura » . يعتبر نموذج للنشر الرومانى وإنتاج كاتو الأدبى
الغزير . وقد ضاعت أعمال كل المؤرخين ، وليس هناك ما يمثل الخطابة
الرومانية سوى بعض شذرات تهز المشاعر « لتبير يوس جراكرس » ونكون
صادقين لو قلنا إننا ننظر إلى الأدب الرومانى لهذه الفترة بالذات دون
غيرها من الفترات كما لو كنا نرى جبلاً من الجليد — فهو جزء مرتضى صغير
يطفو فوق كتلة هائلة مغمورة . وللمرة الثانية ، فإن الكتاب الرومان ، هذه
الفترة وما بعدها ، لا يغفلون الاعتراف بأنهم يدينون لليونان لدرجة أنه .

من الطبيعي أن نعتبرهم اشتقاقاً من اليونان يحتلون المرتبة الثانية بعدهم ، وعلى الرغم من ذلك ، فيجب علينا أن نبحث عن أصل الأدب الروماني في دائرة ظروف الرومان . فأول قطعة مؤرخة من النثر هي الخطاب الذي ألقاه « أيوس كلوديوس » عن المباحثات الخاصة بمقد السلم مع « بيروس Pyrrhus » التي كانت جارية في القرن الأول قبل الميلاد ، وترجع كتابة التاريخ الروماني إلى الحوليات التي قام بجمعها أعضاء الطبقة الأرستقراطية الرومانية . ومن الحقيقي أن تأثير الأدب اليوناني منذ عام ٢٤٠ ق . م كان هاماً لا سواء جاء هذا التأثير عن طريق صقلية أو جنوب إيطاليا أو من بلاد اليونان نفسها . ولكن الأدب اليوناني تأقلم مع الظروف السائدة ولم يقلده الرومان تقليداً أعمى ، فقد كانت عبقرية الرومان والإيطاليين تساهم دائماً بجزء فيه .

ومن الممكن تحديد تاريخ ظهور المسرحية على نمط النماذج اليونانية في روما بعام ٢٤٠ ق . م ، عندما عرضت أول مسرحية يونانية في « الأعياد الرومانية Ludi Romani » مترجمة باللغة اللاتينية قام بنقلها إلى اللاتينية ليفيوس أندرنيكوس Livius Andronicus ، وقد ترجم ليفيوس أيضاً الأوديسا كي تدرس في مدارس روما ، وكان هو أول من اكتشف أن هناك في روما جمهوراً للأدب اليوناني . ولم تنبع الملهة الرومانية من ملامح « اريستوفانيس Aristophanes » القديمة ، التي كانت الحياة السياسية الحرة دعامة وجودها مثل حالة « أثينا » في القرن الخامس قبل الميلاد ، ولكنها نبعت من « الملهة الحديثة » التي ظهرت في القرن الرابع قبل الميلاد ، والتي كانت موضوعاتها مستمدة من الحياة الخاصة والمحلية ، وكان الشاعر « ميناندر Menander » هو الاسم العريض في هذا الميدان . إن العالم الذي يصوره « ميناندر » عالم حيوي معقد ، يتفق ومزاج المتفرج الروماني في كثير من نواحيه . وكان التهاون الجنسي يعالج في الملهة الرومانية

بتسامح يبعث على التسلية وذلك عند مقارنته بمبادئ كاتو « الأخلاقية ،
الجامدة ، وسرعان ملاحظ المؤرخون الاجتماعيون أن أول حالة طلاق في
المجتمع الروماني حدثت خلال السنوات الخمس التي تلت عرض أول مسرحية .
واسكن « الملهاة اليونانية الحديثة » كانت تنقصها الحركة ، فقد كان إيقاعها
بطيئا ، يتخللها كثير من التحليل النفسى ، ورسم شخصياتها يتطلب ذكاء
خارقا ، وكان المتفرج الروماني يحتاج إلى مزيج قوى من الذوق الفنى
الرفيع والحركة النشطة ، وإلى حيل أكثر وشخصيات مضحكة وحيوية فياضة
في المسرحية . ونحن نجد أن « بلاوتوس » الذى وفر لهم هذه الشروط قد
اجتذب بصفة مستمرة جماهير مخلصه له ، بينما نجد أن « تيرنس » الذى
استمر فى تمسكه بالروح السائدة فى مسرحيات « ميناندر » لم يصبح أبدا
شاعرا محبوبا - ومن الممكن أن تقارن أنجح مسرحيات « بلاوتوس »
(٢٥١ - ١٤٨ ق . م) المليئة بالروح الخفيفة والتي تبعث على ضحك
صاحب والتي تحتوى على خلق مواقف جديدة ، بمسرحيات « اريستوفانيس »
وبالمواقف الكوميديّة فى مسرحيات شكسبير « ومسرحياته مليئة بالنقلات
السريعة وبالسكرى والمشاجرات ، كما أنها تحتوى على عامل الرقص والغناء
بصورة واضحة ، لدرجة أنه من الممكن وصفها بأنها مسرحية كوميدية
موسيقية ومرحة تنتهى نهاية سعيدة . ويمدنا معجمه بعشرين ألف بيت
من الشعر باللغة اللاتينية الأصلية ، وهى تعبير صادق عن الجيل الذى
وقف فى وجه هانيبال . وعند عقد المقارنة نجد أن مسرحيات « تيرنس »
Terence « ١٩٥ - ١٥٩ ق . م هى الملهة المهذبة التى تسكتب لصالونات ،
مليئة بالتحليل النفسى والفلسفة ، وشخصياتها تجعلنا نشعر أنها قد رسمت
لأرقى المدارس العالية ، تنطق باللغة اللاتينية الصافية ، المنمقة التى تميز جماعة
راعيه « سكيديو ايميليانوس » . وقد وصلنا إحدى وعشرين مسرحية من
أعمال « بلاوتوس » وست مسرحيات من أعمال « تيرنس » ، وقد كان لهم
تأثير بعيد المدى على الملهة الأخلاقية فى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وأسبانيا .

وما نعرفه عن المأساة الرومانية أقل من ذلك بكثير ، ولكن يبدو أنها كانت أقرب إلى الأصول اليونانية من الملهمة — كما لو كان وراء كل مأساة رومانية لا بد وأن تقف أو توجد مأساة يونانية — وخاصة مآسى الشاعر التراجيديدى « يوربيديس » الذى كان أكثر الشعراء اليونان انتشارا . وكان موضوع الحرب الطروادية أكثر الموضوعات انتشاراً ، وهذا يشير إلى الاهتمام بالأساطير التى تربط روما فى أوائل أيامها « بطروادة » وهذا هو موضوع « الإلياذة » الخالد . ومن خلال ما وصلنا من شذرات نستطيع أن نشير إلى بعض الأفضال التى ترجع إلى تذوق الرومان وأمرجتهم . فنحن نرى بوضوح ميل الرومان للمسرحية الغنائية ، melodrama ، التى تبعث الرعب ، كما أن البلاغة كانت تسيطر تماماً على روح المأساة الرومانية بأكملها ، فالشخصيات تخاطب بعضها البعض بحديث طويل له الطابع الرسمى يشبه الحديث الذى يدور بين السياسيين فى مناظرة بينهم . إن كل هذه الصفات قد ظهرت مرة أخرى فى مسرحيات « سنيكا Seneca » كما أن مسرحية شكسبير تيتوس اندرونيكوس ، Titus Andronicus تيسر فى نفس الاتجاه .

ولكن العنصر الرومانى كان ما يزال أكثر قوة فى الملحميين العظيمةتين . الحرب البونية Bellum Punicum التى كتبها الشاعر « نايقيوس Naevius » حوالى (٢٧٠ — ٢٠٧ ق.م) و « الحوليات Annales » التى كتبها الشاعر « إنيوس Ennius » (٢٣٩ — ١٦٩ ق.م) . وإذا كانت الملحمتان قد اتخذتا « هومر » مثلاً يحتذى به من حيث الشكل ومعالجة الموضوع إلا أن موضوعاتهما كانت رومانية صرفة ، فهى الحروب الطاحنة التى نشبت ضد قرطاجنة والتى اشترك فيها كلا الشعراء ولقد كتب « نيفيوس » عن الحروب البونية الأولى وعن أصل نشأة روما وقرطاجنة مستخدماً فى شعره الوزن الساتورنى « Saturnian meter » القومى ، ومن المحتمل أن تصه « أينياس » و « وديدو » قد ظهرت أول ما ظهرت عنده . أما « إنيوس » فقد تناول التاريخ الرومانى

حتى عام ١٧١ ق . م ، ولكن أهم موضوع لقصيدته هو الحروب البونية الثانية . و «إنيوس» باستخدامه الوزن السداسى « hexameter » فى أشعاره يعتبر فاتحة السبيل الفياض من الشعراء الخالدين الذى يضم بين ثناياه « لوكرتيوس ، و « فرجيل » ، وياتقانه للغة اليونانية والأوسكانية واللاتينية توحدت فيه حضارات إيطاليا فى ذلك الوقت .

إن روما ، بحضريتها وأسلوبها فى الحياة ، قد أمدت الشاعر «لوكيلوس Lucilius» (١٨٠ - ١٠٢ ق . م) بالمواد الأولية لهجائياته — فقد كانت هى روما فى فترة ما بعد الحرب بثراتها وبذخها المتزايدين ، بفسادهما وإباحيتهما . وعلى حد قول « جوفينال Juvenal » الشاعر الهجائى الذى جاء فيما بعد ، فإن «لوكيلوس» قد فضح خبايا المدينة ، فقد كان هناك حقيقة لأول مرة حصيلة غنية من الرذيلة بين أيدى الشاعر الهجائى الرومانى ليفضح أمرها . كما ظهر فى ذلك الوقت أيضاً أول الرعاة الرومان العظام ، وعلى رأسهم أفراد عائلة « سكيبيو » وأصدقائهم . فقد كان « سكيبيو أفريكانوس » راعى « إنيوس » رجلاً عظيماً متحمساً للثقافة اليونانية . ولم يحصل «إيميليو باولوس» لنفسه من كل أسلاب الحروب المقدونية إلا على مكتبة « برسوس Perseus » وهى أول مكتبة خاصة فى روما كان لها أهميتها . ونحن نرى فى الجماعة التى أحاطت « بسكيبيو إيميليانوس » نظام الرعاية الرومانى وقد وصل إلى القمة ، كما نرى أيضاً فيها الاهتمام البالغ بالأدب والفلسفة والقانون واحتوائها على كل من الشعراء اليونان والرومان . وقد كان « سكيبيو » وصديقه (لايلوس Laelius) زعيماً لرجال السياسة فى ذلك الوقت ، ومن بين جماعتهما كان (بوليبيوس Polybius) المؤرخ و (باناييتوس Panaetius) ، أبرز ممثلى الثقافة اليونانية ، و (لوكيلوس) و (تيرنس) أوائل الكتاب اللاتين . إن كل هؤلاء الرجال كانوا على دراية تامة بأسمى

أعمال الحضارة اليونانية والرومانية كلها. وقد حاولوا أن يفسروها من أجل المنفعة المتبادلة. ومن هؤلاء الرجال نبعت أيضاً فكرة الإنسانية العظيمة (humanitas) وهى رباط عام يربط كل البشر، ويبلغى كل الفوارق بين النوع والجنسية واللون والعقائد الدينية. وقد كان لها أن تؤثر فى الفكر السياسى الرومانى والقانون الرومانى تأثيراً ناجحاً.

أما تقدم الفن والرسم المعمارى فكان أقل بكثير من تقدم الأدب. فهناك بعض الرجال من النبلاء الرومان الأثرياء أصبحوا خبراء فى أعمال الفن اليونانى وهواة يجمعون روائعه. ولكن هذا لم ينم أسلوب الفن الرومانى القومى. وقد كان هناك بالطبع عدد كبير من المباني فى المدينة وذلك بسبب تزايد السكان، الذى لا يمكن أن يكون أقل من مليون نسمة فى عام ١٥٠ ق. م. وقد أقام بعض النبلاء منازل حضرية كانت تعتبر مترفة فى ذلك الوقت، مع أنه بعد مرور قرن من هذا التاريخ كانت البساطة فى هذه المنازل هى التى أثارت النقاش. وقد بدأ فى ذلك الوقت بناء منازل ضخمة لتأجيرها (insulae) وذلك لإسكان الفقراء الرومان وبدأ كذلك تزايد الأحياء القذرة. أما من جانب من يعود عليهم دخل هذه المنازل، فقد كانت هناك حركة نشطة فى بناء القناطر، وتعبيد الشوارع، ومد قنوات الصرف، كما أقيمت معابد عديدة، وبالذات إقامة معبد «الأم العظمى Magna Mater»، على تل «البلاطين» الذى ما يزال نرى شرفته الشاخنة «Podium»، وإقامة معبد «أبولون» من الرخام فى «كامبوس مارتىوس»، تزيينه أعمال الفن اليونانى التى استولى عليها الرومان. كما شيدت أول قاعات للاجتماعات فى السوق الرومانية «Forum»، من بينها «قاعة إيميلىوس Basilica Aemilia»، وهى أروع بناء شيد فى روما فى ذلك الوقت. ولكن كان فن المعمار فى المدينة بصفة عامة أحط بكثير من الفن المعمارى فى المدن الكبرى فى العالم اليونانى، منها الإسكندرية وأنتيوخ

وبرجاموم وسيراكوزة — بل أخط شأننا من المدن الأكثر ازدهاراً التي كانت في إقليم « كمبانيا » مثل مدينة بومبيئي Pompeii » .

أما الفلسفة ، التي تعتبر قلب الثقافة اليونانية فقد كان لها صراع مرير في روما . فعندما ألقى « ديوجنيس Diogenes » الفيلسوف الرواقى و « كارنياديس Carneades » الفيلسوف المنتمى إلى الأكاديمية الجديدة محاضرات في روما عام ١٥٥ ق . م . استقبل كل منهما استقبالا مختلفا تماما عن الآخر . فقد ترك « ديوجنيس » أثراً طيباً بخطابه المتواضع المتزن . وهذا ما تركه « كارنياديس » أيضاً عندما قال في محاضراته الأولى : إن العدالة قد فرضتها الطبيعة . ولكن في اليوم التالي ، وبنفس الروعة ، قال : إن العدالة قد فرضتها التقاليد ، فلم ينظر مجلس الشيوخ بعين التقدير إلى هذه الروعة وأمره بأن يغادر المدينة . ومن الواضح أن سادة العالم الجدد قد يصدرون حكمهم على الفلسفة من زاوية منفعتها للدولة . أما « بانائتيوس Panaetius » الذى كان من مواطنى « رودس » فإنه يقبع في هذه الزاوية ، ولأن صلته الوثيقة بسكيبيو ايميليانوس « وأصدقائه قد مكنته من فهم ظروف الرومان فهما سلباً ، نال بعض التوفيق الرائع بصورته الخاصة عن الفلسفة الرواقية التي أهاد تكوين أسلوبها كما لو كانت قد كتبت للسوق الرومانية . وجعل الرواقية تلتقى رواجاً محلياً في روما وذلك باستبداله الرجل الحكيم المثالى الذى يعيش في المدينة المتعددة الأجناس ، بسكيبيو الذى يعيش في الجمهورية . وقد كان النقد على حق عندما أشاروا إلى أن منهجه يتميز بطابع التدهور في المقدرة الذهنية ويفتقر إلى التماسك ، ولكنه كان يستشهد في منهجه بكل ما هو خير في الشخصية الرومانية وفي التشريع الرومانية . فقد امتزجت الفضيلة القديمة « antiqua virtus » التي كانت تتميز بها الأخلاق الرومانية بمنهج جديد لعلم الأخلاق ، كما أتى على الدستور الرومانى بوصفه أكثر النظم السياسية كمالاً . ولكنه ترك

الدين الروماني المتوارث دون أن يمسه . أما التحول إلى الرواقية فقد واجهته مطالب صارمة : ألا وهي إخضاع الطموح الشخصي لمصلحة الدولة ، والانتصار على الطمع والبذخ ، والنسك بقيود تنظم تصرف الشخص في كل مواقف الحياة الخاصة والعامة . ولما كان « بانايتيوس » نفسه أرسنقراطياً فقد خرج بتبرير يبرر به وجود المستويات التقليدية للأرسنقراطية الرومانية . وكان يأمل بتعليمه إياهم الشعور بالواجبات أن يمهّد الطريق لظهور حكومة صالحة تحكم العالم .

الفصل الخامس

تدهور الجمهورية الرومانية وسقوطها : ١٣٣ - ٧٨ ق م

كان استقرار الأحوال التابع من الدستور المختلط ، في رأى بوليبيوس Polybius هو المأثرة الكبرى للجمهورية الرومانية . ولاشك في أن الفترة الطويلة التي تولى خلالها مجلس الشيوخ Senatus السيادة عقب الحرب البونية الثانية كانت تتميز بهدوء لم يسبق له مثيل في شؤون السياسة الداخلية ولكنه كان هدوءاً يسبق العاصفة — التي دامت قرنين من الزمن — ولم تنته إلا بعد زوال النظام الجمهورى نفسه .

وما إن حل عام ١٤٠ ق . م حتى كان واضحاً أن انتشار الإقطاعيات الكبرى واحتكار مجلس الشيوخ للسلطة السياسية سيواجهان تحدياً سافراً ، وبالمثل كان واضحاً أن هذا التحدى سيقابل بمقاومة عنيفة وتوضح لنا الصفات الشخصية التي كان يتسم بها زعيما الإصلاح العظيمان الأخوان تيربوس Tiberius وجايوس جرا كوس Caius Gracchus . إن هذا التحدى يجب أن يكون ثورياً في طابعه وإن الهجوم المضاد له يجب أن يكون عنيفاً ولا يخضع لأى مبدأ . وقد كان هذان الرجلان ينتميان إلى صلب الطبقة الأرستقراطية التي تعرضا لنفوذها فقد أدى جدهما خدمات جليلة قبل مصرعه في الحرب البونية الثانية كما كان أبوهما من أبرز القواد وحكام المستعمرات في عصره ، وكان له سجل حافل في أسبانيا مقبرة الرومان . وكانت أمها كورنيليا Cornelia ابنة سكيبيو أفريكانيوس Scipio Africanus سيدة رومانية عظيمة الشأن وعلى قسط وأفر من الجمال والذكاء وزوجة فاضلة وأما رومما . ولقد حرصت بعد وفاة زوجها على أن يتلقى ابنها

العلم على أيدي خيرة الأساتذة اليونانيين في ذلك الوقت . وتزوج تيبيريوس كلاوديا Claudia ابنة ايبوس كلاوديوس Appius Claudius بينما تزوج جايوس Caius ابنة كراسوس موكيانوس Crassus Mucianus الذي عين قنصلا في عام ١٣١ ق . م . واقترنت اختهما سمبرونيا Sempronia بسكيبو ايميليانوس Scipio Aemilianus .

وقاتل تيبيريوس جراكوس بشجاعة تحت قيادة سكيبو عند الاستيلاء على قرطاجنة Carthage كما اشترك أيضاً في حصار نوماتيا Numantia بأسبانيا . وكانت خبرته في أسبانيا هي التي رسمت طريق حياته العملية . ففي طريقه من روما إلى أسبانيا اخترق اتوريا Etruria وشهد الأرض وقد طرد منها مزارعوها الفلاحون تمهيداً لتكوين الإقطاعيات الكبرى المكتظة بجموع العبيد الذين كانوا يعاملون بقسوة ووحشية . وفي أسبانيا تورط في كارثة حربية حينما اضطر جيش روماني يعوزه التنظيم الحربي إلى التسليم تحت إمرة القائد مانكينس Mancinus الذي يفتقد إلى الحنكة العسكرية . وأدهى من ذلك وأمر أن المعاهدة التي كان قد عقدها هو نفسه بعد مفاوضات مع عدو كريم — وإن كان ساذجاً — قد حرقها مجلس الشيوخ أمام عينيه وقفل راجعاً إلى روما في وقت كان فقراء المدينة يتأججون غيظاً وضيقة ، وسرعان ما نشبت حرب العبيد المضروس في صقلية بعدئذ ولم تخمد نيرانها إلا بعد قتال دارت رحاه ثلاث سنوات . وكان تيبيريوس يرى أن متاعب الدولة مثل هبوط الروح المعنوية في الجيش وتبرم الفقراء وضيقتهم والخطر الناجم عن العبيد الأجانب ترجع كلها إلى وجود الإقطاعيات الكبيرة . وكان علاج ذلك واضحاً وجلياً ألا وهو إعادة توزيع الأراضي وبعث قوة الفلاحين من جديد . ولكن لم يكن من المستطاع تنفيذ برنامج الإصلاح الزراعي إلا على أساس من التأييد الشعبي . ولذلك رشح نفسه لمنصب التربيونيه وانتخب تربيوناً لعام ١٣٣ ق . م . ولم يكن الشعب الروماني قد رأى زعيماً مثله قرناً بأكمله ، بل حتى من الشذرات التي وصلتنا من خطب تيبيريوس

يتضح لنا أن هذا الرجل من أعظم الخطباء الرومان ، فقد قال في إحدى خطبه « إن للوحوش الضارية مشواها أما الرجال الذين يقاتلون ويلقون حتفهم من أجل إيطاليا فإنهم يعجزون عن أن يدعوا امتلاك شيء غير الهواء وضوء الشمس . . إن قوادكم يحثونكم على القتال من أجل أراضيكم ودياركم . وكلاهما ليس ملكا لكم . . إنكم تقاتلون دفاعا عن ترف الأغنياء وهم يدعونكم سادة العالم ولكن مامن شبر من الأرض يمكنك أن تزعموه ملكا لكم ، . . حقا إن هذه العبارات مؤثرة — حتى في يومنا هذا — وذلك لما تنطق به من الشعور الصادق والعاطفة الفياضة .

وكان تيبيريوس يحظى في مجلس الشيوخ بتأييد مجموعة من الأعضاء على رأسهم أيبوس كلاوديوس وكراسوس موكيانوس . وكان من بين مستشاريه الخاصين بلوسسيوس من بلدة كوماى Blossius of Cumae الفيلسوف الرواقى وأحد أفراد أسرة ظلت ترتبط فترة طويلة بالحزب الديمقراطي في تلك البلدة . وربما كان بلوسسيوس هو الذى أوضح له مشكلة الإصلاح الزراعى فى السياسة اليونانية . وقانون الإصلاح الزراعى الذى عرضه على الجمعية العامة Assembly يقترح إعادة تطبيق قانون ليكيانوس سيكستوس Lex Licinia Sextia الصادر فى عام ٣٦٧ ق . م . الذى بمقتضاه حددت ملكية الفرد الواحد من الأراضى بمقدار ٥٠٠ يوجيرا iugera على أن يسمح للابنين البالغين بامتلاك ٥٠٠ يوجيرا أخرى وبذلك يصبح الحد الأعلى للملكية ١٠٠٠ يوجيرا . وكانت الأراضى الزائدة عن ذلك الحد تسلم إلى السلطات لتقوم بتوزيعها على الفقراء على شكل قطع صغيرة تبلغ مساحة كل منها ٣٠ يوجيرا . وتقرر دفع تعويضات عن الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها ، وتصبح الأراضى التى يحتفظ بها أصحابها ملكا لهم . وتقرر أن تراقب العملية بأكملها لجنة الإصلاح الزراعى التى كانت تتألف من ثلاثة أعضاء .

وربما كان الإصلاح الزراعى فى العالم القديم عادلا ، بل إنه كان بالتأكيد

قنبلة سياسية مثله في ذلك مثل تحرير العميد في جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية أو تحرير رقيق الأرض في روسيا القيصرية . وكان لمعارضى هذا القانون حججهم ، فلم يكن من المحتمل أن تغطى التعويضات نفقات كافة التحسينات . ففي بعض الأحوال كانت تقبل الأرض كضمان للديون وكانت توجد في بعض الأراضي مقابر عائلية كان لابد من مصادرتها . وكان للحلفاء الإيطاليين شكواهم العادلة لأن ممتلكاتهم الزائدة عن الحد كانت ستصادر بينما لم يكن ليحصل على أراض جديدة سوى المواطنين الرومان فقط ، وفضلا عن ذلك فقد كانت السلطة تتركز كلية في أيدي أعضاء لجنة الإصلاح الزراعى . ولكن ما كان يتقدم به تربون كان يستطيع أن يعترض عليه تربون آخر بمقتضى حق الفيتو وقد حدث مجلس الشيوخ التربون أوكتافىوس Octavius على الاعتراض على مشروع القانون في الجمعية وكانت التقاليد الرومانية تقضى في هذه الحال بإلغاء المشروع ، غير أن تيبيريوس كان لديه مستشاروه اليونانيون الذين كانوا يهدونه إلى المخرج من كل مأزق يتعرض له . وقد جاء في النظرية الديمقراطية اليونانية أن إرادة الشعب هى صاحبة السيادة ، وكان التربون ينتخب لتنفيذ إرادة الشعب ولو عارضها فإنه يكون مقصرا في واجبه ويجب استبعاده . وعلى الرغم من أن أصحاب الوظائف العامة magistrates كانوا - من وجهة نظر العرف الرومانى - يعتبرون في منزلة واحدة فقد كانت الغلبة لمن يمارس حق الاعتراض . وقد فضل تيبيريوس النظرية اليونانية على العرف الرومانى وخلع أوكتافىوس وأصدر القانون وبدأت لجنة الإصلاح الزراعى المشككة من أيبوس كلاوديوس وتيبيريوس وأخيه جايوس عملها . ولكنها كانت فى حاجة إلى المال كما كانت فى حاجة إلى الوقت أيضاً . أما المال فقد تدفق عليها بغزارة بعد أن آلت مملكة برجاموم Pergamum إلى الشعب الرومانى . وقد أصدر تيبيريوس عن طريق الجمعية مشروع قانون لإقامة ولاية آسيا ووضع الإيرادات الملكية تحت تصرف لجنة الإصلاح الزراعى وهاتان ضربتان شديدتان قد وجهتا إلى امتيازات مجلس الشيوخ . وكى

يوفر الوقت فقد اقترح أن يرشح نفسه ثانية لانتخابه تريبوناً لعام ١٣٢ ق.م. وكان هذا خروجاً مشثوماً على التقاليد الرومانية . وبدأ أعضاء مجلس الشيوخ يفكرون في أن النظم السياسية اليونانية تنطوي على الطغيان وأن الطغاة يحتلون مراكزهم عادة بتأييد من الشعب . وفي اليوم الذي أجريت فيه الانتخابات قامت ثورات ، وقبضت على تيبيريوس وبعض أتباعه جماعة من الغوغاء من مؤيدي مجلس الشيوخ على رأسها سكيبيو ناسيكا Scipio Nasica وابن عمه وكبير الكهنة وقتلتهم بالقرب من معبد جوبيتر Jupiter وكان تعليق صهره سكيبيو إيميليانوس Scipio Aemilianus بأسبانيا « هكذا يموت كل من يقوم بمثل هذه الأعمال » ثم أوضح تعليقه فيما بعد قائلاً « لو كان يهدف إلى الاستحواذ على الحكم فقد حق قتله » .

وظلت لجنة الإصلاح الزراعي تباشر عملها أربعة عشر عاماً ابتداء من عام ١٣٣ ق.م. إلى عام ١٢٠ ق.م. وقد جردها سكيبيو إيميليانوس في عام ١٢٩ ق.م. من سلطاتها القضائية بناء على طلب الحلفاء الإيطاليين كما يبدو ، غير أن أعضاءها كانوا مستمرين إلى حد كبير فلم تظهر طوال هذه الفترة سوى ثمانية أسماء فقط . وقد تولى ثلاثة منهم وهم جايوس جراكوس وماركوس فولفيوس فلاكوس Marcus Fulvius Flaccus وبايبروس كاربو Papius Carbo مناصبهم بصفة مستمرة من عام ١٢٩ ق.م. إلى عام ١٢١ ق.م. ولا غرابة في أن اللجنة استطاعت أن تعمل في نشاط وبشكل فعال . ولقد قدر تيني فرانك Tenny Frank أن ٥٠٠٠٠ شخص على الأقل قد حصلوا على مالا يقل عن ٦٠٠٠٠٠٠ يوجيرا من الأراضي التي أعيد توزيعها أي حوالي ٧ في المائة من مساحة الأراضي العامة ager publicus وربما كانت ١٠ في المائة أقرب إلى الرقم الحقيقي . ولقد وجهت ضربة قاصمة إلى الإقطاعيات الكبيرة على الرغم من أن هذه الضربة لم تكن في عنف الضربة التي كان يريدونها تيبيريوس . وقد كشفت أعمال التثقيب عن ثمانى قطع من الأحجار التي كانت تضعها اللجنة لتحديد مساحة الأراضي -

ست منها في جنوب إيطاليا وواحدة في الشمال وواحدة بالقرب من قرطاجنة وقد استخدمها العالم الفرنسي كاركوينو Carcopino في بحث رائع له يلقى ضوءاً جديداً على مشكلة الأخوين جراكوس كلها .

وبعد مضي عامين على اغتيال تيبيريوس توفي سكيبيو إيميليانوس ولكن لا يمكن الجزم بما إذا كان قد قتل أم لا ، غير أن الشائعات كانت تردد أنه كان على وشك تولي منصب عام في الدولة ، وقد وجد ميتاً وكان يبدو عليه أنه قضى ليلته الأخيرة في أحسن صحة ، وجاء في البيان الرسمي أنه مات مريضاً غير أن وفاته ظلت سرّاً كبيراً في عصره . ولقد تمثلت فيه فضائل نموذج رائع لأحد النبلاء الرومانيين في عصر تفوقت فيه الأرستقراطية ، بينما تجلّت في جايوس جراكوس خصائص عصر جديد .

بدأ جايوس جراكوس تنفيذ وصية أخيه بخطى مرسومة ودقيقة على الرغم من أنه كان يعرف أن هذا السلوك كان يعرضه للهلاك . وقد عمل في لجنة الإصلاح الزراعي ثم اشترك في الحروب التي دارت في سردينيا Sardinia . ولم يرشح نفسه للتربونية إلا في عام ١٢٤ ق . م ، غير أنه كان قد أعد برنامجاً والتأيد اللازم له بدقة وإحكام . وقد كان تيبيريوس يفكر في الإصلاح الزراعي ولم يحاول أن يتخذ إجراءات أوسع نطاقاً إلا بعد أن تصدّت له المعارضة ولكن يبدو أن جايوس كان يدبر من البداية خطة القيام بهجوم أمامي على موقف مجلس الشيوخ عامة . وكي يبدأ هذا الهجوم كونه جهة متحدة كبيرة من الفرسان equites وأصحاب المصالح المالية والتجارية والفقراء في المدن والحلفاء الإيطاليين . وكان مقدرّاً أن أصحاب هذه المصالح سيصطدمون في نهاية المطاف ولكنهم كانوا جميعاً يستفيدون مباشرة بمجرد القضاء على سيادة مجلس الشيوخ . وحيث أن إعادة انتخاب الترابنة أصبحت شرعية في عام ١٣١ ق . م . فقد كان موقف جايوس أفضل بكثير من موقف تيبيريوس من حيث تنفيذ برنامج الإصلاح على نطاق

واسع ولذلك تميز هاما ١٢٣ ق. م. ، ١٢٢ ق. م. بصدور تشريعات قوية لم تكن روما لتشهدا ثانية حتى دكتاتورية يوليوس قيصر . ولا تسمح المصادر التاريخية بتحديد تاريخ صدور جميع قوانين جايوس وإن كان يمكن فهمها تماما في ضوء المصالح التي كانت تعمل على خدمتها ، فقد تلقى رجال الأعمال جوائز سخية . وصدر برنامج واسع يشمل الطرق والموانى والأشغال العامة في إيطاليا حصلوا في نطاقه على عقود لإنجاز الأعمال، غير أن الضربة القاتلة التي فرضت على النشاط المالى صدرت عن إبرام العقود الخاصة بتحصيل الضرائب في آسيا . وكان جراكوس يحرص على أن تطرح العقود في مزاد علنى يقام في روما على فترات مدة كل منها خمس سنوات . وكان المقاولون *Publicani* الذين يؤول إليهم العطاء يستحوذون على سلاطة حالية خاصة أشبه بالسلطة التي كانت تتاح لشركة الهند الشرقية في القرن الثامن عشر أو بامتيازات بتول الشرق الأوسط في الوقت الحاضر ، فضلا عن ذلك فقد ضمن لهم جراكوس فرص الربح التي لم يعترض طريقها أى اهتمام بحقوق سكان الأقاليم وقد كانت هناك بالفعل محاكم ابتزاز الأموال *de repetundis* للنظر في الاتهامات الموجهة ضد المسئولين الرومانيين في الأقاليم . وبمقتضى قانون أكيليريس *Lex Acilia* الذى مازال نصه محفوظا في شذرات من البرونز في متحف نابلى تقرر اختيار محكمى هذه المحكمة من الفرسان . وعلى ذلك كان الحاكم الذى يتحدى رجال الأعمال في ولايته يحاكم على أيديهم بعد عودته . وكان السبيل مفتوحا أمام استغلال الولايات فكان هذا أسوأ الخصائص التي تميزت بها الفترة الأخيرة من عصر الجمهورية .

وقام جايوس بتعزيز لجنة الإصلاح الزراعى لصالح فقراء المدينة وذلك بإعادة السلطات القضائية إليها ثم قرر توزيع الغلال على الشعب بأقل من نصف سعر السوق بمقتضى قانون الغلال *Lex frumentaria* ومثل هذا الإجراء لم يسبق له مثيل . وكان هذا ، بالنسبة لفقراء روما ، خطوة عظيمة في سبيل الوصول بالدولة إلى مستوى الرفاهية على الرغم من أنه لم يكن يمس الفلاح

الإيطالي . وقد ظل توزيع الغلال في روما بسعر منخفض أولاً ثم مجاناً فيما بعد مستمراً حتى آخر عصر الإمبراطورية . وكان له أثر عميق على الزراعة في حوض البحر الأبيض المتوسط كله .

وجنباً إلى جنب مع هذه الإجراءات ظهرت خطط تقديمية لإقامة المستعمرات وكان بعضها جديداً على روما كما كانت هذه المستعمرات مخصصة للتجارة دون الزراعة . وكانت ساتورنيا Saturnia في تارنتم Tarentum ويونونيا Junonia في قرطاجة المششومة من المستعمرات المقترحة لهذا الغرض .

وبالنسبة للمواطنين الإيطاليين فقد عرضت اقتراحات سخية لتوسيع نطاق الامتيازات التي كانت ستمنح حقوق المواطنة الرومانية لجميع اللاتينيين وتمنح حقوق المواطنة اللاتينية لجميع سكان إيطاليا حتى جبال الألب . وهذا أمر لم يتحقق إلا في عهد يوليوس قيصر .

تلك بصورة عامة النقاط الأساسية في تشريع جايوس جراكوس ولم يسبق ان تولى أى تربون آخر مثل هذه السلطات ، غير أن مجلس الشيوخ كان قد تعلم درساً منذ عهد تيديريوس . وقام للدرة الثانية باستغلال سلطة أحد الترابنة للوقوف في وجه التربون الآخر لا ليعترض هذه المرة على زميله ، بل ليتفوق عليه واقترح ماركوس ليفيوس دروسوس تكوين اثنتي عشرة مستعمرة لا ثلاث فقط كلها في إيطاليا أو صقلية ، ولا يشترط في سكانها أية شروط مادية ولا يدفعون أية إيجارات مقابل استغلالهم للأراضي ، وفقد جايوس بعض التأييد الشعبي نتيجة لهذا الاقتراح ، وفقد عندما خرج في رحلة تفتيشية إلى قرطاجة قدراً أعظم فقد استغللت دعاية مجلس الشيوخ نذر الشؤم التي أعقبت استهتاره بلعنة سكيبيو . وأهم من ذلك تذكر الشعب الروماني الغلظة التي ارتكبت عندما شاركه الإيطاليون امتيازاتهم فتصدع الائتلاف ولم يعاد انتخاب جايوس تربونا لعام ١٢١ ق . م . فقد

أجريت الانتخابات فى جز مشحون بالتوتر الشديد وأعقبها مظاهرات صاخبة ، وأعلن مجلس الشيوخ الأحكام العرفية وشن هجوما على حزب جراكوس فى معقله على تل الأفتين Aventine وقتل جايوس نفسه حينما كان يحاول الفرار من المدينة ، وخلع ثلاثة آلاف من أعوانه فى عمليات التطهير التى أعقبت ذلك . وعرفانا بالجميل وهب مجلس الشيوخ معبداً جديداً لإله الوفاق Concord .

ومن الإنصاف أن يكون الحكم على رجل السياسة على أساس الظروف السائدة فى عصره غير أن المصادر التى وصلتنا متأخرة عن عصره بزمان طويل كما أنها متحيزة إلى درجة لا تؤدى إلى إصدار حكم عادل على بواعث الأخوين جراكوس وسياستهما ولكن لا يمكن أن يتطرق الشك فى الأثر الثابت الذى تركاه فى الجمهورية الرومانية . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الانقسامات التى نشبت داخل الدولة عميقة ولا يمكن معالجتها . وكان الصراع الحزبى لا ينقطع كما أن الحرب الأهلية أدت إلى إدخال أساليب جديدة على السياسة الحزبية ، وفضلا عن ذلك فقد كان كل حزب يهدف إلى الاستحواذ على السيادة المطلقة وسحق معارضية . وأدى ذلك إلى تركيز سلطات غير عادية فى أيدي أبطال الحزب ألا وهى قنصليات ماريوس الستة ودكتاتوريات سولا وقيصر . وفى البداية كانت الأحزاب هى التى تخلق الأبطال ولكن فيما بعد استخدم الأبطال الأحزاب لتحقيق أهدافهم الخاصة ، ولذلك ظلت الثورة قائمة طوال المائة عام التى بدأت بموت تيبيريوس جراكوس وانتهت بمعركة اكتيوم ولم يخدم أوارها إلا بعد أن أطاحت بالنظام الجمهورى . وكان هذا القرن من حياة الجمهورية أخرج فترة مر بها التاريخ الرومانى . وتعوزنا المصادر التاريخية بالنسبة لحقبة من هذا القرن فى حين أنها بالنسبة لحقبة أخرى أكثر بكثير عنها فى أية فترة من فترات التاريخ الأوروبى فيما قبل القرن السابع عشر . ولن نحاول هنا إلا أن نلقى نظرة عامة على أهم الموضوعات .

وينقسم هذا القرن إلى فترتين : الأولى من الأخوين جراكوس حتى سولا (١٣٣ ق . م . - ٧٨ ق . م .) والثانية من سولا حتى معركة اكتيوم (٧٨ ق . م . - ٣١ ق . م .) .

أما الفترة التي كان لمجلس الشيوخ فيها السيادة والتي أعقبت وفاة جايوس جراكوس فهي فترة يكتنفها الغموض ، وثمة إجراءات جديران بالاهتمام وهما أولا إلغاء لجنة الإصلاح الزراعي وإيقاف العمل بقوانين جراكوس الزراعية تدريجيا ثم إلغاؤها أخيراً في عام ١١١ ق . م . وثانيا إقامة ولاية جاليا ناربوننسيس Gallia Narbonensis في وادي الرون وجعل مستعمرة ناربو Narbo الكبرى عاصمة لها (عام ١١٨ ق . م .) وكان هذان الإجراءان مرتبطين ارتباطاً وثيقاً ، وكان لإصلاحات جراكوس دور كبير في تخفيف جشع الفقراء الرومان الطبيعي لتلك الأرض . وعندما أضيف إلى هذين الإجراءين فتح وادي «البو» تدريجياً وإتاحة فرص الاستيطان الجديدة في ناربوننسيس هدأ جشعهم لعدة سنوات ، وقد حلت المشكلة التي كانت قائمة في أيام تيبيريوس على الرغم من عدم إحياء الاقتصاد الزراعي في إيطاليا تماماً . وعندما نسمع عن توزيع الأرض ثانية فإنه في هذه المرة كان لصالح الجنود المسرحين .

وكان الحدث الهام في تلك السنوات هو الحرب الناشئة ضد يوجورثا وعلى الرغم من أنها لم تكن حرباً خطيرة فقد ظلت مستعرة الأوار لفترة طويلة من الزمن عادت بالضرر على نفوذ الطرف الأقوى كما حدث تماماً لنفوذ بريطانيا في حرب البوير ولكنها قادت ماريوس إلى القنصلية وإلى تولي أول منصب خطير في السياسة الرومانية يتوقف كلية على السيطرة على الجيش - ذلك المنصب أصبح شؤماً على البلاد فيما بعد . وكان ينحدر جايوس ماريوس من أسرة ريفية من أربينوم Arpinum وقد خدم في الجيش تحت إمرة سكيبيو في القتال الذي دار في نومانتيا Numantia .

وأثار أتباه ذلك القائد المحنك القدير بشجاعته الشخصية وجودة أسلحته وسلامة حيواناته . وانتخب تربونا لعام ١١٩ ق . م . ثم أدى واجبه خير أداء عندما عين «برايتور Praetor» في أسبانيا . وانتخبه الديمقراطيون قنصلا في عام ١٠٧ ق . م لإنهاء الحرب الأفريقية التي لم تكن تبدو لها نهاية . وقد حقق ذلك خلال عامين بفضل جيش المتطوعين الجديد الذي تم إعداده من بين فقراء روما والذي قام هو نفسه بتدريبه على الأساليب الحربية الجديدة . وكانت هذه أولى مرحلة من مراحل إصلاحاته الكبرى التي عمل بها ماريوس على تطوير الجيش الروماني وتحويله من جيش يستخدم في وقت الحرب فقط إلى قوة فنية تخدم لفترة طويلة من الزمن .

وقبل نهاية الحرب في أفريقيا اثبتق خطر رهيب جديد على الحدود الشمالية وهو الغزو الهائل الذي قام به البرابرة الشماليون الشبيهة بالغزوات التي قام بها القوطيون Goths وشعوب الفاندال Vandals ولم يكن الرومان في ذلك الوقت يعرفون شيئا عن شعوب أواسط وشمال أوروبا وأساليهم السياسية . وكانت هذه الإغارات مفاجئة بقدر ما كانت مرعبة . ويبدو أن الكمبري Cimbri والتيونن Teutoni وهكذا كان يطلق على الشعبين الكبيرين اللذين نحن بصدد الحديث عنهما الآن — قد نزحوا من اسكنديناوة وما زال بعض الأماكن في سبه جزيرة الدانمرك تحمل حتى الآن أسماءهم تخليدا لذكراهم ولقد شقوا طريقهم تدريجيا وبيضاء من نهر البي Elbe إلى الدانوب Danube (عام ١١٣ ق . م . ومن هناك إلى شمال الألب حتى بلاد الغال Gaul حيث أبادوا جيشا رومانيا في كارثة أراوسيو Arausio الرهيبة (التي يطلق عليها الآن أورانج) في عام ١٠٥ ق . م . وربما كانت لتقع أكبر كارثة لو أنهم هاجموا إيطاليا في ذلك الوقت ولكنهم بدلا من ذلك اتجهوا إلى أسبانيا واصطدموا بالكاتبيريين Celtiberians الأحرار القاطنين خارج الولاية الرومانية وهم محاربون أشداء مثلهم .

وقضت روما فترة من الراحة استغلها ماريوس أحسن استغلال ، ولقد أعيد النظر في التنظيمات الخاصة بجميع وحدات الجيش الروماني وارتفع مستوى تسليحه وأصبح جميع المشاة في ذلك الوقت يستخدمون السلاح الأبيض (السنكي gladius) و(الحربة pitum) واختفت التنظيمات الصغيرة من المشاة maniples وظهرت وحدات أحدث وأكبر مثل الكتيبة . وكانت كل عشر كتائب تؤلف فرقة legio وباعتبار الفرقة بؤرة يتجمع فيها المحاربون المخلصون للحكومة فقد أصبحت تحمل النسر أو الأعلام التي تميزها . ولما كانت الفرقة تقوم ببعض المهام المدنية إلى جانب كونها قوة هجومية من المشاة المحاربين فقد كان جميع الجنود يحملون معهم أدوات الحفر ، وكان الجندي الذي يحمل معدات وزنها ثمانون رطلا فوق ظهره ، والمدرّب على السير أربعين ميلا كل يوم — كان له الحق في أن يدعو نفسه « بغل ماريوس » Mulus Marianus وأن يحتفظ في ذهنة دائما بذكري ذلك الحيوان الذي شاهده سكيبيو في إحدى الاستعراضات فأثار إعجابه . وكانت مدة خدمة الجندي في الجيش ستة عشر عاما وكان ولاؤه يتحول تلقائياً إلى من كانوا يقودونه في ميدان القتال . وكان الجيش الروماني في أواخر عهد الجمهورية وأوائل عهد الإمبراطورية هو نفس ذلك الجيش الذي أعاد ماريوس تنظيمه .

وفي عام ١٠٢ ق م . ظهر الكهري والتوتون في بلاد الغال ثانية وكانوا في تلك المرة قد عقدوا العزم على غزو إيطاليا . ولقد انقسمت حملة البرابرة إلى جيش التوتون ويقومون بالهجوم من الشمال الغربي والكهري من الشمال الشرقي . وكان ماريوس على أهبة الاستعداد لصدّهم ولقد أباد تماما المهاجمين من الغرب أي التوتون بالقرب من ايز أن برفانس Aix-en-Provence أي أ كراي سيكستياي Aquae Sextiae في معركة رهيبة ما يزال يحتفل بذكراها شعب تلك المنطقة . وبعد مضي بضعة أشهر

وبمساعدة كاتولوس Catulus له أحرز ماريوس أيضاً نصراً مبيناً ضد الكهبرى بالقرب من فركيلاى Vercellae ووادى البو وهكذا لاح خطر البرابرة ثم ولى ثانية، مثله فى ذلك مثل أية كارثة من كوارث الطبيعة .

وكان الذى هدد روما فى المرة التالية هو مخلصها ، فلم يسبق أن تولى أحد منصب القنصل أربع مرات متتالية كما تولاها ماريوس من عام ١٠٤ ق.م إلى عام ١٠٧ ق.م . وما كانت هذه القنصليات الأربع إلا دكتاتورية عسكرية . وكان الخطر الصادر عن الكهبرى هو المبرر لتولى ماريوس القنصلية أربع سنوات متتالية ولكن بعد زوال هذا الخطر لم يكن ماريوس على استعداد للتخلي عن المنصب ، فقد كان طموحه الشخصى متطرفاً كما كان يؤمن بنبوءة قالت إنه سيتولى منصب القنصل سبع مرات . ولكن لسوء الحظ كانت قدراته السياسية ضئيلة، بل من العدالة أن يعتبر ماريوس أقل كفاية من جميع العسكريين الذين ثبتت عدم كفايتهم فى السياسة ، فقد تحالف مع ساتورنيوس Saturninus وجلاوكيا Glaucia الديمقراطيين المتطرفين ليتولى منصب القنصلية للمرة السادسة فى عام ١٠٠ ق.م وقبيل نهاية ذلك العام تخلى عنهما وأصبح يطاردهما على أنهما من أعوان مجلس الشيوخ وقبل انقضاء عامين على هزيمة الكهبرى كان ماريوس خارج القنصلية لا يملك شيئاً سوى سمعته وطموحه وآماله فى الانتقام وفى ذلك الوقت كان موضوع منح الإيطاليين حقوق المواطنة يزداد حدة ، فمنذ ربيع قرن مضى كانت أناية عامة الشعب فى روما قد منعت « جايوس جراكوس » من أن يكون كريماً فى حل هذه المشكلة ومنذ ذلك الحين لم يجد شئ على المشكلة ولم يكن فى نية الإيطاليين الانتظار وكانوا دائماً يحظون بتجاوب المستنيرين من أعضاء مجلس الشيوخ .

وفى عام ٩١ ق.م . عندما أصبح ماركوس ليفيوس دروسوس Marcus Livius Drusus — ابن دروسوس المعاصر لجايوس جراكوس

تريونا اقترح إصدار سلسلة من التشريعات المعقدة وكانت تتضمن تحرير الإيطاليين من القيود المفروضة عليهم وتحويل سلطة الإشراف على محاكم ابتزاز الأموال من الفرسان إلى مجلس الشيوخ وقد دعت الحاجة إلى مثل هذه التشريعات بسبب قضية معروفة سبقت ذلك بعامين ، وهي محاكمة روتيليوس روفوس Rutilius Rufus الذي اجترأ على مقاومة أصحاب المصالح التجارية عندما كان حاكماً لآسيا فقد اتهم بإصدار تصريح مهين وأدى ذلك إلى نفيه ، ونزل ضيفاً مكرماً على الشعب الذي كان من المفروض أن يستغله ، وكان دروسوس يأمل حينئذ في تشكيل ائتلاف من جناح الأحرار في مجلس الشيوخ ومن الحزب الديمقراطي لتحطيم نفوذ الفرسان equites وبذلك أثار ضده أقوى ائتلاف في روما يضم العناصر الاتهازية في جميع الأحزاب ، وانتهى الأمر باغتيال دروسوس مما اضطر الإيطاليين إلى الاعتماد على أنفسهم . فألّف اتحاد من شعوب وسط وجنوب إيطاليا وأرسل وفد إلى روما ليعرض مطالبها ولكن مجلس الشيوخ رفض الإصغاء إليه .

إن أنانية الرومانيين حققت ما عجز هاننبال Hannibal عن تحقيقه . فقد انحل الاتحاد الروماني وانفصل الحلفاء من الاتحاد وتبع ذلك نشوب حرب أهلية دامية ومقارنة هذه الحرب بالحرب الأهلية الأمريكية مقارنة مناسبة ولا مفر منها . فقد تجلّت في كليهما الشجاعة الفائقة ودارتا بين شعوب ترتبط بصلة الدم وتؤمن بنفس المبادئ السياسية مهما تعارضت مصالحهم الاقتصادية فقد وضعت الأنظمة السياسية في الاتحاد الإيطالي على نسق أنظمة روما فكان بها مجلس للشيوخ يضم خمسمائة عضو وقنصلين ولجنة مكونة من اثني عشر بريتورا وأصبحت مدينة كورفينيوم Corfinium التي أطلق عليها اسم إيتاليكا فيما بعد — هي العاصمة الاتحادية . واشتبهت الجيوش الإيطالية مع روما في حروب دامت ثلاث سنوات (٩١-٨٩ ق.م) نجد أن نهاية الحرب الاجتماعية Social War كانت مختلفة تماماً عن نهاية الحرب

الأهلية الأمريكية فقد كانت مطالب هؤلاء المنشقين من العدالة اللازمة حتى إن روما اضطرت إلى الاعتراف بها ، فقد منحت حقوق المواطن كاملة لجميع الإيطاليين الذين اشتركوا في الثورة ثم استسلموا . وبعد ذلك بمقتضى قانون بلاوتوس بابيروس Lex Plautia Papiria — شملت هذه الحقوق جميع الإيطاليين الذين انسحبوا من الثورة ومثلوا أمام أى برايتور فى روما خلال ستين يوما . لقد نجحت هذه الامتيازات فى كسر شوكة مقاومة الإيطاليين بينما لم تنجح القوة العسكرية فى ذلك، ولم يواصل القتال إلا السامنيون تحت قيادة زعيمهم العظيم بونتيس تلسينوس Pontius Telesinus فقد كان من الصعب إرضائهم . وهكذا كسبت روما المعركة بينما كسبت إيطاليا السلام وشملت حقوق المواطنة الرومانية كل أنحاء شبه الجزيرة وكان الثمن باهظا لاداعى له .

ولم يقتصر الأمر فى إيطاليا فقط على رجوع بعض العناصر البكرية إلى ديارها ليعيشوا الفساد فى ذلك الوقت، بل إن مركز روما فى الشرق أصبح مهددا من جانب أخطر عدو أجنبي اضطرت إلى مواجهته منذ هانيبال وهو ميثريداتيس السادس Mithridates VI ملك بونتوس Pontus . كان تغلغل الرومان فى شئون المال والتجاره فى آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط عميقا وبعيد المدى خلال الخمسين عاما التى بدأت بوراثنة روما للمملكة أتالوس Attalus ومنذ تدهور أهمية جزيرة رودس Rhodes أصبح ميناء ديلوس Delos الحر الميناء الأول فى البحر الإيجهى والمركز الرئيسى لتجارة الرقيق ، وتوضح لنا دراسة النقوش التى اكتشفت فى ديلوس أن هذا الميناء كان يضم فى ذلك الوقت عددا كبيرا من التجار وأصحاب السفن الوافدين من إيطاليا ولاسيا من جنوبها . وكانت هناك مستعمرة رومانية فى أثينا كما كان هناك تجار رومانيون وإيطاليون فى دلفى Delphi وأرجوس Argos وكثير من الجزر ، وقد احتكر المواطنون الرومانيون الصفقة المالية

الكبرى ألا وهي عقد جباية الضرائب في آسيا كما رأينا من قبل ، فلم تمذل أية محاولة لمنعهم من استنزاف دماء الشعب إلا في ولايات روتيلوس وروفوس وكان لهم أعوان من الإيطاليين أو السكان المحليين في كل مدينة آسيوية ، وكان هناك بجانب جباية الضرائب نظام القروض والرهونات العامة والخاصة على نطاق واسع ومرجح. وكان ذلك الاستغلال المالى كالأخطبوط الذى تمتد أطرافه إلى ماوراء الأراضى الرومانية فى الممالك المجاورة لها مثل بيثونيا Bithynia وهكذا توافرت للعوامل الهامة اللازمة لانفجار الشعور المعادى لروما فى عنف وشدة .

كانت مملكة بونتوس Pontus القديمة تحتل الساحل الجنوبي الأوسط للبحر الأسود وكانت تنعم بقدر وافر من الغنى والثراء إذ كانت أشجار الصنوبر على تلال البونتوس Pontic hills تنتج أجود أنواع الأخشاب الصالحة لبناء السفن فى العالم القديم وربما وجدت بها أيضاً أول مناجم للحديد استغلها الإنسان وهى مناجم منطقة خالويدس Chalybes - تلك المنطقة التى وردت فى الأساطير اليونانية فى صورة شبه خرافية . ومنذ عهد الإسكندر ظل يحكم هذه المملكة عدد من الملوك يحملون اسم ميثريديتيس ويدعون انتسابهم إلى الأسرة المالكة القديمة فى بلاد فارس وكانت عاصمتهم سينوبى Sinope المستعمرة اليونانية والمركز التجارى الهام — كما كانت لهم أيضاً مدن يونانية أخرى على طول الساحل كان ميثريديتيس الخامس صديقا للرومان منذ ظهورهم فى آسيا لأول مرة وبذلك تمكن من بسط ملكة على حساب جيرانه . وكان ابنه ميثريديتيس السادس الأكبر أكثر طموحا من أبيه فقد انتهت حملاته على الساحل الشمالى للبحر الأسود بضم أراض شاسعة من إقليم القرم Crimea وجنوب أوكرانيا Ukraine إلى مملكته كما كانت هذه — المناطق الجديدة تمد جيشه بالجنود وحققت له

السيطرة على تجارة الغلال الواردة من روسيا ومضاييد الأسماك في بحر ازوف Azov .

أصبح ميثريدايس يسيطر على أقوى مملكة في الشرق بعد أن وصلت سوريا إلى آخر مرحلة من مراحل التدهور ، وقبل ظهور بارثيا Parthia في الأفق .

ولما استولى الذعر على روما شجعت ملك بيشونيا على الزحف ضد ميثريدايس غير أن الحرب الاجتماعية نشبت بعد ذلك في إيطاليا وحانت حينئذ الفرصة لميثريدايس إذ أن طرد الرومان من آسيا يجعله أكبر الحكام الآسيويين الذين ظهروا منذ عهد أنتيوخوس Antiochus الثالث في سوريا وكان أعوانه على اتصال بالأحزاب الديمقراطية المناهضة للرومان في جميع أنحاء سوريا واليونان ، وفي عام ٨٨ ق.م هاجم ميثريدايس آسيا بجيش جرار واكتسح قوات الحاكم الروماني الضعيف وسيطر حينئذ على الولاية وكانت خطوته التالية هي تدمير مذبحه تعد من أكبر المذابح التي حدثت في العصور القديمة وأدقها تنفيذاً في يوم واحد قتل جميع الرومان والإيطاليين من الرجال والنساء والأطفال والعبيد المقيمين في كل أنحاء آسيا مستخدماً في ذلك جميع ألوان الوحشية وتراوح عدد القتلى بين ٨٠٠٠٠ ، ١٥٠٠٠٠ شخص وصودرت أملاكهم لصالح الخزانة الملكية وقتل معهم أيضاً كثير من الأثرياء الآسيويين إذ جاء في البيان الملصق أن كل مدين يقتل دائمه يعنى من تسديد نصف الدين المستحق عليه . ولاشك في أن هذا البيان كان يجرس الناس على القتل . وهكذا خسرت روما آسيا وقد أصبحت خزانة روما خاوية تقريباً بعد أن حرمت من الضرائب التي كانت تحصل من آسيا وأفلس كثير من التجار بعد أن انقطعت اتصالاتهم بآسيا ، وعلى ذلك أصبحت ضرورة القضاء على ميثريدايس عاجلة ولا تقل أهمية عن ضرورة إنهاء الحرب الاجتماعية . ولكن ترى من ذا الذي كان يتولى تلك القيادة الخطيرة في الشرق ؟ .

لقد وقع اختيار مجلس الشيوخ على لوكيوس كورنيليوس سولا Lucius Cornelius Sulla أحد القنصلين لعام ٨٨ ق م . وكان في ذلك الوقت مع جيشه في كمانيا Campania وقد برز سولا في أثناء خدمته في الجيش تحت قيادة ماريوس Marius أثناء الحرب ضد يوجورثا Jugurtha والكهربى وكان أكثر القواد الرومانيين توفيقا في الحرب الاجتماعية ولكن بالطبع كان ماريوس يطمع أن يتولى هو نفسه القيادة في الشرق على الرغم من أنه كان في ذلك الوقت غير لائق من الناحية الجسمانية وكان مدمنا للخمر وأقرب إلى الجنون كما كان في سن السبعين تقريبا. فأصدر سولبيكيوس Sulpicius التربيون قرارا عن طريق الجمعية يقضى بإسناد القيادة إلى ماريوس بدلا من سولا . ومضت الأحداث في سرعة خاطفة فقد عاد سولا في الحال إلى جيشه في كمانيا وقاده ضد روما واستولى على المدينة وطرد الديمقراطيين وأعدم سولبيكيوس ونفى ماريوس . وبعدئذ أبحر إلى اليونان لمحاربة ميثريديتيس على رأس جيش يتألف من ٣٠٠٠٠ جندي فقط . ولم تمض بضعة شهور حتى استعاد الديمقراطيون نفوذهم وعاد ماريوس إلى روما ومضى يسحق أعداءه في كل حذب وصوب وأقام حكم الإرهاب - ولكنه كان قصير الأجل . إذ مات ماريوس ولم تمض على توليه القنصلية للمرة السابعة ، كما حكم القدر عليه، سوى أيام قلائل .

كان الديمقراطيون يسيطرون على زمام الأمور في قوة وعزم وأصبح سولا بعد انقطاع الإمدادات والأموال عنه يواجه في اليونان عددا يفوقه قوة وبأسا . وكان الصمود أمام هذه الظروف يتطلب رجلا شجاعا جريئا وكان « سولا » هو ذلك الرجل إذ أنه كان يثق بنفسه وبقدرته .

وبعد أن تحطم البنيان التقليدي للأرستقراطية الرومانية أصبحت شخصيات الرجال الذين يستحوذون على السلطة العليا هي العوامل الرئيسية

فى تشكيل التاريخ ولحسن الحظ أن سير العظاماء الرائعة التى كتبها . بلوتارخ Plutarch تمكنا من فهم بعض رجال العصر الأخير من عصور الجمهورية فهما عميقا - أمثال ماريوس - سولا - بوهي - كراسوس شيشرون وقيصر . وتعتبر حياة « سولا » من أروع هذه السير . فهى تجسم لنا شخصية رجل من نوع يندر وجوده فى يومنا هذا وإن لم يكن شاذا فى التاريخ الرومانى فهى شخصية الرجل الذى يجمع بين حياة العمل وحياة اللهو بنفس القدر تقريبا . فى ميدان القتال كان رجلا لا يبالى بالصعاب والمشاق ولا يخشى شيئا ، رجلا يتبعه الجنود أينما ذهب ، بينما خارج نطاق العمل كان يميل إلى مصاحبة الممثلين والعاشرات ويقول عنه بلوتارخ « إنه بمجرد جلوسه لتناول العشاء كان لا يأخذ شيئا مأخذا الجد ، ولكن على الرغم مما كان قد يبدو عليه من دماثة الخلق فقد كان متعطشا لإراقة الدماء بصورة لم تظهر على أى رومانى إلا فى معاملته لأعداء روما . وعندما كان يتأزم الموقف لم يعترض طريقه أى حائل على الأرض أو فى السماء . فتحت وطأة الأزمة المالية التى عاناها وهو فى اليونان صادر كنوز المعابد دون أن يراجع أمام رهبة أقدس المعابد جميعا وهو معبد الإله « أبوللون » فى دلفى ، ووضح فى خطاب منه إلى السكينة أن كنوز المعابد ستكون فى مأمن معه ، لو أنه احتفظ بها) أما إذا باعها فسوف تحل محلها كنوز أخرى . وكان فى نفس الوقت يرسل أحد عملائه ليقوم بوزن هذه السكوز وتقدير قيمتها غير أن العميل نفسه كان يتردد فى لمس هذه السكوز المقدسة وأشار السكينة إلى نذر الشر التى قد تحدث فقد انطلق صوت القيثارة وتفسير ذلك أن الإله قد أتى إلى معبده .. وعلق سولا قائلا إن هذا صحيح ولكنهم أخطأوا فى تفسيرهم لهذه الظاهرة فالموسيقى علامة الفرحه لا الغضب فقد كان الإله فى غاية السرور لهذا الاقتراح فدعهم يحضرون إلى عملهم دون خوف . وهكذا كان يسيطر على حياة سولا اعتقاده بأنه خليل الحظ السعيد وصفى القدر وعرف باسم سولا المحظوظ Sulla Felix

(هكذا سمي نفسه فيما بعد) وكلما كان يتصرف بجرأة وشجاعة كان الصواب حليفه .

كان قتاله ضد « ميثريدا تيس » يحتاج إلى كل مقومات الحظ فقد أعلنت أننا انضمنا لها وسيطر أسطول هلي البحر الإيجي وخسرت روما معظم الجزر ر تعرضت ديلوس للهجوم ودمرت ولكن سقطت أثينا في يد سولا بعد عملية حصار تعد من أشهر العمليات التي أجريت في التاريخ القديم وأسفر الحصار عن خسائر هائلة في الأرواح وعن تدمير الكثير من آثار المدينة التاريخية . وقد أيدت الجيوش في معركتين دامتين بشمال اليونان عندما سلكت الطريق المشهور الذي سلكته الجيوش الفارسية الغازية . وازدادت الأمور تعقيدا عندما وصل جيش روماني ثان كانت قد أوفدتها الحكومة الديمقراطية ومامن أحد عرف بالضبط الدور الذي سيلعبه هذا الجيش ولكن يبدو أنه قد تم الوصول إلى اتفاق سرى بين سولا وفلاكو س Placcus قائد هذا الجيش الذي قام بعدئذ بخدمة جليلة عندما طرد قوات مملكة بونتوس خارج إقليم مقدونيا ثم غزا آسيا واستولى هذا الجيش نفسه تحت قيادة قائد جديد يدعى فيمبريا ، على مدينة برجاموم وكاد يلقى القبض على ميثريدا تيس . وكان هذا ما لا يرضاه سولا إذ أنه لم يكن بينه وبين فيمبريا أى تفاهم ولم يكن يستطيع أن يترك جيشا ديمقراطيا ينعم بشرف استرداد آسيا . أما ميثريدا تيس فقد كان في حاجة إلى الراحة فقد خسر جيشين كبيرين كما فقد معظم فتوحاته . ولذلك أبرم سولا والملك (ميثريدا تيس) معاهدة « داردانوس Dardanus » عام ٨٤ ق . م . بمقتضاها تنازل الملك عن جميع فتوحاته ودفع تعويضا واحتفظ بيونتس ثم اعترف به صديقا وحليفا لروما وقد وجه الكثير من النقد إلى شروط المعاهدة غير أنها كانت أفضل ما يمكن أن ينجزه سولا في ذلك الوقت ، ومنحته

هذه المعاهدة ما كان يطمع فيه ألا وهو فرصة الحصول على شرف استرداد آسيا وعندما ظهر سولا في آسيا وعسكر بجوار قوات فيمبريا اندمج الجيشان وامتزجا وأصبحا جيشا واحدا ولم يجد فيمبريا أمامه سبيلا بعد أن هجره جيشه سوى الانتحار . وعلى ذلك كان سولا هو الذى تفاوض مع مدن آسيا فى المؤتمر العام الذى عقد فى أفيسوس Ephesus للوصول إلى تسوية الموقف . ولم تكن الشروط خفيفة الوطأة وكانت فى الواقع مظالمة بدفع تعويض كبير ودفع الضرائب لمدة خمس سنوات تسدد كلها على الفور . أما بالنسبة للأسىويين المغلوبين على أمرهم فكانت هذه المطالب هى أقصى ما توصلت إليه أعمال الابتزاز التى كان يقوم بها المقاولون الرومانيون ومثيرى داتيس الذى لم يكن متساهلا فى الالتزامات التى فرضها عليها . والأبعد من ذلك كانت هناك مطالب قوات سولا التى بجوار إيجادتها لجميع فنون الحرب كانت تجيد تماما استخدام جميع الوسائل التى باستخدامها تستطيع القوة المحتلة إثراء نفسها . وليس غريبا أن إقليم آسيا بدأ يعاني تدهورا اقتصاديا استمر حتى بداية عصر الإمبراطورية .

وبعد ذلك لم تبق إلا مشكلة واحدة وهى شروط سولا للعودة إلى إيطاليا ولفترة ما كان الموقف متميعا وكل فرد لا يثق بالآخر ولكن الأمر المسلم به هو حاجة روما إلى كل من سولا وجيشه معا وكرهية السامنيين الذين كانوا ما يزالون فى قتال مع روما . ولكن المفاوضات التى أجريت لضمان عودته دون معارضة انقطعت فدخل سولا إيطاليا ثانية كعدو مسافر للديمقراطيين وغريبا لمجلس الشيوخ . وتبع ذلك الجولة الثانية للحروب الأهلية وانتهت بأقصى معركة مر بها سولا فى حياته . فقد حارب جيش السامنيين بقيادة بوتىوس تليسينوس Pontius Telesinus عام ٨٢ ق . م على أسوار روما خارج برابة السكولين Colline gates وكان يبدو لفترة طويلة أن السامنيين سيحرزون النصر ولو تم انتصارهم فعلا لدمروا روما ولكن عندما حالف النصر سولا أخيرا ذبح كل السامنيين

الذين لم يقتلوا في المعركة باعتبارهم أسرى حرب . وهكذا أيبداً آخر جيش من جيوش السامنيين الخطيرة .

حينئذ أصبحت لسولا وأتباعه السيادة المطلقة في روما ومضوا في إظهار سيادتهم بقسوة ووحشية أصبحت مثلاً يحتذى في جميع المحاولات المماثلة التي حدثت فيما بعد . أسبغ سولا على مركزه الصفة الشرعية بأن أعاد لمصلحته الخاصة منصب الدكتاتور القديم الذي ظل مهملًا منذ الحروب البونية الثانية ومن دلائل الخطر أنه لم تتحدد مدة تولي هذا المنصب ، كما كانت تغفر للدكتاتور جميع الأعمال التي يقوم بها في الحاضر والمستقبل . وهكذا أطلق العنان لحكم سولا الإرهابي وكان من المنتظر أن يقتل معارضيه السياسيين كما فعل ماريوس من قبل ، غير أن سولا ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير إذ قتل الذين لم يشتركوا في السياسة بتاتا وسرعان ما اتضح أن الدوافع الحقيقية لذلك العمل كانت دوافع مالية إذ أن أنصار سولا كانوا يطمعون في الثراء مستندين إلى ممتلكات ضحاياهم . وعندما قامت محاولة لكبح جماحه واجهها بأسلوب جديد من الغدر والشر ألا وهو إصدار قائمة التجريد من الحقوق Proscription list إذ كانت تظهر أسماء الضحايا المتوقعين في جريدة رسمية تنشر في السوق العالمية Forum وكان المذكورون في هذه القائمة يعتبرون خارجين على القانون فكان يحل قتلهم دون عقاب وتصادر إقطاعياتهم وتحرم سلالتهن من حقوق المواطنة ويقال إن سولا قد جرد أربعين عضواً من مجلس الشيوخ وستائة من الفرسان من حقوقهم وجمع الأشخاص الذين اشتروا إقطاعيات الضحايا بشمن منخفض ثراوات طائلة كثيرة كما هو واضح من ثروة المليونير كراسوس وكانت ميتلا Metella زوجة سولا « زبونة » دائمة لمثل هذه المزايدات . ولا بد أنه كان من العسير تعدى السعر الذي كانت تحدده . وظل التجريد من الحقوق من أخطر الدوافع التي كانت تهدد بقيام الحروب الأهلية الأخيرة

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأفراد المنتمين للشعوب الإيطالية وخاصة من
اتروريا قد فقدوا أراضيهم بسبب معارضتهم لسولا ووزعت هذه الأراضي
على الجنود المسرحين الذين كانوا لا يصلحون للفلاحة ويكونون العناصر
الخطرة في الريف فقد كانوا دائما على استعداد لإثارة الشغب . انتقى سولا
عشرة آلاف رجل من عبيد الأشخاص الذين وقع عليهم التجريد وحررهم
ومنحهم حقوق المواطنة الكاملة واتخذوا لأنفسهم اسم كورنيليني وأصبحوا
على استعداد للعمل كأعوان له إذا طلب منهم ذلك وبذلك أصبح لسولا
أكبر عدد من الأتباع عرف في روما فقد كانوا يدينون له بكل شيء وكان
أشبه برئيس عصابة على نطاق واسع وبوضع شرعى .

إن الدكتاتور كان يعين في روما لهدف معين والهدف من دكتاتورية
سولا هو وضع دستور لروما Dictator reipublicae constituendae
ويبدو أن الأحكام التي كان ينطوى عليها دستور سولا لم تكن نابعة منه
فبزواجه من كورنيليا ميتلا Cornilia Metella ارتبط ببعض الأسر القوية
التي كانت تتألف منها الأرستقراطية القديمة مثل أسرة ميتلي Metelli
وايميليني سكاوري Aemilii Scauri واللوتاتى . ومن المحتمل أن هذه
الأسر كانت العقل المحرك لهذا البرنامج الذى كان يهدف بوضوح إلى
بعث سيادة مجلس الشيوخ على ما كانت عليه قبل ظهور الأخوين جراكوس
و ضمان دوام هذه السيادة فقد ألغيت وظيفة الكنصور وألغيت معها مراقبة
القائمة التي كان يترتب عليها العضوية في مجلس الشيوخ ، وبدلا من ذلك
أصبح الانضمام إلى مجلس الشيوخ يتوقف على تولى إحدى الوظائف العامة .
وانخفض عدد الترابنة إلى حد كبير وفقدوا تماما سلطتهم على اقتراح التشريعات
وأصبحوا غير لائقين من الناحية القانونية على تولى أى منصب بعد ذلك
فبذلك لم يكن لبنى أى مستقبل عظيم في الحياة العملية على أساس تولى
منصب التريبونية كما كان الحال بالنسبة لجايوس جراكوس و اقتضت الجمعية
العامة على مناقشة الاقتراحات التي يحملها عليها مجلس الشيوخ وتوقف توزيع
الغلال وهذه كانت محاولة لخفض عدد عامة الشعب في المدينة . وفقد

الفرسان سلطاتهم في محاكم ابتزاز الأموال التي أعيدت إلى إشراف مجلس الشيوخ ، والحقيقة أن إصلاح سولا للتنظيمات القضائية العليا كان مجديا واستمر لزمان طويل فالطموح المفرط كان يلقى مقاومة شديدة حتى بين أعضاء مجلس الشيوخ ، وأصبح شغل الوظائف العامة يخضع لنظام ثابت فلم يكن أحد يستطيع أن يتولى أى منصب رسمى قبل سن الثلاثين وكان لا بد من مضى عشر سنوات قبل إعادة انتخاب الشخص لمنصب من المناصب ، ولم يعد تولى القنصلية لفترات متعاقبة مصحوبا بأية سلطة عظمى كما كان الحال بالنسبة للماريوس . وأخيرا تقرر ألا يسمح لأى جيش بأن يعسكر فى إيطاليا وأن يتخلى جميع القواد العائدين من قياداتهم ويدخلوا روما باعتبارهم أشخاصا عاديين وبذلك لم يظهر سوى « سولا » واحد يهيمن على الحكم بطريق سيفه وهكذا أصبحت روما حصنا منيعا يعيش فيه حكم الأقلية .

وبعد أن دفع سولا عقارب الساعة إلى الورا اظل ينتظر بضعة أشهر ليرى ما إذا كانت الساعة ستدور ثانية ثم تخلى عن منصبه ليسلك الطريق الذى كان يفضله دائما ألا وهو طريق المتعة والهوى ولكنه لم ينعم باعتزاله العمل لفترة طويلة فقد مات فى غضون دام واحد فى سن الستين (عام ٧٨ فى م . وقد شيع جثمانه فى جنازة رسمية ووضع على قبره نقش اختاره لنفسه يقول فيه « إنه ما من رجل نفع أصدقاؤه أو ضرر أعداءه أكثر منه » . وكان هذا النقش ينطوى فى الحقيقة على المثل السياسية العليا التى كان يؤمن بها سولا ورجال عصره . ولو كان قد جاء فى هذا النقش أيضا أن ما من رجل أضر بالدولة أكثر منه لسكانت هذه هى الحقيقة بعينها ويجب أن نذكر حكما صدر على سولا فقد قال يوليوس قيصر — الدكتاتور الذى لم يعتزل — عن سولا « إنه لم يكن يعرف المبادئ الأولية » وقد ينظر العالم الحديث إلى اعتزال الدكتاتور بقدر وافر من التسامح . ومن كل الأعمال التى فقدت فى الأدب اللاتينى ليس هناك إلا القليل مما نود الحصول عليه وما هو أكثر متعة من مذكرات سولا .

الفصل السادس

تدهور الجمهورية الرومانية وسقوطها

من ٧٨ إلى ٣٠ ق. م.

كان المقصود من الدستور الذى وضعه « سولا » Sulla إيجاد حل نهائى للمشاكل السياسية فى الجمهورية الرومانية ، ولكن ما إن انقضت عشرة أعوام على وفاة « سولا » حتى كان هذا الدستور قد ألغى تماما ، إذ لم يكن هناك مفر من الاعتراض عليه إن عاجلا أو آجلا ، ذلك لأن عامة الشعب Populares والفرسان Equites لم يكن ليقفوا مكتوفى الأيدى لزمن طويل حيال السلطات التى خرطها هذا الدستور لمجلس الشيوخ Senate لكن الذى حسم الموقف هو ضغط الأحداث التى جرت خارج « روما » ما بين ٧٩ — ٧٠ ق. م. فى الشرق ، انتهز « ميثريدايس » Mithridates الفرصة ليجدد كفاحه ضد عدوه البغيض ، وفى الغرب تمكن « سرتوريوس Sortorius أحد أتباع « ماريوس » Marius وحاكم إقليمى « قدير » من السيطرة على « أسبانيا » وحكمها لعدة سنين كولاية مستقلة ، أما فى إيطاليا نفسها ، فقد أظهرت ثورة العبيد الرهيبة ، التى قامت تحت إهارة « سبارتاكوس » Spartacus ضعف الحكومة المركزية بوضوح تام ، وفى البحار البعيدة ، كان انتشار القرصنة الذى ينذر بالخطر يهدد بشل الحركة التجارية فى البحر المتوسط ، وكان هذا الموقف يحتاج إلى رجال يتولون قيادات خارقة للعادة لعلاج هذه الأخطار ولم يكن هناك نقص فى الرجال القادرين على شغل هذه المناصب وأنفع درس يتلقاه أمثال هؤلاء الرجال من أحداث عصر « سولا » هو سيرة حياة « سولا » نفسه ، إذ عاد من قيادة عظيمة وهو

يقود جيشا خلفه ثم نصب نفسه سييدا « لروما » وكان في مقدور هؤلاء أيضا أن يفعلوا مثله ، والتاريخ السياسي للفترة ما بين موت « سولا » حتى دكتاتورية « يوليوس قيصر » Julius Caesar يحسن فهمه تماما بتتبع سير حياة ثلاث شخصيات عظام هم « بومبي » Pompey ، « كراسوس » ، Crassus ، « قيصر » Caesar إذ استطاع كل منهم أن يركز بين يديه من السلطات الواسعة ما جعله قادرا على الوقوف في وجه سلطات الدولة .

وكان « بومبي » قد لمع اسمه فعلا أثناء حكم « سولا » وواتاه التوفيق بسهولة وفي وقت مبكر ، كما خلع عليه حينئذ لقب « العظيم » Magnus ولكن إذا ما اعترضت طريقه المسئوليات الجسام كان لا يفتقر إلى الموهبة والذكاء لمواجهة ، وقد كان في إمكانه أن يقيم حكما فرديا مطلقا لو كان فظا غليظ القلب بقدر ما كان مغرورا .

أما « كراسوس » فقد كان ثراؤه الفاحش هو الأساس الذي أقام عليه نجاحه في حياته ، وقد نمى الثروة الضخمة التي آلت إليه باستخدام تفكيره العميق الماكر عند صدور أحكام النفي والإعدام أثناء حكم « سولا » وبعده كما أصبح « كراسوس » أكبر رؤساء روماني في أيامه ، إذ قدرت ثروته في وقت ما بحوالي ١٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . واستغل كثرة اشتغال النيران في روما ليزيد من ممتلكاته في العقار بين جدران العاصمة ، فلما لم يكن هناك فرق مطافي عامة ، أنشأ « كراسوس » فرقة خاصة به يستطيع أن يرسلها هو ووكلاء أملاكه إلى مكان الحريق ، ويقوم الوكلاء بعرض قدر من المال ثمنا للممتلكات التي تحترق والممتلكات المجاورة لها ، فإذا حاز هذا الثمن القبول بدأ جنود الإطفاء عملهم ، أما إذا رفض يقف الجنود بجوار مكان الحادث يشاهدون الحريق ، ثم يلي ذلك عرضهم لثمن آخر أقل بعد أن تكون النيران قد خربت هذه الممتلكات تماما ، وليس من المفروض أن مثل هذا المشروع القوى التنظيم تنقصه هيئة تعتمد إشعال

النيران . وكان « كراسوس » بالطبع رئيسا للمنتفعين من أرباح هذا العمل في روما ، وكان في إمكانه أن ينال نجاحا باهرا بين صفوف رجال الأعمال الذين ظهروا في أمريكا خلال القرن التاسع عشر ، ولقد كان مصيراً غريباً ذلك الذي قاده إلى حتفه وهو على رأس جيش ضل طريقه في صحراء سوريا .

أما « قيصر » Caesar أصغر هؤلاء الثلاثة ، فقد كانت شخصيته مرموقة حينذاك بعصبة خاصة لصلته بعائلته « ماريوس » Marius ولكثرة ديونه ولطريقته الخاصة في إظهار رقة طباعه أو وقاحة خلقه حسبما يتطلب الموقف ، ولقد أيقنت عين « سولا » الشاقبة مواهبه وعينه للتخلص منه ، كما سمح بأن يعاقب عقابا له ما يبرره ، وهو يدمم قائلا « فلتقل ماتشاء » ، فإن هذا الشباب الصغير فيه الكثير من « جايوس ماريوس » Caius Marius .

لكن لم تخل الدولة من الرجال الأكفاء الذين أقاموا نجاحهم على أساس خدماتهم العادية في سلك الوظائف العامة . فلوكلدوس Lucullus كان يتمتع بمواهب عسكرية فذة مثله في ذلك مثل أى قائد من قوادعصره ، و(ماركوس توليوس شيشرون) Marcus Tullius Cicero شاب من بلدة (أربينوم) Arpinum الريفية ، لا يرتبط بالسياسة ارتباطا قويا ، شق طريقه نحو المجد بخطابته البالغة ، وكانت فرصته الذهبية هي إدانة (فريس) Verres حاكم (صقلية) المرموق في عام ٧٠ ق . م . ، و (كاتون) Cato ، سليل (كنسور) Censor جليل عاش في القرن السابق له ، كان متهوراً بما فيه الكفاية حتى إنه استند على أهداب الفضيلة العقيمة (وعلى ضيق أفق متناه) ، وقد أدى ذلك إلى انتحاره وإلى خلود شهرته كبطل يدافع عن قضية خاسرة كما أن بعض العائلات النبيلة ، مثل عائلة (الميتلي) Metelli و اللوتاتيي Lutatii أنجبت رجالا لا يقولون شأنا عن أجدادهم الذين حكموا روما في وقت ما . لكن هذا العصر كان في صالح من استطاع أن يتنكر لكل إلزامات حزبه أو طبقاته ، ولا يفكر إلا في مصالحته الشخصية فقط .

تال (بومي) أول انتصاراته الرائعة في الحرب التي نشبت ضد (سرتوريوس) وقد أمدتنا هذه الفترة بتقرير واف عن النظام الجمهوري الذي كان يطبق في حكومة الولايات ، لقد أوفد الحزب الديمقراطي (كوينتوس سرتوريوس) Quintus Sertorius ليكون حاكماً (لأسبانيا السفلى) Hispania Citerior ، ولكنه حل محله في الحال حاكم موفد من قبل مجلس الشيوخ وأرغمه على التراجع إلى أفريقيا ، وفي عام ٨١ ق.م . استدعاه شعب (اللوسيتاني) Lusitani (البرتغال الحديثة) ليقود ثورتهم القومية . وبعد عودته إلى الأراضي الأسبانية مرة ثانية أصبحت الحركة التي قام بها الملاذ الأول للفارين من حكم (سولا) . وفي عام ٧٧ ق.م. عضده جيش ديمقراطي روماني جاء من سردينيا تحت إمرة (بيربرنا) Perperna وهكذا كسبت هذه الثورة القومية ذكاء وخبرة قائد روماني من الطراز الأول ، إذ كان (سرتوريوس) من أكفأ رجال عصره فقد قام بتكوين جيش روماني - أسباني صغير وسريع الحركة ، توحدت فيه أساليب الحرب الرومانية مع العبقرية الأسبانية في شن حرب العصابات ، واستطاع هذا الجيش أن يهزم قائداً رومانياً محسناً مثل (ميتلوس بيوس) Metellus Pius وأن يقف في وجه رجل عظيم مثل (بومي) . وكانت سياسة (سرتوريوس) مع الأسبان سياسة متحررة ومستنيرة يقترن بها فهم عميق لصفاتهم الشخصية وانسجام مع هذه الصفات . ولم يلق أي رجل روماني من قبله مثل هذا النجاح في تسخير ولاء الأسبان ووفائهم . وأدرك تماماً أهمية الدين باعتباره قوة توحد صفوف أهالي البلد . فادعى أنه تحت حماية (ديانا) Diana ويتصرف بوحي منها ، تلك الإلهة العظيمة التي كانت عبادتها في أسبانيا أكثر العبادات انتشاراً ، وكان يصطحب معه حمله الأبيض المعروف كدلالة على حمايتها له . كما استمتع أعوانه الرومان بأهم ميزات الجمهورية الرومانية وذلك بتكوين مجلس شيوخ مكون من ثلاثمائة عضو . وفي أوج عظمته سيطر على وسط أسبانيا ، وأثيرت

مناقشات جديدة عن مدى إمكان غزو إيطاليا . وكان تحالفه مع (ميريدا تيس) ومع قراصنة البحر الأبيض ينهى بقيام ائتلاف معارض لمجلس الشيوخ — على نطاق واسع عالمي — ولكن في نهاية المطاف ، انهار ائتلاف (سرتوريوس) هذا بسبب تضارب أغراض أعضائه السياسية . فالخلفاء الأسبابان تريد الاستقلال ، واللاجئون السياسيون الرومانيون ينغون عودة الحزب المعارض لمجلس الشيوخ إلى روما منتصراً . كما كان هناك تنافس شخصي بين (سرتوريوس و بيربرنا) على مركز الزعامة . لقد كان في مقدور (سرتوريوس) المحافظة على كيان الائتلاف بشخصيته طالما كانت شخصية ناجحة . ولكن عندما وقف بومبي في طريقه تصدع هذا الائتلاف تماماً . واغتيل (سرتوريوس) (في عام ٧٢ ق . م . ولكنه كان بمثابة إنذار لما يجب أن تقوم به الحضارة الرومانية من أعمال في أسبانيا عندما تتحسن الأحوال .

وقد جاء نشوب الحرب مع (ميريدا تيس) مرة أخرى في عام ٧٤ ق . م . نتيجة لتركه أخرى آلت إلى روما — ألا وهي وصية (نيكوميديس الرابع Nicomedes بمملكته بيثونيا Bithynia لروما ، وليس من الغريب ألا يرحب ملك (بونتوس Pontus) بإقامة ولاية رومانية جديدة على أبواب مملكته . وبذلك أصبح بين يديه الادعاء الكافي ليحتج على خرق شروط المعاهدة التي عقدها معه (سولا) وتبعاً لذلك اخترق أراضي (بيثونيا) وطرد الرومان من منطقة البحر الأسود وحاصر قلعة (كوزيكوس) Cyzicus المنيعه . ثم توأطأ مع القراصنة ليقطع طرق مواصلات روما المؤدية إلى آسيا . كما كان أيضاً على اتصال دبلوماسي (بسرتوريوس) الذي بعث إليه بضباط ليدر بوا جيش (بونتوس) على أساليب الحرب الرومانية . وأصبح الموقف يحتاج إلى ظهور (سولا) آخر ليتولى قيادة أخرى مجيدة في الشرق . وقد عثر على الرجل المناسب في شخص

(لوكلوس) Lucullus الذي كان ضابطاً في جيش (سولا) أثناء قيام الحرب الأولى ضد (ميتريداتيس) .

ومكانة (لوكلوس) بين زمرة القواد العظام وحكام الولايات الذين تولوا مناصبهم خلال الخمسين سنة الأخيرة من عصر الجمهورية مكانة مشرفة فعهد إليه بقيادة خارقة للعادة ، ألا وهي الولايات الثلاث : آسيا ، وكيلىكا Cilicia ، وبيثونيا ، وذلك بالإضافة إلى منحه تفويض كلى لإنهاء الحرب مع (ميتريداتيس) وقد استغل هذا التفويض استغلالاً فعالاً ، فبين عامي ٧٤ - ٦٧ ق . م . طهر أراضي بيثونيا ، وطرده (ميتريداتيس) من مملكة (بونتوس) وتعبه حتى وسطاًر مينايا حيث التجأ (ميتريداتيس) إلى زوج أخته (تيجرانيس) Tigranes وكان هذا العاهل قد قام بتوسيع رقعة مملكته القديمة توسيحاً كبيراً ، واتخذ لنفسه لقب (ملك الملوك) اللقب الفارسي القديم .

وقفة نجاح (لوكلوس) هي استيلاؤه على (تيجرانو كيرتا) Tigranocerta عاصمة مملكة هذا العاهل الجديدة الرائعة ، التي بناها بالقرب من مصب نهر (يوفراتيس) Euphrates لتحي أجماد (بابل) Babylon ونيوى Nineveh الغابرة . وقد كان أمام لوكلوس متسع من الوقت مكنته من إعادة تنظيم شؤون ولاية آسيا المالية ، وذلك بتخفيفه للعسر الذي وقعت المدن في شراكه وهي تحاول سداد التعويضات التي فرضها (سولا) عليها ، كما كبح جماح جامعي الضرائب والمرابين الرومان .

ولكن كان (لوكلوس) أعداء أكثر خطورة عليه من غريمه الذي يواجهه في ميدان القتال . فقد حقد عليه (بومبي) لنجاحه في قيادة أعظم من أى قيادة كان قد تولاها هو حتى ذلك الوقت ، كما كان الفرسان Equites يكرهون حده من أوجه نشاطهم في ولاية آسيا ، أما جنوده فقد

استاءوا أكثر فأكثر من النظام القاسى الذى فرضه عليهم وخاصة من مجاولاته لحرمانهم مما يعتبرونه كسبا شرعيا فى السلب والنهب . فبدأت المؤامرات تحاك ضده فى روما وفى معسكره . وفى النهاية تمرد الجيش ضده وذاق مرارة التقليل من شأنه عندما رأى (ميثريداتيس) يعود إلى (بوتوس) ، وعندما أجبر هو نفسه على تسليم قيادته لبومبي وعلى العودة إلى روما . وكان من الممكن أن يحرز نجاحا باهرا لو عاش قبل زمنه بقرن حين كان القائد الرومانى يعتمد كلية على النظام السائد بين جنوده وعلى تأييد حكومته له . أما فى زمنه فقد نال شهرته الواسعة وهو فى عزلته بقصره الرائع المقام على تل (بينيكا) Pinicia كرجل له ذوق رفيع فى أنواع المأكولات .

أما الحرب مع « سبارتاكوس » Spartacus (٧٣ - ٧١ ق . م) فلم تكن مجرد ثورة عبيد عادية . وبدأت هذه الحرب عندما فر « سبارتاكوس » وهو مجالد محترف من تراقيا ، وبعض زملائه من معسكر التدريب الذى كان بالقرب من (كابوا) وانضم إليهم آخرون . وأصبحت هناك جمهرة من الثائرين الهاربين من سكنات العبيد المنتشرة فى شتى أنحاء جنوب إيطاليا . وكان الكثيرون من هؤلاء العبيد أسرى من شعوب (السكبرى) و (التوتون) وقعوا فى الأسر أثناء حروب (ماريوس) — وهم يعتبرون خاملة محاربة ممتازة . وقد تكونت منهم قوة هائلة ، هم والجلادون ، المحاربون المحترفون المدربون ، الذين اعتبروا نواة هذه القوة ، ومعهم قائد ذو عبقرية فذة هو (سبارتاكوس) وكانوا يطوفون بجبال (الأبنين) ويقومون بهجمات خاطفة على المدن الواقعة فى السهل سعيا وراء النهب والسلب . وسحقوا الجيوش الرومانية التى أرسلت لتعترض طريقهم واستمر عددهم فى تزايد مطرد ونشروا الذعر فى إيطاليا طوال عامين . وكان (سبارتاكوس) قد قام برسم الخطء المحكمة التى تهدف إلى قيادتهم شمالا حتى يستطيعوا أن يتفرقوا

ويعودوا إلى أوطانهم . وقد وصلوا بالفعل إلى بلاد الغال القريبة .
Cisalpine Gaul، ولكنهم قفلوا راجعين إلى إيطاليا مرة أخرى ، إما بسبب
نقص في مؤناتهم وإما بسبب عشقهم للسطو والنهب . وفي ذلك الوقت عندما
تولى (كراسوس) أول قيادة ذات شأن استدرجهم إلى خليج في (لوكانيا)
Lucania وسحقهم . ثم قضى (بومبي) على البقية الباقية من هؤلاء الثوار
وهو في طريق عودته من أسبانيا ، وكما هو معروف عن شخصيته فقد ادعى
أن له الفضل الأول في كل هذه الانتصارات . ويبدو أن (سبارتاكوس)
على حد ما وصلنا من معلومات كان رجلاً مرموقاً يتمتع بمقدرة على اكتساب
إخلاص أتباعه ، وقد اعتبره المؤرخون الشيوعيون منذ زمن (ماركس)
قديساً ما يرضى ثورات الطبقات العاملة .

وبعد وقوع هذه الأحداث مباشرة رشح (بومبي) (وكراسوس)
أنفسهما سوياً للتنصلية عام ٧٠ ق . م . ولم يكن تقدم أي منهما للترشيح
شرعياً وفقاً لما تقتضيه الشروط الصارمة المنصوص عليها في دستور (سولا)
فبومبي لم يكن قد تقلد سلك الوظائف العامة ، كما فشل كل منهما في تسريح
جيشه كما هو منصوص عليه ، ومع ذلك نجح في الانتخابات بفضل
أصوات الحزب الشعبي وعلى الرغم من إرادة مجلس الشيوخ . وما إن أوشك
هذا العام على الانتهاء حتى كان الكثير من قوانين دستور (سولا) قد
ألغيت . إذ استعاد الترابنة سلطاتهم القديمة كاملة ، وأعيد استخدام وظيفة
(الكنيسور) فبدأ (الكنيسوريس) الجدد عملهم بتطهير مجلس الشيوخ
عن بعض أنصار (سولا) سيئ السمعة كما قبل الاقتراح الخاص بإعادة
محاكم ابتزاز الأموال تحت إشراف الفرسان Equites بمقاومة عنيفة ،
وقد كان من المحتمل ألا يصدر هذا القانون على الإطلاق لولا نذر
الخطر ، التي وضعت أثناء محاكمة (فريس) ، الناتجة عن الوسيلة التي أساء
بها مجلس الشيوخ استخدام سلطاته القضائية . وفي هذه الظروف تكونت

محاكم مختلطة بمقتضى قانون (أوريليوس) Lex Aurelia ، احتل فيها الفرسان مقعدين مقابل كل مقعد يحتله عضو من مجلس الشيوخ .

وهكذا أصبحت سيطرة مجلس الشيوخ على روما طوال فترة عشر سنوات أخرى سيطرة اسمية فقط ، أما المقومات القانونية التي حاول (سولا) أن يقيم على أساسها سلطات المجلس فقد ذهبت من غير رجعة .

إن كلمة (قرصان) لها صدى مضحك في آذان المحدثين ، إذ هي توحى بجذيرة الكنز (جولى روجر) Jolly Roger لكن القرصنة كانت حقيقة مرة عاشت في منطقة البحر المتوسط خلال فترات عديدة من التاريخ . فقد كان قراصنة شواطئ البلاد المتبربرة مصدر رعب للملاحين طوال عدة قرون قبل أن يقضى عليهم تماما في وقت متأخر من القرن التاسع عشر . وقد تم القضاء عليهم عن طريق القيام بسلسلة من الأعمال الإيجابية الفعالة عاصرها بعض الرواد الأوائل من بحرية الولايات المتحدة . وفي السنوات الأولى من القرن الأول كان القراصنة قد نظموا قوة هائلة من طبقتهم هذه ، وخاصة قراصنة (كيليكيا) و (كريت) . وكانت مهام حفظ الأمن على الشواطئ قد آلت إلى (روما) بعد أن اضطلت قوة (رودس) Rhodes البحرية . ولكنها تجاهلت أمر القراصنة وربما يرجع سبب ذلك إلى العلاقة بين القراصنة وبين إمداد سوق (ديلوس) Delos بالعبيد . وقد تحالف كل من (ميثريداتيس) (وسرتوريوس) مع القراصنة الذين لما إن حل عام ٧٠ ق . م . حتى بلغت بهم الجرأة ليحوموا حول الطرق المؤدية إلى (أوستيا) Ostia (وبوتولي) Puteoli ، وليغيروا على شواطئ إيطاليا ، ويهددون بشل حركة تجارة الحبوب التي تتوقف عليها حياة روما . فأسندت قيادة الحرب ضدهم إلى (بومبي) ، وخوله (قانون جابينيا) Lex Gabinia سلطات خارقة للعادة ، فقد أصبح تحت إمرته

٥٠٠ سفينة ، ١٢ ألف جندي ومنطقة نفوذ تشمل كل إقليم البحر المتوسط .
و ٥٠ ميلا من الشاطئ في كل اتجاه .

وقد أصبح مفهوم سلطة الإمبريوم التي يسرى مفعولها في جميع الولايات مساويا لسلطة الحاكم في أية ولاية Imperium infinitum aequum أصبح لهذا المفهوم أهمية قصوى فيما بعد . وبالمثل كانت سرعة (بومي) في القيام بالأعمال الإيجابية وطبيعة الإصلاح عنده قد لفتت الأنظار . فقد سحق القرصنة الذين كانوا يكونون قوة منظمة في ثلاثة أشهر . ولكن من وقع في الأسر منهم لم يصلب أو يباع في الأسواق كعبد . بل أرسلوا إلى المناطق النائية مثل كيبكيا وأماكن أخرى ليستقروا بها ، وأصبحوا مواطنين أخيارا . ولقد عاش أحدهم ليكتب له الخلود في (رعويات فرجيل) بوصفه راع صالح عجوز ذائع الصيت لنجاح أحرزه كان له نتاج مبكر .

وعندما قابل « لوكلوس » « بومي » ليسلم له قيادته التي تعليقا لاذعا جاء فيه : « إن بومي مثل الطائر الكاسر الذي يجد طعامه في جثث من قتلوا بأيدي الآخرين » . وقبل ذلك الوقت بعدة سنوات تساءل « كراسوس » وهو يشير إلى منح « بومي » لقب العظيم « Magnus » قبل أوانه قائلا : « عظيم بأي حق » .

لقد كانت هذه الانتقادات التي وجهت إلى النجاح المبكر الذي أحرزه « بومي » في بدء حياته انتقادات قوية . ولكنه قد أفلح في قيادته ضد القرصنة وقدر له أن يفلح كذلك في قيادته ضد مملكة « بونتوس » و (أرمينيا) ولم يحدث في التاريخ الروماني أن تولى أي شخص من قبله مثل هذه السلطات التي كان يتمتع بها في ذلك الوقت . ذلك لأنه بمقتضى (قانون مانيليا) التي كان يتمتع بها في ذلك الوقت . ذلك لأنه بمقتضى (قانون مانيليا) Lex Manilia الصادر في عام ٦٦ ق . م أدرجت إمارة (لوكلوس)

العظيمة في آسيا تحت نفوذ سلطنة (الإمبريوم) Imperium التي تولاها بومبي في حربه ضد القراصنة . كما طرد (ميشريدايس) من (بونتوس) في شهور قلائل وضم مملكته إلى أملاك روما ودخلت ضمن ولاية بيثونيا، أما ميشريدايس فقد احتسب في (كريميا) Crimea ثم تبع ذلك بوقت قصير إخضاعه (أرمينيا) ولكنها لم تنضم إلى أملاك روما لأن (بومبي) كان يرى أن قيمتها الفعلية (لروما) تتركز في كونها مركز دفاعي ضد البارثيين . وعلى ذلك أصبح (تيجرانيس) ملكا عميلا لروما يحمل لقب صديق وحليف الشعب الروماني . ثم قاد (بومبي) بعدئذ جيشه إلى ما وراء (أرمينيا) داخل (ترانسكوكاسيا) Transcaucasia وأشعل الحرب ضد (الألبان) Albani و (الايبريين) Iberi . لقد كان بومبي في هذا المكان الذي يبعد عن البحر الإيحيى بألف ميل تقريبا في منطقة تنتمي إلى عالم الخيال أكثر من انتمائها إلى علم الجغرافيا ، فهذه المنطقة كانت أرض (الجزء الذهبية) وأرض (بروميثيوس) Prometheus وشعب (الآمازون) Amazons . ومن الشائع أن شعب (الآمازون) قد حارب بالفعل في صفوف (الايبريين) ضد (بومبي) وقد كان من خيبة الرجاء أنه لم يعثر على جثث نساء في أرض المعركة !! وقد راجت إشاعة عن قيامه بحملة على بحر (قزوين) Caspian Sea الذي كان يعتبر في ذلك الوقت أقصى حدود الدنيا من ناحية الشرق ، أما حدود الدنيا من ناحية الغرب فقد رآها بومبي على شاطئ الأطلسي والبرتغال وأفريقيا . وهكذا فالنشابه بينه وبين الإسكندر واضح .

وتغاضى بومبي عن هذه المشاريع من أجل مهام أكثر أهمية . فقد أعاد أولًا تنظيم شؤون آسيا الصغرى . وخص تنظيمات العائلات المالكة الحاكمة للممالك القوية التي استمرت على وضعها ، وعهد بالسلطة للبعوثيين الرومان كما وسع من حدود (جالاتيا) Galatia المملكة الكلتية القديمة ، وأنشأ

عدة مدن جديدة في (بونتوس و) (بثونيا وأصبحت الحياة المحلية في كل الولايات الرومانية تتسم بالحياة والنشاط . ثم رحل بومبي من (أرمينيا) إلى (سوريا) في عام ٦٤ ق . م . واستمر في إعادة تنظيم كل بقعة من هذه المنطقة حتى حدود مصر . أما في أنطاكية فقد عزل آخر ملك ضعيف من ملوك أسرة (سيليوكوس) Seleucus وأعلن سوريا ولاية رومانية ، وهذا الإجراء كسب ذو شأن عظيم . إذ قدر لسوريا أن تصبح أغنى بقعة من ممتلكات روما في الشرق أثناء عصر الإمبراطورية . وفي عام ٦٣ ق . م . استولى بومبي على (أورشليم) وعهد بها إلى حاكم روماني ، وكان هذا هو أول اتصال بين روما واليهود ، ثم تلى ذلك قيامه بحملة إلى (جريكو) Jericho و Petra منعه من الاستمرار فيها نبأ وفاة ميثريداتيس) وكان هذا الملك العجوز العنيد قد دبر في ذلك الوقت هجوماً آخر على روما وكانت خطة الهجوم في هذه المرة تهدف إلى الاتجاه شمالاً إلى (وادي الدانوب) والتحالف مع شعوب (الغال) ولما فشل في خطته حاول أن يقتل نفسه بالسم ولكنه كان قد اكتسب قبل ذلك بفترة قصيرة حصانة تامة ضد السموم وذلك لتعاطيه بعض العقاقير . فطلب أخيراً من جندي مرتزق من جنوده ، أن يقتله خوفاً من أن يقع في الأسر حياً ويسير في موكب انتصارات (بومبي) وهكذا انتهت حياة عدو من أكثر أعداء روما شراسة .

وما إن حل عام ٦٢ ق . م . حتى كان بومبي قد أنهى مهمته في آسيا . فقد تمكن من الحصول على ثلاث ولايات جديدة هي (بونتوس) و (سوريا) و (كيليكيا) التي وسع من رقعتها . وكان يحمي هذه الولايات من ناحية الشرق خط دفاعي مكون من الممالك العميلة . وأصبح الطرف الغربي من طرق القوافل الطويلة الممتدة عبر آسيا إلى الهند والصين تحت سيطرة روما وكذلك كان الطريق الممتد على طول شاطئ البحر الأسود الجنوبي نحو (كاسوس) Caucasus وبحر قزوين Caspia وقد كانت ضيعات

«ميتريداتيس) الملكية بمثابة إضافة هائلة للأراضي العامه الرومانية .

لقد برهن بومبي أنه أعظم نواب القناصل (البروكنسوليس) الرومان جميعاً ، إذ أنجز مهمته هذه وعو يستند على سلطته الخاصة دون الاستناد على تفويض مجلس الشيوخ التقليدى وقد استمرت المعالم الرئيسية لما أنجزه من أعمال قائمة طوال عدة قرون . ولقد كانت هذه الأعمال الجليلة هي التي جاء قيصر بعد عدة سنين لينافسه بمثلها في الغرب .

إن غياب بومبي في الشرق والتفكير فيما سيفعله عند عودته قد حجب السياسة الرومانية عن الضوء ما بين عام ٦٦ ، ٦٢ ق . م . ولكن هذه الفترة لم تخل من بعض الأحداث المثيرة . إذ عمل قيصر (وكراسوس) جنباً إلى جنب لبعض الوقت . وقد ظن الناس أنهم وراء الاقتراح الخاص بالأراضي الذي تقدم به أحد الترابنة ، وقد كان من المحتمل أن يؤدي هذا الاقتراح إلى حدوث أزمة مماثلة لأزمة الأخوين (جراكوس) فقد كان هناك احتمال وجود تركة كبرى تتول إلى روما — ألا وهي مملكة مصر . فرفض هذا الاقتراح ، وقد كان (شيشرون) بالذات له الأثر الأكبر في ذلك . فقد بدأ يقوم بدور زعيم الجبهات المحافظة ، وعندما انتخب قنصلاً لعام ٦٣ ق . م . كان من نصيبه أن يواجه مؤامرة (كاتيليا) Catelina الشهيرة . وبفضل خطب (شيشرون) وكتابات (سالوست) Sallust وصلتنا كل التفاصيل عن هذه الفترة ، التي عادة ما تحتل مكانة في التاريخ الروماني أكثر مما تستحق .

وقد صدق عالم إيطالي حين قال إن هذه الفترة تخص سجلات المحافظة على الأمن أكثر مما تخص التاريخ السياسي ، ولكنها كانت تحذيراً من العنف والقوة اللذين زادت حدتهما في المجتمع الروماني ، ومن وسيلة احتمال انتشارهما إذا ما أتاحت لهما فرصة البدء . لقد كانت هذه المؤامرة .

تبدو (لشيشرون) إحدى الأزمات الفاجعة في التاريخ الروماني ، فعلق أهمية كبرى على لقب (أبو الوطن) Pater Patriae الذى أطلق عليه لقضائه على هذه المؤامرة . ولكن هذه الامتيازات البراقة التى حصل عليها بهت لونها عندما عاد بومبي فى عام ٦٢ ق . م . على رأس هذه القوة التى لم تر روما مثيلا لها من قبل . فهل سيصبح (سولا) آخر ؟ وظهرت الإجابة فى الحال وهى (لا) فقد كان بومبي يميل ميلا غربيا إلى مراعاته للقوانين من وقت لآخر . إذ سرح جيشه وطلب مطلبين فقط — أولهما التصديق على ما قام به من أعمال فى آسيا ، وثانيهما أراض يمنحها لمحاربه القدامى . أما من جانب مجلس الشيوخ ، فما إن انزاح هذا العبء عن صدورهم حتى أساءوا استخدامه . فهو لم يغفر (لبومبي) ما فعله عندما كان قنصلا لعام ٧٠ ق . م . كما استنكر (لوكلوس) الطريقة التى انتزع بها (بومبي) تيجان النصر لنفسه . وبعد الاحتفال مباشرة بأهبي ما رأته روما من مواكب انتصارات حتى ذلك التاريخ وجد (بومبي) نفسه وقد قل شأنه وشأت حركته .

وكان قيصر هو الشخص الذى أبان لبومبي المخرج من هذا المأزق ، وذلك عندما اقترح فى سرية تامة قيام ائتلاف سياسى بينه وبين (بومبي) و (كراسوس) . وكان كل منهم يهدف إلى غرض معين : فقيصر يهدف إلى الحصول على قنصلية عام ٥٩ ، وكراسوس يهدف إلى تخفيض الكمية التى تطالب بها الدولة من ضرائب آسيا وذلك ليحتمل فى صالح الفرسان Equites ، أما بومبي فقد كان يهدف إلى تحقيق المطالبين السابقين ولن يقف أمام هؤلاء الثلاثة أى حائل استناداً إلى جيش بومبي وثروة كراسوس . وشعبية قيصر التى كان يتمتع بها بين الشعب الروماني . وهكذا جاء مولد أول ائتلاف ثلاثى (فى عام ٦٠ ق . م .) — هذا التنين ذو الثلاثة رموس . كما أسماه أعداؤه . ولقد كان (لبنى) Livy محقاً عندما أسماه مؤامرة مستديمة .

والعام الذى تولى فيه (قيصر) القنصلية كان عاما ذا أهمية حاسمة ،

أما القنصل الثاني (بيبولوس) Bibulus فقد قل شأنه حتى أصبح صفراً وأصبح الناس يتحدثون عن (قنصلية يوليوس) و (قيصر) . أما مجلس الشيوخ نفسه فلم يكن أكثر من صفر أيضاً ذلك لأن قيصر لم يتردد في أن يتخطاه ، بل ويتخطى (الجمعية الشعبية) Assembly إذا تطلب الأمر ذلك ، ولا عجب أن (شيشرون) كان يتكلم في خطابه عن Regnum ، ملكية فردية . وقد حافظ قيصر على وعوده في مساوماته مع (بومبي) و (كراسوس) إذ حصل كراسوس على تخفيض في عقود جمع الضرائب في آسيا لعام ٦١ ق . م . وهذا يعتبر نوع فاضح من السمسرة ، كما حصل (بومبي) على تصديق على ما أنجزه من أعمال في الشرق وحصل جنوده القدامى على أراض لهم معظمها من (أجير كمانوس) Ager Companus وهو آخر الممتلكات الشاسعة من الأراضي العامة في إيطاليا نفسها ، ومنطقة شيرة بصلاحياتها للزراعة .

وإلى جانب هذا تم إعداد مشروع آخر للأراضي في صالح فقراء المدينة على نهج مشروع الأخوين (جراكوس) كما صدر كذلك قانون له فائدته للحد من ابتزاز الحكام وحاشياتهم للأموال في الولايات .

وكانت آمال مجلس الشيوخ في ذلك الوقت معقودة على الخط من شأن قيصر بعد انتهاء قنصليته حتى يعمل إلى حد التفاهة ، وأعد له وظيفة تافهة ليتولاها بعد ذلك ، ألا وهي العناية بالغابات العامة وبطرق الدواب في إيطاليا . فحمل « قيصر » الأمر إلى « الجمعية » ، وبمقتضى « قانون فاتييا » Lex Vatinia حصل على بلاد « الغال القرية » وعلى اليريكوم Illyricum لفترة خمس سنوات ، وهذه الفترة أكثر من المعتاد . ووضعت ثلاث فرق تحت إمرته ، كما حصل على حق اختيار ضباطه وزراعة المستعمرات . وكان منصبه هذا خطيراً ، لأن الفرق الثلاث التي

كانت تحت قيادته يمكن أن تكون أقرب القوات الضاربة لإيطاليا . أما مجلس الشيوخ فقد أضاف إلى سلطاته هذه (بلاد الغال البعيدة) وفرقة رابعة ، وربما كان يأمل من ذلك تهدئة قيصر ، وسرعان ما برهن (قيصر) على أن إمكانيات قيادته هذه أعظم بكثير من الأسلاب البراقة التي كانت من نصيب (بومبي) في الشرق . فحكمة لبلاد الغال البعيدة هو الذي يمكنه من القيام بالغزو الهائل لبلاد الغال نفسها .

وكانت بلاد الغال في عصر (قيصر) تمتد من الرين حتى جبال البرانس Pyrenees ومن شاطئ الأطلنطي حتى حدود (ناربونينسيس) Narbonensis الولاية الرومانية . وكان بلدا كثيف السكان — وقد اتفق العلماء الفرنسيون على تحديد عدد ضخم للسكان يصل إلى عشرين مليون نسمة . وهذه الرقعة من الأرض كانت مقسمة إلى ستين ولاية Civitates كل منها مستقل استقلالاً سياسياً ، وإن كانت كلها تتكلم لغة كلتية مشتركة وتزاول عبادات دينية موحدة ، وخاصة عبادات (الدرويدس) . Druids ولكن لم يكن بين السكان وحدة جنسية — ففي الجنوب الغربي كانت تجرى في عروقهم بغزارة دماء أيبيرية ، وفي الجنوب الشرقي دماء ليجورية ، وفي الشمال الشرقي دماء جرمانية . ولكن كان هناك في كل مكان بدرجات مختلفة خليط من شعب يسمى نفسه الشعب السكتي ويرجع أصله إلى جنس كلتي مشترك . وقد كانت بلاد الغال في الواقع هي الموطن المميز للشعب السكتي وهي أقوى بقعة من بقاع الشعب السكتي الواسعة التي تمتد من أيرلندا حتى مملكة (جالاتيا) في آسيا الصغرى .

واتفق كل من المؤرخين القدماء وعلم الحفريات الحديث على تحديد الموطن الأصلي للشعوب السكتية بمناجع نهري الراين والدانوب . وقد كانوا أول شعب من شعوب وسط أوروبا استخدم الحديد . وقد انتشروا من

نقطة المنشأ هذه كنبلاء غزاة ما بين عامي ٥٠٠ ، ٢٥٠ ق . م . وفي أعلى مراحل قوتهم استولوا على جنوب ألمانيا ، وفرنسا وشمال أسبانيا ووادي ألبو ، وجزء من يوغوسلافيا ومعظم بريطانيا وإيرلندا، وقد بنى الكلتيون في كل هذه الرقعة الفسيحة حضارة (بطولية) Heroic رائعة من الزعماء والمحاربين والزراع والرعاة المهرة والفنانين والمشتغلين بالمعادن ومشروعى القوانين والشعراء والسكينة ، وقد أنشأوا علاقات تجارية بينهم وبين العالم القديم استمرت لعدة قرون ، وبدأت هذه العلاقات أولا مع اليونان والأتروسكيين ، ثم مع ما سيليا وروما . وقد قام علماء الآثار بالتنقيب في مقابر الزعماء الكلتيين المسكدة وعرثوا فيها على أدوات المقابر النفيسة — من عربات وقلادات وأسلحة ومرايا ودنان للنبيذ — في أماكن كثيرة . مثل (هولشتات) Halstatt في النمسا و (فيكس) Vix في فرنسا و (لكدن) Lexden في بريطانيا . وهذا المجتمع في جوهره هو المجتمع الذي وضحت صورته بعد عدة قرون في آداب (ويلز و إيرلندا) البطولية .

لقد كانت هذه هي الظروف العادية لبلاد الغال في عام ٥٨ ق . م . وهذا الزمن من الناحية السياسية كان عصر الفوضى . وكان يبدو أن الاتحاد القوى الذى قام بين شعب (الارفرنى) . . . Arverni القاطن في (جيفنيس) Cevennes وبين حلفائهم سكان وادي الرون من الممكن أن يوحد بلاد الغال كلها . فقد كان هذا هو عصر الملوك العظام من أمثال (لويرنوس) . . . Luernus و (بتويتوس) . Bituitus اللذان كان نفوذهما لا منازع له بين قبائلهما . ولكن روما أضعفت من نفوذ شعب (الارفرنى) عندما أسست ولاية (ناربونينسيس) ولم يكن هناك من يخلف مركزهم ، وما إن جاء زمن (قيصر) حتى كانت العروش

القوية في كل مكان تقريباً قد أدت إلى قيام حكم أوليجركي ، إذ كانت السلطة في أيدي النبلاء الأقوياء يقتسمونها فيما بينهم . وتعلق قيصر على هذا الموقف هو أن (كل قبيلة كانت تنقسم إلى حزبين) وقد عاق هذا من نمو اتحادات فيما بينهم وجعلهم أكثر عرضة للزوال . كما أن التنافس بين شعب (الايديوي) Aedui وبين شعب (الارفرني) قد ترك أثره في سياسيات كل قبيلة غالبية تقريباً . وأصبح وجود (قيصر) في بلاد الغال يعنى أن كل قبيلة تقريباً انقسمت بين مناصر للرومان ومعارض لهم : وهكذا كانت الظروف التي قام فيها (قيصر) بغزوه .

ويجب أن نقرأ عن قصة سنوات الحرب الثمان التي قضاها (قيصر) في بلاد الغال في كتابه (التعليقات) Commentaries ولكن يجب ألا تنسى أن هذا الكتاب ما هو إلا مذكرات قائد ، والقادة كما هو معروف في أيامنا هذه يكتبون مذكراتهم ليبرروا ما قاموا به من أعمال . وقد كان الكثير من تصرفات (قيصر) في بلاد الغال يحتاج إلى تبرير . فعلى الرغم من أن هذه الانتصارات كانت في نهاية الشوط ذات ثمار مجيدة للحضارة الأوروبية ، إلا أنها أنجزت من أجل تمجيد شخص (قيصر) فقط . إن الخيانة والقسوة والفظاظة قد جعلت قيادة (قيصر) للحرب في بلاد الغال أسوأ صفحات في تاريخ العدوان الاستعماري . فورا شفافية كتابه (التعليقات) وصفائه وصرحته الظاهرة يكمن استعطاف ما من نوع معين ، المقصود به إقناع القاري* بأنه لم يحدث أبداً أي انتهاك للعقيدة القائلة بأن روما تقوم بحروب دفاعية فقط . ومن هنا أسند إلى (الايديوي) دور الحليف المهدد الذي يلجأ إلى روما طلباً للعون ، وما علينا إلا أن نتذكر حادثة (المامرتينيس) Mamerties التي حدثت في الحروب اليونانية الأولى وحادثة (ساجنتوم) في الحروب اليونانية الثانية .

والحملات التي قام بها « قيصر » في عام ٥٨ ق . م . كانت مشرفة بما فيه الكفاية فبالقيام بها أجبر قيصر « الهلفتي » Helvetii على التراجع إلى جبال الألب ، وشعب « السويبي الألماني » . . Germanic Suebi على التراجع عبر نهر الراين . وفي عام ٥٧ ق . م . هاجم قبائل (البلجاي) Belgae القوية التي كانت تقطن حول نهرى (الموسى) Meuse والراين . ثم كرس عام ٥٦ ق . م . للقيام بحملاته في الجنوب الغربي والغرب ، حيث أباد أسطول شعب (الهنتى) Veneti البحري (موربيهان Morbihan في بريطانيا) . ثم تلى ذلك سنوات مليئة بالمغامرات ، ففي عام ٥٥ ق . م . عبر الراين ومكث لوقت قصير على الضفة الألمانية ، وفي ٥٥ ، ٥٤ ق . م . قام بحملتين ذاعت شهرتهما إلا أنهما يدعوان إلى الخيرة . وفي الحملة الثانية منهما عبر نهر (الثاميس) Thames واستولى على مدينة الملك البريطاني العظيم (كاسيفلانوس) Cassivellaunus وهي تقع بالقرب من بلدة سانت ألبانس St. Albans الحديثة . فهذه الحملات من الناحية العسكرية قد تم تخطيطها بصورة سديدة ، كما أن نتائجها السياسية لا تذكر ، إلا أنها كان لها شأن عند مقارنتها بماثر (بومبي) الأسطورية التي قام بها في (ترانسكو كاسيا) وفي طريقه تجاه (كاسبيا) . وكما أن (بومبي) قد وصل إلى المحيط من ناحية الشاطئ الشرقى كذلك عبره (قيصر) من ناحية الشاطئ الغربى ودخل بجيش واحد أراضى الجزيرة الغامضة التي تقع في أقصى حدود العالم . أما عام ٥٣ ق . م . فقد قضاه (قيصر) منهمكا في اشتباك مع قبائل (البلجاي) للمرة الثانية ، إذ كانوا قد تحالفوا مع (الجرمان) القاطنين وراء نهر الراين وبدأوا يقومون بشورات زعزعت من سيطرة (قيصر) على بلاد الغال .

لكن الأحداث السياسية التي حدثت في شتاء عام ٥٣ - ٥٢ ق . م . أجبرت (قيصر) على العودة إلى إيطاليا . ففي أثناء غيابه في بلاد الغال

اندلعت نيران الثورة القومية الكبرى تحت زعامة (فيركنجتوريكس) Vercingetorix وهي ، كما قال قيصر (الحرب التي كانت تختلف تماما عن كل الحروب الأخرى) .

و (فيركنجتوريكس) هذا ابن لزعيم عظيم من زعماء (الأرفرنى) وقد ورث كل ما هو مثالي من الحضارة القومية نظراً لمولده وما تلقاه من تعليم وما تقتضيه تقاليد عائلته ولكنه كان كذلك يعرف روما معرفة حقة وعلى دراية تامة بالأساليب الحربية الرومانية ، ولما كان (الأرفرنى) يبعدون كل البعد عن الحركة المعادية لروما ، خدم (فيركنجتوريكس) نفسه في معسكر (قيصر) لمدة ست سنوات أثناء الحملة التي قام بها . ولكن قسوة (قيصر) المتزايدة التي كان يتبعها في وسائله ووحشية رجال الأعمال الرومان Negotiatores قد جعلت كل بلاد الغال على شفا الثورة .

ولقد دبر هذا الانقلاب في الاجتماع السنوي لمجلس الغالين الذي كان ينعقد عند حدود شعب (السكرانوتيس) Carnutes وهذا المكان هو مركز العبادات الدرويدية . بدأت الحرب وختمت باحتفالات دينية ، فقد افتتحت بأكثر الطقوس الدينية جديدة وذلك بتأييد من السكرانوتيس) الذين تطوعوا للقيام بأول حركة معادية — وهي ذبح رجال الأعمال الرومان Negotiatores في (كينابوم) Cenabum قاعدة الإمدادات وهذا يبدو كأنه هدر للدم الروماني وفقاً لطقوس دينية ، على الرغم من أنه كان هناك مبرر كاف قياساً على المستويات العامة في ذلك الوقت . وانتهت الحرب بأن سلم (فيركنجتوريكس) نفسه لقيصر وهو في كامل معداته العسكرية — وهذا نوع من (الوهب) Devotio لتهدئة نائرة الآلهة . وهذه الاحتفالات الدينية التي أقيمت في بداية الحرب ونهايتها تشير إلى أن الدرويين قد قاموا بما يعتبرونه حرب مقدسة شنت من أجل سلامة بلاد الغال عامة .

وفي الوقت الذي كانت فيه الحرب على وشك الاشتعال ، كان

(فيركنجتوريكس) على رأس ائتلاف قوى يضم كل القبائل الغالية الرئيسية في وسط بلاد الغال و (أرموريكا) Armorica وحتى (الايديوي) قد تخلوا عن روما لفترة ما. وكان دور (فيركنجتوريكس) هو دور قائد الحرب، كما كانت السياسة العسكرية التي اتبعتها تدعو إلى حرب العصابات وإلى التراجع والتخريب بشتى أنواعه. أما الرومان، فبعد أن منعت عنهم الإمدادات بذلوا جهداً شاقاً للإغارة على القلاع الغالية الحصينة المقامة على التلال. وقد نجحت هذه الهجمات بصورة مرضية في (أفاريكوم) Avaricum ومرة أخرى في حصار (جرجوفيا) Gergovia ذى الشهرة الواسعة التي تحمل قيصر فيه خسائر فادحة. لكن عندما حاول الغاليون غزو الولاية الرومانية، وقعت هناك معركة بالقرب من (ديجون) Dijon خسر الغاليون فيها كل سلاح فرسانهم تقريباً. وكانت آخر حادثة وقعت في هذه الحرب (هى حصار أليسيا Alesia الكشيبي — وهى أليس سانت وكوت دور Alise St. Reine Cote Dore الحديثة — ونستقى تفاصيلها مما كتبه قيصر ومن أعمال التنقيب التي أقيمت في العصور الحديثة والتي بدأت بحفريات نابليون الثالث. فقد حاصر جيش روماني قوامه ٦٥.٠٠٠ رجل (فيركنجتوريكس) ومعه ٨.٠٠٠ رجل في هذه القلعة الحصينة التي هى في نفس الوقت محراب للإلهة ابونا) Epona وتظاهر عملية الحصار هذه التي قام بها الرومان تحركاتهم العسكرية في أكمل مراحلها. وبعد هذا ظهرت قوة غالية جرارة من الرجال المسرحين (يصل عددهم ربما إلى ٢٥.٠٠٠ رجل) وحاصرت قيصر وهو في طريق عودته. واستمر هذا الموقف غامضاً لمدة شهرين عصيين أغسطس وسبتمبر عام ٥٢ ق.م.) ولكن قوة هذا الجيش المسرح لم تكن قد وزعت توزيعاً له أثر فعال، ربما يرجع ذلك إلى انقسام القيادة. وانتهت محاولة هذا الجيش لتخليص (أليسيا) من الحصار إلى كارثة وإلى انهيار آخر وأقوى اتحاد لبلاد الغال بوصفها بلد حر.

إن هذه الثورة قد جعلت أعظم قائد روماني وأقوى جيش روماني على وشك الهزيمة وكان هذا هو العمل الجليل الذي قام به (فيركنجتوريكس) دون جميع أعماله . فقد درب الغالين في ميدان القتال على أساليب حربية جديدة ، بما في ذلك من أساليب ضرب الحصار المعقدة . أما في مجال السياسة فقد فاق كل الغيورين من رجال القبائل في تحمسه لفكرة إقامة بلاد غال حرة مستقلة تستطيع أن تقاوم أى قوة في العالم ، كما اعتقد هو وقد أصبح رمزاً تتجسم فيه قضية بلاده ، ولكن عندما استسلم ، سقطت هذه القضية . ومن الجدير أن نتوقف لحظة لنلاحظ مدى قدرة المجتمعات المحلية على إنجاب زعماء من وقت لآخر يتمتعون بمقدرة خارقة — أمثال بونتياك Pontiac وفيركنجتوريكس و (أرمينيوس) Arminius ، والفرق بين أمثال هؤلاء الرجال وبين المستوى العام لمجتمعاتهم في مضمار المبادئ الأخلاقية والمقدرة الذهنية أوضح بكثير مما نراه في العالم المتحضر كما أن في استطاعة هؤلاء الرجال أيضا أن يقودوا شعوبهم إلى نصر كانوا هم أنفسهم يظنونه بعيداً كل البعد عن إمكانياتهم .

وبذلك أوشكت مهمة (قيصر) في بلاد الغال على الانتهاء . وتلى ذلك قيامه بعمليات تطهير شاملة في (أكويتانيا) Aquitania ولكنه في عام ٥١ ق . م . ترك وراءه بلاد الغال وقد انهزمت وأصبحت خاملة الحركة منهوكة القوى ، وفي أثناء هذه السنوات شكل (قيصر) جيشاً رومانياً رائعاً يربطه به ولاء شخصى متين فى قوة ولاء (الحرس القديم) Old Guard لتابليون . ويستند هذا الولا على ذكرياتهم المشتركة عن أعمال الحصار والمعارك الشهيرة ، والزحف الرائع والحملات التي قاموا بها فى بريطانيا وألمانيا . لقد كان لقيصر أن يستحوذ على سيادة العالم الروماني بجيش الغال هذا .

وقد ضيق غياب قيصر في بلاد الغال الخناق على الائتلاف الثلاثي فقد كان (بومبي) وكراسوس ، يغار كل منهما من الآخر دائماً ، وعندما لمع نجم زميلهم الأصغر على مسرح الأحداث ، حقدوا عليه ، وكان في إمكان مجلس الشيوخ استطلاع الموقف بسهولة . وبذل شيشرون بالذات قصارى جهده ليعزل بومبي عن الائتلاف لأنه كان يعتبر ذلك أنجع أداة لتحطيم الائتلاف ، وفي وسط هذه الظروف دعى قيصر زملاءه إلى الاجتماع في (لوكا) Luca عام ٥٦ ق . م . وقد خرج الائتلاف من هذا المؤتمر وقد تجدد العهد له ودعمت أعمدته . وأصبح بومبي وكراسوس قنصلين لعام ٥٥ ق . م . ، بينما حصل قيصر على خمس سنوات أخرى لإمارة بلاد الغال وبومبي على خمس سنوات لإمارة أسبانيا وكراسوس حصل على أمن غنيمة وذلك عند تشبيهه بالإسكندر - ألا وهي الإمارة الشرقية . أما مشروع الحرب ضد بارثيا الذي يعتبر جسيم لا مفر منه Ignis fatuus فقد كان له أن يستهلك كل سياسة روما الخارجية طوال عدة سنين تالية . وكانت المملكة البرثية قد قامت على الفراغ الذي نتج عن انهيار نفوذ عائلة (سلبوكوس) Seleucus في وسط آسيا منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد . وكانت هذه الملكية إلى حد ما إحياء للإمبراطورية الفارسية القديمة ، فقد استعاد ملوكها ، وهم من سلالة (الأرساكيدي) Arsacid لقب (ملك الملوك) المشحون كبرياء ، وسيطروا على طرق القوافل الممتدة من الصين والهند والخليج الفارسي إلى البحر الأسود والبحر الأبيض ، كما ازدادوا أخيراً من التعريف الجركية المفروضة على هذه الطرق زيادة هائلة . وقد وضح أن مصالح روما المالية كان لها دخل في هذه التجارة المرابحة منذ أن قام بومبي بغزواته في الشرق وقد وابتها الفرصة الآن لتتمكن من تحقيق السيطرة الكاملة على هذه التجارة . وقد أمدَّ هذا حملة كراسوس بدافع مقبول على الأقل ، هذا وإلا أصبحت هذه الحملة ليس وراءها دوافع ، وعندما نقرأ قصة هذه الحملة في كتاب (بلوتارخ) ضمن سيرة حياة (كراسوس)

نشعر بأن هناك قوة هائلة تتعثر في طريقها تحت قيادة هزيمة إلى مصير مشوم . وقد كان وقوع الكارثة ضربة قاضية لسكراسوس وفرقه السبع . فقد أخذ المشاة الرومان على حين غرة عندما كانوا يسرون في صحراء سوريا بلا طعام أو ماء وحاصروهم الفرسان البرثيون ورماة السهام الذين كانوا يمتطون الخيل وبالقرب من (كارهاى) Carrhae مزقوهم إربا في أبعش هزيمة (عام ٥٣ ق . م .) منى بها الرومان منذ هزيمة (كئناى) فقد خسروا سبع فرق ، وقتل . . . ٢٠ رجل ، وأسر . . . ١٠ ، أما كراسوس نفسه فقد فصلت رأسه عن جسده وأرسلت إلى (ملك الملوك) الذى كان فى ذلك الوقت ضيفاً على بلاط أرمنيا .

وتصادف أن مسرحية (أتباع باخوس) Bacchae للشاعر (يوربيديس) كانت تعرض هناك ، فأمسكوا برأس كراسوس ، عضو الحكومة الثلاثية ، ولوحوا بها فى الهواء لتلعب دور رأس (بنثيوس) Pentheus فى المسرحية . وهكذا كان حب ملوك الشرق للحضارة الهيلينية يسير على هذا النحو .

وكان الثأر لسكراسوس صرخة عالية فى مجال السياسة الرومانية استمر انطلاقها ثلاثين عاماً . وقد صور الشاعر (هوراس) Horace ما جلبه الأسرى الرومان من عار بزواجهم من نساء متبربرات ، وانمحي من ذاكرتهم حتى اسم إيطاليا وروما . وربما كان مصيرهم أغرب مما تصور هو ، فقد عثرت الدراسات الأخيرة على شواهد فى المصادر الصينية تدل على أن جنوداً مرتزقة من الغرب كانوا يستخدمون فى ذلك الوقت فيما يعرف الآن بولاية (تركستان) Turkestan ومن المحتمل أن بعض هؤلاء الجنود كانوا من رجال كراسوس ، باعهم البرثيون للصينيين .

أما الآن ، فقد وقف (قيصر) و (بومبي) وجهاً لوجه ، وكان موت جوليا Julia ابنة قيصر وزوجة بومبي في العام السابق لواقعة كارهاى قد أضعف تماما من الرباط الذى كان يربط بينهما كما تركهم موت كراسوس لينافس كل منهما الآخر . وما أن مرت سنوات قلائل حتى أصبحا عدوين سافرين . وقد كان على بومبي بمقتضى شروط مؤتمر « لوكا » ، أن يتسلم إمارته في أسبانيا بعد قنصلية عام ٤٤ ، ولكنه فضل أن يمكث في روما وأن يحكم أسبانيا عن طريق مبعوثيه . وهذا الإجراء مكن مجلس الشيوخ من استخدام (بومبي) ليحفظ ميزان القوى مع قيصر ومع الفوضى السياسية المتزايدة في روما والتي تسبب فيها امتلاك الأفراد لجيوش السفاحين المحترفين . وهذه الجيوش تشبه الجيوش التي نشرت الدمار في ألمانيا خلال السنوات الأخيرة من جمهورية فايمر (Weimer) فقد كانت هناك عصابة من هذه الجيوش تعمل لصالح قيصر تحت إمرة (كلود يوس ' Clodius) وأخرى تعمل لصالح (بومبي) تحت إمرة (ميلو) Milo وهذه العصابات كانت تسيطر على طرقات روما من عام ٥٧ إلى ٥٢ ق.م. وأخيراً قام رجال (ميلو) باغتيال (كلود يوس) . وعندئذ طالب مجلس الشيوخ (بومبي) بإدراج هؤلاء الرجال مع الجنود ، ودين قنصلا منفرداً لا منازع له . ومنذ ذلك الوقت أخذ نجمه في الصعود بصورة أعلى من قيصر حتى احتل مركز (بطل مجلس الشيوخ) المغوار ، هذا المجلس الذى أصبح عداؤهُ لقيصر أكثر مرارة عندما حدثت الأزمات التي تسببت فيها ثورة (فيركنجتوريكس) وكان قيصر يستحق العداة الأبدى من جانب أعضاء المجلس المتطرفين وذلك للوسيلة التي استغل بها الجمعية الشعبية عندما كان قنصلا لعام ٥٩ ق.م . كما كانت المسكانة التي وصل إليها في بلاد الغال والمنفعة التي قد تأتيه من هذه المسكانة بمثابة تحذير لهم . وكان عليهم أن يستدعوا قيصر بطريقة أو بأخرى كفرد عادى إلى روما ، وعندئذ يمكنهم شن الهجوم عليه والقضاء على مكانته السياسية ، لكن قيصر كان بدوره يرغب في ترشيح نفسه

لقنصلية عام ٤٨ ق . م . م . في الحصول على قيادة مشرفة أخرى بعد ذلك . وقد كان على علم تام بما ينتغيه أعداؤه ، كما أنه لم تكن لديه نية الوقوع في الفخ بقدميه . وفشلت ثمانى عشر شهراً من المباحثات الملتوية فى الوصول إلى شروط مرضية لعودته . وأخيراً قرر مجلس الشيوخ فى اجتماعاته التى عقدها يوم ١ ويوم ٧ يناير عام ٤٩ ق . م . استدعاء قيصر ليسلم جيشه لعدوه (دميتيوس أهينو بارباروس) Domitius Ahenobarbus وليسألوا القنصلية بقرار مجلس الشيوخ الأخير *Senatus consultum* وهو السلاح الرهيب الذى حطم الأخوين (جراكوس) وقضى على (كاتيلينا) . ولم يكن هناك مجال للتساؤل عن من هو عدو الشعب السافر فى هذه المرة .

وكان قيصر ينتظر تلقى الأنباء فى (رافينا) Ravenna ومعه فرقة رومانية واحدة . وفى يوم ١٢ يناير ترك قيصر ولايته ودخل إيطاليا بقوة السلاح عابراً (روبيكون) Rubicon النهر الصغير الواقع عند الحدود ، وجعل اسم هذا النهر بذلك الإجراء مثلاً سائراً حتى الآن يطلق على القرارات التى لا يمكن نقضها . وبدأ الحظ يلعب دوره ، واندلعت (الحرب الأهلية) وكانت جيوش قيصر أقرب جيش إلى روما ، وقد استغل هذا الموقف بجرأته المعهودة ، فما إن مر أسبوع واحد حتى كان قد احتل (أرمينوم) Arminum و (أنكونا) و Ancona ورأى بومبى أنه ليس أمامه أمل فى السيطرة على إيطاليا وقرر أن يعبر بحر الأدرياتيك وينظم أعمال مقاومته فى بلاد اليونان . فقام قيصر بانقضاض مفاجئ على (برنديزيوم) Brundisium ليقطع عليه الطريق - وربما ليحاول أن يصل معه إلى حلول مرضية - ولكن هذه المحاولة فشلت . وما إن حلت نهاية شهر مارس حتى كان قيصر قد أصبح سيداً لروما وإيطاليا كلها .

ولكن لم تكن هذه الأحداث إلا الدورة الأولى من الحروب الأهلية فركز الحزب الجمهورى ما يزال فى منتهى القوة . والجيش الخاضع لبومبى

كان يسيطر على أسبانيا وأفريقيا . كما أن بومبي يستطيع عن نفسه ، بما له من مكانة في الشرق ، أن يحرك كل قوات الشرق ويعود بها إلى إيطاليا لكن اعتمد قيصر على السرعة في إحراز النصر في الحروب الأهلية بصورة أسرع من إحرازه النصر حتى في بلاد الغال . ففي حملة استغرقت ستة أسابيع أطاح بكيان الحزب الجمهوري في أسبانيا وضم الجيش المنهزم إلى جانبه ، وما أن أوشك عام ٤٩ على الانتهاء حتى كان قيصر على استعداد تام لمواجهة بومبي ، وفي بداية عام ٤٨ عبر بحر الأدرياتيك وأنزل جيشاً جنوبي (دوراخيوم) Dyrrachium (دوراتز الحديثة) وهي قاعدة بومبي الحصينة . وقد قام بهذا العمل في الشتاء وعلى الرغم من تصدى قوة بحرية هائلة له . وبعد ذلك ، عندما أمده (مارك أنتوني) بالعون في الحال حاصر بجرأة متناهية قوة كبيرة من قوات بومبي . ولكن في منتصف شهر يونيو اضطر إلى رفع الحصار واتجه ناحية الشمال الشرقي نحو (تساليا) Thessaly فتعقبه بومبي . وفي ٩ أغسطس ، بالقرب من (فارسالوس) Pharsalus وقعت المعركة الحاسمة بين أعظم قائدين رومانين في عصرهما . وبفضل ثبات المحار بين القدماء من الغاليين انتهت المعركة بنصر مبین أحرزه قيصر ، وكان تعليقه بعد المعركة وهو يحدق في وجوه القتلى من الجمهوريين : (كان يجب أن يلاقوا هذا المصير) .

إن هذا النصر المبين الذي كان من نتائجه أن أصبح قيصر سيداً للعالم تلتها مأساة ومهزلة : فقد هرب (بومبي) من (فارسالوس) واستقل مركباً ووصل في آخر الأمر إلى مصر ، ولكن حكام مصر لم يكن يحبذون الانضمام إلى قضية خاسرة ، فاعتيل بمجرد نزوله على الشاطئ - وهو ثاني عضو من أعضاء الائتلاف الثلاثي يلقي حتفه بالسيف . ولما كان قيصر قد تعقبه عن كثب ومع شزيمة صغيرة من الجنود ، فقد زج به في منازعات العائلة المالكة التي كانت قائمة بين (كليوباترة) ملكة مصر ، وأخيها وأصبح قاهر (فيركنجتوريكس) و (بومبي) مهدداً بالقتل على أيدي

المصريين أثناء قيام أى معركة من المعارك التى كانت تدور فى الطرقات ، وقد أنقذه من هذا المأزق ابن ميثريدا تيس / ملك (بونتوس) . ثم تبع ذلك قيامه بحملة خاطفة فى آسيا وأخرى عصبية فى أفريقيا ، حيث سحق آخر قوات الجمهوريين الجرارة (فى عام ٤٦ ق . م .) فانتحر (كاتو Cato . وفى خريف عام ٤٦ ق . م . احتفل (قيصر) احتفالاً رائعاً بانتصاره . الساحق على أربع جهات : بلاد الغال، وأفريقيا ، ومصر ، و (بونتوس) وكل هذه الجهات كانت أعداء غرباء عن روما بينما لم تذكر معركة فارسالوس « ضمن انتصاراته . ولكن فى عام ٤٥ ق . م . تطايرت الشرارة الأخيرة من الحروب الأهلية فى أسبانيا . فأخذها قيصر فى « موندا » Munda وهى آخر ما قام به من معارك . وقد جاءت أنباء هذا الانتصار إلى روما أثناء الاحتفال بأعياد « باليليا » Palilia لعام ٤٥ ق . م . — فأصبح انتصاره حادثة حسنة الطالع أظهرت قيصر وكأنه « رومولوس » Romulus آخر . أما انتصاره الخامس ، الذى كان أقل أهمية ، فقد أحرزه فى أكتوبر عام ٤٥ ق . م . على الثرار المنهزمين فى أسبانيا وهم أعداء لروما . ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى ستة أشهر يحياها .

إن أى تقييم لدكتاتورية قيصر لا يمكن أن تخلو من فحص الوقت القصير الذى كرسه للأمور السياسية . فلم يحدث أبداً أن مكث فى روما ستة أشهر كاملة فى الفترة ما بين معركة « فارسالوس » ووفاته . وكان (أيبوس) Apius ، و (هيرتيوس) Hirtius وكورنيليوس بالبوس Cornelius Balbus وكلاؤه الشخصيون ، نخبة ممتازة ، ولا بد أنهم قد اكتسبوا مكانة عالية حتى إنه تم إنجاز كثير من الأعمال . ولكن كل ما قاموا به كانت أعمالاً تجارية المقصود بها حل المشاكل الطارئة ، ونحن لا نعلم المغزى الذى كانت قد تتخذه خطط قيصر المحنكة ، إذا كان لديه بالفعل أى نوع من الخطط . والموضوع الذى شغل ذهن قيصر بالتأكيد هو موضوع تسوية الأمور ، إذ لم يحدث أن صدرت أحكام بالنفى ومصادرة الأملاك . ومن الحقيقى أن الكثير من

الزعماء الجمهوريين قد لا قوا حتفهم في أرض المعركة ، ولكنه على الأقل قد نجح في ضم رجال — لوقت قصر — إلى جانبه من أمثال شيشرون وكاسيوس Cassius وماركوس بروتوس Marcus Brutus وكذلك (ماركلوس) Marcellus الذي تولى القنصلية عام ٥٠ ق م. والذي كان عدوا لدوداً له من قبل. ولكن لم يظهر قيصر أى اهتمام باتجاهات معارضية السياسية فقد أزداد من عدد أعضاء مجلس الشيوخ حتى وصل إلى ٩٠٠ عضو — يضيق أنصاره الخناق حولهم . وكان هؤلاء الأعضاء يختارون من الولايات بمثل ما كانوا يختارون من روما وإيطاليا . وأصبح مجلس الشيوخ وكأنه خاتم من المطاط يتناسب مع كل المقاسات التي يحددها قيصر . أما الموظفون الرسميون فهم من يقع عليهم اختياره ، وأصبح وكلاؤه يسيطرون تماماً على الخزانة ، فظهرت صورته مسكوكة على العملة . وقد تركزت كل سلطات الدولة الفعالة في شخصه هو ، فالجيوش تدين له بالولاء ، وجعل لقب (إمبراطور) Imperator جزءاً من اسمه . كما منحه الجمعية الشعبية في وقت مبكر عام ٤٩ ق م . وظيفة الدكتاتور ، وأضخمها لوقت مامع وظيفة القنصل . ثم ديين دكتاتور لمدة عشر سنوات في عام ٤٦ ، ثم لمدى الحياة في يناير عام ٤٤ ق م . كما أن حصل بتفويض من الجمعية على الحصول على السلطة التريبونية على الرغم من أنه لم يكن تريبوناً) في وقت من الأوقات وحصل كذلك على سلطات كانت من اختصاص (الكنسورس) Censors وأصبح هو (الكاهن الأعظم) Pontifex وعضواً في كل معاهد الكهنوت . وبالإضافة إلى كل هذا أعقد عليه الكثير من الألقاب الشرفية والامتيازات ، مثل حق ارتداء ثوب المنتصر Triumphator القرمزي ، وألوية الإدلاء بصوته في مجلس الشيوخ . . . إلخ ونحن لانعلم ما إذا كان حكمه الفردى المطلق هذا قد أصبح هو الحل النهائى لمشاكل روما السياسية — ولكن من المسلم به أن طبيعة هذا النوع من الحكم لم يسبق لها مثيل — وهذا ما أثار عداة حفنة من الرجال — بعضهم جمهوريين ، والبعض الآخر من أتباعه

السابقين — ولكن كانوا جميعاً أعضاء في مجلس الشيوخ . فقرر هؤلاء اغتياله .

وأهم سمة من سمات تشريعات قيصر هي مشروعاته التي كانت تهدف إلى بسط الامتيازات القانونية . فقد بسط حقوق المواطنة الرومانية على بلاد الغال القريبة . وهو إقليم جلب مزيداً كبيراً من القوة لإيطاليا بزراعته المزدهرة ، وفلاحيه الأشداء ، وحياته الحضارية المتطورة . وكانت النتيجة تنجيه إلى تطبيق نفس المشروع على نار بونينسيس على الرغم من أن الإقليم لم يكن قد اكتمل شكله . أما مدينة جاديش (قادش الحديثة) Gades التي كان له فيها كثير من الصلات منذ حكمه لأسبانيا ، فقد أصبحت مدينة للمواطنين الرومان . وقد أعد مشروع ضخيم بإقامة مستعمرات في أسبانيا وبلاد الغال وأفريقيا واليريكوم وحول البحر الأسود . وبما يجذب الانتباه من بين هذه الإنشاءات هو إعادة بناء قرطاجنة وكورنثه ، فهذا يعتبر إحياء لمشروعات (جايوس ماريوس) كما منحت حقوق المواطنة الرومانية لكثير من المدن في صقلية وأعيد تنظيم دساتير مجالس إيطاليا البلدية ووحدت قوانينها . وقد أبدت الحفريات هذا الإجراء كما أقرته المصادر الأدبية . وكان هناك اقتراح للقيام بتجميع جديد للقانون الروماني . وقد تم إعادة تنظيم التقويم الذي كان في ذلك الوقت خطأ بثلاثة شهور . وقد تم هذا التنظيم بمثل هذه الدقة المتناهية حتى إنه لم يحتاج إلى أى تعديل مرة أخرى حتى القرن السادس عشر فشهد يوليو الذي كان فيما قبل شهر (كوينتيليس) Quintilis — أطلق عليه اسم قيصر (وهو يوليو) وما يزال يحمل هذا الاسم حتى الآن . كما لاقت المشاريع الهندسية الضخمة ترحيباً بالغاً . فقد تم حفر قناة لنهر (إشموس) Isthmus في كورنثه ، وتعميق مجرى نهر التير في روما وإقامة ميناء جديد عند مصبه . وكان هناك مشروعات رائعة للقيام بتطويرات جديدة في روما . وقد تم إنجاز بعضها على يد (أوغسطس) فيما

بعد ، ومن المحتمل أن نجد قيام نظام مطلق للإيمان من المشاريع الهائلة في مجال الهندسة والمعمار . ولكننا نبحث عن وجود دلائل تثبت أن قيصر كان يضع يده على مشكلة العالم الروماني الأساسية — ألا وهي العمل لضمان وجود استقرار سياسي في روما وضمان قيام حكومات عادلة للولايات . أما إننا نجد أن جهوده قد كرس للقيام بحرب شعواء يشنها ضد (بارثيا) ومقدر لها أن تشتعل في عام ٤٤ ق . م ، فإن هذا الاتجاه لا يدعو إلى الطمأنينة . وربما تحقق هذه الحرب دون شك ، انتقاما لسكرا سوس وتزاحم أعمال الاسكندر ، كما أنه من المحتمل أنها ستؤدي إلى توسيع حدود روما الشرقية وتحددها في المسكان المناسب ولكنها كانت بالتأكيد تخلق له الأعداء ليتجاهل المشاكل السياسية التي قد لا يجد لها حلا . وعلى أية حال فقد تجسرت ست عشرة فرقة رومانية في اليريكوم استعداداً لإنجاز هذا المشروع الضخم . وكان على قيصر أن يلحق بهم عندما اغتيل في ١٥ مارس عام ٤٤ ق . م .

وقد ظهرت آراء متضاربة لقرون عديدة بخصوص حادثة منتصف مارس هذه وبخصوص دوافع (المحررين) Liberators . فهل فعل (بروتوس) Brutus فعلته وفقاً لمبادئ رواقية أو وفقاً لتقاليد عائلية تقتضى قتل الطاغية ؟ وما هو الدور الذي لعبه (كاسيوس) Cassius ؟ وهل كان قيصر يهدف إلى إقامة حكم ملكي على نحو الحكم الهلينستي ؟ لا يمكن معرفة الإجابة على هذه الأسئلة إطلاقاً . ولكن من المؤكد أن الإجراءات التي جاءت بعد شهرين من إعلان الشرط الذي فرضه قيصر ليحصل على الدكتاتورية لمدى الحياة كانت خرقاً لسافر التقاليد الرومانية . وهي في حد ذاتها ناقوس يعلن موت الجمهورية . وقد علل الشعور الجمهوري والتقاليد السياسية الرومانية دوافع قتل قيصر — على الرغم من أنهما لم يغفرا لهم فعلاتهم هذه . ولم يظهر أي رجل روماني مثل هذا المزيج الرائع من المواهب مثل الذي

أظهره قيصر ، ومن يستطيع إظهار ذلك هم قلة قليلة من رجال أى عصر . فقد وضع بين زمرة أعظم قواد العالم ، فى مرتبة الإسكندر وهانيبال ونابليون كما كان سياسيا محنكا تماما ، وحا كما قديراً ، يتمتع بهواهب ذهنية فائقة تتوافق مع تعطش لا يشبع للمعرفة . وكان من أوسع الرجال ثقافة فى عصره وخليما بليغا وكاتباً بديعاً . لقد كان له أثر عميق على العالم بأسره — وبالذات تأثير كتاباته عن الغال البعيدة والقريبة — وما يزال هذا التأثير يودى فاعليته . وكان أقل شخصية تبعث على الملل من بين زمرة رجال السلطة . ولم يكن يميل إلى القسوة من أجل القسوة نفسها ، وكان يقدر ضرورة الرأفة والبشاشة ، ومع ذلك ، فإن رسم شخصية قيصر الإنسان الخارق للطبيعة ، النموذج المثالى المعصوم من الخطأ أو اللوم التى أتى به العالم (مومسم) Mommsen وتبعه فى ذلك كثير من العلماء الألمان والإيطاليين ، ليس رسماً لشخصية تاريخية على الإطلاق ، لكن كان قيصر دون شك يتمتع بإدراك آفات الجمهورية الرومانية أعمق بكثير من أى رجل من قبله . ولكن ليس هناك شواهد على أنه كان يملك بين يديه علاجا لها أنجح من إقامته الحكم الفردى المطلق .

لقد ترك للأخريين درساً يتعلمونه عن حياته ومماته ليطبقوا هذا الدرس ، أما الحوادث الهامة التى وقعت منذ موت قيصر حتى وقوع معركة أكتيوم Actium فيعرفها تماما الرجل العادى معرفة أصدق من معرفته لحوادث أى فترة من فترات التاريخ الرومانى . فقد حدث الائتلاف الثلاثى الثانى ، وهزيمة قتلة قيصر فى معركة (فيليبى) Philipii ، وقصة غرام أنتونى وكليوباترة وآمالهم الواسعة فى الشرق ، ثم التصدع الأخير وحدوث معركة (أكتيوم) وانتحار (أنتونى) و (كليوباترا) فى مصر ثم استحواذ (أوكتافيان) فى النهاية على مركز السيادة فى العالم الرومانى . ولكننا نرى هذه الأحداث بعين الشاعر (شكسبير) سواء كنا نعلم ذلك أم لا ،

أو على الأقل في العالم الذي يتكلم الإنجليزية . وعلى السكاتب المسرحي أن يختار من هذه الحوادث ويبسطها فإن خطبة « أنتوني » في مسرحية « يوليوس قيصر » تثير نائرة الشعب الروماني ضد « المحررين » وتلا ذلك في عرض سريع لصدور أحكام النفي والإعدام ووقوع الخلافات بين « بروتوس » و « كاسيوس » ثم وقوع معركة « فيليبى » . لكن الحقيقة تختلف عن ذلك إذ تجمعت القوى المتطاحنة في بطن مناه وتنظمت استعداداً للحلقة الثانية من الحروب الأهلية ، لكن في الواقع كان توقع وقوع صراع أمراً بعيد الاحتمال لوقت ما . ويبدو أن المحررين لم يكونوا قد وضعوا خططا أبعد من اغتيال الدكتاتور — وعندما حدث ذلك اعتبروا أن الجمهورية قد استردت قوتها . ولكن كان ما يزال هناك حزب « قيصرى » وجيش يدين بالولاء لقيصر ، ومن يستطيع أن يرث هذا الولاء عن قيصر قد تكون له الغلبة في النهاية .

وكان « ماركوس أنتونيوس » (مارك أنتوني) هو الشخص المحتمل قيامه بهذا العمل فهو واحد من أقدر قواد قيصر والقنصل الوحيد الذى ظل على قيد الحياة لقنصلية عام ٤٤ ق . م . وكذلك (لبيدوس) الذى كان قائد الفرسان فى جيش قيصر .

أما فى جهة الجمهوريين فقد كانت مكانة الجمهوريين عبارة عن جهود ضائعة فى روما وإيطاليا ولكن كان هناك شيشرون ، السياسى الجمهورى الوحيد الذى يعتبر من الدرجة الأولى ، وكذلك هناك (سكستوس بومبيوس) Sextus Pompeius ابن (بومبيوس العظيم) وأخيراً كان هناك رجل نأثر شاب فى الثامنة عشرة من عمره يدعى (جايوس أوكتافىوس) Gaius Octavius ، ابن أخ يوليوس قيصر العظيم . وعندما وضع قيصر وصيته قبل رحيله إلى (بارثيا) اتخذه أبناً له بالتبني تحت اسم (أوكتافيان) وأعلنه وريثاً لإقطاعياته . ويقال أن (أوكتافيان) كان فى ذلك الوقت

في طريق عودته من (اليريكوم) ليتسلم تلك التركة الخطرة التي آلت إليه ولم تكن الطريقة التي سيتناول بها هذه التركة واضحة .

وكان هناك في نفس الوقت مهادنة لا استقرار فيها . فبعد اغتيال قيصر مباشرة جاء التصديق على ما قام به قيصر من أعمال ، ولكن عُني عن قتلته .

كما أن المشاريع التي كان قيصر قد أعدها للولايات ليتولى تنفيذها قنصلية عام ٤٤ ق . م . قد نقضت عندما طالب (أنتوني) ببلاد الغال لمدة ست سنوات وهي قاعدة نفوذ قيصر ، وكان ذلك هو أول نقض للعهد . وقد زادت بشاعة هذا النقض نتيجة سلسلة من الخطب العنيفة ألقاها (شيشرون) ضد (أنتوني) وهي الخطب الفيليبية Philippics ، أما (بروتوس) و (كاسيوس) فقد رحلوا إلى الشرق ليعبثا جيشا يكون ندا للقوات (القيصرية) المسيطرة على الغرب . فظهر (أوكتافيان) في إيطاليا وأصبح لبعض الوقت بطل مجلس الشيوخ في حربه السافرة التي كان يشنها على (أنتوني) (في أبريل عام ٤٣ ق . م . والحكم الذي أصدره شيشرون على (أوكتافيان) هو : (إن هذا الشاب يجب تملقه ، واستغلاله ، ثم الإطاحة به) ولكن هذا الشاب الصغير كان يحتفظ في عقله بأفكار أخرى ، ففي أخرج لحظات الأزمة ، زحف بجيوشه على روما ، لا على (أنتوني) وأصبح قنصلا لعام ٤٢ ق . م . وكان الصلح قد تم بين زعماء الحزب القيصري في نوفمبر عام ٤٣ ، واعترف بأنتوني وأوكتافيان ولبيدوس كأعضاء لاتتلاف ثلاثي يستمر لمدة خمس سنوات . وكانت خطوتهم الأولى هي تنظيم أعمال النفي والإعدام على مستوى ما قام به (سولا) تماما . وكان (شيشرون) من بين الضحايا العديدين لذلك الإرهاب الجديد وقد جابه مصيره بشجاعة وعزة نفس عالية . ثم تلى أحكام النفي والإعدام هذه شيء جديد على التاريخ الروماني — ألا وهو إعلان تأليه (يوليوس قيصر) . فتلقى الشعب هذا

النبا بترحاب بالغ وبجاس شديد . وقد أدى هذا التأليه إلى حصول (أوكتافيان) على امتياز نادر، إذ أصبح منذ ذلك الوقت (ابن المؤله قيصر ' Divi Filius) وبعد ذلك قام (أنتوني) و (أوكتافيان) بمطاردة (المحررين) حتى بلاد اليونان . ومرة أخرى التقت قوات الغرب التي تحارب تحت اسم قيصر بقوات الشرق التي تحارب من أجل الجمهورية . وفي أثناء الاشتباكين اللذين وقعا في (فيليبى) Philippi (في عام ٤٢ ق . م .) كان النصر من نصيب قوات الغرب للمرة الثانية ، فانتحر كل من (بروتوس) و (كاسيوس) وأضيف إلى قائمة الشهداء الجمهوريين اسمان جديدان .

وأدى الانتصار في معركة فيليبى إلى فوز الحزب (القيصرى) ولكن كان ما يزال هناك ثلاثة زعماء لهذا الحزب — كما كان هناك حادثة سابقة كئيبة حدثت نتيجة للمنافسة التي قد يؤدي إليها هذا الموقف . وكان أنتوني أوسع هؤلاء الثلاثة شهرة . زاد من تدعيمها ما قام به من أعمال في حملة (فيليبى) أما (البيدوس) فقد كانت سمعته في انحطاط مستمر . لكن (أوكتافيان) دعم موقفه بتأييد الجيش والشعب له ، إلا أنه لم يبل بلاء حسناً في الحرب . وهكذا فقد كان من الطبيعي أن (أنتوني) لا بد وأن يتولى أخطر منصب بعد أن انهزم الجمهوريون — ألا وهو إعادة إقرار النظام في الشرق والقيام بالحرب المقترحة ضد (بارثيا) وتولى (أوكتافيان) على ما كان يبدو منصباً لا يحمد عليه — وهو الإشراف على استتباب الأمن في إيطاليا والإشراف على تسريح المحاربين القدماء ومنحهم أراض ، هذا بجانب متابعتة لسير القضية القائمة ضد (سكستوس بومبيوس) . وقد يكون الإشراف على توزيع الأراضى وحده مثيراً للحنق والاضطراب ، فالمدن الإيطالية الثماني عشر التي كان من المفروض مصادرة أراضيها قاومت هذه المصادرة بعنف ، واندلعت حرب (بيروسيا) Perusia الفوضوية والتي أدت إلى الفوضى بتحرير من مشايخي (أنتوني) المقيمين في روما .

ونج عن هذه الحرب تدمير (بيروسيا) وهي المدينة الإتروسكية العتيقة ، وأبحر (أنتوني) إلى إيطاليا على رأس قوات جرارة . ونظراً لوجود هذا الرعب الذي اجتاح البلاد كلها ، فقد بدت الحلقة الثالثة من الحروب الأهلية وكأنها على وشك الوقوع ولكن تم تصفية الموقف بالأساليب السياسية لا بالسلاح . وبمقتضى معاهدة (برونديزيوم) Brundisium (أكتوبر عام ٤٠ ق م .) تجدد العهد للاتلاف الثلاثي . وحصل (أنتوني) على كل الولايات الواقعة شرقي (اليريكوم) و (أوكتافيان) على الولايات الواقعة غربها عدا أفريقيا ، التي آلت إلى (لبيدوس) . وكى يصبح هذا الصلح كاملاً تزوج (أنتوني) (أوكتافيا) Octavia شقيقة (أوكتافيان) وأصبح في وسع الشعب أن يأمل في السلام مرة أخرى . وقد وجد هذا الأمل والسكينة تعبيراً لهما في الأنشودة الرابعة من رعويات (فرجيل) ، وهذه الأنشودة تعتبر رؤيا تبشيرية تبشر بحلول (عصر ذهبي) جديد .

وبعد انقضاء عام على هذا التاريخ امتد نطاق الائتلاف الثلاثي ليضم (سكستوس بومبيوس) الذي حصل على ثلاث ولايات وعهد إليه بالأسطول . ولكن الآمال التي تغنت بها الأنشودة الرعوية الثالثة كانت سابقة لأوانها . إذ كانت إقامة سلام يعم البلاد كلها حلماً لم يتحقق إلا بعد مضي عشر سنوات . أى بعد وقوع حروب أهلية جديدة . وكان هذا العقد مشحوناً بالتنافس بين أفراد العائلة المالكة ، كما ظهرت فيه ثلاث شخصيات نسائية شهيرة . (أوكتافيا) التي كرست حياتها لخدمة أخيها وزوجها ، وبقدر ما كانت تحتفظ بنفوذها على أخيها ، كانت قوة تعمل من أجل السلام . ولم يحدث أن حصلت أى امرأة أخرى قبلها على احترام الشعب الروماني الكلي ، بل وحبه بمثل هذه الدرجة . و (ليفيا دروسيللا) Livia Drusilla التي تزوجها (أوكتافيان) في عام ٣٨ ق م . وهي امرأة في ريعان شبابها ، طلقها

زوجها ليفسح الطريق أنام (أوكتافيان) ليتزوجها وقد برهن هذا الزواج أنه كان اقترانا مثالياً ، وكانت (ليفيا) من بنات عائلة (الكلاوديي) Claudii الجليلة، امرأة جميلة ، وذكية ماهرة في معاملتها لزوجها . وكان لتأثيرها دور كبير في تحويل (أوكتافيوس) الشاب البارد المشاعر اللفظ إلى (أوغسطس) Augustus الحكيم الخير في السنوات الأخيرة من حياته ، أما (كليوباترا) Cleopatra فقد كانت آخر حكام مصر المستقلة وهذه المرأة توحدت فيها تقاليد الحكام المقدونيين وتقاليد الفراعنة . وقد أنجبت الأسرة المقدونية كثيراً من الأميرات الشهيرات ، وكانت (كليوباترا) تدرك تماماً دورها بوصفها آخر وريث للإسكندر الأكبر ومشاريعه . ولكنها كانت تتكلم اللغة المصرية بنفس درجة إتقانها لليونانية ، كما كانت كذلك وريثة الفراعنة ، وابنة (را Ra) إله الشمس مثلها في ذلك مثل الفراعنة تماماً . وكانت مملكتها أرضاً غنية وإن كانت ضعيفة . وكان سحر وجمال ملكة هذه الأرض من بين أعظم مواردها ، فقد اكتسبت محبة قيصر عندما جاء إلى الإسكندرية وأنجبت له ابناً ، ثم تبعته إلى روما . ومن المحتمل أنها كانت تأمل في الزواج منه . ثم مات قيصر - ولكن كان هناك رجل روماني في الشرق من السهل أن يجعله طوع يديها ألا وهو (أنتوني) الذي لم تسمعه هذه المرأة أبداً يقول كلمة (لا) . وقد كان قيام (كليوباترا) برحلتها الشهيرة إلى (كدينوس) Cydnus في عام ٤٠ ق . م . لتلتقي بأنتوني عبارة عن حركة في مجال مناورات السياسة العليا ، فقد ضمته إلى جانبها مثلما فعلت مع (قيصر) من قبل . ثم أنجبت له توأمين بعد عودتها إلى مصر . ولكن جاء زواجه من (أوكتافيا) فأنهى تماماً كل طموح ملكة مصر .

وكان أنتوني ما بين عامي ٣٩ - ٣٧ ق . م . يذير دقة أمور الشرق من (أثينا) و (أوكتافيا) بجانبه . وقد قام بتحصين الحدود وأعاد تنظيم الممالك العملية لروما كما قاوم غزو البارثيين لسوريا . وفي عام ٣٧ ق . م .

التقى بأوكتافيان مرة أخرى في (تارنتوم Tarentum) وجددا العهد للائتلاف الثلاثي لمدة خمس سنوات أخرى ثم رحل (أنتوني) ليشن الحرب على (بارثيا) ، تلك الحرب التي كانت قد تأخر تنفيذها عن مواعده . ولم تذهب (أوكتافيا) معه . ولكنه استدعى (كليوباترا) لتلتقي به في سوريا

وفي الفترة ما بين ٣٧ - ٣٣ ق . م . أدى مجرى الأحداث وطموح (كليوباترا) ، و (أنتوني) إلى خلق هوة صحيحة بين (أنتوني) وبين (أوكتافيان) ، وقد كانت هذه هي السنوات التي أفاد منها أوكتافيان خير إفادة . ففي عام ٣٦ ق . م . هزم (سكستوس بومبيوس) في موقعة (ناولوخوس) Naulochus وبعد ذلك مباشرة عزل (لبيدوس) وضم جنوده إلى صفوفه باستخدامه شتى وسائل الإقناع . وما إن جاء ذلك الوقت حتى كان يحظى بتأييد قوى في روما وإيطاليا . وقد كان في خدمته وزراء على درجة كبيرة من اللباقة وحسن التصرف . وهناك (أجريبا) Agrippa الذي كان قائداً حربياً ممتازاً ، و (ماكناس) Maecenas الذي كان دبلوماسياً وإدارياً من الدرجة الأولى . أما بالنسبة لـ (أنتوني) ، فقد كانت هذه السنوات هي سنوات التدهور الذي كان سببه المباشر فشله في الحملتين اللتين قام بها في بارثيا (عام ٣٦ ، ٣٥ ق . م .) وكل ما استطاع أن يتزعه من انتصارات هو انتصاره على « أرمينيا » . وقد ارتكب خطأ لا يغتفر عندما احتفل بانتصاره هذا في مدينة الإسكندرية — كما كان في سبيله للاعتماد على « كليوباترا » وعلى ثروة مصر . ثم عقد عليها نوعاً ما من الزواج — مع أنه لا يمكن أن يكون زواجاً رومانياً شرعياً — وتنازل عن بعض الولايات والمدن الرومانية للملكة وأطفالها .

وأصبح من المحال ألا يحدث في ذلك الوقت اصطدام بين زعيم الحزب القيصرى العجوز وبين منافسه الشاب . وقد سبق هذا الصدام حرب مريرة للدعاية جاءت منها القصص التي تحكى مشاريع أنتوني وكليوباترا

الواسعة من أجل إقامة مملكة تضم كل بلاد العالم، على أن تصبح الإسكندرية عاصمتها . وقد انتصر « أوكتافيان » في حرب الدعاية هذه بنفس الصورة القاطعة التي كان له أن ينتصر بها في حرب السلاح ، وبعد أن تولى القنصلية لعام ٣١ ق. م . شد من أزره بين الولاء الذي أقسمه شعب روما وإيطاليا لشخصه، وأصبح في إمكانه أن ينزل إلى أرض المعركة بوصفه البطل الشرعي للغرب في حرب أعلنت ضد كليوباترا . فحشد أنتوني في وجهه كل القوات الرومانية التي كانت في الشرق ، كما وقف أسطول مصر بجانبه . وفي سبتمبر عام ٣١ ق. م . التقت القوتان البحريتان وجها لوجه بعيداً عن شاطئ الإدرياتيكي وبالقرب من « أكتيوم » Actium وهو المكان الذي أقيم فيه معبد شهير للإله « أبولو » Apollo وتشير تقارير هذه المعركة الغامضة إلى أن أسطول كليوباترا قد نشر أشرعتة وأبحر بعيداً عن المعركة فذهب أنتوني بوساطة قارب إلى سفينة قيادة الملكة ونزل عليها ، ثم جلس في مقدمتها طوال يومين لم يتحدث خلالها إلى إنسان . أما قواته ، فبعد أن هجرها قائدها ، استمرت في قتالها بما يكفي ليحفظ كرامتها ، ثم وضعت نفسها تحت رحمة « أوكتافيان » .

وقد وقع آخر صراع ، بعد مرور عام من هذا التاريخ ، على أرض مصر . وعندما انقلبت الأمور في غير صالح « أنتوني » انتحر ، وقد حذت (كليوباترا) حذوه بعد عدة أيام بعد أن حاولت إيقاع (أوكتافيان) في حبائنها كما تقول بعض التقارير .

وهناك قصة تحكى عن قاطع طريق أسباني سأله السكان وهو على فراش الموت أن يعفو عن أعدائه فأجاب (اى أبتاه . . . ليس لى أعداء . . . فقد قضيت عليهم جميعاً) وكان هذا هو نفس موقف (أوكتافيان) وهو في سن الثانية والثلاثين . إذ أصبح سيداً لا شريك له لعالم يتوق إلى السلام

ويشعر بالذنب لدماء سفكك خلال ثلاث دورات من الحروب الأهلية حدثت كلها فيما لا يقل عن عشرين عاماً .

وكتاب هذه الفترة يشيرون دائماً إلى سطورة (روهولوس وريموس Romulus Remus) إذ قامت مدينة روما على دماء الأخ المهدورة .

وقد كان الإرهاق الناجم عن الحرب والشعور بالإثم من أقوى دوافع (أوكتافيان) على العمل لحل مشاكل العالم الروماني حلاً قاطعاً .

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية والثقافية

في أواخر عصر الجمهورية

قلنا يمكن أن يتوفر تقرير واف ومرتزن عن الحياة الاقتصادية في إيطاليا خلال القرن الأخير من عصر الجمهورية، إذ لم يكن الرومان يحتفظون بإحصائيات رسمية ومنظمة حتى عن مثل هذه العوامل الأولية كالإنتاج والأجور والأسعار. ولكننا نجد بدلا من هذه الإحصائيات مجموعة من الأمثلة الفردية تنطوي في الغالب على تفصيلات كثيرة من الصعب أن تكون في مجموعها صورة متماسكة، ومع هذا فمن الممكن إطلاق تعميمات معينة. فأولا: من الواضح أن غزو عالم البحر المتوسط قد أدى إلى زيادة هائلة في الثورة لدى روما وإيطاليا. وحتى الحروب الأهلية التي لا تنقطع لم تستطع أن تؤثر تأثيراً جدياً في مستوى المعيشة الذي كان في ارتفاع مستمر بالنسبة للبعض، ذلك لأن هذه الثروة الجديدة قد وزعت توزيعاً غير متكافئاً. كإطلاقاً. كما حدث أن تكونت ثروات جديدة عن طريق الأعمال المصرفية وعمليات الإقراض وجباية الضرائب وإبرام عقود الحروب والبناء والعقار، وتجارة الاستيراد والتصدير كإعادة الحروب الكبرى التي دارت رحاها في بلاد الغال وفي الشرق بأسلاب وهبات على كل من اشترك فيها من قائم الجيش إلى الجندي العادي. أما أحكام النفي والإعدام فقد كانت بمثابة وسيلة سريعة لإثراء الرجال الدهاة الذين نفذوا هذه الأحكام والذين كانوا ينتمون إلى الجانب المنتصر، ولذلك

فالقرن الأول قبل الميلاد كان يتميز لأول مرة في المجتمع الروماني بظهور طبقة جديدة من الرجال ذوى الثراء الواسع ، أمثال بومبي Pompey ، كراسس Crassus سولا Sulla ، ولوكولوس Lucullus . وبالطبع فإن أمثال أصحاب الملايين هؤلاء ما كانوا لينحدروا إلا من طبقة تفوقهم عدداً من الأثرياء أو الأغنياء .

وبعد حوالى عام ٨٠ ق . م . أصبحت روما لأول مرة معتادة على اقتصاديات البذخ الفاحش ، فقد بنيت منازل ريفية ضخمة — كانت ما تزال تحمل الاسم الريفي القديم « فيلا Villa » — وبنيت هذه المنازل فى الأماكن المستحبة مثل « تريفولى Trivoli » وتلال إلبا والمناطق المائية الواقعة حول خليج نابولى والمجهزة على أحدث طراز . وكان هناك تضخم مفاجيء فى العقار مثلما حدث فى فلوريدا فى العقد الثالث من القرن العشرين . ولكن أصحاب هذه المنازل قد يمتلكون أيضاً قصوراً أنخمة فى روما حيث كان يوجد فى عصر شيشرون مائة منزل من المنازل الحضرية تفوق فى جمالها ونفاسها أى منزل من منازل القرن السابق إذ كانوا يجلبون لهذه المنازل أعلى أنواع الرخام من جميع بقاع العالم ، وكانت أسقفها مزخرفة برسوم منحوتة ومطعمة بالذهب وكان بها زخارف من الزجاج الملون ، وأثاث ثمين ، واحتفظوا فيها بالمكتبات الخاصة وعرضت فيها روائع فن النحت اليونانى سواء أكانت أصلية أم تقليداً للأصل . وكانت إدارة هذه المنازل تتطلب جماعات كبيرة من الخدم المدربين تدريباً ممتازاً ، ذوى الأجور المرتفعة ، خاصة من أجل إعداد الولايم الفاخرة التى أصبحت الوسيلة الوحيدة للترفيه والترويج عن النفس فى ذلك العصر . كما أنفقت مبالغ طائلة فى الإقطاعات الريفية على إقامة الحدائق الخاصة والحدائق العامة الكبيرة ، وعلى العناية بالنباتات والأشجار الغريبة وزراعتها وعلى القواقع وغيرها من المشهيات التى تقدم على المائدة . وقد كانت الخيول العريقة والعربات الأنيقة .

والبيخوت ومضاجعة العشيقات، اللاتي كن يتطلبن كثيراً من النفقات من أجل الحلوى والسياب وأدوات الزينة، كانت كل هذه الأشياء مما يساعد الشاب الروماني الطائش على تبديد ثروة أبيه، ومن الممكن القراءة عن كل هذه الأحوال فيما كتبه كتاب ذلك العصر اللاتين، الذين لم يكاوا أبداً من مقارنة عصرهم هذا ببساطة الأساليب القديمة التي أدت إلى عظمة روما .

لكن لم تتبدد كل ثروة إيطاليا الجديدة في هذا البذخ والإسراف، فقد أنفق جزء كبير منها في تجربة الأساليب الجديدة في الزراعة وتربية الحيوان وعادت مثل هذه التجارب بفوائد جمة على الزراعة الإيطالية بوجه عام، فبفضل التوجيه العلمي زاد إنتاج النبيذ وزيت الزيتون على إنتاج الحبوب بكثير، وأصبحت زراعة تلك المنتجات أكثر أنواع الزراعة ربحاً، إذ كان من الممكن أن يدر حقل الكرم في حالة الإنتاج الكامل ربحاً سنوياً بنسبة ١٨ ٪ من رأس المال المستثمر . وكان ذلك هو العصر الذي ذاعت فيه شهرة النبيذ مثل نبيذ « فاليرينا »، كما بدأ النبيذ الإيطالي بصفة عامة ينتشر في السوق المحلية وانهالت عليه الطلبات كي يصدر إلى الخارج .

وكان الزيتون ومنتجاته من العوامل الأساسية في اقتصاديات عالم البحر المتوسط، فأرخص أنواع الزيت تستخدم في إضاءة المصابيح، والأنواع الأجد في الطهي، ذلك في حالة عدم توافر الزبد، كما كانت أصناف كثيرة من الزيتون الجيد تؤكل نيئة، وكان دخول تجار الزيتون من الإيطاليين سوق التصدير على نطاق واسع ذا أهمية بالغة، أما الغلال فقد ظلت تلعب دوراً هاماً، فمع أن الحبوب كانت تستورد من الأقاليم من أجل خزانة الحبوب الرومانية إلا أنه كان ما يزال من الضروري الاعتماد على مصادر الغلال من إيطاليا نفسها . وكان محصول الحبوب في إيطاليا، خارج مدينة روما، يكاد يسد تماماً احتياجات سكان المدن الإيطالية الذين كانوا في تزايد مستمر .

وكانت « إتروريا » أجود الأراضي لإنتاج الحبوب مع أهمية أبوليا Apulia ، وكامبانيا Campania أيضاً . وعلى الرغم من أن العبيد كانوا يقومون بمعظم الأعمال الزراعية فإن الشواهد تدل على وجود مستأجرين أحرار للأراضي في بعض المقاطعات الكبرى . ولكن ظروف هذا العصر كانت في إيطاليا نفسها سيئة بوجه عام ، ذلك بالنسبة للفلاح الصغير أو المستأجر أو المالك ، ومع أنه كان ما يزال أمامه آفاق جديدة في وادي البو Po ، وفي جاليا ناربونيديس Galia Narbonensis ، إلا أن الكثيرين كانوا يفضلون ترك الأراضي والهجرة إلى المدن .

وقد انتشرت في هذا العصر السلالات العريقة من الخيول ، والأغنام والماشية ، كما جمع أصحاب المزارع الكبيرة في الجنوب ثروات طائلة من أزيد إنتاج الصوف والجلود . وقد شجع اتساع السوق الرومانية على تطور التخصص في الأعمال مثل تربية النحل (فقد كان العسل يستخدم عادة كمادة سكرية في حالة عدم توافر السكر) ، وزراعة المشاتل وزراعة الفراكة . (التفاح ، السكثرى ، التين والكريز) وتربية الدواجن والطيور التي تستخدم في المباريات . وكانت الدواجن تلعب دوراً قليل الأهمية في هذا المجال إذ كانت قيمة الدجاجة فيما تضعه من بيض وليست كلون من ألوان الطعام . كما كان يربي الحمام والقنابر (وفصائله) ودجاجة الوادي (الدجاج السوداني) والطاووس لبياع في أسواق الدواجن .

وكانت اقتصاديات هذه العمليات تدرس بدقة مع الاهتمام البالغ بقيمة التكاليف فقد تبين مثلاً أن القنبرة يزيد وزنها بسرعة عندما تطعم بلحاً ، غير أن عادة إطعامها بلحاً بعد مضغ العبيد له أدت إلى غير ما كانوا يهدفون إليه ، فقد كان هذا الوسيط البشري يتلغ جزءاً كبيراً من البلح .

والسبب في هذا الاهتمام هو أن الربح والخسارة كانا يتوقفان على مثل هذه الفروق الضئيلة.

وقد عاد النفع على الصناعة أيضاً من حالة الرخاء هذه التي عمت إيطاليا ومن ازدهار الأسواق الجديدة التي ظهرت في الغرب . فصناعة المعدات الزراعية والحربية قد تطلبت استخدام الحديد المستخرج من أرترويا وفي «أريتيوم» (وهي أرتيزو Arezzo الحديثة). وشهدت هذه الفترة بداية صناعة الفخار الشهيرة التي سرعان ما ساعدتها الظروف على الراج والانتعاش . وكانت الأدوات الفخارية المصنوعة من الطين تستخدم كأوعية لوضع جميع أنواع السوائل فيها . ومن الممكن تسمية عملية الإنتاج هذه (بصناعة الأوعية في العالم القديم . وكانت صناعة البرونز والفضة في « كيانيا » أكثر الصناعات الإيطالية انتعاشاً وقد أدت هاتان الصناعتان جنباً إلى جنب مع الزراعة المزدهرة إلى جعل هذه المنطقة من أغنى بقاع إيطاليا . وقد أمدتنا بومبيي (Pompeii) بقرائن مستمدة من الحفريات تدل على ذلك بصورة قاطعة . وكانت حركة البناء في (بومبيي) في توسع مضطرد في القطاعين العام والخاص منذ عام ١٥٠ ق . م . تقريباً حتى قيام (الحرب الاجتماعية) إذ أن قصور أكثر العائلات ثراء ، التي تخلقت عنها الرسوم الحائطية البديعة المعروضة في متحف نابولي ، تفوق بكثير في روعتها ونفامتها أي قصر كان قد تم بناؤه في روما حتى ذلك التاريخ . . . ولقد وضعت (الحرب الاجتماعية) العقبات في سبيل هذا الرخاء ولكنها لم تضع حداً له إذ استمرت حركة البناء حتى نهاية عصر الجمهورية ، بصورة أخف عما سبق ولكن كان لها رونقها .

وكان عدد السكان في روما يزداد بسرعة وانتظام وربما قد بلغ هذا العدد المليون في أواخر هذه الفترة — وهو نفس عدد سكان لندن في

عام ١٨٠٠ ونيويورك في عام ١٨٦٠. وهذا على أية حال من الأحوال ، عدد ضخيم بالنسبة لمدينة واحدة ، أما بالنسبة لمدن العالم القديم فقد كان هذا العدد مذهلا . فتوفير المأكل والملبس وأسباب الترفيه ، بل وحتى الدفن . مثل هذا العدد الضخم من السكان كان يقتضى القيام بالتزامات ضخمة . وكثيرة وربما كانت عملية تزويد العاصمة بالغلل عبر البحار ، التي لم تبلغ مرحلتها السكاملة حتى أوائل عصر الإمبراطورية ، أعقد العمليات تنفيذاً وظلت كذلك حتى العصر الحديث .

وقد مدت قنوات جديدة لمواجهة الحاجة المتزايدة للماء لكل من الضروريات والكهاليات : وبذلك أصبحت روما مدينة النافورات كما هي اليوم . كما تمت عمليات توسيع الأسواق العامة وفرضت الرقابة على الموازين والمقاييس ونظمت عمليات المرور في الشوارع إذ لم يكن يسمح لعربات النقل الثقيلة بالدخول إلى المدينة إلا ليلا . ولحل مشكلة الإسكان أنشئت مبان من نوع رخيص يتراوح ارتفاعها من ٦ إلى ١٠ طوابق كانت تؤجر شققا . ولما كانت هذه المنازل تقام في بقع أشبه بالجزر فقد أطلق عليها اسم (الجزر . . insulae) وتم بناء كثير من هذه المنازل بطريقة رديئة إذ كان يمتلكها إقطاعيون لا يهتمون إلا بتحقيق الأرباح بصورة عاجلة ، ومثل هذه المباني كانت عادة مساكن الطبقة الفقيرة الرومانية وقد أصبحت أحياء المدينة الأكثر فقرا ، ولا سيما الضواحي (Subura) الخارجة عن نطاق السوق الرومانية ، قدرة وخاصة بالسكان ، بل إن الأحياء الأفضل حالا كانت تفتقر إلى الكثير من الخدمات التي تعتبر ضرورية ولا غنى عنها في المدينة العصرية ، فلم تكن طرقها مضاءة ولم تكن بها وسائل نقل عامة ولا قوة بوليس بمعنى الكلمة .

ولم يكن التخطيط العام للمدينة يليق بمركز روما كعاصمة للعالم . إذ يجب ألا ينتظر من الايديل Aedil (أى الموظف المختص بتخطيط

المباني العامة) الذى كان يتولى منصبه لمدة عام واحد فقط ، أن يتقدم بأية مشروعات ضخمة لتخطيط المدينة والواقع أنه قد أجريت بعض التحسينات خلال هذه الفترة . فقد رمم « سولا » عندما تولى منصب الدكتاتوريه ، كثيراً من المعابد كما شيد التابولاريوم « Tabularium » أى مكتب التسجيل الذى ما تزال واجهته البسيطة الجميلة شاحخة فوق الطرف الغربى من السوق الرومانية . وفيما بين عامى ٦٢ ، ٦٠ ق . م . تم ترميم معبد (اسكليبيوس Aesclepius) المقام فى جزيرة التبير وزينت جدرانه بلوحات مائية وبنيت قاعدة المعبد على هيئة سفينة كما مدت قنطرتان جديدتان عبر النهر إلى الجزيرة نفسها ، ومن الأسلاب التى حصل عليها بومبى فى الشرق أنه قام بتنفيذ مشروع عام فعلا للنهوض بالمدينة ويتضمن هذا المشروع إنشاء أول مسرح من الحجر فى روما على نمط المسرح اليونانى المقام فى (موتيلينى Mytileni) يسع ٢٥٠٠ نفس ، وإقامة معبد لفينوس فيكترىكس (Venus Victrix) وميدان واسع محاط بأعمدة شاهقة بوسطها حديقة ، وكان هذا الميدان أول مكان من نوعه للترفيه عن عامة الشعب فى روما . ولقد لقي قيصر حثفه فى قاعة مجلس الشيوخ (Curia) التى أنشأها بومبى وهى جزء من مجموعة هذه المباني .

كما هيأت دكتاتوريه (يوليوس قيصر) الظروف المناسبة التى ارتقى فى ظلها فن المعمار . فنحن نسمع عن استدعاء خبير يونانى فى هذا الفن وعن الموافقة على تنفيذ خطة واسعة النطاق لتنظيم تطور المدينة فى المستقبل . وكانت هذه الخطة تتضمن شق القنوات المتفرعة من نهر التبير وتسوية منحنيات النهر وترك (كامبوس مارتىوس) Campus Martius خالياً لاستغلاله فى أعمال البناء ونقل المباريات الرياضية التى كانت تقام فيه إلى (كامبى فاتيكانى) Campi Vaticani على الضفة الأخرى من النهر وأقيمت قاعدة ضخمة جديدة للاجتماعات فى السوق العامة . واتسع المجال للأشغال

العامة بإنشاء السوق الجديد الذى تقرر إقامته حول معبد (فينوس جنترىكس Venus Genetrix) وكانت إقامة هذا المعبد وفاء لنذر قد قطعه فى معركة فى (فارسالوس) . غير أن قيصر لم يعيش ليكمل هذه المشروعات ولو كان أجله قد امتد فترة أطول فلاشك فى أنه هو ، دون - خليفته ، الذى كان سيحقق ذلك التطور الهائل الذى (وجد روما مدينة من طوب وخلفها مدينة من رخام) .

ولكن على الرغم من أن روما حافظت على مظهرها القديم خلال جزء كبير من هذه الفترة إلا أنه قد تغير تماما التكوين الجنىسى الذى كان يتألف منه سكانها . فلقد تعرضت المدينة لمدة قرن كامل لحركة الهجرة إليها على نطاق واسع من إيطاليا ومن جميع أنحاء البحر المتوسط . وفى أواخر عصر الإمبراطورية أصبحت روما تضم أجناساً مختلفة . كما قدر لها أن تظل على هذه الحالة طيلة عصر الإمبراطورية . وكان كثير من السكان الجدد من العبيد الآسيويين واليونان والسوريين وهم أسرى الحروب التى فشيت مع ميشريدانيس ، ومن الكلتيين والجرمان ، وهم أسرى الحروب التى قام بها ماريوس وقيصر . ومن الصعب تقدير عدد العبيد المقيمين فى روما فى ذلك الحين ولكن ربما كان عددهم يتراوح ما بين خمس وثلث عدد السكان الإجمالى . وكانوا يشتغلون بكثير من الأعمال المنزلية والتجارية والصناعية وخاصة فى القوة العاملة التى يعتمد عليها المقاولون العموميون . ولم تكن حالتهم ميسراً منها على الرغم من أنها كانت سيئة فقد كان مسموحاً لهم بإدخال الأموال والحصول على ممتلكات وشراء حريتهم عن طريق إجراءات العتق التى كانت تتداول على نطاق واسع . وبعد عتقهم - Liberti أصبح من الممكن أن يعملوا تجاراً وأصحاب حرف أو كتبة صغاراً ، على الرغم من أن بعضهم كان يعمل فى مجالات أخرى كبنائين أو مدرسين أو أطباء . وقد حقق القليل منهم ثروات طائلة (مثل يوروسا كيس Eurysacis) الخباز الذى ما زالت مقبرته القائمة عند (بور تا ماجيور) تم عن البنخ والذوق غير السليم ، وكان العبد المعتق

Libertus يخضع لبعض القيود القانونية، غير أن أولاده كانوا يصبحون مواطنين. يتمتعون بكافة الحقوق التي يتمتع بها المواطن الحر (وكان الشاعر هوراس Horace أحد هؤلاء) وقد كان تعزيز سكان المدينة بعناصر غير رومانية وغير إيطالية بصفة مستمرة عاملاً بالغ الأهمية في حياة روما الاجتماعية... وبالإضافة إلى العبيد والمعتقين فقد أدت التجارة مع الأقاليم إلى ظهور طوائف أجنبية كبيرة في روما وخاصة من آسيا وسوريا ومصر والأردن وأسمانيا في نهاية الفترة. وكثيراً ما يقال إن منافسة العمال العبيد حرمت فقراء المدينة الأحرار من العثور على الأعمال ولكن يبدو أن الحقيقة هي أن هذا الأمر أدى إلى انخفاض الأجور دون أن يؤدي إلى البطالة. ولما كانت معظم الأعمال الصناعية في يد مجموعة من صغار أصحاب الأعمال الذين يبيعون المنتجات التي يقوم بصنعها عدد قليل من العمال في مكان العمل، فلا شك في توفر الأعمال على الرغم من ضآلة الأرباح. وقد كان هناك دون شك نقابات لكل حرفة مثل النقابات التي كانت في (بومبي) وغيرها من المدن الإيطالية الأخرى على الرغم من عدم توفر الأدلة على وجود مثل هذه النقابات في روما نفسها.

وقد استمرت الفلسفة اليونانية تبسط نفوذها الذي كان قد بدأ في أيام سكيبيو. وكان الشباب الروماني يتابع دراسته على مستوى المرحلة الجامعية في مراكز العالم اليوناني الثقافية. وانضم كثير من الشباب الذين كانوا يتلقون العلم في أثينا إلى جيوش (بروتوس) غير أن روما نفسها أصبحت لها تأثير مغناطيسي، تجتذب بصفة مستمرة العلماء اليونانيين الذين كانوا يسعون وراء الأجور العالية والشهرة العريضة. فإن (فيلو من بلدة لاريسا) "Philo of Larissa" مؤسس الأكاديمية الجديدة قام بالتدريس هناك بعد عام ٨٨ ق. م. كما زارها أنتيوخوس المواطن من بلدة أسكالون Antiochus of Ascalon الذي أصبح فيما بعد رئيس الأكاديمية في أثينا،

وبوسيدونيوس أعظم مفكرى عصره . وألقوا محاضرات بها . كما قصدها فيلديموس من بلدة جادارا Philodemus of Gadara فى عام ٧٥ ق.م . واستقر فى (هيركولانيوم Herculaneum) ليقوم بتدريس الفلسفة الأبيقورية فى منزل ريفى أنيق أهدته إليه عائلة البيزونيس Pisones الثرية وكذلك (سيرون Siron) — وهو فيلسوف أبيقورى آخر — قام بالتدريس هناك وفى نابولى وقد قصده (فيرجيل Vergil) فى شبابه وهو متحمس ليحرر عقله من القلق وعلى استعداد للتخلى عن إلهة الشعر Muses ، ولكن من حسن حظ البشرية أنه تراجع عن ذلك .

ولم يكن هذا العصر يتميز بالفكر الأصيل فقد كانت أنظمة أفلاطون وأرسطو العظيمة ما تزال تدرسها وتفسرها المدارس التى قاما بإنشائها ، وهى الأكاديمية ومدرسة المشائين ، وقد ظل الأبيقوريون متمسكين بمبادئ راندم ومعادين لكل المدارس الأخرى . غير أن الاهتمام بعلم الأخلاق الذى كان سائداً بين الناس كان يقرب المدارس الأخرى بعضها من بعض فقد قال أنتيوخوس إن هناك اختلافاً بسيطاً بين تعاليم الأكاديمية ومدرسة المشائين والرواقيين . وكان للرواقية أثر كبير فى روما بسبب عقيدتها الخاصة (بالعناية الإلهية الخيرة) والقانون الطبيعى وإمكانية الوصول إلى الفضيلة حتى بالنسبة للرجل العادى . ولكن هذه كانت الرواقية التى أدخل عليها باناتيوس Panaetius بعض التعديلات والتغييرات . لكن فضل بعض الرومان التمسك بمبادئ (زينو) الأولى (٣٣٥ — ٢٦٣ ق.م) الخاصة بالتقشف والجلد ، ومن الممكن إدراك تأثيرها على بعض الناس أمثال (ماركوس فافونيوس Marcus Favonius) الذى اجترأ على توجيه النقد إلى (أوكتافيان) بعد معركة فيليبى ، وتأثيرها على بروتوس وكاتو الأصغر ، فبعوتهما فى الحروب الأهلية بدأت الفلسفة الرواقية تمتزج بالشعور الجمهورى المتطرف الذى أصبح من أهم خصائص عصر الإمبراطورية .

وكان بوسيدونيوس Posidonius هو الاسم الوحيد العظيم الذي يتردد في ذلك العصر ، فهو آخر من يتميز بعقلية من الطراز الأول من الفلاسفة اليونانيين . ولد في اباميا Apamea على نهر العاصى Orontes حوالى عام ١٣٠ ق. م . وعمل لعدة سنوات مع باناتيوس Panaetius ثم أنشأ مدرسته الخاصة به في رودس Rhodes . وقد اجتذبت شهرته كثيراً من الرومان من بينهم شيشرون وبومبي ، وعلى الرغم من أنه لم يبق لنا من مؤلفاته سوى شذرات فليس هناك مجال للشك أنها ذات أثر بعيد المدى ، ففي صلب مذهبه الفلسفي يكمن إيمانه (بالانسجام) الذى يسود الكون ، وفي رأيه أنه يمكن ملاحظة هذا الانسجام أولاً : فى الإنسان فى صورة (التجاوب) القائم بين النجوم وأرواحنا التى هى أيضاً أجزاء من النار المقدسة ترجع إليها الروح بعد الممات . ثانياً : فى الطبيعة فى صورة تأثير القمر على المد والجزر ، وهذا اكتشاف رائع توصل إليه بوسيدونيوس من مشاهداته للمحيط الأطلسى عند سواحل أفريقيا وأسبانيا ، فقد كان كثير الترحال وشديد الشغف بالشعوب المتبربرة القاطنة شمال غرب أوروبا . وهذه الشعوب هى التى قدر لها أن تصاب بالهزيمة من روما وتتحضر على يدها . وكان من تعاليم بوسيدونيوس أن إمبراطورية روما العالمية تقابل الدولة العالمية التى تضم البشر جميعاً والتي فرضتها قوانين الطبيعة ، وأن السياسى الرومانى الذى يحكم هذه الإمبراطورية بالعدالة والفضيلة يحقق أسمى الرسائل الدنياوية ولا بد من مكافأته بتخليد شخصيته بعد موته . وهذه هى الفكرة التى عرضها شيشرون عرضاً تفصيلياً فى كتابه الشهير (حلم سكيبيو) . أما فى مجال العلم فيقول بوسيدونيوس أدت به إلى دراسة علم الفلك والجغرافيا وعلم الارصاد الجوية كما كان يميل أيضاً للرياضيات والبلاغة والتاريخ ، فقد كتب تاريخ روما من عام ١٤٦ ق . م إلى عام ٧٠ ق . م . وهو امتداد لما كتبه بوليبيوس Polybius ، وقلما لم يقع تحت تأثيره إلا قلة من الكتاب الرومان الذين عاشوا فى الجيلين التاليين .

ويجب أيضاً عدم التقليل من أهمية شيشرون، فعلى الرغم من أنه يصفه أعماله الفلسفية بأنها مجرد تجميعات (وهذه هي ثمار جهوده الوحيدة التي يظهر نحوها تواضعاً بالغاً) فقد كان لها تأثير قلماً أتيح للكتيب الشعبية ، وتعالج أعماله هذه بصفة أساسية مشاكل الساوك الشخصي والسياسي من وجهة نظر الإنسان المتحضر المهذب . وهى مشربة دون تعمق بطابع إنساني ترك أثراً عميقاً لا في معاصريه فحسب ، بل في الفكر الأوربي جميعه منذ عصر النهضة حتى القرن الثامن عشر . وقد انقاد العالم الحديث - الذى ابتعد عن شيشرون باعتباره فيلسوفا لبعض الكتب الأ أكثر منه سوءاً .

لكن لم تتمكن الفلسفة اليونانية بوصفها مرشداً للحياة — أن ترضى سوى جزء صغير جداً من الطبقة المثقفة ، غير أن إقبال الطبقات جميعاً على العبادات اليونانية والشرقية الغامضة كان أوسع انتشاراً ، وقد أصبحت هذه العبادات فى نهاية المطاف (فى آخر الشوط) ذات أهمية أكبر بكثير من الفلسفة اليونانية ، ولم تصلنا أية معلومات كافية عن الديانة الرومانية التى كانت سائدة فى هذه الفترة بقدر ما وصلنا عنها فى عهد أوغسطس وما بعده ولكن ما من شك فى أن انتشار هذه العبادات كان من معالم هذه الفترة الرئيسية وأسباب ذلك واضحة ، فهى ترجع إلى زيادة عدد اليونانيين وكذا الشرقيين بين سكان المدينة من ناحية وإلى اتصالات روما بآسيا وسوريا من ناحية أخرى . وأهم من ذلك أنها ترجع إلى حاجة الشعب الماسة للتوجيه الدينى والروحي خلال الفترات الرهيبة من أواخر عصر الجمهورية . وقد انتقلت عبادات باخوس وأورفيوس Bacchus, Orpheus الغامضة إلى روما فى بداية القرن الثانى قبل الميلاد عن طريق المدن اليونانية الواقعة جنوب إيطاليا . ويبدو أن محاولة مجلس الشيوخ للقضاء على المظاهر الصاخبة التى تصاحب عبادة باخوس فى عام ١٨٦ ق . م . لم تؤثر تأثيراً جدياً (ففيللا الطقوس الدينية الغامضة) و (فيلا ايتم) Villa Item فى بومبى تعرض لوحات مائبة رائعة شهيرة تمثل باخوس يرجع تاريخها إلى السنوات الأولى

قبل الميلاد، وليس هناك في روما شيء مشابه لهذا قبل أوائل عصر الجمهورية غير أن رموز أسرار عبادة باخوس تتكرر بكثرة على أواني (أرتينيوم الفخارية وعلى الأعمال الفنية الأخرى، كما أن السكّبات الأدبية التي تشير إلى باخوس تزداد أهميتها عندما ندرك مدى انتشارها وهذه العبادات الغامضة سواء أكانت عبادات اليوسيس Eleusis أو باخوس أو أورفيوس تبشر من يدخلها بحياة بعد الممات مليئة بهبات أو بعقوبات حسب تصرفهم على الأرض. وكانت طقوس هذه العبادات الغنية ورمزيات العميقة تشبع رغبة الإنسان في مزاوله عبادات دينية مزاوله فردية وبطريقة لم تستطع شكليات عبادات الدولة تحقيقها على الإطلاق. ولا غرابة في أن هذه العبادات قد اجتذبت هذا العدد من الأتباع في ذلك الوقت.

أما العبادات الشرقية فقد كانت منتشرة بطريقة أكثر بطئاً إذ كانت تقابل دائماً بعداء من جانب المسؤولين، فعلى الرغم من أن الإلهة كوبيلى "Cybele" قد دخلت إلى روما أثناء الحروب البونية الثانية إلا أن الرومان كانوا مايزالون يحتقرون كهنتها الخصى وطقوسهم الوضيعة. وكان هؤلاء الكهنة يقومون في معبدهم فوق تل البلاتين إقامة تامة ولا يغادرونه إلا في الاحتفال السنوى الذى تحمل فيه صورة الآلهة كي تغسل في مياه نهر (أنيو Anio)، أما طقوس ميغاليسيا (Megalesia) وهى الاحتفالات الدينية التى كانت روما تقي فيها بدينها (للأم العظمى Great Mother)، فقد كانت تنظم على أسس رومانية صرفة. فعندما جاء كاهن بلدة (بسينوس Pessinus) الأعظم إلى روما أثناء قنصله بومبي يشكو من عدم احترام الشعب لهذه العبادة استقبله مجلس الشيوخ والشعب بفتور شديد. ولم يشجع اعتناق هذه العبادات إلا أثناء حكم كلوديوس عندما جلب جنود (سلا) معهم عبادة الإلهة (ما Ma) من (كبادوكيا) Cappadocia وانفزع الرأى العام الرومانى مرة أخرى من تصرف هذه العبادة فى الرقص الجماعى الذى يؤدى إلى إراقة الدماء...

ولسكن عبادة إيزيس وسيرايس المصرية لاقت تأييداً شعبياً في كل مكان . وقد ظهرت هذه العبادة التي وحدثت بين المعتقدات المصرية وبين طقوس الديانة اليونانية ومضمونها ، في صقلية وفي جنوب إيطاليا حوالى عام ٣٠٠ ق . م . وأقيم معبد لسيرايس في بوتولى Puteoli في نفس التاريخ تقريباً . أما أول معبد أقيم في روما فيرجع إلى عصر سولا . وقد أمر مجلس الفيوخ خمس مرات خلال الأربعين عاماً التي تلت ذلك بتدمير معابد المعبودات المصرية هذه ، وفي عام ٤٨ ق . م كان المعبد الذى دمر قائماً على تل الكابول نفسه . وفي السنوات التي سبقت معركة اكتيوم كان هناك عداء من جانب المسئولين لكل ما هو مصرى ولسكن التأيد الشعبي لهذه العبادات هو الذى حافظ على بقائها حتى أدخلها في الإمبراطورية . وسيكون من الأنسب أن نتكلم عن هذا الموضوع عندما نصل إلى دراسة موضوع الصراع القائم بين الأديان في أثناء عصر الإمبراطورية . ولسكن يجدر بنا أن نلاحظ أن بذور هذا الصراع قد غرست ساعة انتشار الأديان اليونانية والشرقية في الحقبة الأخيرة من عصر الجمهورية .

وجنباً إلى جنب مع ديانات روما ، ورد من الشرق نوعان آخران أكثر غموضاً ألا وهما التنجيم والسحرة . وقد خرج علم التنجيم من بابل وبلاد الفرس وانتشر في العالم الهلينسى انتشاراً واسعاً وقد لعب (بيروسوس Perosus) الكاهن البابلي الذى عاش حوالى عام ٢٩٠ ق . م والذى كتب باليونانية ، دوراً هاماً في نقل هذا العلم ونشره كما يرجع الفضل كذلك إلى مجموعة الكتابات التي تحمل اسم (بتوسيريس Petosiris) ، وهي جامعة لمعتقدات مصر الخاصة بعلم التنجيم والسحر ، وربما قد نشرت في الإسكندرية حوالى عام ١٥٠ ق . م . ويقال إن الأسرى الذين أسروا في الحروب ضد أنتيوخوس قد جاؤوا بالتنجيم إلى إيطاليا . وفي تاريخ مبكر جداً عام ١٣٩ ق . م حرم البريتورز Praetors على الخالداني Chaldaei دخول روما — وهم

منجمون متجولون يبيعون تنبؤاتهم ويستطلعون الحظ . غير أن علم النجوم قد حقق مكانة اجتماعية اسمى من ذلك بكثير ، فهو عامل جوهرى فى مذهب بوسيدونيوس عن (التجاوب) -- والجدير بالملاحظة أنه قد ولد فى أباميا Apamea - كما كان الروائيين دور الأولوية فى تعريف المجتمع الرومانى بالعقائد الخاصة بمعبودات الكواكب السبع وبعلامات منطقة البروج الاثنى عشر وتأثيرها ، وبالقدرية التى تنشأ عن الإيمان بهذه المعتقدات . وفى ظل الإمبراطورية أصبح أثر علم النجوم واسع الانتشار تماما ، بل وحتى فى عصر الجمهورية كان هناك رجال أمثال نيجيديوس فيجولوس Nigidius Figulus عضو مجلس الشيوخ وطبيب العيون الذى تنبأ بعظمة أوغسطس فى المستقبل ساعة مولده . أما عن السحر فقد كان هناك فى إيطاليا - وما يزال بها - تقاليد محلية منتشرة عن الشعوذة . وكانت امرأة المارسى Marsi والسابين الذكية تستطيع أن تتركب جرعات للحب وأدوية ولعناات وكذلك تستطيع التعرف على المستقبل . غير أن الشرقيين Orientals قد جلبوا معهم نوعا من السحر أشد مفعولا وأكثر شراً . فى قصيدة Epodes للشاعر (هوراس) تستطيع أن تلتقى نظارة على العالم المنحط الخاص بعجازى منتصف الليل المشعوذات فى أزقة روما القذرة ولصوص حقول الكروم ومحضرى الأرواح ، وتجار السموم ومن يضحون بالأطفال - وهذا النوع من السحر قريب الشبه من (السحر الأسود) فى العصور الوسطى وفودو Voodoo فى العصور الحديثة ووجوده فى عالم عاش فيه شيشرون ولوكريتيوس ماهو إلا تذكرة لنا بالخطوة الواسعة التى قطعها حضارة مجتمع بمفرده .

وتشير الأعمال الأدبية التى جاءت فى أواخر عصر الجهم—ورية إلى مايستطيع ذلك المجتمع تحقيقه ، بأعلى مستوياته . والجزء الذى وصلنا منه يترك فىنا شعورا مضللا عن وجود فترة انقطاع أى فجوة تفصل بين الكتاب

المعاصرين لسكيديو أيميليانوس وبين كتاب عصر شيشرون . ولنصحيح ذلك الخطأ يجب أن ندخل في اعتبارنا أسباب بقاء أعمال بعض الكتاب وضياع أعمال البعض الآخر . وأهم هذه الأسباب هو إخفاء الأسماء الكبرى للأسماء الصغرى — مثل إخفاء كاتولوس لأسماء أصدقائه من الشعراء الجدد . وإخفاء شيشرون لأسماء منافسيه المشهورين في مجال الخطابة . وهذا المثال الأخير بالذات يدعو للدهشة . إذ يمكننا أن ندرك مدى انتعاش الخطابة الرومانية في أعظم أيامها من الحقيقة التالية : وهى أن القائمة التى لا تضم سوى الخطباء والخطب التى لا تقع في الفترة ما بين ٨١ — ٤٢ ق.م. تحتل أكثر من ثلاث صفحات مكتوبة . إذاً كما نرى ، ما أشد تضليل السكون الذى يحيط بسوط شيشرون القوي ١١١ وينطبق نفس القول على المؤرخين إذ يظهر قيصر وسالوست الآن كأنهما قمتان منعزلتان وليكنهما في الواقع كانا جزءاً من التراث الروماني المتصل الخاص بكتابة التاريخ والذي يرجع إلى القرن الثالث ق. م ، وبالفعل قد يتوقع المرء أن تسفر المنازعات السياسية في هذه الفترة عن تجميع مادة ضخمة للتاريخ المعاصر لها ، والمذكرات الشخصية والدعايات مثل (حرب النشرات) الكبرى في عهد الأخوان جراكوس ودعايات المنافسة الشديدة بين اكتافيانوس وانطونوس . وفي أثناء الخمسين عاماً التى سبقت وفاة سولا نسمع عن مذكرات كورنيليا Cornilia وروتيليو روفوس وايميليو سكاوروس Rutilius Rufus, Aemilius Scaurus بل ونسمع عن مذكرات للدكتاتور نفسه . وأنجب عصر سولا مؤرخاً له مكانته وأهميته في شخص (كلوديوس كوادريجاروس Claudius Quadrigarius فقد استعان بلوتارخ بما كتبه عند كتابته سيرة حياة ماريوس وسولا كما رسم في حولياته صورة بدیعة للدكتاتور — وهو الأمر الطبيعي — ومن الجدير اقتناؤها . غير أن الأدب في هذه الفترة نفسها لم يكن قاصراً على الخطابة والتاريخ — وهما العنصران الرئيسيان في التراث الروماني ، بل كان هناك لوتاتيوس كاتولوس

Lutatius Catulus، زميل ماريوس في هزيمة الكبري، وهو رجل ذو ثقافة عربية ومحب للثقافة اليونانية وقاض دقيق وشاعر غنائى وراع للشعراء وخطيب أيضاً. ويقال إن الأدب السكندري قد دخل إلى روما بدخول هذا الرجل إليها. وكان أفرانيوس Afranius المعاصر له، أشهر كاتب من كتاب «فابولاي توجاتاي Fabulae Tugatae»، أى المسرحيات التى تتناول الحياة الرومانية — يتميز بطابع شعبي استمر حتى عصر نيرون، وهو معروف لنا بأسماء ثلاث وأربعين مسرحية وقليل من الشذرات بالغة فى الضآلة بحيث لا تعطينا لسوء الحظ، أى فكرة حقيقية عن هذا الطابع الفردى الرائع. ولكن لم يكن هناك كتاب للمأساة والملهيات فى مستوى انيوس وبلاوتوس. وقد أدى تقلب الأذواق إلى قلة اهتمام الشعب بالمسرح، وبدلاً منه أصبحت الغلبة لمباريات المبارزة ذات الاستثارة الرخيصة ولسباق العربات — وكان ما يزال هناك جمهور مخلص يؤيد إحياء التراث القديم من المسرحيات، ويقدم جوائز ثمينة إلى الممثلين من أمثال روسكيوس Roscius وكان لايفيوس Laevius أبرز شاعر من شعراء عصر سولا، ويبدو أن قصيدته «ارتوباجنيا» "Erotopaegnia" قد سبقته فى موضوعها قصائد البطلات Heroides التى كتبها الشاعر «أوفيد» Ovid «كما أن أسلوبه، بماحتويه من تعبيرات قديمة وإدخال لغويات جديدة وعرض لتيارات الأدب السكندري يقف على قدم المساواة مع أسلوب كاتولوس Catullus وأصدقائه.

وكان أصدقاء كاتولوس هؤلاء عبارة عن جماعة من الشعراء الشبان معظمهم من بلاد الغال (Cisalpine Gaul) وكانوا يكتبون قصائدهم فى روما حوالى عام ٦٠ ق. م. ولا يستمدون نماذجهم الشعرية من الأدب اللاتينى ولا من الأدب اليونانى القديم بل من شعراء الإسكندرية، مع تمسكهم من حيث الأسلوب بسهولة التعبير والصقل المتقن ومن حيث الموضوع بالتجربة الشخصية أو بالأبحاث غير المألوفة فى ميدان الأساطير. وهكذا

كتب كايكيليموس Caecilius من بلدة نوفوم كوموم Novum Comum قصيدة عن (كوييلي Cybele) وكتب كينا Cinna عن زمورنا Zmyrna وكورنيفيكوس Cornificius عن جللاوكوس Glaucus . وقد أثار مذهبهم الجديد هذا ضجة في ذلك الوقت وترك أثره على من أتوا من بعدهم من الكتاب أمثال فيرجيل Virgil وبرويرتيوس Propertius ولم يصلنا إلا القدر القليل من كتاباتهم لدرجة أننا لا نستطيع أن نحكم على الانقلاب الذى أحدثوه إلا على ضوء كتابات كاتولوس ، على الرغم من أنه ليس هناك ثمة ما يدعو إلى التفكير فى أن أى شاعر منهم كانت له نفس مكانة كاتولوس كشاعر . وأما كاتولوس Catullus نفسه فقد ولد فى بلدة فيرونا Verona عام ٨٤ ق . م . من أبوين غنيين بقدر كاف يسمح لهما امتلاك منزل ريفى "Villa" على ضفاف بحيرة جاردا "Garda" وآخر فى تيفولى "Tivoli" وفى عام ٦٢ ق . م . ذهب إلى روما ، من المحتمل اقتفاء لأثر كلوديا Clodia زوجة حاكم الغال القريبة "Cisalpine Gaul" ، فقد كانت هى (لسبيا Lesbia) التى يذكرها فى قصائده وحببية حياته . وكانت النساء من مثيلات (كلوديا) جديداً على مجتمع روما ، فقد كانت سيدة عظيمة الشأن ، خارقة الجمال ، عاهرة ، فيطلق عليها شيشرون البغى التافهة) لشهورها الجاحدة ، وكذلك لقب (ميديا البلاطين بسبب الشك الذى سمحت به عقل زوجها . وقد تمخضت هذه العلاقة الآثمة عن بعض القصائد التى تعتبر أقوى ما كتب فى شعر الغزل وأكثرها صراحة ، تلك القصائد التى يقول (بيتس Yeats) عنها أنها مثل :

أبيات الشعر التى فظمها الشباب وهم يتماهلون فى فراشهم فى حالة يأس من الحب :

تملقاً لأذن الحبيبة الجاهلة .

وأخيراً انفصل كاتولوس عنها بعد أن انغمس كلية في اللذة الجنونية والانحطاط ثم قضى عاماً في آسيا كان في أثناءه ضمن حاشية حاكم (بيثونيا Bithynia) ثم طاف بين الجزر اليونانية وقفل راجعاً إلى بحيرة (جاردا) ثم إلى روما. وقد توفي وهو في حوالى سن الثلاثين. والقصائد التي كتبها عن لسبيا هي الأشعار التي قامت عليها شهرته والتي تضعه في مكانة (سابقو وبيرنس) Sappho, Burns ودافود أب جويلوم Dafydd ap Gwilym. ولكن من الخطأ التام إهمال — قصائده الأسطورية الأكثر طولاً أو مقارنته بشاعر الإسكندرية الباحث (doctus poeta) بعاشق (لسبيا) إذ أن تجارب كاتولوس تتغلغل في كل ما كتبه تقريباً. فقصيدته (أتيس) تصور المصائب التي يؤدي إليها جنون العشق وينتهي بمناشدة الناس التحرر من هذا الجنون، وقصيدته (زواج بيليوس وثيس) تصور (أريادنا) التي هجرها حبيبها وخان عهدها وقد وجدت أخيراً عزاءها في الانغماس في طقوس باخوس الغامضة. وربما كان في إمكان الشاعر أن يجد لنفسه مثل هذا العزاء قبل أن يلقي حتفه في سن مبكر.

وقراءة كاتولوس بعد أي كاتب لاتيني مثله مثل الوقوف أمام لوحة الربيع "Primavera" (لبوتشلي) في متحف افيزى بفلورنسا بعد مشاهدة الكثير من لوحات (العذراء ويرجع فضل تمسك العالم من الاستمتاع بتجربته الغرامية هذه إلى بقاء مخطوط، واحد في فيرونا — المدينة التي ولد فيها والمدينة التي عاش فيها روميو وجيوليت أيضاً).

أما لوكريتيوس Lucretius (٩٤ — ٥٠ ق.م) شاعر عصر الإمبراطورية العظيم الآخر، فلم يكن ينتمي إلى أي مدرسة في الشعر ولا يقول شيئاً تقريباً عن نفسه. ويبدو أنه ربما كان من أصل روماني ومن الطبقة الأرستقراطية. وقصيدته «عن طبيعة الأشياء De rerum Natura» قد

كتبها ليعرض فلسفة أبيقوروس Epicurus على القارىء الرومانى . ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن أبيقوروس كان ينقب عن المعرفة العلمية بوصفه مبشراً أكثر من كونه عالماً . إذ كانت مهمته البرهنة على أن كل الظواهر الطبيعية من الممكن تفسيرها عن طريق التعقل بصورة أكثر من اهتمامه بالتفسير الحق لأى ظاهرة منها . ومن هنا جاء عدم توازن نظرياته العلمية فى قوتها . وطبيعيات هذا المذهب — وهى ترجع إلى ليوكيبوس وديمقريطوس Leucippus, Democritus علماء الذرة الأوائل — كانت تحفة رائعة للفراصة العلمية سبققت النظرية الذرية التى شغلت الميدان العلمى منذ زمن « نيوتن » حتى اكتشاف تحطيم الذرة . أما علم الفلك الذى ورد فى مذهبه فقد كان عبارة عن أفكار صيدانية ، أبعد ما تكون عن مستوى التفكير الناضج فى العصر الحديث ، وكان من المحال أن يستمر بقاؤها بعد القيام بأبسط الملاحظات والتجارب .

وكانت الدعوى التى يعرضها «لوكريتيوس» تنادى بأن الكون يتكون فقط من ذرات ، ومن فضاء تتحرك فيه هذه الذرات ، والعالم كما نلسمه ولبد صدفة ناتجة من تحركات للذرة بدأت فى الماضى منذ زمن غير محدود وستستمر إلى زمن أبدى ، والآلهة رغم وجودهم لا إرادة لهم ولا قوة للتدخل فى هذه العملية الآلية ، وما أرواحنا إلا مزيج من الذرات التى سوف تتحلل فى حالة الوفاة ولا يتخلف عنها شىء . وفى اللحظة التى يضع فيها البشر أيديهم على هذه الحقيقة فإنهم يستطيعون تحرير أنفسهم من الخوف من الآلهة ومن القصاص بعد الموت ، وهما أقوى مصادر للجريمة والشقاء فى الحياة . وبالتالي فإن السعادة الحقة فى تناول أيديهم ، فهى تكمن فى الاستجابة لاحتياجات الجسد بصورة لا مبالاة فيها وفى تسخير العقل للتأمل فى عالم الطبيعة .

وإذا كانت هذه الآراء تعتبر مذهبا ، فهى توصف بأنها أكثر المذاهب

التي خرجت للإنسانية تشاؤماً . ولقد كانت الأبيقورية بالتأكيدي عقيدة
أثرية نصيرة للهزيمة . وربما أنها لم تستحق أن تكون موضوعاً لشعر سام :
مثل كلوديا تماماً ! ومع هذا فليس هناك أى نوع من النشاؤم في عرض
لوكريتيوس لانتصار العقل البشرى الذى يستطيع أن يطوف إلى ما وراء
« أسوار الدنيا الملتهبة » متأملاً صنائع الطبيعة التي تتجسم في كون لانهاى
ولسكنه مفهوم . وكذلك سيرجع بنا العقل إلى الوراء من الناحية الزمنية إلى
نشأة الأرض وبحارها وجبالها وإلى أصل نشأة الخضروات وحياة الحيوان
لنرى كيف أن أجيالهم « قد سلبت بدورها شعلة الحياة مثل المتسابقين في
سباق التتابع » ولنرغب تطور الإنسان من حياة بدائية بوهيمية إلى الحضارة
بمجموداته الخاصة ودون أى مساعدة خارقة للطبيعة . « فقد تعلموا كل
هذه الأشياء بالمراس ، وبما توصل إليه العقل الوهاج من اختراعات عندما
كانوا يتقدمون إلى الأمام خطوة بعد خطوة » . إن قوى الطبيعة الخارقة
هى أبطال ملحمة العلم هذه - « القمر ، الليل والنهار ، دلالات الليل
العابسة والمشاعل التي تهيم في الليل ويران السماء السابحة ، والسحب
والشمس ، والعواصف ، والرياح ، والبرق ، والبرد » ، وعلى ذلك فقد
كان يتمتع خاصة بنظرة العالم الطبيعى القديم الفاحصة التي لا تكمن وراء
الميكروسكوبات . فهو يصور البقرة وهى « تنعر » على وليدها المفقود
وذرات الغبار تتحرك في أشعة الشمس وكب الصيد ينتفض في أثناء نومه
وهو يحلم بالصيد والصقور والنسور السماكة وغراب البحر القبرانى ،
تبحث عن الحياة ومقومات المعيشة في المياه الملحة . لقد كان
لوكريتيوس يكن للحياة الإنسانية الاحتقار والشفقة ، وفي نفس الوقت
لا يستطيع أى شاعر آخر أن يصل إلى إبداعه في تصويره الساخر لصدأ
الشراب الأجوف أو وصفه المؤثر لزوجة وأطفال قد فجعهم الموت .

لقد كان فيرجيل على دراية تامة بلوكريتيوس ومغرم به وباستثناء هذه
الحالة لم يترك إلا أثراً خفيفاً على الأدب أو الفكر اللاتينى . وقد وضعت

قصيده في قائمة الكتب الممنوعة خلال العصور الوسطى . ولكنه وضع بين أعظم شعراء العالم منذ عصر النهضة — فموضوع قصيده لا بد وأن يقربه إلى عقلية العالم الحديث أكثر من أى كاتب يونانى أو رومانى آخر .

أما شيشرون فهو يسيطر بمعنى الكلمة على كل نشر العصر الأخير من الجمهورية . ومجموعة مؤلفات شيشرون — وهى عبارة عن ٥٨ خطبة وسبع مؤلفات عن الخطابة وما يقرب من عشرين مؤلفاً عن الفلسفة ، وكذلك الخطابات — تجعل أعمال قيصر وسالوست وفارو مجتمعين تنزوى فى ركن صغير من أركان المكتبة . وما تبقى من مؤلفات فارو ، ذلك لأنه كان فى الحقيقة أغزر الكتاب اللاتين إنتاجاً ، بالإضافة إلى الخمسة والخمسين عنواناً وما يقرب من خمسمائة كتاب منفصل الواحد عن الآخر كلها تبحث فى ميادين التاريخ ، علم الحفريات واللغويات والفلسفة والتعليم والزراعة . وقد كانت « النظم Disciplinae » أهم موسوعة لاتينية ومنها اشتق الأنواع السبعة للفنون التحريرية التى ظهرت فى تعاليم العصور الوسطى . وقد كانت « المصورات Imagines » وهى عبارة عن سير حياة مشاهير الرومان ، أول كتاب يحتوى على لوحات يظهر فى العالم .

والسبب فى أن مؤلفات شيشرون قد وصلتنا بينما فقدت معظم أعمال فارو يرجع أساساً إلى تحكمه الذى لا مثيل له فى اللغة اللاتينية مثله فى ذلك مثل شكسبير ، فى اللغة الإنجليزية ، فقد كان يستطيع أن يلعب على كل الأوتار ، نجده عاطفياً أو مقتنعاً ، أو فكها حسبما يتفق مع الموقف فى خطبته ، وهو كذلك واضح وسهل فى فلسفته ، رشيق وودود فى خطاباته . ولقد وصل باللغة اللاتينية إلى مستوى السكال وجعل منها لغة من أعظم وسائل الدنيا للفكر والتعبير ولاتينية شيشرون كانت النموذج المختار فى عصر النهضة .

وهكذا قدر أن يكون لها تأثير بعيد المدى على اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الإيطالية والإنجليزية والفرنسية . فنحن نجد أن الشخصية التي يرسمها مولير قد اكتشفت أنها تتكلم النثر طيلة حياتها وأن الفضل في ذلك يرجع إلى شيشرون — كما هو الحال معنا ، سواء أ كنا على علم بذلك أم لا — وجيل شيشرون عاصر أوج عظمة الخطابة الرومانية ، إذ أن الجوائز كانت تمنح للخطب اللغوية المقنعة التي تلقى في مجال السياسة وأمام القضاة ، ويقال : إن شيشرون قد جمع ثروة لا تقل عن ٥٠٠٠٠ دولار في السنة من مرافعاته القضائية ، ولكن غريمه هورتنسيوس Hortensius كان لا يزال أوسع منه ثراء . وكان لدراسة الخطابة حينذاك المكانة الأولى في التعليم الروماني ، وتمكنوا من وصل التراث الروماني الخالد في البلاغة الرومانية والذي يرجع إلى أبيوس كلوديوس وكايكوس بآخر ما وصلت إليه البلاغة الهلينستية ، ولما كان اليونان قد حولوا الرتيوريقة — مثل أي شيء آخر — إلى «علم» أصبحت مدارس الرتيوريقة اليونانية العظيمة في «برجاموم» وأثينا معدة إعدادا تاما لتدريس البلاغة بالأجر ، بعد أن وضعت لهذه البلاغة أسسها وحللت تأثيرها . وقد انتمى بعض الخطباء الرومان الفطاحل إلى هذه المدارس تحت إشراف أساتذة من اليونانيين ، ولم يخجلوا من تلقي دروس جديدة حتى في أوج عظمتهم . وقد كانوا يتدربون على الحركة المعبرة ، والإلقاء ، وانتقاء الكلمات وإدارة دقة المجادلات . وتحقيق التأثير العاطفي تدریبا شاقا . كان هناك جدل طويل عن مزايا أساليب مدارس الخطابة المتنافسة ، عن المدرسة الأسبوية بمفرداتها الغنية ، ونثرها المقتفي ، المشحونة بعاطفية فائقة . والمدرسة الأتيكية بوضوحها وسهولتها ورشاقتها . كما بدأ استخدام مفردات قنعية مصقولة والدليل على ذلك أن مترجمي كتب الخطابة الرومانية يبذلون جهدا شاقا . وقد كان مضمون الخطبة التي كان يلقيها الخطباء البارزون وطريقة عرضهم يقوم بنقدها جمهور من النظارة ، مثله في ذلك مثل الجمهور الذي يهتم في العصر الحديث بأمجاد رجال رياضي عظيم . ومن السهل إدراك

مدى سحر السياسة الرومانية بالنسبة لشيشرون ، أعظم خطباء ذلك العصر إذ لم يكن الهدف من القيام بالدور الرئيسي في المناقشات التي تدور في مجلس الشيوخ ، مثل المناقشات التي دارت عن مؤامرة كاتيلينا ، هو خدمة الدولة وإرضاء الطموح الشخصي فقط ، بل معرفة قدر هذا الفنان الذي يقوم بعرضه أمام حشد من الخبراء . ولا عجب في أنه قد أصيب بخيبة أمل في سنواته الأخيرة ، عندما وجد أن الرجال من شاكته كانوا يناضلون ضد السلاح بالكلمات Contra arma verbis والأسوء من ذلك القادة العسكريون الذين كانوا يفتخرون بمهنتهم أيضاً .

وكان قيصر ، أعظم هؤلاء القادة ، قد حقق شهرة بوصفه خطيباً يلي شيشرون ، نفسه مباشرة . ولم يبق شيء من خطبه ، وكل ما وصلنا عنه هو « التعليقات » Commentaries وهي سبعة كتب عن الحروب الغالية وثلاثة عن الحروب ضد بومبي . وقد كتبت إضافات لهذه التأريخات تتناول حملاته على مصر وأسبانيا وأفريقيا ، قام بكتابتها ضباطه ونشرت بعد موته . وقد قيل منذ زمن بعيد إن قيصر قد كتب هذا الكتاب لتبرير موقفه ، ويجب على القارىء أن يكون متيقظاً لصراحة الأسلوب « الأتيكي » الواضحة . لكن لا يستطيع أى دارس للتاريخ الروماني — وأى دارس جاد للشئون الحربية — أن يتخلى عن كتاب التعليقات . فهي تمكننا من رؤية الجيش الروماني رؤية حيوية بعين أعظم قائد له ومثل هذا الكتاب مثل الأعمال المنجوتة على عامود تراجان ، فهي تعطينا نظرة سيكولوجية عن الغزو الروماني للشعوب المتبرزة . وهناك طريقتان لقراءة قيصر — قراءة بسرعة من أجل السرد الروائي — وقراءة ببطء كتجليل لفن الدعاية . وقد صرح ضابط بريطاني ذو ذكاء خارق كيف أنه قد اكتشف أن معرفته قيصر قد أفادته لتفسير المنشورات الرسمية الألمانية في الحرب العالمية الثانية ، ولكن من المؤسف أن قيصر قد استخدم ليمد طلاب المدارس بالقراءات اللاتينية الأولية ، لأنهم وجدوا أن أى كاتب آخر فوق طاقتهم ،

وقد كان من الممكن الاستفادة أكثر بسيرة حياة كورنيليوس نيبوس (١٠٠ - ٢٥) ق. م التي يتضمن ما تبقى منها لنا سيرة حياة ٨٧ رجلا يونانيا وسيرة حياة رجل فارسي واحد ، وسيرتي حياة اثنين من الرومان هما كاتو واتيكيوس . لقد كان كورنيليوس من - جاليا كيسالبينا . وصديق لكتولوس وشيشرون ويبدو أنه كتب لجمهور من كافة الشعب ، وسير الحياة التي كتبها بسيطة لا مغالاة فيها وهي مشهورة أساساً لتحررها من القومية الرومانية واهتمامها برجال الشعوب الأخرى العظام .

أما سالوست (٨٦ - ٣٥ ق. م) من بلدة أميتيرنوم التي تقع في بلاد الساميين ، فقد كان كاتباً أعمق بكثير . وإنتاجه الرئيسي هو التأريخيات . وهي تتناول فترة التدهور بعد عصر سولا ، ولكن لم يتبق منها إلا شذرات فقط . ويجب أن نحكم عليه من مؤلفاته « كاتيلينا » و « رجومارثا » ويبدو أنهما أول مقالات تاريخية كتبت باللغة اللاتينية في موضوع واحد ، لقد كان سالوست مناصراً لقيصر ورجلاً ذا ثراء واسع وقد استقر ليكتب التاريخ بعد أن قضى حياة عملية زاخرة هوجمت فيها أخلاقياته سواء العامة أو الخاصة هجوماً لا ذعاً . وكان مبدؤه الإعلاء من شأن آراء الحزب الديموقراطي الذي ينتمي إليه قيصر . وفي التقرير الذي كتبه عن الحزب ضد « يوجارثا » جعل من ماريوس بطلاً ولما قارنه بقواد (أظهر الفرق) الأرستقراطية غير الأكفاء . أما في مقالته « كاتيلينا » فقد كان هدفه أكثر عمقا ودقة من ذلك إذ كان عليه أولاً أن يزيل الشكوك التي ثارت حول تعاطف قيصر مع المؤامرة في مراحلها الأولى ، وتظهره بعد ذلك كرجل يتبع السياسة الوحيدة المعقولة من بين ، معارضي « كاتيلينا » . ويقال إننا نلص في كتابات « سالوست » تقدماً نحو صياغة التاريخ العلمي . ولكن من الممكن تقبل هذا الادعاء بتحفظ فقط . حقيقة إن سالوست استخدم مصادر عديدة (بما فيها المصادر القرطاجية عندما تعرض للكلام عن يوجارثا) وأنه كان تلميذاً متحمساً لشوكيديدس ، مع بعد نظر في الدس

السياسى الذى اكتسبه دون شك من خبرته ، ولكنه لا يشك فيه فيما يختص بالتواريخ والحوادث ويظل ينظر إلى التاريخ من خلال الإطار المفروض حوله وحول فلسفة التاريخ . وقد كان التاريخ بالنسبة له تحدهه شخصيات عظماء الرجال ، كما أن التاريخ يصبح بين يديه كسرحية ولكن الشخصيات تحولت إلى نمادج لا تتطور . ومن هنا مباشرة جاءت الفكرة القائلة بأنه على المؤرخ أن ينتج قطعة أدبية رائعة . وكان هذا الاتجاه له سحر خطير على الرومان . وكان لسالوست أثر كبير على الكتاب الذين أتوا من بعده وخاصة « تاكيتوس » وهو مؤرخ من أعظم المؤلفين .

وقد كان تأثير الفكر اليونانى على كتاب العصر الأخير من الجمهورية تأثيراً قوياً ولكنهم جمعوه وسخروه لخدمة أهدافهم الخاصة ، وقد كان دائماً له نتائج فاقت نماذجهم بكثير . أما فى الفن فقد اختلف الأمر تماماً ، إذ انتشر التأثير اليونانى عن طريق بلاد اليونان القديمة أو صقلية وعن طريق برجاموم أو الإسكندرية . واكتسح أمامه الأسلوب الإيطالى القومى اكتساحاً تاماً تقريباً ، وقد استمرت التقاليد القومية الخاصة بفن التصوير الواقعى بصورة تقريبية ، ولكن ليس تماماً ، وتظهر لنا آثاره طبقاً للمقابر التى ترجع إلى أواخر عصر الجمهورية الوجه البرلمانى بواقعيته وهى لا انسجام فيها) وأحياناً تنذر بالخطر .

وكان على الفنانين من اليونانيين الذين يعملون فى هذا المجال فى روما مجارة الذوق الرومانى ، أما فى المجالات الأخرى فقد كان النمط السائد لسلك من الأعمال السائدة اليونانية كما هو الحال فى بعض الأزمنة فى إنجلترا عندما أصبح النمط لسلك الأعمال الفنية إيطاليا . وقد كانت تماثيل النحت اليونانية التى تم الحصول عليها عن طريق الساب — أو الشراء ، وتزيين الميادين العامة والمعابد والبيوت الريفية الفخمة «Villa» وقد حظ البائعون رحلهم فى روما وفى كيانيا وفى مراكز الفن الهامة فى العالم اليونانى وتكونت سوق دولية

للفن تشبیه إلى حد بعيد أسواق الفن في أيامنا هذه . وتعتبر سفينة الكنز المشهورة «ماهديا Mahdia» التي اكتشفت وهي حطام ألقاه الموج على شاطئ تونس عام ١٩٠٧ تفسيراً رائعاً لهذا الرأي ، وكانت هذه السفينة تحوى ما يقرب من ٦٠ عاموداً رخامياً جلبت من محاجر «انيكا» وعلى شحنة متنوعة من أعمال فنية من البرونز والرغام . وبعضها عبارة عن أعمال من العهد القديم تم ترميمها . وربما كانت هذه الشحنة وديعة وضعت عند تاجر روماني من تجار الفن ، أو أنها قد تم شراؤها بالجملة من أجل أحد البيوت الريفية الفخمة ، كما أن أعمال الحفريات التي تتم تحت الماء الآن تؤدي إلى تقدم المعلومات هذا لدرجة أنه ربما لا يزال أمامنا كثير من هذه الاستكشافات .

إن حياة «باستيليس Pasiteles» لتوضح ما كان في جعبة روما لتقدمه للفنان . فقد كان رجلاً يونانياً من جنوب إيطاليا ، ولكنه موطن روماني ، ومن الشائع أن كان يعمل في المدينة عام ٦٢ ق.م وقد قامت شهرته على القطع الفنية المصنوعة من المعادن وخاصة المرايا الفنية . ولكنه فيما بعد اتجه إلى فن النحت . وقد كتب أيضاً في خمسة مجلدات كتاباً عن الأعمال الفنية لهذه الأعمال الشهيرة للعالم كله . وهذا العمل مقابل ومرادف دليل المعرفة في العصر الحديث ، وعلى ذلك فقد كانت الجمهورية مركز النشاط في المجال الفني للعالم الهلينستي وهي مركز فن عظيم . ولم يظهر أي فن نموذجي يقوم على نماذج هيلينستية حتى أيام أغسطس .

الفصل الثامن

أوغسطس AUGUSTUS

إن القليل من السياسة في التاريخ من واجهوا مثل هذه المشاكل التي اعترضت طريق «أوكتافيان». ولا يزال عدد من وجدوا حلولاً لها بمثل هذا القدر الكبير من النجاح أقل بكثير. وفي الوقت الذي كان فيه الكثير من المسائل المتعلقة بسياسة (أوكتافيان) ودوافعه غامضة، لم يكن هناك مجال للشك في أن هدفه الأساسي هو ذلك الذي عبر عنه في دعائه المشهور الذي استشهد به «سويتونيوس» Suetonius عند كتابته سيرة حياة أوكتافيان. ويقول هذا الدعاء «ليتته يكون من طالعى إقامة أسس راسخة ودائمة تقوم عليها حكومة روما. وليتني أنال الجزاء الذي أستحقه وآمل فيه، وأصبح ذا شهرة بوصفي رجلاً وضع أنجح دستور يمكن وضعه». وقد حقق بالفعل هدفه هذا، فأسس النظام الذي وضعه دامت قرنين من الزمن. وجعلت «السلم الروماني» Pax Romana من الممكن تحقيقه. وهذا السلم هو أجل خدمة قدمتها روما للعالم.

وقد كان للحظ دور في هذا، إذ أتاح له حكاماً طال أمده فالخسة والأربعون عاماً التي حكم فيها أوغسطس كانت ذات أهمية كبرى لروما مثل أهمية حكم الملكة فيكتوريا Victoria لانجلترا ولويس الرابع عشر لفرنسا Louis XIV ولكن يجب أن نرجع الفضل في هذا أولاً وقبل كل شيء إلى مواهب «أوغسطس» السياسة. وإذا اعتبرنا أن السياسة هي فن تحقيق الممكن فقد كان أوغسطس فنانياً حاذقاً. والمحاولات الدقيقة التي بذلها العلماء المحدثون لتحليل منصب الرئاسة Principate وإدراجه تحت أي قسم من أقسام

العلوم السياسية لا تفيدنا إلى حد كبير . وقد قال الأستاذ « سيم » Syme في أحد أبحاثه الأخيرة الزائدة التعمق « إن منصب الرئاسة يتملص من التحديد ، وقد كان أوغسطس يهدف إلى جعله هكذا . وهو لم يكن شغوفا بالعلوم السياسية ، بل كان سياسياً عملياً وعلى علم تام بما يتغيه وما قد يستسلم إليه الرأي العام الروماني . وكان من الممكن خلق التوافق بين هذين الأمرين وذلك باستغلال الألقاب ببراءة لإخفاء الحقائق السياسية وراءها . وقد بلغت هذه الألوبة حد الإيقان الكامل في نصه « الأعمال المجيدة » Res Gestae الذي تم تجميعه في أواخر سني حكمه . وليس من المجدي دائماً أن تدرس فترة حكمه بإدراجها تحت عناوين مثل « دستور الرئاسة » والتشريع الاجتماعي ... إلى آخره ، بل يجب أن نحاول أن ننظر إلى مشكله كما واجهها هو — على أساس الترتيب الزمني . ولكن يجب دائماً ألا يغيب عن أذهاننا قول « ديوكاسيوس » Dio Cassius بأن الآراء الخطيرة كانت تناقش علانية في ظل الحكم الجمهوري ، أما في ظل الحكم الإمبراطوري فقد كانت القرارات تتخذ سراً ويصدرها شردمة قليلة من الرجال . وهناك الكثير من مشاكل الإمبراطورية من الممكن تخمينه ولكن لا نستطيع الجزم به أبداً .

وكان أوكتافيان قد انتصر على أنتوني بوصفه « قائداً Dux » لاتحاد يضم إيطاليا كلها — وهو ولاء إيطاليا كلها Conjuratio Totius Italiae الشهير وبمركزه هذا أصبح في الواقع دكتاتوراً عسكرياً ، ولكنه كان كذلك زعيماً لحزب سياسي ، ألا وهو حزب « قيصر » وهو الحزب السياسي الوحيد في روما الذي استمر بقاؤه . وقد حان الوقت لتصفية المشاكل التي نتجت عن الحروب الأهلية ولخلق أسس لإقامة نظام جديد ولكن يجب أولاً إقرار النظام في الشرق ، حيث كانت أنظمة أنتوني راسخة في أكبر مساحة ممكنة من الأراضي ، وفي مصر ، وموت كليوباترا قد ترك بين يديه غنيمة

ذات قيمة هائلة ، فلم يكن ليدعها تغفلت من بين يديه . وقد جاء في قصة « الأعمال المجيدة » الذى يعتبر تقرير أوغسطس الخاص عن سيرة حياته « لقد أضفت مصر إلى أملاك الشعب الرومانى » . ولكنها لم تصبح ولاية مثل سائر الولايات الأخرى . فقد حكم أوكتافيان مصر بوصفه خليفة البطلمة كما حكموها هم بوصفهم وريثة الفرعنة . وكان دخل الأراضى دائماً من نصيب حاكمها . وفى الحال أمدته خزانة كليوباترا بالمال اللازم لشراء أراضى يستوطن فيها محاربوه القدماء ذلك لأنه كان لابد من تخفيض قوات الجيش من ستين فرقة إلى ثمانية وعشرين . وفى ١٣ و ١٤ و ١٥ أوغسطس عام ٢٩ ق . م . احتفل أوكتافيان بانتصاره الثلاثى « وقد سار أمام عربته الحربية تسعة ملوك أو أبناء ملوك » .

ثم جاءت بعد ذلك سلسلة من الأعمال كان الهدف منها إبراز مزايا النظام الجديد فقد صدر عفو عن أتباع أنتونى وألغى المتأخر من الضرائب المستحقة وأعدمت السجلات ثم قام بتطهير مجلس الشيوخ وقلل عدداً أعضائه كما أقام معبد الإله « أبوللو » الفخم على تل « البلاتين » وفاء لنذر قطعه على نفسه أثناء موقعة أكتيوم وأغلقت أبواب معبد الإله « يانوس » Janus كدلالة على انتشار السلام عامة . واتجهت الأنظار إلى اثنين وثمانين معبداً آخر من معابد المدينة لإصلاحها ولكن تعسكر صفو هذا الوفاق بوقوع حادثة محرقة . إذ كان ماركوس كراسوس Marcus Crassus ، حفيد « كراسوس » عضو الائتلاف الثلاثى ، قد حارب بنجاح على حدود مقدونيا وأحرز لنفسه نصراً . والأدهى من ذلك والأمر أنه قتل بيديه زعيماً من زعماء الأعداء وأخذ من ذلك دعامة ليطلب بحق تقديم « الأسلاب » Spolia Opima لمعبد « جوبيتر فير تريوس » Jupiter Feretrius وكان هذا الحق أندر الامتيازات التى يتمتع بها العسكريون ولم يكتسب أحد هذا الشرف إلا ثلاثاً ، أما الرابع ، الذى نحن بصدده الآن ، فيجب ألا يكتسب هذا الشرف لجماعات الإجابة على مطلب « كراسوس » هذا بأن هذا الحق قاصر

على القادة العسكريين الذين يحاربون على مسئوليتهم الخاصة ، أما كراسوس فقد كان يحارب تحت رعاية أوكتافيان ولكن أجاب « كراسوس » رداً على ذلك بأن أحد هؤلاء الثلاثة الذين نالوا هذا الشرف فيما مضى كان تريبونا عسكرياً فقط وهو « كاسيوس » ، وتوقف الحفريات إلى جانب أوكتافيان في الموضوع إذ أن العثور على معبد « جوبيتر فيرتريوس » كشف النقاب عن « الوهب » الذي قام به كاسيوس ، وبرهن على أنه قد كان قنصلاً . وعلى ذلك لم يكن هناك حادثة سابقة مماثلة لمطالب كاسيوس ، وفي روما لم يكن يسمح بالقيام بعمل لم يسبق له مثيل . وتفتدت آراء كاسيوس وادعاءاته وخاطبه أوكتافيان في حزم مطالباً إياه بإيجاد أساس سليم يقوم عليه وضعه هذا الذي لم يسبق له مثيل ،

وفي يناير عام ٢٧ ق.م . تم الوصول إلى حل بعد أن عقد مجلس الشيوخ اجتماعين . ونحن لا نعلم شيئاً عن المؤتمرات والمناقشات التي سبقت هذين الاجتماعين ، ولكن من الواضح أن هذه الاجتماعات نفسها قد أخرجت إخراجاً مسرحياً دقيقاً . ففي بداية الأمر تنازل أوكتافيان عن كل سلطاته لمجلس الشيوخ وللشعب الروماني فتعالت صيحات الاحتجاج ، فيجب ألا يتخلى عن الجمهورية التي أنقذها . فهل سيرحب بقبول «سلطة بروقنصلية» Proconsular Imperium يسرى مفعولها على بلاد الغال وأسبانيا وسوريا لفترة طولها عشر سنوات ؟ ولكن يجب أن يستعيد مجلس الشيوخ والشعب والموظفون العموميون مهامهم القديمة . وبعد ثلاثة أيام جاء ما يسمى Quid Pro Quo « الشيء مقابل الشيء » ، إذ أجمع مجلس الشيوخ المعترف بالجميل على منحه غصن الغار وذلك لإنقاذه حياة المواطنين الرومان ، ودرعا ذهبياً نقش عليه ما يتمتع به من فضائل : الرحمة والألمعية والعدالة والتقوى كما نقش عليه اسم « أوغسطس Augustus » وتمجيدها له تغير اسم شهر سبستيليس « Sextilis » وسُمي أوغسطس ليأتي بعد يوليو .

وهذه هي العملية التي وصفت بأنها « إعادة الحياة إلى الجمهورية » وجاء ذلك الوصف على المسكوكات وفي الأعمال المجيدة « ففي أثناء قنصليتي السادسة والسابعة بعد أن أنهيت الحروب الأهلية تماماً . . . وبعد أن حصلت على السلطة العليا بموافقة الجميع ، نقلت الدولة من تحت نفوذى إلى نفوذ مجلس الشيوخ والشعب الرومانى . وبعد ذلك فقت الجميع فى السلطة (Auctoritas) . أما فى مجال النفوذ Potentia فلم أستحوذ على أكثر مما استحوذ عليه من كانوا زملاء لى فى كل منصب توليته . لقد أعددت العملية إعداداً محسباً ، وكذلك العبارات التى وصفت بها . فقد تحاشى ذكر هذه الألقاب العاطفية مثل « الملك » Rex و « الدكتاتور » Dictator — إذ لم يكن هناك داع لحدوث منتصف مارس آخر ، وقد قيلت الحقيقة . واستمر موظفو الجمهورية العموميون فى أداء مهامهم تحت نفس الألقاب القديمة . كما كان أوغسطس موظفاً عاماً فى الدولة ينتخبه مجلس الشيوخ لفترة محدودة من السنين ربما يطول مداها ولكن لا يمنحه قيادة لم يسبق لها مثيل . ولكن هذه لم تكن الحقيقة بأكملها . فقد مكنته بلاد الغال وأسبانيا وسوريا من تولى قيادة معظم القوات المسلحة التى كانت تنظر إليه حينذاك على أنه قائدها Imperator كما أنه تولى منصب القنصلية سنوياً منذ عام ٣١ ق.م . دون انقطاع وبذلك أصبح فى إمكانه أن يسيطر على حكام ولايات مجلس الشيوخ المتمتعين بالسلطة البروقنصلية . ودون تردد تخلى عن دخل هائل ربما لا يقل كثيراً عن دخل الدولة نفسها وكان مجلس الشيوخ يكتظ بمؤيديه ولم يكن تتم أى رعاية إلا تحت إشرافه . ومن الجائز أنه لم يستحوذ على سلطة أوسع من زملائه فى أى منصب تولاه ، ولكن جمعه بين كثير من السلطات ، رغم أنها جميعاً جاءت نتيجة توليه مناصب لمدة طويلة وبصفة مستديمة ، قد وضعه فى مركز لم يستطع أى فرد أن يتساوى معه فيه . وكانت السلطة Auctoritas على هذا النطاق ما هى إلا النفوذ (Potentia) فى أقصى مراحلها . وعلاوة على ذلك كان هناك ما ينطوى على موقفه الخارق للعادة بوصفه ابناً للؤلؤه يوليوس

Divi Filius وكذلك اسم أوغسطس Augustus ، وهو صفة ذات مدلول عظيم وبشير خير - لأن رومولوس كان قد أسس مدينة روما وفقاً لـ (Augusto Augurio دلالة خيرة) ومن هنا يمكننا استنتاج أن هناك رومولوس آخرجاء ليؤسس المدينة مرة أخرى . ولكن لم يطلق أوغسطس على مركزه ، أى لقب أكثر من الرئيس Princeps وهي كلمة أخرى تركت عمداً غامضة ، ولكن عندما تدخل في تعبير مثل « رئيس مجلس الشيوخ » I'Princeps Senatus فإنها تدل على احتلاله لمركز الصدارة بين الرجال المتكافئين . وهكذا كانت أولى إصلاحات أوغسطس في خطوط عريضة .

وكان هناك نقص بالنسبة له في السلطات الفعالة طوال الأعوام الأربعة التالية، ولكن من الواضح أنها كانت سنوات عصيبة لأوغسطس - وفي نهايتها شعر بالحاجة إلى استحواذه على سلطات جديدة فرحل في صيف عام ٢٧ ق.م ليقيم بجولة في بلاد الغال وأسبانيا وقاد هو بنفسه الحملة التي نتج عنها ضم شعوب « الكمبرى » القاطنة في شمال غرب أسبانيا إلى الولاية الرومانية ، ولم تكن هذه الشعوب قد تم إخضاعها حتى ذلك الوقت . وأدى ذلك إلى قيام الأسبان بكفاح مرير آخر لم يكن لينتهي حتى عام ١٩ ق . م ولم تكن حالة أوغسطس الصحية - التي لم تكن سليمة أبداً - لتتحمل القيام بحملات في أسبانيا . فاضطر في عام ٢٥ ق.م إلى الاستشفاء في منطقة الينابيع المعدنية الواقعة في جبال « البرانس » . وفي عام ٢٦ ق.م . وردت أنباء سيئة من مصر في نفس الوقت ، فقد كان كورنيليوس جالوس Cornelius Gallus صديق الشاعر فيرجيل وأول حاكم روماني لمصر ، يعلن على الشعب ما حققه من نجاح في حربه ضد « أثيوبيا » بطريقة أبعد مما هو مسموح بها لرجل يتولى منصباً مثل منصبه - فاستدعى وانتحر . وعندما كان أوغسطس في طريق عودته إلى روما في عام ٢٣ ق . م ، أصيب بمرض عضال للبرة الثانية وأصبح من المحتمل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . ولكنه اجتاز مرحلة الخطر بأخذ حمامات باردة وبفضل طبيب ماهر ، ولكن كان عليه الآن

أن يواجه مشكلة من يخلفه مع أنه كان في الأربعين من عمره فقط — فلم تلد « ليفيا Livia » أطفالاً له — وهذه هي أولى الأحران العديدة التي حطت على هذه الأسرة . وكان أقرب أقربائه من الرجال هو المحبب لنفسه والعزيز عليه ماركلوس Marcellus ابن أخته أوكتافيا . كما كان لأوغسطس نفسه ابنة رزق بها من زواجه الأول هي جوليا Julia . وفي عام ٢٥ ق . م . تزوج أولاد العم (ماركلوس وجوليا) وكان أوغسطس يأمل في أن يؤتية اقترانهم هذا بحفيد له ، مع أنه لم يكن من المؤكد حتى ذلك الوقت ما إذا كان الرأي العام الروماني يرحب بتولى أفراد الأسرة الخلافة بالوراثة . كما كان هناك أيضاً أولاد ليفيا الذين رزقت بهم من زواجها الأول : تيبيريوس Tiberius و«دروسوس» Drusus ، ولكن فجأة أصبح الخليفة المنتظر هو «أجريبيا» Agrippa القائد الحربي والإداري القدير ، الذي كان ولاؤه النقايم على إنكار الذات دعامة استند عليها كثير من أعماله الهامة . وقد كان أجريبيا هو الرجل الذي أعطاه أوغسطس خاتم توقيعه عندما بدت نهايته وشيكة ، ولكنه شفى وتغيرت الأوضاع مرة أخرى فأصبح من الممكن دفع ماركلوس إلى الأمام بينما من الممكن اعتبار أجريبيا احتياطياً له .

ولقد تسبب مرضه ومؤامرة دبرت في عام ٢٥ ق . م . في أن يستعيد سلطاته ، وعندما رفض القنصلية التي كانت ستصبح القنصلية الثانية عشرة له منح السلطة البروقنصلية العظمى — يسرى مفعولها على كل الإمبراطورية "Imperium Proconsulare Maius" وهكذا فاقت سلطاته كل السلطات في أية ولاية ، لأن حكام الولايات كانوا تحت سيطرته حتى هؤلاء الذين كانوا يحكمون الولايات التابعة لمجلس الشيوخ . ولقد كانت سلطته هذه Imperium ذات أهمية قصوى حتى إن نقشه «الأعمال المجيدة» Res Gestae قد مر عليها دون أن يذكر شيئاً عنها — وبالإضافة إلى ذلك ، فنحه السلطة التريبونية لمدى الحياة مكنه من الحصول على حق الاعتراض (Veto) ، ومن الاتصال بالشعب اتصالاً مباشراً . وقد رأى تاكيتوس الذي يتجاهل

تطورات عام ٢٧ ، أن توحيد السلطة البروقنصلية مع السلطة التريبونية هو القاعدة الأساسية التي قام عليها مركز « الرئيس » Princes كما يدعى المؤرخون المحدثون أن هذا التوحيد يشير إلى انتهاء عصر الجمهورية نهاية فعلية . ومع هذا فقد خلعت السلطة البروقنصلية في نفس الوقت على «أجربيا» لمدة خمس سنوات وذلك لأنه كان سيسند إليه بعد وقت قصير مهمة خطيرة في الشرق ، وهذا قد جعله على الأقل قائداً ينوب عن أوغسطس . ولكن البعض رأوا أن هذا الإجراء خطوة نحو إسناد الحكم إلى هيئة من الرجال ولكن فجأة جاءت ضربة قوية غير متوقعة فخطمت خطط أوغسطس . فقد لقي ماركلوس حتفه من جراء إصابته بالمalaria ، دون أن يكون قد أنجب أطفالاً بعد . وأبيات فيرجيل الشهيرة في الكتاب السادس من « الانبادة » تصوره على أنه نموذج أعلى للأمل الذي يبده الموت وهو لا يزال في مهده . ومع ذلك فقد كانت الحاجة تتطلب عقد زواج أسرى آخر . فأصبحت أرملة ماركلوس الشابة زوجة لأجربيا الذي كان في سن أبيها .

وكان الكثير من المشكلات التي قامت في الشرق تتطلب حلولاً عاجلة، وقد أعقبت مهمة « أجربيا » الدبلوماسية حملة تفتيشية قام بها أوغسطس ما بين عامي ٢٢ ، ١٩ ق.م . إذ تسبب موت « أمينتاس » Amyntas ملك « جالاتيا » Galatia في تشكيل قطعة واسعة من الأرض لحدودها شرقي آسيا كولاية جديدة ، كما أن العلاقات مع الممالك العميلة لروما الواقعة على حدود سوريا الصحراوية كانت تحتاج إلى فحص دقيق وفي «جودايا» Judaea كان الملك « هيرود » Herod الأكبر يحاول تغيير نظام الحكم من حكم ديني متعصب إلى مملكة « بارثيا » فقد كان سراب حرب ضروس الغرض منها الانتقام « لكراسوس » لا يزال ينعكس بصورة واضحة تماماً نستطيع أن نلمسها من قراءتنا لأدب تلك الفترة ، وكانت هناك أيضاً بصورة

واضحة مشكلة أرمينيا ، حيث كان النفوذ الروماني في انحطاط مستمر منذ قيام حملة « أنتوني » .

ونظرة أوغسطس المتراخية والمتعالية إلى الشرق تشير إلى أن جزءاً كبيراً من الأعمال الدبلوماسية الرائعة قد قام بها « أجريبا » . وكانت صقلية هي أول ولاية يزورها أوغسطس حيث كان « سكستوس بومبيوس » قد خلف وراه آثار التخريب والتدمير . ولم يجد أوغسطس أقل من ست مستعمرات في الجزيرة كانت أهمها تاورومينيوم Tauromenium « تاومينا الحديثة » وبانورموس Panormus (باليرمو الحديثة) وكان هناك في اليونان كذلك إنشاءات جديدة ، فبلدة نيكوبوليس Nicopolis في إقليم ابيروس Epirus ، التي أنشئت لتخلد ذكرى معركة أكتيوم ، قدر لها أن تصبح مركزاً هاماً للحضارة الرومانية في بلاد اليونان - وازدهرت بلدة باتراي Patrae (باتراس الحديثة) وأصبحت ميناء حيويًا للعبور إلى إيطاليا . وبعد أن قام أوغسطس بزيارة « أثينا » و « ساموس » Samos رحل إلى آسيا ليتولى معالجة مشاكل « بارثيا » و « أرمينيا » العسيرة . وقد كانت الظروف في صالح روما ، إذ كان هناك خلاف على عرش « بارثيا » ، وكان الملك « فراثيس » Phraates يرحب تماماً بإعادة أعلام كراسوس وما تبقى من رجاله إذا تخلت روما عن تأييدها السياسي لمنافسه . أما « أرمينيا » فقد كانت مشكلتها أكثر صعوبة إلى حد ما ، وكانت تتطلب إظهار القوة والعنف ولكن في النهاية فرض عليها موظف روماني ليصبح مالكاً لها . وقد لعب تيبيريوس Tiberius الشاب دوراً رئيسياً في كتاباتين المشككتين . ولكن استقرار الأحوال في « أرمينيا » لم يكن ليدوم وقتاً طويلاً ، وما من شيء يدل على حكمة أوغسطس وذكائه بصورة واضحة أكثر من رفضه لخطط هائلة لغزو الشرق . وذلك من أجل إيجاد حل معقول لمشكلة « بارثيا » ، أصبح نهر « يوفراتيس » بمقتضاه هو الحدود بين الإمبراطوريتين . ويجب

ملاحظة نتاج آخر جاء نتيجة لزيارة أوغسطس لسوريا — ألا وهو إنشاء مستعمرة عسكرية في بلدة هليوبوليس Heliopolis (بعلمك الحديثة) التي تعتبر معابدها الشاهقة من أنخم المباني الرومانية في العالم . وقد يرجع معبد « زيوس » إلى فترة متأخرة عن هذا التاريخ لكن من المحتمل أن تكون هليوبوليس ، كما يقترح باريبيني Paribeni ، قد خططت منذ البداية على أساس من البنخ الفاحش لتنافس ما قام به ملوك أسرة « سلبوكوس » من أعمال نفخة . وفي أثناء عودته من رحلته زار أوغسطس أثينا للمرة الثانية وتم اطلاعه على أسرار « اليوسيس » ثم وصل إلى روما في عام ١٩ ق.م .

ثم تبع ذلك (في عام ١٧ ق.م) برنامج للتشريع الاجتماعي الغرض منه الحد من تدهور الأخلاق الرومانية وإعادة الفضائل القومية التي كانت سائدة في فجر تاريخ روما . فقانون « يوليوس الزنا Lex Julia De Adulteriis » قد جعل الزنا (الذي حدده القانون الروماني بالجماع بين امرأة متزوجة ورجل غير زوجها) عملاً إجرامياً ، وقد كانت هناك عقوبات صارمة — وصلت إلى حد الإعدام في بعض الحالات — تطبق على الأشخاص المذنبين ولم يستثن من هذا القانون الأزواج ذوى الهمم . أما قانون « يوليوس الزواج » Lex Julia De Maritis Ordinandis فقد كان موجهاً ضد العزوبة والزيجات التي لا يتخلف عنها ذرية ، وأصبح الزواج ، وخاصة بقرين من طبقة اجتماعية مناسبة ، إجبارياً تقريباً على كل مواطن روماني . وكانت هناك مكاسب تمنح للآباء ، تزداد بزيادة عدد أفراد الأسرة . أما العزاب فقد كانوا ينعتون بانعدام المقدرة . وفي نفس الوقت صدرت قوانين أخرى تحمد من البنخ والترف ، ومن منح الجنسية الرومانية للعبيد المعتقين ، ومثل هذه الإجراءات التي لم يفلت منها أحد لا يمكن أن تلاقى ترحيباً . فوجه الكثير من السخرية والنقد إلى تشريعات أوغسطس الاجتماعية وقد كان حكم تاكيتوس النهكمي على هذه القوانين أنها قد أدت إلى ازدياد عدد الوشاة لا عدد الأطفال —

« فإن البلد تعانى الآن من قوانينها كما كانت تعانى فيما مضى من رذائلها »
ولكن بالتأكيد كان أوغسطس محقاً عندما اعتقد أن هناك احتياجاً لمجلس
بشرى سليم يعيش فى روما وإيطاليا ليحتفظ بالإمبراطورية متماسكة . وقد
قوبلت مجهودات أوغسطس هذه ببعض الاستجابات — من النادر أن
تصل إلى مثل هذه الحالة التى كان عليها مواطن من بلدة « فايسولاي »
Faesulae التى سجلها « بلىنى » فقد زار هذا المواطن الكايتول مصطحباً
معه أبنائه الثمانية وأحفاده الخمس والثلاثين وأحفاد أحفاده الثمانى عشر —
لقد سجل هذا الرجل رقماً قياسياً فى الإنجاب .

كان منصب « الرئاسة » فى عام ١٧ ق . م . قد بلغ عامه العاشر وعقد
أوغسطس العزم على تخليد هذه المناسبة وذلك بإقامة احتفال لابد وأن
يترك أثراً عميقاً فى نفس كل من يشاهده ، وهذا الاحتفال هو « الألعاب
القرنية » Ludi Saeculares . وكان ظهور النجم للمرة الثانية . ذلك النجم
الذى ظهر أول مرة بعد موت « قيصر » مباشرة كأنه تصديق من الآلهة على
هذا الإجراء ، والسيكولوجى Saeculum هو وفقاً لاعتقاد أترورى — رومانى
دينى غامض — فترة طولها ١٠٠ أو ١١٠ عاماً — وليس من المؤكد أى
الرقمين أصدق — يتجدد خلال هذه الفترة الجنس البشرى أجمعه — ولم
يحدث أن رأى أحد مثل هذا الاحتفال من قبل ، كما لم يكن ليراه أحد مرة
أخرى ، وقد وصلتنا تفاصيل احتفال عام ١٧ ق . م . عن طريق النقوش
المتعددة التى تعتبر السجل الرسمى للجنة الخمسة عشر عضواً على رأسها أوغسطس
وأجربيا ، وهما المسئولان عن أعمال هذه اللجنة . وقد كانت مهامها الأساسية
هى إقامة الصلاوات وذبح القرابين لمعبودات معينة قد تم اختيارها بدقة ،
ويستمر هذا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالى متتالية . وفى ليل يوم ٣١ مايو
أقيمت الصلاوات فى « كامبوس مارتىوس » ابتهاجاً « لإلهات القدر Fates »
لكى تصون عظمة الشعب الرومانى وتحفظ إمبراطوريته ، وفى تلك الليلة

أقامت رئيسات الكاهنات مآدبة للربة « جونو » والربة « ديانا » . وفي صباح يوم ١ يونيو نحرت القرابين للإله « جوبيتر » الأول والأعظم Jupiter Optimus Maximus « على تل الكايتول ، أما أثناء الليل فقد نحرت القرابين لإلهات وضع الأطفال . وفي يوم ٢ يونيو وعلى تل الكايتول كرمت الإلهة « جونو الملكة Juno Regina نهرا » ، والإلهة « الأرض الأم Terra Mater ليلا . أما الاحتفالات التي أقيمت في يوم ٣ يونيو فقد كانت على تل البلاتين ، ففي أثناء النهار نحرت القرابين « لابو للون وديانا » أما أثناء الليل فقد قامت جوقة دينية مكونة من ٢٧ ولدا و ٢٧ فتاة بإنشاد « الأنشودة القرنية » Carmen Saeculare على أبواب معبد أبوللون الجديد وبالقرب من منزل أوغسطس ، وقد كانت هذه الأنشودة من نظم الشاعر « هوراس » Horace . لقد استرجع الشعب الروماني ، الذي انتصر على أعدائه ، أخلاقياته القديمة وأصبح مستعدا لدخول دورة جديدة ومجيدة من دورات وجوده ذلك لأنه كان على وفاق تام مع القوى المقدسة .

وفي عام ١٦ ق . م . رحل أوغسطس متجها إلى الغرب ليقوم بما قدر له أن يكون آخر حملة تفتيشية من حملاته الواسعة التي كان يقوم بها في الولايات وقد سبقه أجريبا مرة أخرى : ففي بلاد الغال وضع خطة لإنشاء شبكة واسعة من الطرق وفي أسبانيا أنهى الحرب السكتيرية (في عام ١٩ ق . م .) وقضى أوغسطس معظم وقته في بلاد الغال حيث راجع الضرائب ووضع تخطيطات جديدة للإدارة الإقليمية والمحلية وأصبحت بلاد الغال تضم ثلاث ولايات جديدة إلى جانب ولاية « ناربوننيسيس » — وهي ولايات « اكوينانيا Aquitania و « لوجدوننيسيس » Lugdunensis و « بلجيكا » Belgica ووضعت هذه الولايات الثلاث تحت إمرة حكام مسؤولين أمام الإمبرطور . وقد استمر وجود المجتمعات القبلية Civitates في هذه الولايات الجديدة على نطاق محلي وذلك لأن تقدم الحياة الحضرية في هذه الولايات كان أكثر بطئا من تقدمها في ناربوننيسيس « أما الروح القومية لشعب

الغال التي أبقظها « فيركنجتوريكس » من غفوتها فقد اكتسبتها روما إلى جانبها وذلك بتكوينها مجلس للغالين ، وقد وقع الاختيار على مدينة « لوجدونوم » Lugdunum لتصبح عاصمة جديدة يجتمع فيها هذا المجلس ولتكون بمثابة « وشنجتون » أو « كانبرا » Canberra بلاد الغال . ولما كانت هذه المدينة مقرا لحضارة روما وأغسطس وملتقى شبكات طرق المواصلات ومركزا لسك النقود الملكية ومركزا للقيادة الإمبراطور أثناء وجوده في بلاد الغال ، فقد تطورت بسرعة مذهلة وأصبحت أعظم مدينة بين مدن ماوراء جبال الألب . أما في أسبانيا فقد كان هناك ثلاث ولايات : باثيكا Baetica في الجنوب الشرقي ، ولوسيتانيا Lusitania في الجنوب الغربي وولاية تاراكونسيس Tarraconensis وهي تشمل على النصف الشمالي من الجزيرة تقريبا . وقد قامت مدينة « تاراكو » Tarraco في أسبانيا بنفس الدور التي قامت به « لوجدونوم » في بلاد الغال ، كما أنشئت¹ مستعمرات جديدة في « إميريتا » Emerita (ميريدا الحديثة) وفي كايساروجستا Caesaraugusta (ساراكوزة الحديثة) وشجع سكان الجبال من الأسبانيين على إدراج أنفسهم في الوحدات المساعدة الجديدة في الجيش الروماني (وهذه الفرق تقابل فرق الأراضي المرتفعة High Land التي تم تعبئتها من أجل الجيش البريطاني عام ١٩٤٥) .

ومن المحتمل أن أوغسطس خلال هذه السنوات التي قضاه في الغرب ، قد أتم وضع التخطيط الهائل الخاص بالحدود الجديدة الشمالية للإمبراطورية الرومانية . ومن أجل تنفيذ هذا المشروع جند أوغسطس أكفأ الجنود والقادة طوال ربع القرن التالي ، وقد كانت لحظات نجاحه وبالمثال لحظات فشله لحظات حاسمة في تاريخ أوروبا .

والآن أخذت روما على عاتقها مهمة الدفاع عن بلاد الغال بمثل مسؤوليتها للدفاع عن إيطاليا . وقد كان يوليوس قيصر قد حدد حدود بلاد الغال على

نهر الراين ، ولكن طرق الاتصال بين بلاد الغال وإيطاليا ، بل والدفاع عن إيطاليا نفسها ، يتطلب السيطرة التامة على كل ممرات جبال الألب . وكان هناك في الشرق البعيد مشكلة « اليريكوم » و«مقدونيا» ، وإذا أمكن توسيع أراضي وادى الساقا فقد « ينتج عن ذلك إنشاء طريق قصير يوصل بين نهر الراين وأسفل نهر الدانوب ، يمتد خلال جبال البلقان كلها (وهو بالتقريب طريق قطار الشرق السريع الحديث الممتد عن طريق « زاجرب » Zagreb إلى بلغراد ، وقد كانت الحملات التي قام بها كراسوس قبل ذلك الوقت باثني عشر عاما قد بسطت سيطرة روما على « مويسيا » Moesia الواقعة على أسفل نهر الدانوب .

ونصب أوغسطس التذكارى المقام فى «لاتوربى» La Turbie بالقرب من موناكو Monaco مسجل عليه الحملات التي قام بها تيبيريوس ودروسوس فى غرب جبال الألب والتي نتج عنها إخضاع أربعة وأربعين قبيلة وضم ولاية « رايتيا » Rhaetia إلى الإمبراطورية وهذه الولاية هى سويسرا الحديثة وجزء من بافاريا . وكان يقوم بحماية هذه المنطقة فرقتان اتخذتا بلدة «أوجستا فيندلييكوروم» Augusta Vindelicorum (أوجسبورج الحديثة) قاعدة لهما . وفى نفس الوقت — تحولت مملكة «نوريكوم» Noricum السكتية التي كانت حليفة لروما منذ زمن بعيد إلى ولاية وذلك لتسكتمل سيطرة روما على أعلى نهر الدانوب حتى بلدة « فينا » Vienna ، وبدأت الحدود الشمالية وكأنها قد اتخذت شكلها النهائى — وهى حدود نهر الراين والدانوب ولكن كان هناك ثمة خطة أكثر خطورة فى ذهن أوغسطس أقنعه بها تيبيريوس ودروسوس : فطريق نهرى الراين والدانوب طويل ، إذ يبلغ طوله ٧٥٠ ميلا على الأقل ، ممتدا من مصب الراين حتى مدينة « فينا » ، ويوجد هناك مدخل موقعه حساس حيث ينحنى نهر الراين على شكل زاوية تجاه اليمين وراء مدينة « بازل » Basel كما أن أعلى نهر الدانوب تتلاصق بصورة تبعث القلق

بمدخل البحر الادرياتيكي ، وهذا ما يجب أن يتنبه إليه قادة حلف الاطلنطي
انتباهاها هاما . ولكن قد يؤدي القيام بزحف من نهر الراين إلى نهر الب
Elbe إلى الاستحواذ على مركز أكثر حصانة وإلى إقامة طريق أقصر بكثير
فالمسافة بين هامبورج وماجديبورج وبراغ وفيينا ليست أكثر من ٥٠٠ ميل
على الأكثر وقد ينصح العالم الجغرافي الحديث باستخدام طريق أودير —
دينستر Oder Dniester إذ يبلغ طوله ٩٠٠ ميل فقط ويمتد من بحر البلطيق
حتى البحر الأسود ، ولسكن هذا الطريق كان بعيدا جدا عن نطاق الإمبراطورية
الرومانية . ولذلك فقد بدأ القيام بهذه العمليات خلال السنوات التي
تلت عام ١٣ ق.م . في منطقة اليريكوم يوغوسلافيا ، وغرب ألمانيا وذلك
باعتبار هذه العمليات جزءا من المشروع . ونحن لانعرف عن القتال الذي
دارت رحاه في اليريكوم إلا القليل ، ولسكن ما إن حل عام ٩ ق.م . حتى
كانت القوات الرومانية التي كانت في معظم هذه السنوات تحت إمرة تيبيريوس
قد وصلت إلى الدانوب الأوسط وأقامت ولاية « بانونيا » Pannonia ،
وكان ذلك هو الوقت الذي استخدمت فيه مدينة كارنتوم Carnuntum
لأول مرة قاعدة للقوات الرومانية وهذه المدينة أصبحت فيما بعد المدينة
الرئيسية لهذه الولاية . وقد لاقت حملات دروسوس في ألمانيا نجاحا باهرا
في بادىء الأمر ، إذ تقدم القائد الشاب في زحفه وهو يقوم بمهمته تحت
ظروف لم يعتد عليها الجيش الروماني — ألا وهي شواطئ بحر الشمال
ومستنقعات باتافيا وغابات ألمانيا — وقد تقدم في زحفه في سنوات متتالية
حتى منطقة « فيزر » Weser ومنطقة « امس » Ems بل وحتى نهر الب
نفسه بالقرب من ماجديبورج (في عام ٩ ق.م) وبدأت حدود الولاية
الألمانية تتخذ شكلها الأولى . ولكن في أواخر صيف ثالث عام منذ قيامه
بالحملة وقعت له حادثة كان من نتيجتها أن لاقى حتفه ، وأحضروا جثته
إلى روما حيث دفنت في ضريح أوغسطس — وقد كانت هذه الحادثة
خسارة أخرى أكثر فداحة من موت ماركالوس ، إذ كان ذلك هو وقت

أن بلغت روما ذروة نجاحها في ألمانيا ، ولو كانت حياة دروسوس قد امتدت حتى تمكن من تدعيم انتصاراته هذه ، لسكان من المحتمل أن يصبح تاريخ العالم مختلفاً تماماً ، إذ ماذا كان يحدث لو كانت روسيا قد انحصرت وجودها في منطقة ألاسكا ؟ .

ومن الأفضل أن تكمل قصة الحدود الشمالية في هذه الصفحات على الرغم من أن هذا يؤدي بنا إلى الكلام عن السنوات الأولى من حكم « تيبيريوس » . إن السنوات العشر التي تلت موت دروسوس سنوات غامضة ، ولكن لما كانت المعسكرات الشتوية قد استمرت تعتبر كحصون أقامها دروسوس على طول نهر الراين ، بما في ذلك قواعدها الرئيسية في « فيتيرا » Vetera وفي « ماجوناتياكوم Magunatiacum لم يكن يبدو أن هناك أى كسب حقيقته روما شرقي النهر . ولكن قامت ثلاث حملات على الأقل شمال نهر الدانوب ، ذلك لأنه كان هناك مملكة جرمانية قوية ، وهي مملكة « ماروبودوؤس » Maroboduus ملك الماركومني Marcomanni كانت هذه المملكة في طريقها للنمو في منطقة بوهيميا المحصنة من الجهات الأربع ، وهذا موقع قال عنه نابليون ذات مرة إنه من الممكن السيطرة على أوروبا منه . وبالتالي كيد قد يصبح في مقدرة « ماروبودوؤس » وحلفائه بعد وقت قصير الهجوم على منطقة الراين والدانوب في الحال . وكانت السياسة الرومانية تهدف إلى عزله عن طريق الوسائل الدبلوماسية ثم سحقه . وبعد أن عاد تيبيريوس ليتولى قيادة حملة الراين في عام ٤ م ، وضعت هذه السياسة في حيز التنفيذ . وفي عام ٦ م وقف الكل على أهمية الاستعداد لدخول الجولة الأخيرة . فقد تجمعت اثنتا عشرة فرقة رومانية لتقوم بزحف من ثلاث جهات على « الماركومني » وهذه الفرق هي قوات ولايات الراين ورايتيا واليريكوم ، ولكن أدى اندلاع ثورة عارمة في مؤخرة قوات الدانوب إلى فشل هذه الخطة .

وكان اندلاع الثورة في « بانونيا واليريكوم » من عام ٦ إلى ٩ م من أفضع الأخطار التي واجهتها روما على الإطلاق ، كما كان دليلاً يبرهن على خطورة الاحتفاظ بكل القوات العسكرية على الحدود ، مع عدم وجود قوات احتياطية لمواجهة حالات الطوارئ ، وقد بدأت هذه الثورة بتمردين : الأول قامت به القبائل السكتية القاطنة في بانونيا ، وهي منطقة كانت قد تعرفت على الحضارة الرومانية في ذلك الوقت وكانت مكتظة بالمستوطنين الإيطاليين من التجار ، والآخر قامت به القبائل المتخلفة القاطنة على تلال « دالماتيا » ، وفي كلا التمردين كان هناك زعيم يدعى « باتو » Bato يتولى زعامة اتحاد قومي ، ولو كانوا قد استطاعوا توحيد قواتهم قبل أن يتجمع الرومان في طريقهم لكانوا قد تدفقوا جنوباً إلى إيطاليا ولا أصبحت الحدود على طول نهري الراين والدانوب هشيماً تذروه الرياح — ولكنهم لم يفعلوا ذلك حتى تمكن الرومان من التصدي لهم فاحتلوا بعد ذلك موقعاً حصيناً في آخر الأمر على جبل « الموس » Almus الذي يشرف على « سيرميوم » Sirmium ، القاعدة الرومانية . وفي عام ٧ م هزموا جيشاً رومانياً مكوناً من خمس فرق وقوات مساعدة هزيمة منكرة ولكن « تيريوس » تمسك بسيطرته على وادي السافا ، وما إن أوشك العام على الانتهاء حتى كان قد حشد ١٥٠.٠٠٠ رجل في « سيسكيا » Siscia فتخلى « باتو » مواطن بانونيا عن دعوته واختاله رجل في عام ٨ م يحمل نفس اسمه ، أما ثورة دالماتيا فقد دامت حتى العام التالي .

وما إن أوشكت الثورة الكبرى التي اندلعت في أراضي الدانوب على الانتهاء حتى حلت كارثة أخرى بجيش الراين — وهي انهزام ثلاث فرق رومانية تحت إمرة فاروس Varus وذبحها على يد « أرمينيوس Arminius زعيم » الخيروسكي Cherusci أما عن موقع المعركة فهو مجهول ، ولكن من المحتمل أنه كان بالقرب من أوسنابروك Osnabrück الحديثة . وكان

أرمينيوس قد خدم في الجيش الروماني وقد أحال معلوماته إلى كسب ثمين بوصفه بطل الاستقلال الألماني العظيم . ويصدق عليه « تاكينوس » ثناء أكثر من أى زعيم بربرى آخر ، فهو يقول عنه إنه قد خسر المعارك ولكنه لم يخسر حربا بالمرّة . فقد قضى على عشر القوات الرومانية وشل حركة جيش الراين وذلك فى المذبحة التى سقى فيها الفرق الثلاث .

كان أوغسطس قد بلغ السبعين من عمره وقد كان وقع الكوارث التى حدثت فى ألمانيا واليريكوم عنيفا عليه . ولم يكن ليحتمل وقوع هزيمة أخرى وهو على قيد الحياة وكانت وصيته عند موته هى المحافظة على الإمبراطورية فى نطاق حدودها الحالية . واتفق تيرىوس مع هذا النصح . ولا بد أنه كان يلبس الأحوال فى منطقة ماوراء الراين والدانوب أكثر من أى إنسان آخر . وفى وسط كل هذه الكوارث كان هناك عامل واحد دائم يشجع على الإقدام ألا وهو تفكك ألمانيا . « فاربودوؤس » لم يحرك ساكنا فى الوقت الذى اندلعت فيه الثورة فى اليريكوم كما أنه لم يفعل شيئا بعد انتصار أرمينيوس الذى أرسل له رأس فاروس ليحثه على القيام بنفس العمل . وقد كتب تاكينوس يقول : « قد يطول إصرار الألمان ، إن لم يكن على بغضنا ، فعلى الأقل على كراهية بعضهم بعضا ، لأن مصير الإمبراطورية يشق طريقه بصعوبة ولم تعد آلهة الحظ تستطيع أن تمنحنا هبة أفضل من التفكك السائد بين أعدائنا ، لقد ساد هذا التفكك وانتشر لمدة خمسين عاما بعد هزيمة فاروس ولاقى أرمينيوس حتفه فى معركة نشبت ضد عدو ألماني ونفى « ماربودوؤس إلى إيطاليا وعندئذ كانت المشكلة التى واجهت تيرىوس هى إيجاد تعليل يستند إليه لينسحب من ألمانيا انسحابا مشرفا ولهذا السبب جاءت حملات «جرمانيكوس» Germanicus ابن دروسوس فى عامى ١٤ ، ١٥ م . وقصة هذه الحملات تحتل جزءا كبيرا من صفحات تاكينوس ، إذ منحت روما مجدا وجرمانيكوس نصرا . وبعد انتهاء هذه الحملات أصبح

من الممكن إلى حد ما تنظيم خط دفاعى دائم على طول الراين . وهكذا انتهى الأمر بإقامة الحدود على نهر الراين والدانوب ، واختفى تماما حلم إقامة أعلى نهر الب وجعل ألمانيا ولاية رومانية ، ومع ذلك قد يبدو واضحا أن النصف الأفضل من خطة أوغسطس الكبرى قد تم تحقيقه وضمانه فقد كانت أراضي الدانوب أكثر قيمة ونفعا للرومان من غابات غرب ألمانيا ، كما التصق نصفا الإمبراطورية ببعضهما البعض التصاقا تاما ، كما أصبحت اليريكوم نفسها مركز القوة برجالها ومواردها خلال السنوات التالية . وهكذا تم حل مشكلة الحدود الشمالية حلا وقتيا .

وعندما عاد أوغسطس من بلاد الغال في عام ١٣ ق . م . كان منصب « الرئاسة » قد دام لمدة اثني عشر عاما ، قضى أكثر من نصفها تقريبا متغيبا عن روما . وقد تقرر تخليد عودته هذه بإقامة معبد للسلام هذا السلام الذى كان أوغسطس قد قام بتأمينه في كل أنحاء العالم الرمانى . وهذا المعبد — وهو على مستوى من مستويات التعبير الفنى في عصر أوغسطس تصوير بنائى رائع لطبيعة منصب « الرئاسة » — قد تم تدشينه في عام ١٣ ق . م . وأوقف عليه في عام ٩ ق . م . وخلال هذه السنوات الأربع جددت تغيرات جذرية على العائلة الإمبراطورية ، فقد مات أجريبا في عام ١٣ ق . م . وأكتافيا في عام ١٢ ق . م . ودروسوس في عام ٩ ق . م . والكثير من الشخصيات التى عاشت في عصر أوغسطس قد حكم القدر عليها بالموت إما في الصبا — مثل ماركالوس ودروسوس ، وجايوس ولوكيوس قيصر — وإما في ربيع العمر مثل — أجريبا وهوارس ، وفيرجيل ، أما العمر المديد فقد كان من نصيب أوغسطس وليفيا فقط . والعشرون عاما الأخيرة من حياة أوغسطس تظلمها سحابة أحزان رجل امتد به العمر بعد موت خلاله .

ومرة أخرى آثار موت أجريبا مشكلة الخلافة . ولم تدم فترة ترميل جوليا مدة طويلة وذلك بعقد زواج أسرى — وهو عقد قرانها على تيبيريوس

الذى كان عليه أن يطلق زوجته الحبيبة وقد أثمر زواجهما هذا طفلا مات وهو في المهد . عندئذ اتجه اهتمام أوغسطس إلى جايوس ولوكيوس قيصر، أبناء جوليا الكبار من أجريبا . ومع أن تيريوس كان قد عين قنصلا عام ١٣ ق.م . ومنح السلطة التريبونية لمدة خمس سنوات ، إلا أنه لم يكن قد حان الوقت لكي يصبح وزير أوغسطس ، بل كان فقط بمثابة الحصان الخشبي والدرع الواقى للقيصرة الصغار يرعاهم طالما أن أوغسطس على قيد الحياة وقد كانت هذه المهمة جزاء تافهاً لخدماته الجليلة . وقد تسبب هذا، بالإضافة إلى تعاسته المتزايدة في زواجه من جوليا، في ابتعاده عن الحياة العامة واعتكافه في « رودس » عام ٦ ق.م .

وكما يقول الأستاذ « سيم » Syme فإنه تكمن وراء كل هذه الأحداث المنافسات والمؤامرات التي كانت تحيكها أحزاب البلاط ، ونحن لانستطيع أن نكشف النقاب عن أسرار هذه الأحزاب . ولا بد أن هذا ما كانت عليه الحالة عندما حدثت الفضيحة الشهيرة التي لحقت بجوليا والتي فاحت رائحتها في عام ٢ ق.م ، وتسببت في نفيها إلى جزيرة ما . وكانت جوليا امرأة شابة جميلة ، مرحة ، خارقة الذكاء ، وكان أوغسطس ينظر إليها على أنها عامل نسائي خصب الإنجاب ، فقد أنجبت ستة أطفال ، ولهذا السبب بالذات يجب ألا يقال عنها إنها قد فشلت في رسالتها ، ولكن من السهل الاقتناع بأن هذا الدور لم يكن الدور الذى تحب هى القيام به . وربما كان من الطبيعي بالنسبة لها أن تبحث عن عشاق ولكن كون أحد هؤلاء العشاق ابن « مارك أنتوني » كان أمراً لا يحتمل على الإطلاق ، وما جلبته هذه الأم من عار لم يلطخ سمعة جايوس ولوكيوس قيصر ، فكلاهما كان قد تقدم في منصبه تقدماً كبيراً بكثير من عمره . ولكن مرة أخرى ، تحطمت آمال أوغسطس على صخرة الموت ، إذ مات لوكيوس في عام ٢٢م وجايوس في عام ٤م ، وهكذا دفن تيريوس منافسيه جميعاً في قبورهم ، وفي عام ٤م

تبناه أوغسطس ومنحه السلطة التريبونيه ، وقد كانت كلمات أوغسطس حينذاك صادقة وإن كانت خالية من الذوق والمجاملة إذ قال : « إنى أفعل ذلك من أجل مصلحة الوطن » وفي عام ١٣ م أصدر مجلس الشيوخ قانونا خاصا مكن تيبيريوس من الحصول على السلطة البروقنصلية ووضعته في مكانة مساوية لمكانة أوغسطس الذي لم يكن أمامه سوى عام واحد يحياه .

وكان التجديد والإصلاح الذي تم خلال حكم أوغسطس الطويل الأمد قد غير من كل جهاز في الدولة بصورة أوضح من ظهوره في مجلس الشيوخ . فقد استمر في القيام بمهامه وأغدق عليه كل تبجيل واحترام كما كان يستشار في أمور الدولة . وقد جدد المجلس ما قد منحه من سلطات الرئيس ونوابه لفترة طولها خمس أو عشر سنوات . وفي آخر الأمر أيد وضع « تيبيريوس » بوصفه خليفة لأوغسطس . وكان هذا المجلس يسيطر على إيطاليا وعلى بعض الولايات ذات الأهمية البالغة بل وحتى اكتسب سلطات قضائية وذلك عند مقارنته بمجلس الشيوخ الذي كان قائماً أثناء عصر الجمهورية ، ومع ذلك لم يكن له قدر من النفوذ ، ما يجعله شريكا على قدم المساواة مع « الرئيس » في إدارة شئون الإمبراطورية ، وإذا كان هذا هو ما يعنيه الاصطلاح « الحكم المزدوج » Dyarchy الذي استخدمه كثير من العلماء المحققين عند وصفهم لرئاسة أوغسطس ، فإنه اصطلاح يؤدي بنا إلى فهم خاطئ ، فأوغسطس في سيطرته على الجيش والخزانة وإعلان الحرب وإقامة السلام كان في حوزته سلطات لا يعلى عليها ، يزاولها دون الرجوع إلى مجلس الشيوخ ، واستطاع عن طريقها أن يحد من أوجه نشاط أعضاء المجلس بوسائل مختلفة وكان الانتخاب لدخول مجلس الشيوخ لا يزال قاصراً على صاحبي الوظائف العامة الذين يختارهم الشعب ، ويبدو أن قائمة المرشحين الذين يفضلهم « الرئيس » كانت تتوافق بالصدفة مع اختيار الشعب ، كما كان الرئيس يتحكم في عزل الأعضاء من المجلس ، إذ كان من الممكن إبعاد أى فرد

معارض عند إجراء التعديلات الدورية . والأدهى من ذلك أنه كان يتحكم في جدول الأعمال الذي يعرض على أعضاء المجلس ، وقد جاء هذا مع إعداد مذكرة الأعمال عن طريق لجنة استشارية ، وهذه اللجنة مكونة من الرئيس والقناصل واثنتين من موظفي الوظائف العامة وخمسة عشر عضواً من أعضاء المجلس يتم اختيارهم بالقرعة لفترات طول كل منها ستة شهور . وفي أواخر حكم أوغسطس أصبح يبدو أن قرارات هذه اللجنة قد يكون لها نفس سطوة قرارات مجلس الشيوخ *Senatus Consulta* وهذا ما جعل هذه اللجنة لجنة تنفيذية وبالطبع كان لأوغسطس الحق في أن يتسلم ويقترح تشريعات بوصفه عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ . ومن الواضح أنه لا يمكن أن يظهر حزب معارض حقيقى فى المجلس ، مع أن هذه اللجنة لم تصبح أبداً عبداً رهن إشارة الرئيس مثل «الريخستاج» فى ألمانيا النازية . وكانت العضوية فى المجلس لا تزال امتيازاً يسعى إليه ، وذلك يرجع إلى مكانتها التقليدية إلى حد ما ولكن الأكثر من ذلك لأنها تهمد الطريق أمام آفاق واسعة للفرد نحو تحقيق مستقبل باهر فى مجال الخدمة فى الدولة .

ومن الشائع أن الإمبراطوريات العظمى لا يمكن أن تخلق دون وجود خدمات مدنية كافية . وقد حاولت الجمهورية الرومانية أن تحكم العالم الرومانى بقوانين « المدينة - الدولة » وكان ذلك أحد الأسباب الجوهرية فى فشلها . أما فى ظل حكم أوغسطس فقد وضعت الخطوط العريضة لكل وظيفة مدنية فى الإمبراطورية بأيدى حازمة ، ووصية أوغسطس لخلفائه هى حثهم على استخدام الرجال ذوى المقدرة الذهنية والعملية فى خدمة الدولة ، فأخذ « كلوديوس » على عاتقه مهمة تنظيم الخدمة المدنية تنظيمياً منسقاً وكان الموظفون الرسميون فى الولايات الخاضعة للإمبراطورية يمثلون « الرئيس » وكان هو يقوم بانتقائهم وكان الحكام *Legati* عادة من أعضاء مجلس الشيوخ ، مع أن مصر كانت دائماً فى وضع شاذ إذ كان يحكمها

« وال ، Praefectus من طبقة الفرسان . وكان المسؤولون المليون Procuratores ذوى المراكز العالية من طبقة الفرسان ، أما هؤلاء ذوى المراكز الأدنى فقد كانوا من طبقة الفرسان أو من المعتقين . ولما كانت شركات العامة Publicani الضخمة فقدت امتيازات عقود الضرائب المربحة فى ذلك الوقت ، فقد كان تسخير دكاء أفراد هذه الطبقة وخبرتهم فى الخدمات العامة ، فكرة صائبة . وكان يسمح للحكام بتولى مناصبهم لفترات طويلة حتى يستطيعون أن يلبسوا مشاكل ولاياتهم بصورة لم تكن ممكنة فيما قبل وكانت المرتبات المرتفعة تدفع لكل الموظفين الرسميين على اختلاف مراتبهم . أما حصيلة الضرائب فقد كانت تودع بالخزانة الملكية ، كما كان هناك جهاز لفحص الشكاوى الواردة من موظفى الولايات والرد عليها . وكانت توضع تقارير مفصلة وبصورة منتظمة عن التعداد فى الولايات لكي تكون بمثابة مقياس تفرض على أساسه الضرائب . وبالطبع انعكست صورة هذه المستويات العالية من الإدارة على الولايات التى كانت تحت سيطرة مجلس الشيوخ . وعلى أية حال فقد كان من حق « الرئيس » فى حالة الطوارئ أن يتدخل فى أمور هذه الولايات . « ومرسوم مدينة برقة Edict Of Cyrene يصوره وهو يتدخل فى صمت ، ولكن بصورة حازمة ، لإنهاء الخصومة التى دامت طويلا بين المواطنين اليونانيين والرومانيين فى هذه الولاية التى كانت خاضعة لمجلس الشيوخ . ورغم أننا من الجائز أن نجد نظام حكم سىء فى الولايات أثناء قيام الإمبراطورية ، وهذا ما قد حدث بالفعل ، إلا أن إصلاحات أوغسطس قد جعلت المستوى العام للإدارة فى مكانة أعلى بكثير من المستوى أثناء قيام الجمهورية .

وبجانب هذه الإصلاحات التى أنجزت فى الولايات ، أنشئ عدد كبير من المصالح الحكومية فى روما وإيطاليا ، ففسد أنشئت إدارة القمح Cura Annonae التى كانت تشرف على جمع محصول الحبوب وتخزينه ونقله

عبر البحار ثم توزيع هذا المحصول المستورد من الولايات على عامة الشعب. في روما ، وقد أصبحت هذه الإدارة مصلحة أميرية ووضعت تحت إشراف الوالى Praefectus الذى كان يتولى منصباً من أخطر المناصب التى يتولاها الفرسان مسئولية ، وقسمت مدينة روما إلى أربعة عشر حياً كما زودت بمركز لإطفاء الحرائق وقوة بوليسية بعد مضى وقت طويل . وفى أواخر حكم أوغسطس ، أصبحت هذه الهيئات تحت إمرة والى المدينة "Praefectus Urbi" الذى كان دائماً ضابطاً عظيماً ، وقد كان مركزه هذا ذا نفوذ قوى فى أوائل عصر الإمبراطورية . أما المهام الخطيرة فقد كانت تسند إلى لجان مكونة من أعضاء مجلس الشيوخ ، إذ كانت إحدى هذه اللجان مسئولة عن مرافق المياه ، وأخرى مهمتها العناية بالمعابد المقامة فى المدينة وصيانتها . وهذه اللجنة الأخيرة كانت ثمرة لبرنامج ضخم وضع لتطوير التخطيط المدنى وللصيانة ، وهذا ما خلقت من روما عاصمة تليق بإمبراطورية. وسوف نعود لنتكلم عن هذا التطوير فيما بعد . وهناك لجنة ثالثة هى لجنة الطرق المسئولة عن ترميم طرق العربات الطويلة الممتدة داخل أرض إيطاليا . كما كان هناك هيئة نهر «التبير» التى ربما تسكونت فى عصر أوغسطس وسكنها وجدت بالتأكييد فى عصر تيبيريوس ، وكانت هذه الهيئة مسئولة عن أرصفة موانى نهر التبير وبحراه . ونحن نجد قرائن فى شتى الأوجه تدل على الفحص الدقيق والتخطيط السليم والتحكم التام ، وقد ترك أوغسطس لخلفائه عند مماته تنظيمياً عاماً لموارد الإمبراطورية الرومانية جرداء .

"Breviarium Totius Imperii"

والمقارنة بين النظم التى كفلتها الرئاسة والوسائل الارتجالية التى كانت تتبعها الجمهورية فى أى ميدان ليست أكثر وضوحاً من وضوحها فى معاملة أوغسطس للقوات المسلحة ، وعندما نتوخى الدقة نجد أن الجمهورية لم يكن أبداً لديها جيش بصورة منتظمة ، بل كانت هناك حلقات متتالية من قوات الحملات تعيىء لأجل غرض معين Ad Hoc . ومن الحقيقى أن الحروب

الأهلية التي لم تكن تنقطع كانت تعنى أن هناك مخاطرة ما ناجمة عن البطالة لمن كان يعيش الحياة العسكرية . ولكن نظرا لعدم وجود شروط منتظمة للخدمة او لمنح المعاش بعد انتهاء الخدمة فقد كانت الجنود تعتمد كلية على قوادهم لمكافأتهم مكافأة طيبة عند تسريحهم . وعلاوة على ذلك كان على روما وإيطاليا أن تستنزف النصيب الأكبر من طاقتها في مجال الخدمة العسكرية طالما أن الجمهورية لم تجرؤ أبدا على إدراج سكان الولايات في الجيش على نطاق واسع .

وقد غيرت إصلاحات أوغسطس من كل هذه الأوضاع فأولا ، كان على الجيش نفسه أن يلعب دوراً مختلفاً تماما ، ولما كانت العمليات الحربية داخل أراضي الإمبراطورية قد أوشكت على الانتهاء أصبحت مهمة الجيش هي المحافظة على الأمن في الولايات وتحصين الحدود . واحتفظت الفرق بمكائنها كنواة للجيش ولكن تم تحسين نظام الخدمة والأجور فيها وانتظم . وكان جندي الفرقة يخدم تحت السلاح لمدة ستة عشر عاما ، ثم أصبحت فيما بعد عشرين عاما ، وعند تسريحه كان يقبض معاشا من صندوق معاشات مخصص لذلك "Aerarium Militare" يتكون رأس ماله من الضرائب المفروضة على الموتى ، أما عملية إمداد الجيش بالجنود فقد كان يتم معظمها تقريبا من إيطاليا و ناربونديس و بايتيكا ، مع أن الفرق الشرقية كان يتم إمدادها محليا وخاصة في ولاية جالاتيا . وهكذا أصبح الجيش قوة محترفة ، مدة الخدمة فيه طويلة ، وأتمت الفرق هي ذاتها الروح التي تبعث الحياة في اللوات الضخمة في نظام الجيوش الحديثة . وحتى في أيامنا هذه ، يدرك الإنسان ما كانت عليه شخصية الفرق في هذه الأجزاء من الإمبراطورية مثل المناطق العسكرية في بريطانيا كالفرقة «فاليريا فيكتريكس» Valeria Victrix العشرين في منطقة «تشستر» Chester والفرقة الأوغسطية الثانية في كايرليون Caerleon والفرقة «فكتريكس» Victrix السادسة في يورك

وهلم جرا . وكانت الفرق بجانب قيمتها الجوهرية في أرض المعركة بمثابة قوة احتياطية تضم ضباطا جديرين بكل ثقة اعتادوا قمع الثورات وفي إمكانهم أن يتولوا مناصب إدارية بعد اعتزالهم الخدمة . وقد حدث بالفعل مثل هذا الإجراء بالنسبة لسكبار الضباط بالذات Primipilares كما توضح الشواهد المستمدة من النقوش أن عددا كبيرا من المناصب على اختلاف درجاتها كان في متناول أيديهم . وكانت كل فرقة توضع تحت إمرة ضابط "Legatus" من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ معين من قبل الإمبراطور ، والجنود يقسمون بين الولاء للإمبراطور بوصفه القائد الأعلى .

وقام أوغسطس بتعبئة قوة جديدة من أجل روما وإيطاليا — ألا هي الحرس البريتورى Praetorian Guard الذى كان يتألف من تسع كتائب يتكون كل منها من ١٠٠٠ جندى ويتمتعون بميزات رائعة فيما يختص بالأجر ونظام الخدمة . ولم يكن هناك مفر من أن يكون لهؤلاء الجنود ولقاداتهم دور حاسم في كثير من الأزمات التى حدثت في أوائل عهد الإمبراطورية . وقد أنشئت معسكراتهم الشاسعة Castra Praetoria في عهد تيبيريوس ولا يزال موقع هذا المعسكر يستخدمه الجيش الإيطالى للقيام بحراسة روما .

وبالإضافة إلى هذا الجيش الذى يتألف من الفرق والذى أنشئ على أساس نظم جديدة أنشأ أوغسطس جيشاً آخر مساويا للأول في تعداده ولكنه يتكون من رجال الولايات، ومن المحتمل أن المثل الذى ضربه قيصر قد ترك أثره في أوغسطس ، فقد استغل قيصر الجنود الغاليين استغلالا فعالا . ومنذ عصر أوغسطس أصبحت هذه القوات المساعدة جزءا هاما في القوات الرومانية، وكانت هذه القوات تتألف من رجال الولايات الخاضعة للإمبراطورية وتوضع تحت إمرة زعمائهم أنفسهم أو الضباط العظام Primipilares من ضباط الفرق . وقد تم تنظيمها في وحدات كل منها تضم

٥٠٠ جندي من المشاة (وهى السكتائب Cohortes) و ٥٠٠ أو ١٠٠٠ من الفرسان (وهى الآلاى Alae) . ويبدو أن الهدف من تكوين هذه الفرق كان فى بادىء الأمر الخدمة المحلية — فالغاليون يخدمون فى منطقة الراين وأهل بانونيا فى منطقة الدانوب — وكانت وحداتهم تحمل فى الغالب أسماء المناطق التى تكونت فيها فى بادىء الأمر ، وبعد ذلك أصبح تغيير الأسماء أمراً شائعاً وأصبحت عاملاً من أقوى العوامل التى تعمل على نشر الحضارة الرومانية. لأنهم جعلوا الولايات تشارك فى الدفاع عن الإمبراطورية كما منحت الجنسية الرومانية لجنود القوات المساعدة هو وزوجته وأطفاله عند تسريحه على الرغم أنه من المحتمل أن هذا لم يحدث إلا بعد عصر أوغسطس وعلماء الآثار يلمنون إلماماً تاماً بالدبلوماسية "Diplomata" وهى اللوائح البرونزية التى كانت تسجل عليها مثل هذه المنح . وهناك أكثر من ١٥٠ دبلوما معروفة لنا . وهذا ما جعل فى الإمكان إعادة تكوين قائمة لجيش الإمبراطورية فى أوقات معينة .

كانت قوة الجيش الرومانى بعد ما تم من إصلاحات جديدة على يد أوغسطس تصل إلى ٣٠٠.٠٠٠ رجل ، وهذه تعتبر قوة ضئيلة لمثل هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، وهذا دليل قاطع على أن سياسة روما لم تكن سياسة عدوانية . وفى أثناء حكم أوغسطس كان الجنود فى حركة تنقلات مستمرة. أما فى أثناء حكم تيبيريوس فقد كانت المراكز الطبيعية للفرق كالتالى : ثمانى فرق على نهر الراين وسبع على الدانوب ، وثلاث فى سوريا وواحدة فى مصر واثنان فى أفريقيا وأربع فرق فى أسبانيا .

وقد أعاد أوغسطس تنظيم البحرية أيضاً وذلك بإنشائه قيادة بحرية فى بحر الأدرياتيك تنظم عملياتها من «رافنان» وقيادة أخرى فى بحر «تورهننا» Tyrrhena تنظم عملياتها من «مينسوم» Minesum . ولكن لم يكن هناك أى قوة بحرية منافسة لها فى البحر المتوسط، وكان الهدف الحقيقى من هذه

القوات هو أن تكون بمثابة قوة دفاعية ضد أعمال القرصنة . وكان هناك أيضاً أساطيل صغيرة في نهر الراين والدانوب واليوفراتيس وفيما بعد في القناة الإنجليزية .

وكان أوغسطس بالنسبة للرجل المدني رئيساً للدولة وبالنسبة للجندي قائداً أعلى . ومع ذلك كانت هناك حاجة ماسة لشيء أبعد من ذلك يكون بمثابة البؤرة التي يتجمع فيها الولاء ، هذا الولاء الذي تحتاج الإمبراطوريات المترامية الأطراف والمتعددة الأجناس إلى الاستعانة به . وقد توفر هذا الشيء في عبادة الحاكم ، وهي وسيلة كانت قد لجأت إليها العروش الهلينستية منذ زمن الإسكندر الأكبر فقد كان ملوك أسرة «سليوكوس» Seleucus معابدهم الخاصة بهم وكهنتهم ، كما ورث البطالمة منزلتهم المقدسة عند الفراعنة . وكان الرجال البارزون من الرومان قد أغدق عليهم ألقاباً مقدسة في بلاد اليونان وفي الشرق منذ عهد «فلامينيوس» ، كما أن عبادة الإلهة «روما» Dea Roma كانت قد انتشرت انتشاراً واسعاً . وكل ما كان ينقصه الشرق هوربط عبادة أوغسطس بعبادة هذه الإلهة وتنظيم طقوسها . ومن ثم أقيمت معابد لعبادة الإلهة روما وأوغسطس في «برجاموم» خصصت لولاية آسيا وأخرى في نيكوميديا Nicomedia خصصت لولاية بيثونيا ، وفي أنكورا Ancyra خصصت لولاية جالاتيا ، واختير الكهنة من الطبقة الأرستقراطية المحلية كما ارتبطت هذه العبادة باجتماعات يعقدها المجلس الإقليمي ، وهذا النموذج الآسيوي قد حذى حذوه في ما اكتسبته روما من ولايات جديدة في الغرب — في بلاد الغال وأسبانيا وألمانيا — مع أن ما قد أقيم حتى ذلك الوقت كان مذابح وليست معابد . وبجانب هذه العبادات الرسمية التي كانت على نطاق إقليمي فتح المجال أمام المدن والملوك العملاء والأفراد ليحبروا عن ولائهم ، وذلك بإقامة عبادات خاصة بهم . وتوضح النقوش مدى انتشار مزاولة هذه العبادات الخاصة ، فعلى سبيل المثال ،

بنى هيرود ملك « جوديا » مدينة « كاييساريا » Caesarea الجديدة وأقام فيها معبدا لروما ولأوغسطس .

أما في إيطاليا وروما فقد كان الأمر يختلف إلى حد ما ، فالرأى العام لم يكن ليحتمل التعبد لرجل من البشر ، ولكن يوليوس قيصر قد آله بعد مماته ، وحمل أوغسطس لقب « ابن المؤله » Divi Filius وربما كان يتوقع أن يصدق عليه بدوره ألقابا مقدسة ، وفي نفس الوقت لم يكن هناك اعتراض على عبادة « ملاك أوغسطس الحارس » Genius Augusti وهو القوة التي تبعث الحياة في عائلة أوغسطس . وبعد عام ٧ ق. م . ظهرت منظمات في كل ضواحي مدينة روما (Vici) كرست نفسها لمزاولة هذه العبادة التي امتزجت بعبادة معبودات المنزل العامة Lares Publici كما أن عبادة أخرى مشابهة وهي عبادة « معبودات المنزل الأوغسطية » Lares Augustales أصبحت منتشرة انتشاراً واسعاً في مدن إيطاليا . وبالإضافة إلى كل هذه الأشياء ، كانت تقام احتفالات عامة للمناسبات السنوية التي مرت في حياة الإمبراطور وعائلته . وهناك تقويم عثر عليه في بلدة « كوماي » Cumae (يرجع إلى القرن الرابع الميلادي تقريباً) يشتمل على ستة عشرة مناسبة وزعت على مدار السنة ، ومالا يقل عن مناسبة واحدة لسكل شهر عدا شهرى فبراير ويونيو — وأهم هذه الاحتفالات كان احتفال يستمر لمدة يومين بمناسبة ميلاد أوغسطس (يومى ٢٣ و ٢٤ سبتمبر) . أما المناسبات السنوية الخاصة بيوليوس قيصر وتييريوس ، وفيما بعد الخاصة بجرمانيكوس ، قد وجه إليها الاهتمام أيضاً .

إن القدر الذى حطم القدر الكبير من آمال أوغسطس لم يبخل عليه بالجزاء الذى كان يصلى من أجله : وهو أن يصطحب معه إلى قبره الأمل فى أن تدوم الأسس التى وضعها لتقوم عليها حكومة رومامدة طويلة . وقد قدر لهذه الأسس فى الواقع أن تدوم لمدة مائتى عام تقريباً ، ولم يقض

عليها أيدي الكثيرين من الأباطرة الأشرار ، ولم تحمل محلها السيادة المطلقة التي استمدت من الشرق والتي ترجع إلى الفترة الأخيرة من الإمبراطورية إلا بعدما وقعت الكوارث الاقتصادية والحربية في القرن الثالث . وعندما مات أوغسطس في مدينة « نولا » Nola في إقليم كيبانيا عام ١٤ م وعمره ٧٦ عاما ، كان نظام الرئاسة قد أصبح جزءا من نظم التشريعات ، كما أن الحروب الأهلية كانت قد تلاشت تماما من ذاكرة الناس : والقلة القليلة من رجال روما في ذلك الوقت من عاصر عصر الجمهورية . وكان قد مر على مقتل يوليوس قيصر ما يقرب من ستين عاما ، والقرارات التي كانت قد هزت كيان المحررين ، قد لا يسمع لها في ذلك الوقت إلا صدى خافت ، وفي كل بقعة في إيطاليا والولايات كان ما يحمله الناس من ذكرى للجمهورية مشحونة بالكراهية والاستياء ، بينما كانوا يرحبون بالرئاسة ونفوسهم راضية بل وحتى بحماسة . وكل عمل مجيد من أعمال الإنسانية لا يتحقق إلا بدفع ثمن له ، والثمن في هذه الحالة كان فقدان الحرية السياسية . ولم يكن وقت دفع هذا الدين المستحق قد حان بعد ، ولكن بعض المظاهر التي صاحبت حكم أوغسطس مثل نصوص القوانين الخاصة بعقاب من يسب في ذات الإمبراطور *Laca Maiestas* ، قد أظهرت إلى أى مدى من السوء قد يؤدي إليه هذا الموقف ، ولكن كان الرجال في نفس الوقت قد رأوا في أوغسطس المنقذ الذي يكفل لهم السلام والحكومة الصالحة والرخاء . وربما قد بدا هذا الأمر عملا مجيدا حقا إذا ما نظرنا إلى أحداث التاريخ منذ موقعة « أكتيوم » .

لقد كان أمام أوغسطس ما يكفي من الوقت ليعيد العدة لنقل السلطات إلى يد تيبيريوس نقلا سهلا ، وليؤلف نصبه التذكارى من أجل الأجيال القادمة . وهذا العمل الأخير هو « الأعمال المجيدة » *Res Gestae* أو « أثر أنقرة التذكارى *Monumentum Ancyranum* ، والذي اكتسب هذا

الاسم من النسخة ذات اللغتين التي عثر عليها في أنقرة بتركيا عام ١٥٥٥ م .
ويذكر سويتونيوس أن هذا النصب كان الغرض منه هو أن يقام خارج
مقبرة أوغسطس في روما، بينما وزعت نسخ مطابقة له تماماً على الولايات وهذه
الوثيقة ، بعد أن تسرد الألقاب التي منحت لأغسطس ، تدخل في وصف
تفصيلي للأموال التي أنفقها من دخله الخاص على المشروعات العامة ثم تلخص
غزواته وتنتهي بشرح وتبرير لمركزه الذي استحوذ عليه في الدولة الرومانية
وهذه الوثيقة ، التي تعتبر نقش تذكاري ، نقش يسرد انتصاره ويدافع عنه
أصبحت في الحال تلمح على سيرة حياته ضوماً أراد هو أن تقرها الناس
عليه ، ولا يمكن أبداً إهمال هذا النقش كما أنه لا يمكن أن نسلم به دون وجود
ما يشهد على صحته .

ومن الصعب أن نضع يدنا على خصائص أوغسطس الشخصية فكثير
من فقرات «سويتونيوس» لا تخرج لنا صورة متماسكة ما . وربما كان الأستاذ
«سيم» محقا عندما أخذ ينقب عن عائلة أوغسطس وأصله ليكون مفتاحا
لشخصيته ، وكانت عائلته تنتمي إلى بلدة صغيرة من الريف اللاتيني . وقد
يكون لهذا دخل كبير في تحفظه الديني ونظرته المتعصبة كما كان له في الواقع
دخل في أمرجته الساذجة وكرهيته للتكلف . وما يجدر ملاحظته أن
مشروعاته البنائية الهائلة التي نفذها في روما لم يدخل ضمنها إقامة قصر
«الرئيس» ، وقد كان خلفاؤه — منذ تiberيوس حتى دوميتيان — هم الذين
حولوا تل البلاطين إلى بلاط ملكي من نوع ما ، لقد كان أوغسطس قانعاً
بأن يعيش في بيت متواضع ، وهذا البيت قد احتفظ به فيما بعد باعتباره
بناء تذكاري قوميا ، كما أنه لا يزال من الممكن حتى يومنا هذا رؤية ما تبقى
منه حاملا اسم «منزل ليفيا» وهناك أحداث معينة عن سيرة حياته لا بد
وأن تجذب انتباه أي رجل قوى الملاحظة ، فأولا ، أمامنا رجل يدعو
بطريقة فعلية للإصلاح مستخدما القوة ، فقد كان الطموح الشخصي والرغبة
في الانتقام ليوليوس قيصر تسيطر على أوكتافيان الشاب . وفي وسط تطاحن

عنيف لراحة فيه غايته السلطة، انتزع هو سلطاته ووصل إلى القمة. ولكن
ما إن وصل إليها حتى تحلى بصفة إنكار الذات وتكريس نفسه ليحمل
على عاتقه واجبات إمبراطور فيلسوف. ومثله مثل ماركوس أويليوس
فقد نظر إلى الرئاسة على أنها بلغت مرحلة لا يستطيع أن يتحرر هو منها
إلا بالموت. وقد أحس فيرجيل بهذه الميزة التي يتمتع بها أوغسطس وجعل
من اينياس رجلاً تزداد عظيمته كلما زادت مسؤولياته، ينتهي به المطاف في
آخر الأمر إلى قبول حمل العبء الثقيل الذي ألقاه القدر على كاهله. ومع
ذلك يبدو أن أوغسطس قد تحاشى الجمود وانعدام الإنسانية التي يقع فيها
كل رجل يحمل رسالة، فقد كان يحب مصاحبة الأطفال وكان في إمكانه أن
يخلد إلى الراحة وهو مع أصدقائه وأن يخلق جواً من المرح حتى أثناء إقامة
الاحتفالات الدينية العامة — مثلما حدث عندما قال لرجل يقدم عريضة
متوتر الأعصاب « إنك تبدو كمن يحاول أن يربت على فيل برفق » وعندما
كان على فراش الموت كان في وسعه أن يسأل أصدقائه عما إذا كان قد أتقن
دوره في كوميديا الحياة « إذا كان كذلك، أثنوا على ودعوني أمضى في طريق »

وقد كتب « فتروفوس » Vitruvius عند إهداء كتابه « عن فن المعمار،
De Architectura لأوغسطس ملحوظة بأنه كان يهتم بحياة الرجال العامة،
وقد كان مسافرواً وبحارة سفينة قادمة من الإسكندرية يدفعون نفس الضريبة
ولكن بطرق مختلفة إلى حد ما، وهو الطريق الذي مر به يخته أثناء قيامه
برحلته الأخيرة، فارتدى ركاب السفينة الملابس البيضاء ووضعوا غصون
الغار على رؤوسهم وتعالى صيحات الشكر له لأنهم بفضلهم يتمتعون بالحياة
وبالرخاء وبحرية الملاحة في البحار .

ومع ذلك على الرغم من تفانيه في العناية بشئون العالم الذي يحكمه، لم يعلم
الإمبراطور العظيم شيئاً عن أهم حادثة وقعت أثناء حكمه. ففي حوالي ما يقدر
بالعام الثامن أو السادس قبل الميلاد — على الرغم من أنه يجب أن يكون العام

الأول الميلادى حسب تقويمنا - قام كويرينوس Quirinius حاكم سوريا بعملية إحصاء في فلسطين ، وبين الجماهير الغفيرة التي كانت في طريق عودتها إلى قراها الأصلية لتسجل نفسها كان هناك نجار وزوجته ، وقد كانا في طريقهما إلى بلدة الناصرة ولكن الزوجة الشابة كانت حاملا ، وقد جاءها المخاض عندما كانا في بيت لحم ، ولم تكن هناك غرفة خالية في الحانة ، وهكذا ولد طفل في حظيرة ، قدر لحياته أن تغير من الإمبراطورية الرومانية ومن العالم .

ولم تكن عقلية العصور الوسطى التي كانت تنظر إلى قيام المسيحية وتكوين الإمبراطورية الرومانية كجزء من نفس الرسالة المقدسة ، لم تكن هذه العقلية لتصديق أن أوغسطس لم يكن يعلم شيئا عن « يسوع » . وهكذا جاءت إحدى الأساطير المسيحية ذات الأثر البعيد - وهي التي تحكى كيف أن أوغسطس قد كشفت له رؤيا فتاة طاهرة تحمل طفلا وتقف على مذبح « ثم جاء صوت يقول : هذا هو مذبح ابن الله ... وفي الحال ركع الإمبراطور وتعبد للمسيح الذي سيولد » ويقال إن هذه الرؤى قد حدثت على تل الكايتول حيث توجد الآن كنيسة « سانتاماريا » Santa Maria في أراكويل « Araceli » .

الفصل التاسع

الأدب والفن في عصر أوغسطس

إن القليل من فترات التاريخ ما يمكنها أن تقف على قدم المساواة مع الأعمال الخلاقية التي أنجبها عصر أوغسطس في ميدان الأدب والفنون — وهذه الفترات هي عصر بيركليس في أثينا، واليزابيث في إنجلترا ولويس الرابع عشر في فرنسا — وقد لا يكون من السهل أن نضيف شيئاً إلى هذه القائمة، فعصر النهضة في إيطاليا كان ظاهرة أكثر تعقيداً وامتد خلال فترة أطول من الزمن. وقد أصبح المصطلح «الأوغسطي» Augustan ينسب إلى فترات زمنية ترمز بحضارة أمة تستحق بالفعل أن يطلق عليها لقب «كلاسيكية». وهي فترات تكون فيها الآداب في مرحلة تجاوب مع أهداف الحكومة ومثلها العليا. والقاعدة القائلة بأن الكتاب العظام يجب عليهم أن يسهموا في بناء الدولة قاعدة تناقض نفسها في عصرنا الحديث. ذلك لأن هؤلاء الكتاب العظام أصبحوا على الدوام منذ عصر الرومانتيكيين من الثائرين على الأوضاع. ولكن البرنامج الذي وضعه أوغسطس للإصلاح كان في إمكانه أن يمهّد السبيل أمام مجالات تشتمل على المثالية والحماسة: مثل السلام بعد الحرب، مصير روما وإيطاليا الذي لا مفر منه، عظمة الماضي، والإيمان من أخلاقيات العصر الحديث عن طريق الرجوع إلى فضائل هذا الماضي، وقد ظهر تعبير لكل هذه الأفكار المثالية في كل من «الإنيايدة» Aeneid و«أناشيد هوراس» "Odes" وتاريخ ليفي Livy وأعمال فن النحت في مذبح السلام Ara Pacis. ولكن أوغسطس قد كفل الظروف التي من الممكن أن يزدهر فيها الكتاب. وكان هو نفسه ناقداً ذواقاً للأدب، كما أنه لم يكن

كاتبا فاشلا . فضياع مؤلفاته الثلاث عشر عن سيرة حياته يعتبر خسارة فادحة . فقد تعلم كيف يجذب العباقرة من الرجال إليه ويشجعهم على البدء ثم يتركهم وشأنهم .

كان هذا العصر ، بغض النظر عن الإمبراطور نفسه ، عصر الحياة العظام ، وهي ظاهرة اعتبرها « مارتيا ل Martial » ، عندما أصدر حكمه السطحي ، ضمنا لوجود العباقرة من الكتاب . فهناك مؤرخ وناقد أدبي دقيق هو « أسينيوس باليو » Asinius Pallio ملاً الفراغ الذى يفصل بين كاتلوس وفيرجيل ، فقد شجع هوراس وفيرجيل في شبابهما ونصح فيرجيل بالكتابة في الشعر الرعوى ، ويقال إنه أول من بدأ عادة نشر الأعمال الأدبية الجديدة عن طريق الإلقاء العام . وهناك « ميسالا » Messala الذى حارب في جانب الحزب الجمهورى وكتب عن التاريخ وعن أساليب الكتابة وجمع حوله جمع من شعراء الشعر الغنائى . وفي مقدمة هؤلاء الحياة يقف « مايكناس » Maecenas ، صديق « فيرجيل » و « هوراس » و « بروبرتيوس » Propertius الذى أصبح اسمه مرادفا لغزارة الإنتاج الأدبى الرائعة . فقد خدم الأدب في عصره مثلما خدم « لورد بورلنجتون » Lord Burlington فن القرن التاسع عشر في إنجلترا . وكان الأدب هو التعبير الفنى الذى تميزت به روما في عصر أوغسطس . فقد قال هوراس « المتعلمون وغير المتعلمين سواء ، فنحن جميعاً نكتب القصائد في شتى الموضوعات » وكلمة « القصائد » هذه هي مفتاح أدب هذا العصر . فقد كان عصر آ للشعر لا للنثر ، وبقى لا يعتبر في الواقع شاذاً عن هذه القاعدة لأن عمله الأدبى عبارة عن ملحمة نثرية ، « بأن التاريخ قريب الصلة من الشعر » كان هذا هو الحكم المذهل الذى أصدره ناقد من أقدار النقاد الرومان . وهذا الجمع من المهتمين بالأدب الذى لم يكن موجوداً في روما فقط بل امتد وجرده إلى المدن الرئيسية في الولايات هو الذى كفل وجود جمهور لكتاب عصر أوغسطس ، جمهور ليس من السهل ترويضه بأى حال من الأحوال . والعصر الذهبى للأدب الرومانى

لا يضاهيه أى عصر تلاه : لكن بالنسبة للفنون اختلف الأمر إلى حد ما فى مجال التصميم الهندسى ، فعلى الرغم من إبداع فن المعماريين فى روما تحت حكم أوغسطس ، فقد كان هناك مستويات أعلى بكثير فى عهد تراچان وهادريان .

وفيرجيل هو الشخصية الرئيسية فى الأدب الأوغسطى — كما أنه يكمن فى قلب تراث الغرب الحضارى . ولد فيرجيل فى عام ٧٠ ق . م . وهو الابن الوحيد لفلاح يعيش بالقرب من بلدة « مانتوا » Mantua فى منطقة الغال القريبة . وكانت هذه الرقعة لا تزال ولاية ، وهى منطقة حيوية تقع على الحدود ذات زراعة خصبة ومدن نامية . ذهب فيرجيل الشاب فى بادىء الأمر إلى مدرسة فى بلدة « كريمونا » Cremona ثم بعد ذلك إلى مدرسة فى « ميلان » Milan ، وفيما بعد أرسل إلى روما ليتلقى منهجاً فى علم البلاغة التى يبدو أنه كان يكرهها من أعماق قلبه . وليس من الموثوق به ما إذا كان قد خدم فى الحرب الأهلية أم لا . ولكن وجود مقموعة مؤثرة بين مؤلفاته عن القتلى الرومان الذين لاقوا حتفهم فى ميدان معركة « فارسالوس » ومعرفته لشواطئ البحر الادرياتيكي دعمت الأستاذ « تني فرانك » Tenny Frank اقتراض أن فيرجيل قد خدم مع أوكتافيا وأنتوني فى عام ٤٩ و ٤٨ ق . م . كما أن وصفه لمخاوف الحرب يكشف دون شك عن خبرة اكتسبت عملياً . وفى عام ٤٨ ق . م أصبح تلميذاً للمدرسة الأبيقورية فى مدينة نابولى ، أملاً بذلك أن يجد هناك ماوى يهرع إليه ، وسواء كان قد عثر على هذا المأوى فى حديقة بيقوروس أم لا ، فقد كانت نابولى وكمبانياهى ماواه طيلة حياته . وما أن جاء ذلك الوقت حتى كان فيرجيل على صلة « بيباليو » ، و ميسالا ومايكناس ، الذين قدر لهم أن يصبحوا حماة الأدب فى العصر الجديد .

وكان أول عمل نشر له ، باستثناء بعض القصائد التى نظمها فى شبابه والى يشك فى نسبها إليه ، هو « الرعويات » Eclogues التى رأت الضوء

في عام ٣٧ ق . م . أو قبله . وهذه القصائد ذات الطابع الرعوى ، التي تصف الريف حيث يعيش رعاة لهم تقاليد رعوية ترجع إلى صقلية ، يغنون ويتبادلون الحب في منطقة هي جزء من كمانيا ، وجزء من شمال إيطاليا وأحياناً وراء هذه المنطقة الجغرافية ويقبلها في الحال جيل قد أجهده الحروب بترحاب بالغ :

فهذه هي أرض الرضا الضائع

أراها تتلألاً في وضوح

وهذه هي الطرق العالية السعيدة

التي سلكتها، ولا أستطيع العودة

ولكن آمال ومخاوف الحاضر تقطع أوصال القصائد حتى تلك التي كتبت عن « أركاديا » فهناك قصيدتان (الأولى والتاسعة) تصوران حالة فلاحى بلدة « مانتوا » وقد طردوا من أراضيهم ليستوطن فيها جنود « أوكتافيان » القدامى ، ويقال إن فيرجيل قد فقد أرضه عند إجراء هذا التعديل ولكنه استعادها من « أوكتافيان » نفسه . والأنشودة الرابعة هي الأنشودة التبشيرية الشهيرة — وهي عبارة عن تنبؤ بقدم عصر ذهبي سيعم على الأرض في هذا الوقت طالما أن الحرب قد انتهت ، وسيكون ميلاد طفل هو إعلان بداية هذا العصر . ولم تكن هذه النبوءة بالنسبة لعقلية العصور الوسطى سوى تنبؤ بميلاد المسيح . ومن هنا جاء الاعتقاد بأن « فيرجيل » هو نبى الوثنيين ، كما جاءت رواية العصور الوسطى التقليدية عن « فيرجيل الساحر » . ومنذ عام ٣٧ ق . م . توطدت صلة فيرجيل بما يكناس وأوكتافيان . وأصبح يمتلك منزلاً في روما . ولكنه كان يقضى معظم وقته في ضيعته الريفية بالقرب من نابولي . وكان لإنتاجه بطيئاً ولكن قراءته عميقة ؛ إذ أغرق نفسه في مؤلفات الكتاب اليونانيين

واللاتينيين العظام وخاصة هومير، وأنيوس، ولوكريتيوس. وقد درس الفلسفة والتاريخ، والأساطير وعلوم روما، وإيطاليا القديمة، كما كان شديد الشغف بالحيوانات والطيور، والأزهار والحشرات ويتمتع بنظرة ثاقبة تدرك ما تتميز به هذه المخلوقات.

وعندما عاد «أوكتايفان» من «أكتيوم» في عام ٢٩ ق. م. قام «فيرجيل» بإلقاء عمله الثاني الرائع وهو «الزراعات» Georgics وهو في الواقع قصيدة تعليمية - كما جاءنا، وهكذا يقول فيرجيل نفسه فالكتاب الأول يتناول نمو القمح والثاني الكرم والزيتون والثالث «الأبقار والأحصنة» والرابع النحل. ولما كان أوغسطس مهتماً بإحياء الزراعة الإيطالية فهذه القصائد تتناسب تماماً والسياسة الرسمية للدولة. كل هذا أمر مسلم به. ولكن إذا اعتبرنا الزراعات كتاباً للفلاحين قد كتب بتكليف من الحكومة. فعنى ذلك أننا نخطئ فهم هدف الكتاب بصورة هزلية. وأول ما يجب أن نضعه في اعتبارنا هو أن مثل هذا الكتاب قد يكون زائداً على الحاجة، إذ كتبه «فارو» من قبل، والأقرب إلى الصواب هو أن الزراعات حالها حال الانيادة، فهي تتأرجح بين ثلاثة مستويات، وأبسط هذه المستويات القصيدة التعليمية، ومن الحقيقي أنه يوجد بها مقطوعات عن اختبار التربة لمعرفة كمية الأحماض بها وعن الصفات المميزة للبقرة وعن أعراض مرض القدم والفم وعن كيفية إسكان جماعات النحل. ولكن المستوى الأبعد من هذا هو أن فيرجيل قد اهتم اهتماماً بالغاً بفلاحي إيطاليا وبالذور الذي في مقدورهم القيام به في ركب الدولة. وكان قد رأى الزراعة الإيطالية وهي في أقصى مراحل غناها في بلاد الغال القريبة وفي «أجيركمبوس». وعلى ذلك «الزراعات» تصور هذه الحياة بكل أوجه نشاطها المختلفة: حرث الأرض وبذر الحبوب، حصد الحبوب، وجمع الكرم، أيام الراحة ومواعيد مهرجانات الربيع ولكنها تصور أيضاً العمل الذي لا ينقطع والأمراض التي تصيب أقدام الماشية والطاعون الذي يتفشى بينها والمحاصيل الشجيحة والآمال المحطمة. ومع ذلك فهذه الحياة في مجملها هي أمتع حياة

فتحت أبوابها أمام الإنسان ، ذلك لأن فيرجيل كان يؤمن إيماناً خفياً بإيطاليا — أرض ساتورن Saturnia Tellus باعتبارها أكثر الأراضي ملائمة للزراعة ، حيث الغذاء والمحاصيل ، والأحصنة ، والماشية والبشر تستطيع كلها أن تصل إلى حد الكمال . ولم يحدث أبداً أن وصفت مناظر إيطاليا الطبيعية ، بصورة أروع من وصفها في مقطوعته الشهيرة: الأنشودة الزراعية الثانية . والأبعد من ذلك أيضاً هو أن فيرجيل كان كان يهتم من أعماقه بمشاكل الإنسان وعلاقته بالأرض . فقد كان يؤمن بأن الحضارة لا يمكن أن تدعم إلا على أسس من الزراعة ، وهذه حقيقة صادقة في أيامنا هذه مثلما كانت في أيامه ومن ثم فإننا نرى في الزراعات لمحات عن زراعة كل العالم وماشيته على أيامه : أراضي آسيا الخصبة ، غابات ميديا ، نديز بلاد اليونان الشهير . وكذلك رعاة روسيا وإفريقيا البدو . وفي مقطوعة روماتيكية وهي الأنشودة الزراعية الرابعة ، يقودنا فيرجيل إلى عالم عرائس الماء السفلى ، ونرى منابع كل الأنهار التي تمتد الأرض بالحياة . وبالاختصار فللزراعات سحر عام يسرى مفعوله في كل العصور والقرون ويجذب كل من يهتم بالحياة على الأرض .

وبعد الزراعات جاءت « الانيادة » . وكانت فكرة نظم ملحمة قد اختمرت في ذهن فيرجيل . وحدث أن اتجه فكره ذات مرة إلى حروب أوغسطس ليجعل منها موضوعاً لهذه القصيدة ، مثلما فكر « ملتون » ذات مرة في كتابه قصيدة عن الملك « آرثر » . ولكن قام كلاهما باختيار آخر أكثر حكمة . واستمر فيرجيل يكتب طوال إحدى عشر عاماً في قصته « أينياس Aeneas » . وعندما توفي في عام ١٩ ق . م . لم تكن القصيدة قد اكتملت بعد . وكان أوغسطس نفسه هو الذي أمر بالاحتراق هذه القصيدة كما أوصى فيرجيل وهو على فراش الموت ولكن نشرها على حالتها . واختيار فيرجيل لهذا الموضوع وضع بين يديه قصيدة ذات مضمون « هو ميري » ، على الرغم من أنها لم تكن في المجال الذي كتب فيه هو ميري

قصيدته . ومن ثم فإن فيرجيل يصف الاستيلاء على طروادة وتدميرها ، وكيف هرب « أينياس » وأتباعه وأبحروا على سفنهم ليهربوا عن حياة جديدة في أراضى الغرب . وبعد كثير من التجوال الواهى ، والصعاب ، الجمّة يصلون إلى إيطاليا ، ولكن تدفعهم عاصفة بعيداً عن هذا الشاطئ ، إلى شاطئ إفريقيا ، إلى قرطاجنة ، المدينة التي كانت قد أنشئت حديثاً . وافترة من الزمن يبدو مصير روما وعدوتها اللدود على وشك الارتباط في صورة حب « أينياس لديدو » ملكة قرطاجنة ولكن هذا الحب ينتهى نهاية مأساوية ، إذ يبحر « أينياس » وتلقى ديدو حتفها وذلك بانتحارها . وهى تتوعد بقدم منتقم جبار ، وقد جاء هذا المنتقم بعد عدة قرون في شخص « هانيبال » . والكتاب السادس من الانيادة هو نواة القصيدة وجوهرها . إذ يستشير « أينياس » عرافة بلدة كوماى ويعثر على الغصن الذهبى ، وهذه التيمة ينزل إلى العالم الآخر . وفي هذا المكان يكشف له أبوه « أنخيسيس » Anchises عن الرؤيا الأخيرة لمصيره . وهى عبارة عن نبوة يملؤها الكبرياء عن تاريخ روما في المستقبل ، وعن رسالتها في أن تحكم العالم . وفي نهاية الأمر كان أينياس يهزم ماضى طروادة هزأً عنيفاً ليواجه مستقبل روما . والكتاب السابع يصور الطرواديين وقد وصلوا إلى مصب نهر التيبر ، ويحكى عن شعوب إيطاليا وأساطيرها البطولية في الوقت الذى يستعدون فيه للحرب . وفي الكتاب الثامن يصل الطرواديون إلى مكان مدينة روما ، وكان أيتياس أول من نزل من السائحين قاطبة إلى روما ، فيطوف به « ايفاندر » Evander الملك اليونانى حول المدينة . ورأى « اينياس » الماشية في السوق الرومانية . وهى تنعركا رأى الغيضة الغامضة حيث سيرتفع معبد « جوبيتر » على تل السكايتول . واقتراده ايفاندر إلى منزله البسيط القائم على تل البلاتين حيث سيقام فيما بعد منزل أوغسطس وفي خاتمة الكتاب يتقبل هدية عبارة عن

درع صنعه فولكان وقد نقشت عليه نبؤة أخرى عن تاريخ روما ذكرت فيها معركة « أكتيوم » بوصفها قمة هذا التاريخ . وهكذا ذهب أينياس إلى الحرب ضد الإيطاليين وضد بطلهم المغوار (تورنوس) Turnus وقد حمل على كاهله صيت أحفاده ومستقبلهم . وهذه الحروب هي الموضوع الذى تناوله الكتب الأربعة الأخيرة، وعندما يسقط تورنوس فى آخر الأمر فهذه هى هزيمة الخير على يد الأخير ، مثلما كان مقدرآ لكثير من الشعوب المتبربرة العريقة أن تلقى هزيمتها على يد روما .

هذه هى قصة الانبادة فى خطوط عريضة على مستوى سردها القصصى ولكن لايزال هناك المزيد . فهى أيضاً قصة الرجال والكفاءات اللازمة لجعل روما عظيمة ، قادة مثل اينياس ، يصمدون أمام كل الكوارث ويتخلون عن كل أغراضهم الشخصية فى سبيل واجبهم ، رجال يستطيعون أن يتغاضوا عن حب عزيز عليهم مثلما ترك أينياس ديدو ، ولم يترك أنتوني كليوباترا . وأخيراً ينتقل فيرجيل إلى ما وراء روما والإمبراطورية الرومانية ليتناول الإنسان ومكانه فى السكون كما يجب أن يفعل أى شاعر عظيم ولهذا السبب والأسلوبه السامى اختاره (دانتى) Dante ليكون مرشده فى الكوميديا الإلهية Divina Comedia وهكذا تكونت السلسلة الرائعة هويمير - فيرجيل - دانتى - وهذا أجل تتابع جاء فى حضارة أوربا .

أما هوراس Horace (٦٥ - ٨ ق . م .) فقد كان صديق فيرجيل وتتمتع هو أيضاً برعاية مايكناس وبصداقة أوغسطس . وكان يصغر فيرجيل بخمس سنوات . وقد جاء من الجنوب من مستعمرة فينوسيا Venusia فى أبوليا . وكان أبوه عبداً فى وقت ما ، ولكنه جمع ثروة تكفى لشراهجته وتلقى ابنه أرقى أنواع التعليم فى أيامه وعلى الرغم من أن هوراس قد اكتسب صداقة العظماء إلا أنه لم يحاول أبداً أن يخفى أصله المتواضع هذا ولا إعجاب به بآبائه وحبهم له . وتخرج من مدرسة فى روما ثم ذهب إلى الجامعة فى أثينا .

وهناك انتفضت عليه الحروب الأهلية ، ودفعته أمامها لينضم إلى جيوش الجمهوريين ويحارب في موقعة (فيلبي) - بين صفوف الحزب الخامس وتمع ذلك فترة قضاها في وظيفة مدنية أجرها ضئيل لا تتكافأ واحتياجاته . وقد انعكست مرارة هذه الفترة في قصائد (الايبوديس) Epodes وفي بعض القصائد الأولى من (الهجائيات Satires) . وقد انتشله فيرجيل من ذلك المأذق وقدمه إلى ما يكتناس في عام ٣٨ ق . م . ومنذ ذلك الوقت أصبح متحرراً من المتاعب الاقتصادية وقادراً على مسامرة نزواته الأدبية التي تجمع بخرابة بين القالب الفني الدقيق ، وشذوذ في اختيار الموضوع والشكل .

وكانت قصائد (الهجائيات Satires) (٣٥ - ٣٠ ق . م) أول عمل فني له حمل اسمه ، وقد شكلها على نمط هجائيات (لوكيلوس Lucilius) ولكن مع اهتمامه اهتماماً بالغاً بالخاتمة وخفف فيها من قدح الشاعر القديم وسخريته وحوّلها إلى فكاهة ذات طبيعة طيبة ، وهذه القصائد تعكس أيضاً أثر الفلسفات الشائعة المنتشرة وهي الفلسفة الرواقية والفلسفة الأبيقورية . وكان مكان أحداث القصائد عادة هو روما مع إعطاء بعض صور حيوية للحياة اليومية في العاصمة خلال العام الذي سبق وقوع معركة أكتيوم ، ولكن كان هوراس في أعماقه يفضل حياة الريف وازدادت جاذبيتها له لإغراء بمرور الزمن وفي عام ٣١ ق . م . منحه ما يكتناس المزرعة الواقعة في الريف السابيني على بعد بضعة أميال من (تيفولي) والتي أصبحت أعز ما يمتلكه طوال حياته . وقد عرضت عليه وظيفة سكرتير أوغسطس الخاص ولكنه رفضها مفضلاً الاشتغال في اتجاه أدبي آخر ألا وهو الشعر الغنائي .

وفي عام ٢٣ ق . م وبعد ثمان سنوات من العمل المتواصل أخرج هوراس إلى الدنيا ما قد اعتبره هو نفسه أعظم عمل شعري له وهو « الإناشيد » Odes في ثلاثة كتب تحتوي على ثمانية وثمانين قصيدة بخمسة عشر جزءاً

لا حصر له من الموضوعات وعلى تنوع في الأوزان الغنائية اليونانية التي تناولها هوراس بإتقان بالغ وصل حد الكمال ، والاعتقاد السائد عادة هو أن الشعر الغنائى يتناسب مع الشباب — على الرغم من أن الشاعر « بيتس » نظم البعض من أعظم اشعاره الغنائية وهو في سن الشيخوخة — لكن أناشيد هوراس ما هى إلا نتاج نضوجه واكتامه . والقصائد الست الأولى من الكتاب الثالث تقف متلاصقة لتكون مجموعة واحدة يعلن فيها هوراس بأنه يقوم بدور المعلم للشباب الرومانى فى ميادين الأخلاقيات والوطنية ، وتعرف هذه القصائد باسم (الأناشيد الرومانية) Roman Odes ، وعدا ذلك تقف كل قصيدة كوحدة فى حد ذاتها ويجب تقييمها على هذا الأساس ، وفى بادىء الأمر لم تلق أناشيد هوراس نجاحا بين الجمهور الرومانى ، إذ لا بد أن يعانى القارىء حقا لكي يفهمها كما كان لهوراس أن يعانى عند كتابتها . ولكنها تعتبر حداً للكمال فى ميدانها ، وقد تسكلم (برونوس) عن هوراس بعد مرور قرن من الزمن فى جملة شهيرة إذ يصفه بأنه (السهل الممتنع) 'Curiosa Felicitas' كما أجرى ناقد حديث بإتقان مقارنة بين فن هوراس وأعمال فنان رسم الموزايكو . فمقطع بعد مقطع نجد أن الكلمات قد وضعت فى مكانها المناسب وقد تم اختيارها اختياراً دقيقاً فى موضعها ولونها وتأثيرها . ويجب أن ننظر إلى أنشودة هوراس من زوايا عديدة كما نفعل تماماً مع فن الموزايكو البيزنطى ، وما إن يتم استيعابها حتى لا يزول تأثيرها بسهولة . إن الرجال يحملون فى أذهانهم طوال حياتهم أناشيد هوراس التى تعلبوها وهم يدرسون فى المدرسة .

وعندما خاب ظن هوراس للطريقة التى استقبل بها الجمهور (الأناشيد) اتجه مرة أخرى إلى الهجائيات أو بالأحرى إلى نوع جديد أصيل استمدده . منها جاء فى كتابه (الرسائل) Epistles وهى فى الواقع عظات عن تصرف الإنسان وأخلاقه فى شكل رسالة يرسلها رجل قد أصبح على وفاق تام مع

الحياة وعثر على السعادة في معرفته لحدوده والعيش في نطاقها . وهو يتمتع في أخطائه وأخطاء الآخرين بتسامح رقيق يشفع لإسدائه النصيح . إن (الرسائل) تظهر اتصافه بالمدينة (Urbanitas) في أعلى مراحلها وهي صفة تجمع ما بين الإدراك السليم والفكاهة المستحبة والذوق الرفيع . وهذا ما حبه كثيرا إلى نفوس كبار كتاب القرن الثامن عشر . والرسالة السابعة من الكتاب الأول ، التي فيها أعلن هوراس على ما يكناش بعزة نفس ولباقة تصرّيح بالاستقلال عنه ، لها شهرة ذائعة الصيت عن جدارة فهي مصدر للثناء على الشاعر وعلى راعيه . أما الكتاب الثاني من الرسائل فهو يختص بالنقد الأدبي (فن الشعر) Ars Poetica يعالج نظرية المأساة . وقد انتشرت قراءته بكثرة في القرن السابع عشر والثامن عشر وخاصة في فرنسا . وكثيرا ما أسمى فهمه . وفي عام ١٧ ق . م . كتب هوراس الأناشود الرسمية من أجل الاحتفالات القرنية . وبعدهم ورعدة سنوات نشر كتابا رابعا في (الأناشيد) نزولا على رغبة أوغسطس . وقد توفي في عام ٨ ق . م . بعد أن كانت أعماله قد أصبحت (كلاسيكية) (١) في أثناء حياته .

وفي هذا الوقت كان شعر العشق (الايجي) ، وهو ابتكار أدبي روماني قد بلغ ذروته . وقد ذاع صيت أربعة أسماء ، ذلك بخلاف الكثير من الأسماء الأقل شهرة والأسماء الأربعة هي : جالوس Gallus تيبولوس Tibullus بروبرتيوس Propertius وأوفيد Ovid ، وكان السلم الأوغسطي قد مكن الرجال من التمتع بوقت فراغ يتابعون فيه السعى وراء أهدافهم . وهذا ، بالنسبة لشباب يعيش في عاصمة غنية يسودها المرح ، يعني أولًا وقبل كل شيء مزاوله الحب . إذ قال أوفيد (إن روما جنة العشاق فالفتيات فيها

(١) كلمة كلاسيكي Classicus تبنى في الأصل اللاتيني « ممتاز »
رائع .

وفيرات مثل النجوم في السماء ، ولقد كانت فتيات الصالونات اليونانيات، والرومانيات ، اللاتي كن يتمتعن بخفة الروح وبسرعة البديهة والذكاء والجمال الساحر الموضوع الذي يدور في فلسفة شعر العشق الروماني ، وقد تبنى (بروبرتيوس) أن يكتب كتاباً صغيراً لفتاة وحيدة تقرأه وهي تنتظر وصول رفيقها - وعندما يأتي ففي وسعها أن تلقى بالكتاب بعيداً . لقد كان الشعراء الرومان هم الذين جعلوا شعر الاليجي هو شعر الحب السائد، مهما كان عليهم من دين يدينون به لمن سبقوهم في ذلك المجال من الشعراء. اليونان أمثال (كالماخوس وفيلتاس) شعراء عصر الإسكندرية ، ونشرت أشعار الحب Amores التي كتبها جالوس في عام ٣٩ ق.م وقد لا يكون هناك شاعر من الشعراء الذين فقدت أعمالهم من نستطيع أن نستعيد مؤلفاته. أما تيبولوس (٤٨ - ١٩ ق.م) فهو شاعر موهوب في حدود إمكانياته، وما يصوره عن حياة الريف له نضارة صباح يوم من أيام الربيع. أما قصائده عن الحب فلها سحر وعذوبة لا يستطيع أن يخرج مثلها أي شاعر روماني آخر على الرغم من أنه كان ينقصها عاطفية (كاتولوس) المتأججة . وكان (تيبولوس) ينتمي إلى حلقة (ميسالا) الأدبية ، وهناك قصائد كتبها أعضاء هذه الحلقة الآخرون جاءتنا تحمل اسم (تيبولوس) وأرق هذه الأشعار ست قصائد كتبها (سولبيكييا Sulbicia) ، وهي من رعايا (ميسالا) ، وأشعارها هذه رقيقة في حد ذاتها تثير اهتماماً فريداً في نوعه ، إذ أنها القصائد الوحيدة التي وصلتنا من هذا العصر نظمتها امرأة .

أما (بروبرتيوس Propertius) (٢٤ - ١٦ ق.م) فهو من أعظم الشعراء الرومان ورجل يتمتع بشخصية عاطفية معقدة . ولد في إقليم أومبريا (Umbria) ، وقد يكون في بلدة (أسيسي Assisi) ، وقضى فترة طفولته كلها في غمار الحروب الأهلية ثم اصطحبته أمه إلى روما لكي يتلقى العلم فيها . ولا بد أنه كان يؤتبه دخل خاص ، فعلى الرغم من أنه درس اللغات، بصورة مشتتة ، إلا أنه سرعان ما استسلم للحياة الصاخبة التي كانت تسود

المدينة . وله قصة حب جارف مثل تلك التي تحكى عن (كاتوالوس) ،
(لسبيا) ، وهذا هو الدافع الذى خلق منه شاعراً . ونشر كتابه الأول
حوالى عام ٢٨ ق.م . وعنوانه (كوثيا) Cynthia وكان اسم عشيقته
الحقيقى هو (هوستيا) Hostia وتظهر شخصيتها بصورة واضحة فى أشعاره ،
لقد كانت امرأة جميلة متقلبة الأطوار جعلته يمر بكل مراحل عذاب العشق
طوال خمس سنوات ، وعندما تركته جف الشريان الغزير الذى كان يتدفق
شعراً ، مع أنه يوجد بعض القصائد الرائعة التى تدور حول الأساطير
الرومانية ضمن كتابه الأخير . ولكن لا يعلق بذاكرة الإنسان سوى أشعاره
التي كتبها عن « كوثيا » — فهى تصور « كوثيا » وهى على الشاطئ فى
بلدة « بايياى » Baiiae يحوط بها شباب بهى الطلعة : وهناك حفلة صاحبة بها
نساء أخريات ، تقطعها كوثيا بحضورها ثم هناك معركة تلى ذلك ، فليلة
حب ونذير فناء . والأروع من ذلك هو القصيدة الخالدة التى يظن فيها شبح
« كوثيا » ليذكره بحبها ويطلبه بالوفاء بوعده بأنهما سيكونان فى القبر سوياً .
والذى حال دون نيل بروبرتيوس ما يستحقه من شهرة على الرغم من أنه
يلقى تقديراً جليلاً فى أيامنا هذه هو بعض الغموض فى أسلوبه والفوضى التى
عليها المخطوطات . وإذا قارنا بين عصرنا والعصور السابقة ، نجد أن كل
العصور تقريباً عدا عصرنا الحالى قد وضعت الشاعر « أوفيد » Ovid بين أعظم
الشعراء الرومان قاطبة ، والقليل من الشعراء الذين ظهروا فى الفترة ما بين
« بترارك » Petrarck و « بايرون » Byron من لم يقع تحت تأثيره ، كما أنه
أمد عدداً لا حصر له من رسامى الأساطير الكلاسيكية بكثير من الموضوعات .
وفى عصر اليزابيث أعلن أحد المعجبين بشكسبير الشاب قائلاً « إن روح أوفيد
الصفافية الخفيفة تعيش فى شكسبير ذى اللسان العذب الحلو » . ولد أوفيد فى بلدة
سولمو Sulmo (سولمونا Sulmona) عام ٤٣ ق.م من أسرة ميسورة الحال
مهدت له السبيل لى يتلقى تعليماً راقياً فى روما وأثينا وحاولت جاهدة لإقناعه
بالعدول عن أن يصبح شاعراً لكن دون جدوى . وقد أجاز بيكاسو Picasso

عندما لامه الناس لأنه يرسم أسوأ من طفل في الثانية عشر قائلًا : « آه ...
عندما كنت في الثانية عشر كنت معتاداً على أن أرسم مثل رفائيل وبالمثل »
عندما كان أوفيد في الثانية عشر من عمره كتب مثل أوفيد نفسه تماماً — إذ تحول
كل شيء بين يديه إلى شعر من تلقاء نفسه. وسرعان ما أصبحت أشعاره عن الحب
Amores (ظهرت حوالي ١٤ ق.م) محببة إلى نفوس عليية القوم . كما زادت شهرته
ذيوها بكتابه ويتضمن مجموعة « البطلات » Heroides خطابات مرسله من
بطلات الأساطير اللاتى هجرن عشاقهن ، ذلك مع وجود رد على الخطاب في
بعض الأحيان . وقد تكون قلوب أولئك النسوة كسيرة ولكن لم يرغب
عن خاطرهن ما قد تعلمنه من بلاغة في المدارس الرومانية ، فالثرثرة ذات
الطابع المرح في الأنشودة ٣٨ « خطاب دأمفثريون » هي الظاهرة السائدة في
« البطلات » . وكانت أبحاث أوفيد في ميدان الحب في تحسن مستمر ،
وفيما بعد (حوالي عام ١ ق.م) نجده في كتاب « فن الحب » Ars Amatoria
وقد أصبح أستاذاً في هذا الميدان وكتب هذا الكتاب الرائع ، وهو قصيدة عن
الحب ذات روح مرحة ، تصور مواقف جدية ذات طابع هزلي في شكل قصيدة
تعليمية . وهي تتضمن : ١ — كيف تعثر على فتاة ٢ — كيف تفرجها .
٣ — وكيف تحتفظ بها ، وهذه الموضوعات كتبها في كتابين للرجال . وهناك
كتاب ثالث يتناول نفس المشاكل بالنسبة للنساء كما أنه كتب هن علاوة على
ذلك كتاباً عن أدوات الزينة . ويحتوى هذا الكتاب على دفاع فلسفى عن
الحب ، إذ أنه المصدر الحق الوحيد للتقدم بالحياة الإنسانية . وهناك كتاب
آخر يكمل هذه الحلقة هو « علاج الحب » Remedia Amoris وهو عبارة
عن دراسة لمشكلة الحب الرابعة يتلقاها من انتهوا من دراساتهم السابقة
ألا وهي كيف تتخلص من فتاتك . وهذا الكتاب ينصح باثنين وأربعين
وسيلة لإفساد علاقة الحب بما في هذه الوسائل من إنشاء علاقات حب
جديدة والانشغال بالزراعة وإحجام النفس عن الشهوات من جانب هؤلاء
الشعراء من أمثال أوفيد ، والقيام بأشعار خارجية وبعد ذلك اتجه أوفيد

إلى الأساطير ونشر مجموعة من القصص تدور حول موضوع تغير الأشكال وهي ما تسمى « بالتحويلات » Metamorphoses ، وكما أنها بدأت بتحول الفوضى Chaos إلى «عالم منظم Cosmos» كان لها أن تنتهى بتحول «يوليوس قيصر» إلى اله . وهذا العمل أنجح أعمال أوفيد في كثير من الأوجه . فهو بالتأكيد أقوى ما كتبه أثراً إذ أنه أصبح المنهل العذب الذى استمدت منه العصور الوسطى كل معلوماتها تقريباً عن الأساطير الكلاسيكية .

ولكن حدث في ذلك الوقت أن ألم بأوفيد نفسه تغيراً جذرياً إذ أن شعره ، وهذا أقل ما يقال عنه ، لم يسهم بشيء للإثماء من برنامج أوغسطس للإصلاح الأخلاقي ، وعندما اقترن اسم أوفيد بفضيحة شنعاء (من الجائز أنها فضيحة يوليا الصغرى) أصبح موقفه لا يحتمل على الإطلاق وحكم عليه بالنفى إلى أقصى حدود الإمبراطورية ، إلى « توميس » Tomis وهي كنستانتسا الحديثة على البحر الأسود . وقد كتب من المنفى « رسائل من بونتوس » Epistles From Pontus « والأحزان » Tristia . على الرغم من أن هذه الأعمال تبعث الملل للهجتها ذات الشكوى الدائمة إلا أنها أيضاً تعطي بعض الصور الساحرة للحياة عند حدود الإمبراطورية ، وكان هذا كما لو كان « هيريك » Herrick لم ينف إلى « ديفون شير الكاثيوية هذه » بل إلى « نيو هامبشير » في زمن حرب الملك فيليب . ولكن كم يسرنا أن نستبدل قصائد «الأحزان» بالقصائد التي يدعى أوفيد أنه كتبها بلغة أهل « داكيا » ولم يرق قلب أوغسطس ومات أوفيد في منفاه . وكانت آخر أعماله هي « الأعياد » Fasti التي نشرت بعد موته . وهي تتناول أعياد التقويم الروماني والأساطير المرتبطة بها وهذا عمل أدبي يجذب دائماً دارس الفلكلور والدين .

وليس هناك عمل أدبي لهذا العصر ذو طابع أوغسطسى حتى من ناحية عظمة الفكرة ووجهة النظر الأخلاقية أكثر من تاريخ ليفي ، كان ليفي ، مثل فيرجيل ، رجلاً موطنه الشمال ولد في بلدة باتافيوم Patavium

ز بادوا الحديثة) عام ٥٩ ق م . ويظهر نفس الشعور اوطنى تجاه روما وإيطاليا ونفس التبجيل والاحترام الماضيهما التاريخى مثل فيرجيل . قدم إلى روما حوالى عام ٢٩ ق م . وبدأ العمل الضخم الذى كان له أن يستغرق الأعوام الأربعين التالية من حياته . وفي ما لا يقل عن ١٤٢ كتابا - وهذا ثلاثة أضعاف حجم ما كتبه جييون - سرد تاريخ روما منذ إنشائها حتى موت دروسوس فى عام ٩ ق م . ومثل هذا العمل الواسع - الفائق الضخامة بالنسبة لمكتبة رجل واحد كما يشكو الشاعر مارتياى - كان لا بد وأن يتضائل إلى ملخصات ومقتطفات مما أدى إلى نتيجة مؤسفة ألا وهى أنه لم يتبق منه سوى ٣٥ جزء فقط . لقد وصلتنا « ملخصات » لمعظم الأجزاء الباقية ولكنها لا تعتبر بأى حال من الأحوال بديلا لما كتبه ليفى . وقد أطلق على عمل ليفى هذا « النشر المقابل للزيادة » وهو بحق تاريخ ملحمى تلعب فيه روما دور البطولة . ومثل الانيادة يتحدث هذا العمل عن الرجال والميزات التى خلقت عظمة روما « فالفضيلة القديمة » التى كانت تتمتعها الشخصية الرومانية هى التى أدت إلى غزوروما لإيطاليا ، وصمدت دون اهتزاز أمام كوارث الحروب البونية . ولكن بعد غزو منطقة البحر المتوسط أدى الترف والفساد إلى التدهور الذى استمر حتى عصر ليفى نفسه ، وهو من « لانسطيع فيه أن نتحمل أمراضنا ولا علاج هذه الأمراض ، ومع ذلك فالعلاج ما يزال ممكناً ، إذا أمكن الرجوع إلى الفضائل الأخلاقية التى سادت عصر الجمهورية القديمة . وهنا نجد أن عمل المؤرخ فى توافق تام مع إصلاحات أوغسطس الاجتماعية .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر وقع ليفى تحت الفحص على أساس مقاييس المنهج التاريخى الحديث النقدية . ولم يخرج من هذا الفحص الدقيق دون أن يصيبه ضرر . كما لا يستطيع أى إنسان الآن أن يتكلم عنه مثلها تتكلم داتى ، إذ اعتبره « ليفى الذى لا يخطئ » بل كان يخطئ فى كثير

من الأحيان : في استخدامه المصادر غير الدقيقة وجعله بالأمور الحربية وإغفاله العوامل الاقتصادية وفشله في تفسير قوانين المجتمع البدائي في حدود مضمونها . وقد يكون من العبث أن نبحث فيه عن ما يتمتع به « تاريخ كمبردج القديم » Cambridge Ancient History من ميزات ، ومع ذلك فهذا لا يهم إلى حد ما ، إذ جاء ليفي ليعيد بناء ماضى شعب عظيم بصورة خيالية ليساعدهم على فهم مصيرهم السامى ، وقد نجح في ذلك ، فإيمانه بأن البشر هم الذين يصنعون التاريخ وقدرته الفائقة على السرد القصصى نتج عنها عرض رائع للتاريخ الرومانى . وهذا التاريخ قد يوجه إليه النقد في تفاصيله ، ومع ذلك فإنه ككل يترك أثراً لا يمحي . وعندما نتناول القرن الأول من عصر الإمبراطورية فنحن ندرك دائماً ضرورة الاعتراف بأثر « تاكيتوس » ولكن من الصعب أن ندرك أن معلوماتنا عن معظم تاريخ عصر الجمهورية لا تزال فى مادتها مستمدة من ليفي .

وكان هناك إنتاج ضخم من الأعمال الفنية والمتخصصة نثراً وشعراً ولكن لم يتبق منها الكثير : فقواعد اللغة وفقهاء اللغة والطب وعلم النبات والزراعة والقانون والفلسفة — كل هذه المواد مدرجة فى قائمه الموضوعات وذلك بالنسبة للسكم ، إذ زاد تغلغله فى التعليم الرومانى بالتحديد فى الوقت الذى أصبحت سيرة حياة فرد مثل شيشرون وهورتنسيوس غير ممكنة فى ظروف النظام الإمبراطورى . وكتابات سنيكا الأكبر Seneca (٥٥ ق.م . — ٣١ م) تعطينا صورة حقه لمدارس البلاغة فى عصر أوغسطس وتمكننا من فهم الضرر الذى تسبب فيه هذا الانهك الخالى من بعد النظر فى تدريب حرفى انتهى عصره . وعلماء البلاغة المحترفين بدأوا حياتهم كذلك ككورخين وفلاسفة وهذا جنح إلى التقليل من المستوى الفكرى لهذه الموضوعات . وعلى هذا النحو كانت أعمال دينيسيوس الهليكارناسى Dionysius Of Halicarnasus الذى قام بالتدريس فى روما من عام ٣٠ إلى ٨ ق.م . وكتب عن الخطابة والنقد الأدبى والتاريخ . وقد وصلنا

نصف كتابه « التاريخ الروماني القديم » Roman Antiquities وهو يبدأ من الأزمنة الأولى حتى الحروب البونوية . والأدب اليوناني الذي جاء في العصر الأوغسطسي كان يستحق الاعتبار - على الرغم من أنه كان أقل أهمية من الأدب اليوناني الذي جاء في عصر پوليبوس أو في عصر تراجان وهادريان .

وقد لا يجرؤ أحد على إدراج ديودوروس سيكولوس Diodorus Siculus بين زمرة المؤرخين العظام ولكن سترابو Strabo (في القرن الأول قبل الميلاد وبعده) وهو رجل يوناني من بلدة أماسيا Amaseia على البحر الأسود ، فقد كان جغرافياً ممتازاً اهتم بإظهار أهمية الموضوع الذي كتب فيه في الشئون العامة ومراجعة الجغرافيا الهلينستية على ضوء الغزوات الرومانية في الغرب . وتشتمل كتبه السبعة عشر على جغرافية العالم من بريطانيا حتى الهند ومن بحر البلطيق حتى بلاد الحبشة . ونجد في بعض المواقع سطحياً سهل الاقتناع ، مع أن تشككك في الرحلة التي قام بها بوثياس Pytheas المسالى إلى بريطانيا وبحر الشمال يبرهن على مساوئه المناقضة لذلك - ولكن يعتبر مؤلفه هذا أحد المصادر الرئيسية لمعرفة تاريخ الفكر الجغرافي في العالم القديم .

وفي اللغة اللاتينية نجد أن قصيدة « مانيليوس » Manilius كان اجتذابها للعلماء أقوى من اجتذابها للقراء . وهذه القصيدة عبارة عن نزعة من النزعات الرواقية المناقضة للوكرتيوس تماماً وهي تحاول أن تبرهن على قدسية تنظيم السكون مستخدمة في ذلك أبحاثاً مستمدة من علم الفلك والتنجيم . وهناك قصيدة أخرى عنوانها ايتنا Actna أقرب إلى روح لوكرتيوس في إرجاعها القضايا الطبيعية إلى الظواهر البركانية وفي تحمسها لدراسة العلم الطبيعي وقد نسبت هذه القصيدة إلى فيرجيل ، على الرغم من أن هذا لم يتفق عليه تماماً أو هي في الواقع ترجع إلى عصر متأخر عن عصر

« أوغسطس » . ولكن هناك إنتاج نموذجي لذلك العصر وعمل مشوق تماما وهو عمل « فتروفوس » Vitruvius عن فن المعمار . وقد أوجت مشاريع أوغسطس البنائية الواسعة في روما بإخراج هذا العمل . وهو يتناول بالتفصيل النظرية الرومانية في فن المعمار ، وتطبيق هذه النظرية في ميدان تخطيط المدن والهندسة الميكانيكية المدنية . ويشتمل هذا العمل على جزء مشوق عن مؤهلات المهندس المعماري وقد حرددها « فتروفوس » على مستوى عال . وهناك مشروع واحد معروف عنه أنه من عمل « فتروفوس » وهو القاعة الكائنة في « فانوم » Fanum ولكن كتابه كان له أثره على فن المعمار الروماني خلال القرن الأول الميلادي ، ولكونه العمل الوحيد من نوعه الذي تخلف عن العالم القديم - فقد أصبحت قراءته شائعة عن استحقاق بين مهندسي عصر النهضة المعماريين . وقد بسط نفوذه القوي على فن المعمار في أوروبا عن طريق منشآت « ألبرتي » Alberti و « بلاديو » Palladio المعمارية .

إن الفن والمعمار في هذا العصر كان خليقا بأن يكون قريناً لأعماله الأدبية . وهناك فصول ثلاثة من « أعمال أوغسطس المجيدة » Res Gestae تعطينا بأسلوب هذا النصب المتقطع ، نبذة عن المباني الرئيسية التي قام أوغسطس نفسه ببنائها . وعن الأبنية التي ترجع إلى يوليوس قيصر وغيره ، وأكملها أوغسطس كما تلخص برنامج إعادة البناء والإصلاح الضخم الذي قام أوغسطس بتطبيقه على معابد المدينة وآثارها التذكارية . وقد أعطى أوغسطس وصفاً موجزاً لكل أوجه النشاط هذه في ادعائه بأنه قد وجد روما مدينة من طوب وتركها مدينة من رخام فأخيراً أصبحت روما بجدارة عاصمة للعالم الذي كاتته . وقد جاء في كلمات فيرجيل « لقد أصبحت روما أجمل مافي العالم .. Facta Est Pulcerrima Roma » مع ان هذا التقدم كان بعيداً كل البعد عن الاكتمال عندما مات فيرجيل .

وفي أيامنا هذه يمكن رؤية مشاريع أوغسطس البنائية بأجل صورها في « كامبوس مارتوس » الذي كان يوليوس قيصر أول من أدرك إمكانياته كمنطقة اثرية . وهو منطقة واسعة على شكل نجم عبارة عن « فيا لاتا » Via Lata التي تصل السوق الرومانية « Forum » بالكابيتول عن طريق « فيا فلومينا » وتؤدي إلى قلب المنطقة « وحتى الآن ما يزال طريق كورسو » Corso أحد الشوارع الرئيسية في روما . وبالقرب من حافته الشمالية ومنطقة أكثر قرباً من النهر أقام أوغسطس المقبرة الفسيحة التي خصصت للعائلة الإمبراطورية والتي ما تزال تحمل اسمه ، وقد بنيت على نسق المدافن الإيطالية — الأتروسكية التقليدية ذات الشكل الجبلي ولكن على نطاق أكثر اتساعاً . واستضافت هذه المقبرة رماد معظم الأعضاء البارزين من العائلة الإمبراطورية من « ماركوس » حتى « نرفا » ، وقد أقيمت في أرض فضاء تنمو بها الأشجار . وعلى أعمدة خارج مدخلها نقشت نسخة من « أعمال أوغسطس المجيدة » Res Gestae على لوح من البرونز . وعلى بعد بضعة مئات من الياردات ، وأكثر قرباً من وسط المدينة ، انتصب « مذبح السلم » الذي تعتبر أعمال فن النحت فيه أدق تعبيراً في ميدان الفن عن مثاليات العصر الأوغسطي . وتجاه الجنوب نجد ضاحية ترتبط « بأجريا » أكثر من ارتباطها بأوغسطس ، فيها رواق رحب احتوى على خريطة العالم الشهيرة التي كان قد جمعها ، ورواق آخر بني لتخليد ذكرى الانتصار في موقعة « أكتيوم » فيه رسوم حائطية تصور رحلة السفينة « ارجو » . ولكن ما يزال التركيب المعهاري للمباني المقامة حول « البانثيون » Pantheon أكثر أهمية من كل هذه المباني . وهذا التركيب كان يضم أول الحمامات الإمبراطورية الفخمة وحمام أجريبا الساخن « Thermae » وقاعة رحبة وبحيرة صناعية للزينة وقناة ومبنى « البانثيون » نفسه . كل هذه المباني كانت مقامة في أرض فضاء رائعة ، والبانثيون على حالته الراهنة الذي يتكون من غرفة مستديرة تحمل فوقها قبة ورواقاً به صفوف ثلاثة من ثمانى أعمدة

كورنثية - يرجع تاريخه في مجمله إلى بداية عصر هادريان . وقد كان هناك نقاش حامي الوطيس عما إذا كانت الغرفة المستديرة تكون جزءاً من مشروع « أجريبا » . ولكن النقوش المنقوشة على الرواق ما تزال تحمل اسمه ، ويجب ألا ننسى أن هادريان كان متحفظاً عندما أعاد إصلاح البناء ، وسواء كان يرجع إلى عصر هادريان ، أو عصر أوغسطس فهو أعظم ما تبقى من المباني الرومانية . والمبنى الوحيد الذي يمكن تقديره على أساس المقاييس الجمالية ، مثله في ذلك مثل الكندرية القوطية تماماً . فالقبعة تمثل قبة السماء « والعين المستديرة » Oculus ، وهي على بعد تسعة أمتار في آخرها ، تفتح تجاه السماء ومنها يأتي الضوء الوحيد وقد كان من المعتاد أن التجويفات السبع كانت تمجيداً للمعبودات السبع النجمية .

وعند سفح الكابيتول بجوار معبد « أبولون » كان هناك منطقة يبدو أن أوغسطس قد خصصها للفنون . فلا يزال يقف هناك جزء من واجهة مسرح « ماركلوس » الأنيقة بصفوفها الثلاثة على شكل « بواكي » وقد قام علماء الحفريات في عهد موسيليني بتخليصها من أكوام الحوائط والمنازل التي كانت قد جثمت عليها في وقت ما . وقد افتتح هذا المسرح في عام ١٣ ق . م . ويسع حوالي ٢٠,٠٠٠ متفرج ويعتبر أروع ما أقيم من مباني من أجل الترفيه عن الشعب الروماني .

أما المشروعات التي قام بها أوغسطس في السوق الرومانية فكان معظمها ترميماً للمباني القديمة وإعادة تخطيطها ، مع أنه أقام بناء واحداً ضخماً هو معبد « يوليوس المؤله Divus Julius » بالقرب من مركز السوق في مكان يمكن رؤيته بوضوح ومتاخماً لمعبد « فستا Vesta » . كما أنه أكمل بناء قاعة « يوليا » Basilica Julia الفخمة الواقعة عند الزاوية الجنوبية الغربية من السوق . وأعاد تخطيط « قاعة إميليا

Basilica Aemilia « لتساوى في روعتها مع الأولى : وأنهى ترميم قاعة مجلس الشيوخ الذى كان قد بدأه يوليوس قيصر . وأعاد تسميتها « بكوريا يوليا Curia Julia . أما « القاعة » Curia التى نراها الآن فهى من مخلفات إصلاحات القرن الثالث ، لكن من المحتمل أنها احتفظت تماماً بأبعادها ونظامها الأصلي — مثلها في ذلك مجلس العموم البريطانى بعد الحرب العالمية الثانية .

ولكن على الرغم من إعادة التخطيط هذه كان السوق الرومانية القديم ضيقاً جداً بالنسبة لاحتياجات مدينة ضخمة . وكان من الضرورى بناء أسواق أخرى مساعدة فى الشمال . وقد تم تخطيط كل منها على أن يشتمل على معبد ويحيط به سور . وكان سوق يوليوس الذى وضع تصميمه قيصر وأكمله أوغسطس يحوى معبد فينوس جنتريكس « Venus Genetrix » الجدة الأولى لعائلة « يوليا » Gens Julia وأم أيدياس . أما سوق أوغسطس بنصفى دائرته فقد كان يحوى معبد الإله « مارس المنتقم » وذلك وفاء لتذرع قطع فى معركة فلبي . وفى صالات الأعمدة انتصبت تماثيل ونقوش كل الظافرين Triumphatores وهذه الصالات عبارة عن متحف أو قاعة للمشاهير من المحتمل أنه أوحى به صور الأبطال الرومان التى رسمت فى الكتاب السادس من الانبياء .

ومن المحتمل أن ما أنجز من أعمال على تل البلاتين كان أقرب إلى قلب أوغسطس ، فهناك يقف معبد « أبوللون » الرائع شامخاً وهو أول بناء ضخم فى روما بنى كله من رخام « لونا » Luna وكان إنشاؤه تكريماً لتذرع قطع فى معركة « اكتيوم » وفى هذا المعبد وضعت « الكتبت السيبيلينية Sibylline » بعد أن نقلت من معبد جوبيتر المقام على تل الكايبتول . وفى رواق المعبد أنشأ أوغسطس مكتبتين شهيرتين إحداهما للمكتب اليونانية والأخرى للمكتب اللاتينية . وقد دمرت النيران هذا المعبد عن آخره عندما شبت فى ليلة وفاة « جوليان الملحد » (فى ١٨ مارس عام ٣٦٣م) ، ومعلوماتنا

عن هذا المعبد أقل بكثير من معلوماتنا عن أى بناء روماني رائع آخر . كما أعاد أوغسطس بعناية فائقة بناء المراكز المقدسة الواقعة على تل البلاتين ، بما فيها (من المحتمل) منزل رومولوس ، وبالتأكيد أعاد بناء « اللوبركال Lupercal » وهو الكهف الذى يقال إن الذئب قد أرضع فيه « رومولوس وريموس » وأعاد كذلك بناء معبد الأم العظمى الشهير Magna Mater . ولكن هناك مشروع ذو أهمية قصوى أسقط من تخطيطات أوغسطس على تل البلاتين ، إذ أنه لم يقم ببناء ضخم ليصبح مسكنا (لرئيس الدولة الروماني Princeps) ، أما المباني الضخمة التى استمدت أسماءها من التل — والتى جاءت منها كلمة (قصر Palace) فى العصور التالية — فقد كانت من عمل خلفائه : من تيبيريوس حتى « دوميتيان » ، أما أوغسطس نفسه فقد عاش فى بيت متواضع وما نزال نراه برسومه الحائطية الساحرة يحمل اسم منزل « ليفيا » Livia .

ولا يسمح وقتنا بذكر المنشآت العامة الأخرى والمتعددة من مرشحات مياه وقاعات الأسواق ومخازن وبوغازات — بناها أوغسطس فى روما — ومع ذلك يجب أن نذكر شيئا واحدا فعلى الرغم من عظمة مشاريعه التى وضعت لتحقيق التطور الحضري إلا أنها كانت مقصورة على إنشاء المباني العامة وتركت تخطيط الشوارع القديمة دون أن تدخل عليه أية تعديلات « عدا إنشاء فيا لاتا Via Lata » كما أنها لم تشتمل على إجراء التحسينات فى نظام الإسكان الخاص ، ومع ذلك من الممكن رؤية أمثلة لتخطيط مدينة كاملة فى مستعمرات متعددة من إنشاء أوغسطس وخاصة فى أوستا .

وقد خلقت رعاية أوغسطس حركة نشاط فعالة فى ميدان الفن بدرجة لا تقل عن حيوتها فى ميدان المعمار ، إذ كان هناك احتياج ملح سواء فى روما أو فى الولايات لفن النحت من أجل النصب التذكارية العظيمة من

أمثال « مذبح السلم » Ara Pacis . وكان فن الرسم دون شك يستخدم لنفس الغرض مع أنه لم يتبق منه شيء . وكان هناك إقبال على صور الرئيس وأعضاء العائلة الإمبراطورية . وخرج أسلوب فني يجمع بين واقعية التراث الإيطالي ومثالية الفن اليوناني ، وهذا هو الأسلوب الرسمي أو أسلوب البلاط الذي لا يغيب عن أذهان المؤرخين عندما يتكلمون عن الفن الأوغسطي . ومن قطعه الفنية الرائعة تمثال أو غسطس عند « بريما بورتا » Prima Porta ، وجراند كامير Grand Cameo في فرنسا والصور الجميلة لسيدات العائلة الإمبراطورية التي يمكن رؤيتها في روما وباريس وكوبنهاجن . ومن المشوق ملاحظة أننا لانجد أثرا لهذا الفن المثالي بين كثير من النصب التذكارية الجنائزية الخاصة بأفراد الطبقة المتوسطة فقد حافظت بتمسك على الدمامة التي كانت عليها مقاييس الفن في العصر الجمهوري .

وهناك عمل فني أروع من كل ما جاء به ذلك العصر من فنون : ألا وهو أعمال الفن المنحوتة على محراب السلم Ara Pacis وقد أقيم هذا النصب لتخليد ذكرى عودة أو غسطس إلى روما في عام ١٣ ق . م . وقد تم افتتاحه عام ٩ ق . م . وأقيم المحراب نفسه في فناء مقدس . واصطفت أعمال النحت الهامة في مجمرعتين خارج الأسوار التي تحيط به ، أما المدخل فقد شق في الأسوار الشرقية والغربية . وهكذا أصبح هناك جوانب أربع ينفرد كل منها بموضوعات خاصة — بينما كان هناك قطاعان طويلان لا يتقطعان في ناحية الشمال والجنوب . وكان الموضوع الذي تنفرد به المجموعة العليا من أعمال النحت على طول هذين الجانبين الطويلين هو موكب مجلس الشيوخ والشعب الروماني بالإضافة إلى الموظفين العموميين والعائلة الإمبراطورية ، على رأسها « الرئيس » وهم يقدمون القرابين احتفالاً بعودته سالماً . وقد قورن هذا الموكب أو بالأحرى ضوحي « موكب مجتمع الآلهة » Panathenaic Procession المنحوت على معبد « البارثينون »

فى أئينا ، ووجد أن فنانى النحت فى عصر بركليز ينحتون صورة مثالية لجمال شباب أئينا ووقار شيوخها ولم يظهر فى لوحاتهم أطفال ، أما الموكب الرومانى فهو احتفال يقوم به أشخاص حقيقيون لانماذج ، ويمكننا من هذا الموكب أن نتعرف على أعضاء الأسرة الإمبراطورية كما أنه ليس هناك شك فى أن أعضاء مجلس الشيوخ قد صوروا فى ذلك الاحتفال كذلك . وهناك أطفال عديدون نقلت ملاحظتهم برقة وروح خفيفة ، ويجب أن نلاحظ الطريقة التى عامل بها فنانون هذا العمل أوغسطس - فهم لم يضعوه فى نقطة المركز التى هى محط الأنظار ، كما هو مألوف عند تصوير الإمبراطور فى النقوش الإمبراطورية المتأخرة ، بل إن مكانه كان على رأس الاحتفال يتبعه عذارى « فستا » والسكينة ، وهذا تعبير مرئى عما تتضمنه فكرة الرئيس من معنى .

أما القطاعات الأربعة القصيرة فقد نسقت لتكون زوجين متوازنين من المناظر الدينية والرمزية -- فعلى جانب نجد الذئبة والثورأمين وقربان « اينياس » وهذا يربط الأسطورة الطرواقية بالأسطورة الرومانية عن أصل روما معا . وعلى الجانب الآخر توجد مجموعة من الشخصيات الرمزية ذات الجمال الأخاذ تحيط بامرأة جالسة قد تكون « تلوس » (Tellus) (الإلهة الأرض) ولكنها من الأكثر احتمالاً أنها ترمز إلى إيطاليا وهذا قد يخلق التوازن مع روما فى الوجه الآخر .

ومن الصعب ملاحظة الإطار الوردى الذى يحيط بالنقوش السفلية . وفى هذا المكان توجد مجموعات متعددة من زهور الأفانثوس فى وسطها جماعات من الطيور والحشرات والأزهار عليها مسحة طبيعية بديعة . وقد قورنت هذه اللوحة مقارنة دقيقة بالقطع الرائعة التى جادها الفن الإنجليزى فى العصور الوسطى ، وهى أوراق الأشجار المنحوتة فى قاعة اجتماعات القساوسة فى « سوئول منستر » Southwell Minster .

واحتفالا بمرور ألفى عام على أغسطس عام ١٩٣٨ تم إخراج البقية الباقية من محراب السلم بصعوبة فائقة من تحت الوحل المتراكم أسفل قصر « فيانو » Fiano وقد جمعت اللوحات المنحوتة التي كانت قد تهممت في كثير من المتاحف ، أو أعيد نسخها وأعيد إقامة النصب التذكارى كاملا على رقعة جديدة قريبة من مقبرة أوغسطس ويعد هذا نصرا من الانتصارات التي أحرزها علم الحفريات الحديث وإضافة خالدة لعجائب روما .

ومعلوماتنا عن فن الرسم الأوغسطى مقصورة على قليل من الرسوم الحائطية وذلك لاختفاء الصور عن الأنظار . وأهم هذه الصور هي المناظر الدينية والتصميمات المعمارية التي جاءتنا من منزل « ليفيا » القائم على تل البلاتين وكذلك المناظر الجميلة المرسومة في حديقة « بريما بورتا فيلا » والرسوم الحائطية التي جاءتنا من منزل ريفي في بوسكريالى Boscoreale ومن الممكن رؤية كل هذه الرسوم في متحف متروبوليتان للفن في مدينة نيويورك .

الفصل العاشر

السلم الإمبراطورى (١٤ - ١٩٢ م)

هناك فرق جوهري بين تاريخ الجمهورية وتاريخ الإمبراطورية ، فباختفاء الأحزاب السياسية والنقاش العلني ، أصبح التاريخ السياسي يقتصر على موضوعات قليلة خاصة بالإمبراطور والبلاط : فشخصية الإمبراطور والطريقة التي اعتلى بها العرش ، وعلاقاته بمجلس الشيوخ والمؤامرات التي كانت تحاك في البلاط ، وموته والشكوك التي يثيرها ، هذا هو نوع التاريخ الذي قدمه تاكيتوس بأجلى صورته ، وقدمه كاتبو « تاريخ أوغسطس » *Historia Augusta* بأسوأ صورة ، بينما يقف « سوتنيوس » و« ديوكاسيوس » بين الفئتين . وهذه المؤلفات التاريخية في جوهرها تنساق وراء تقليد نابج من مجلس الشيوخ ، فهي عدائية ضد الإمبراطورية بصفه عامة وضد معظم الأباطرة عدا « نرفا » و« تراجان » *Nerva, Trajan* أول إمبراطورين من أباطرة عائلة « الأنتونينس » *Antonines* وهي غالبا ما تتناول قصصاً مثيرة عن الإباحية الجنسية ، تحتوى على ما تحتوى عليه كتب علم النفس المرضى التي تعالج الحالات النفسية . وفي أثناء قيام الإمبراطورية كان الضوء الفاضح المسلط على العرش قد تسدل أيضاً إلى غرفة النوم ، وأصبح اختراع القصص الفاضح حرفة ثانوية ، على أنه من السهل أن نسقط معظم هذه القصص من اعتبارنا ، ولكن عندما نتناول القرن الأول فليس من السهل بأى حال من الأحوال الإفلات من تأثير « تاكيتوس » *Tacitus* الذي يلقى على عالم السياسة العليا شعاعاً قوياً من الضوء ، وإن كان رفيعاً .

ونحن في حاجة إلى أن نذكر أنفسنا بأن هنالك جانباً آخر من تاريخ

الإمبراطورية من النادر أن يهتم به المؤرخون الرومان اهتماماً كبيراً ، ألا وهو الجانب المتصل بسير الحياة في الولايات وبهذه الموضوعات الحيوية ، كاستصلاح الأراضي للزراعة ، ونشر الحضارة اللاتينية في الغرب ، وفي ولايات الدانوب وانتشار تيارات من الشرق أثرت في الدين والفكر ، أو إدراج طبقات جديدة في إدارة الإمبراطورية .

ويجب أن نعبر عن امتناننا لتقدم علم الآثار الحديث ، الذى بفضلها كانت لنا هذه الصورة عن الحياة الاجتماعية والثقافية للأقاليم الرومانية التى كانت بالتأكيد مجهولة للأستاذ « جييون » . ولا تزال هذه الصورة مع ذلك بعيدة عن السكال ولكننا فى الطريق إلى بناء ما يسمى « بالتاريخ المحلى للعالم الرومانى » بصورة تدريجية ، وعلى درجات مختلفة لأجزاء متباينة من الإمبراطورية . وسيكون من الأفضل الاحتفاظ بهذين المظهرين كل على حدة ، وأن نتناول أولاً التاريخ السياسى منذ اعتلاء « تيرىوس » Tiberius العرش حتى موت « كومودوس » Commodus وبعد ذلك نتناول التاريخ الاجتماعى والثقافى للعالم الرومانى خلال القرن الأول والثانى بعد الميلاد .

وعندما خلف تيرىوس أوغسطس (عام ١٤م) كان فى الثانية والخمسين من عمره ، رجلاً حاد الطباع لا تسيطر عليه الأوهام بغض النظر عن الخدمات الجليلة التى قدمها للدولة ، ومرة بعد أخرى كانت الخدمات الجليلة التى يقوم بها من أجل الدولة تنسب إلى منافس له .

وبالنظر إلى حياته الشخصية نجد أنه كان يجمع فى نفسه حزناً مضاعفاً وذلك لطلاقه « فيبسانيا » Vipsania وزواجه التمس « بجوليا » Julia وربما كان صادقا فى ترده عند قبوله خلافة أوغسطس — ذلك التردد الذى يرجعه « تاكيتوس » إلى نفاقه — وصادقا فى ادعائه باللقاء العبد عن كاهله فى سن الشيخوخة ، فإن عقلية « أوغسطس » وحده هى التى كانت جديرة

بجمل هذا العبء ، وهذا المثال القوي لا بد وأنه ثبتت همة كل أباطرة عائلة « يوليوس — كلوديا » وقد كانت ميول « تيبيريوس » الخاصة وتأثير أمه « ليفيا » أيضاً عليه هي التي أدت به إلى اتباعه سياسة « أوغسطس » في إقامة العلاقات الشخصية ومهارته في اكتساب التأييد .

وتفاقت مشكلة من يخلفه إلى حد كبير وذلك لوجرد رئيس للدولة في مثل سنه ، ولقد بدا الموقف في البداية آمناً ، فقد كان هناك « دروسوس » Drusus ابن تيبيريوس ، نفسه و « جرمانيكوس » ابن أخيه الأكبر « دروسوس » الذي كان يتمتع بلباقة أبيه وبيعض مواهبه ، وأخذ « جرمانيكوس » على عاتقه مهمة إعادة بسط سلطان روما على ألمانيا ذلك بعد وقوع كارثة « فاروس » حيث أبل بلاء حسناً ، كان كافياً لإقامة احتفالات للنصر من أجله وذلك عام (٧م) رغم التخلي عن مشروع جعل ألمانيا ولاية . ثم أسندت إليه بعد ذلك مهمة هامة في الشرق لتدعيم العلاقات مع « بارثيا » و « أرمينيا » كما منحه « تيبيريوس » « السلطة العظمى » Maius Imperium تخول له حرية التصرف في الولايات الشرقية ، ولكن « تيبيريوس » أرسل « جنيوس كالبورنيوس بيزو » Gnaeus Calpurnius Piso ليتولى أخطر منصب ألا وهو حاكم سوريا والكي يراقب سير الأحداث ، وكان الموقف ينبيء بكارثة ، وقد وقعت بالفعل فقد تصرف « جرمانيكوس » بغير لباقة عند زيارته لمصر ، وتشاجر مع « بيزو » وأمره بأن يخرج من سوريا ، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة . وقد شك الناس في أن يكون « بيزو » قد دس له السم ، ذلك الشك الذي أدى به إلى أن يحاكم في روما محاكمة تثير العواطف وانتجر على أثرها ، وقد اعتبر انتجاره هذا دليلاً على إدانته كما اعتبر إيعازاً « لتيبيريوس » ليمهد الطرق أمام « دروسوس » وذلك لوفاة « جرمانيكوس » .

وكانت الأحقاد المريرة هي التي تحكم البلاط الإمبراطوري حينذاك ،

فقد أبعدت « أجريينا » Agrippina أرهلة « جرمانيكوس » هي وأطفالها عن « تيريوس » ، أما « دروسوس » فلم يقف على قدميه طويلا . وظهر نفوذ جديد مشموم في شخص « لوكيوس أيليوس سيچانوس » Lucius Aelius Sejanus وهو فارس ينحدر من عائلة « أتروسكية » وأول رجل كان له أن يصل إلى مرتبة العظمة وهو يتولى منصب قائد الحرس البريتورى ، فقد أوعز إلى « تيريوس » بإنشاء ثكنات دائمة في روما ، وهكذا أصبح هو قائدا للقوات الوحيدة الموجودة في العاصمة ، وبالإضافة إلى ذلك اكتسب ثقة « تيريوس » وجعل من نفسه رجلا لاغناء عنه ، وفي (عام ٢٣ م) لقي « دروسوس » حتفه — وقد وضحت كيفية وفاته فيما بعد — فأصبح سيچانوس عندئذ السيد الأعلى بيننا كانت « أجريينا » وأطفالها في خطر ميمت .

وفي عام ٢٦ م انعزل « تيريوس » في منزله الريفي المقام في « كابرى » Capreae وقد خطا هذه الخطوة بإيعاز من « سيچانوس » الذى اكتسب بجانب كل ذلك عرفان « تيريوس » بالجميل وذلك لإنقاذه حياته أثناء الانهيار (المدبر ١) لسقف القاعة حيث كانا يتناولان غداءهما .

وقد تم التنقيب عن هذه القاعة في وقت متأخر في « سيبيرلونجا » واكتشفت بكامل تماثيلها — وهذا تصديق مذهل على ما جاء في كتابات « تاكيتوس » . وانعزال « تيريوس » هذا تسبب في ازدياد عدم شعبيته في روما ، وفي عام (٢٩ م) ماتت « ليفيا » ونفيت « أجريينا » وأطفالها — وكان سيچانوس يهدد وكأنه متحكم في دقات الطبول كلها وبدأ يرسم الخطة ليزيح من طريقه آخر عقبة ألا وهى الإمبراطور نفسه ، ولكن في آخر الأمر أنبى « تيريوس » بخيائنه . وفي ١٨ أكتوبر عام (٣١ م) عقدت جلسة خاصة في (مجلس الشيوخ) وتلى بصوت مرتفع (خطاب طويل جاء من كابرى) وقد بدأ الإمبراطور هذا الخطاب بوعد غامض

عن منح (سيجانوس) وظائف أخرى مشرفة واختتمه بإعلانه خائناً فحمل إلى السجن وشنق ، ومزق غوغاء المدينة جسده إربا . وكان عدم ولاء سيجانوس سبباً في تحطيم معنويات (تيبيريوس) في النهاية ، وخاصة عندما وضح أن (سيجانوس) قد دس السم لدروسوس) بعد أن اعتدى على زوجته أولاً ، وفي كابري قضى (تيبيريوس) السنوات الباقية من حكمه في عزلة تامة ، وابتهج الشعب الروماني لوفاته عام ٣٧ م وحتى مجلس الشيوخ رفض أن يعقد عليه ألقاباً مقدسة .

إن كآبة هذه السنوات كانت لها أن تترك أثراً (لتيبيريوس) غير مستحب ، ولكن هذا الأثر قد ارتفع إلى درجة فائقة بتقرير (تاكيتوس) وهو قطعة فنية رائعة مليئة بسوء القصد والنشهير ، الذي أثر في تاكيتوس هو أنه عاصر أثناء حكم (تيبيريوس) بداية (الإرهاب) الذي آل إلى مثل هذه الدرجة العالية في عهد (دوميتيان) ، ذلك الإرهاب الذي التصق به نوعان من الرعب ، أحدهما النابع من قانون الخيانة الغامض *Maiestas* الذي كان له أثر بعيد المدى ، والآخر الناجم عن ظهور طبقة جديدة من الوشاة المحترفين *Delatores* يحققون مكاسبهم من هذا القانون . والعلماء الذين حملوا بدقة قانون *Maiestas* أثناء حكم (تيبيريوس) تمكنوا من البرهنة على أن (تاكيتوس) كان يغالى ، وأن أسوأ الأوضاع كان يرجع وجودها إلى نفوذ (سيجانوس) وأن (تيبيريوس) حاول جاهداً أن يفرض التحكم في زمام الأمور . كما وضح كذلك أن إدارته المدينة كانت رائعة حتى إن (تاكيتوس) قد اعترف خلال النصف الأول من فترة حكمه بذلك ، وقد أولى الولايات عناية فائقة كما برهن على اتزانه في إنفاق الأموال ، وما من شيء يمكن أن يجعله شخصية جذابة ، ولكن يبدو أن من الإنصاف اعتباره حاكماً ذا ضمير حي .

إن أى مقدار من الإصلاح لم يكن فى وسعه أن يفعل الكثير من أجل الإمبراطور « جايوس » (٣٧ - ٤١ م) . وكان « جايوس » قد تربى منذ طفولته فى معسكرات الجيش ، وأطلق عليه اسم مستعار هو « كاليجولا » . Caligula ذو الحذاء الصغير كما كان يتمتع بشعبية خطيرة بين الجنود ، ولم يفعل « تيبيريوس » شيئاً لتعليمه فتلقى دروساً لاتلىق من « هيرود أجريبيا » ومن بعض الأمراء الشرقيين الذين سمح لهم بالاختلاط بهم ، وقد كان هناك ثمة شىء يؤمن به تماماً ألا وهو أن العالم ملك له يفعل به ما يشاء ، وقد كان معنى ذلك وفقاً لما هو مألوف أن ينقب عن إمكانيات هذا العالم بحثاً عن الشهوة واللذة السادية ، وقد صرح ذات مرة قائلاً « كم أتمنى أن يكون الإنسان رقة واحدة فقط حتى يمكننى فصلها بضربة واحدة » ومن المؤكد أنه كان مضطرباً ذهنياً ، مع أنه ينقصنا دليل مستمد من فحص طبي له ، وقد صورت أعماله السياسية وكأنها صادرة عن رجل مجنون مثل انتصاره المضحك على الألمان بأسرى ماجورين لهم شعر أشقر مستعار وحملته الفاشلة على بريطانيا بجنود تلمقوا أمراً بجمع قواقع البحر ، وإصراره الذى لا معنى له بضرورة إقامة تمثال هائل له فى « أورشليم » ذلك الإصرار الذى كان يجلب اليأس لليهود . . . وقد قام « بيكارد » بتفسير الحادثتين الأوليين تفسيراً يبعد بهما عن نطاق الجنون معزياً ذلك إلى أنه كان مسحوراً سحراً عاطفياً ولكن كان من المؤكد أن الإمبراطورية فى ظل حكم « كاليجولا » قد انتقلت إلى أسوأ مراحل حكم السيادة المطلقة ، وقد كانت إراحة للعالم عند ما اغتاله الجنود عام ٤١ م .

أما رئاسة كلوديوس « Claudius » (٤١ - ٥٤ م) فقد كشفت عن غوذة إلى تقاليد « أوغسطس » ، و « كلوديوس » هو الأخ الأصغر « لجيرمانيكوس » . وعلى الرغم من أنه كان مصاباً بعياهات جسمانية وكان مهملاً من والديه ، إلا أنه برهن على أنه أقدر إمبراطور جاء فى الفترة ما بين « أوغسطس »

و « فسباسيان » Vespasian وقد فرضه الحرس البريتورى على أعضاء مجلس الشيوخ المعارضين ، ولم يخفر له المجلس هذا . وها هنا يكمن أصل العداء الأدي التقليدى ، ولكن النقوش والحقايق المعروفة عن حكمه تظهره فى صورة أخرى . ولما كان قد كرس نفسه لتقاليد العائلة الكلودية العسكرية فقد استأنف من جديد سياسة التوسع فى حد المعقول التى كان « أوغسطس » قد تخلى عنها فى سنواته الأخيرة . وقد ساعد اختياره الحكيم للقادة على نجاح تنفيذه لهذه السياسة إذ كان « أولوس بلاوتيوس » Aulus Plautius و « سويتونيوس باولينوس » Suetonius Paulinus و « فسباسيان » Vespasian الإمبراطور اللاحق قادة من الدرجة الأولى عهد إليهم بعمليات هامة ، فى الشرق تحولت تراقيا إلى ولاية رومانية ، فأدت إلى القيام بعمليات حربية موحدة للسيطرة على الشواطئ الشمالية من البحر الأسود ونصب ملك عميل لروما على « العرش البسبورى » Bosporan ولكنه لم يتمكن من وضع يده على حل دائم لمشكلة « بارثيا - أرمينيا » مثلما حدث لكل إمبراطور حتى « تراجان » ولكنه قوى من حدود نهر « اليوفرانيس » وأعلن Judaea اليهودية ولاية عند مات « هيرود أجريبيا الأول » (٤٩ م) وفى أفريقيا قام بضم « موريتانيا » Mauretania إلى الإمبراطورية بعد قيام حملة رائعة على جبال أطلس وتحولت إلى ولايتين .

ولكن العمل الذى نال عليه « كلوديوس » أسمى تقدير واحترام والذى امتلك ناصية خيال عصره هو غزوه لبريطانيا . فإن « قيصر » كما يقول « تاكيتوس » ، قد أشار إلى الطريق ولكن لم يسلكه أحد طوال مائة عام . وكانت الاتصالات بين بريطانيا والعالم الرومانى فى ذلك الحين قد أدت إلى ارتفاع المستويات العادية فى بريطانيا ، فى الجنوب الشرقى ازدهرت مملكة قوية أقيمت عاصمتها فى « كولنشيستر Colchester » هى مملكة « كامولدونوم » Camulodunum وقد أتبعته هذه المملكة - أثناء حكم « كونيلينوس »

Cunobelinus وهو « كوميلين » الذي ذكره شكسبير — سياسة حكيمة
حيال روما ولكنه مات حوالي عام (٤٠ م) وأصبح أولاده « توجودوموس »
Togodumnus و « كاراتاكوس » Caratacus معادين لروما . وكان
قيام دولة قوية معادية لروما قد يشد من أزر القومية السكتية في بلاد
الغال . فقرر كلوديوس أن يضرب ضربته . وفي عام (٤٣ م) أنزل
« أولوس بلاوتوس » قوة تتكون من أربع فرق وقوات مساعدة تعدادها
٤٠٠٠ رجل إلى ريتشبورف Rich borough وانهمز البريطانيون بعد
معركة استمرت يومين في « مدواي » Medway وتقدم الرومانيون إلى
« نهر التايمز » Thames وانتظروا قدوم الإمبراطور ، وقد قادم
« كلوديوس » شخصياً إلى « كولاتشيستر » حيث قام أحد عشر بريطانياً بتقديم
فروض الطاعة والولاء له ، ثم عاد من ذلك المكان إلى روما ليحتفل بنصره
المبين (عام ٤٤ م) وبعد ذلك قاد « أولوس بلاوتوس » هجوماً من ثلاثة
اتجاهات على الغرب والشمال وتم تشكيل ولاية رومانية تمتد حدودها على
طول حدود شعوب « السفرن » Severn و « الترن » Trent ثم دعمت هذه
الولاية بممالك عميلة لروما — وهي مملكة « رجني » Regni في « سوسكس »
Sussex ومملكة « أيكيني » Iceni في « نورفك » Norfolk ومملكة
« البريجانتيس » Brigantes الواقعة فيما وراء شعوب « الهومبر » Humber
وقاوم سكان إقليم ويلز حيث صمد « كاراتاكوس » Caratacus في مقاومة
طوال ثماني سنوات بعد أن انتخبته قبائل ويلز قائداً للحرب وقد صاحب
استسلامه عام (٥١ م) إقامة عرض عسكري هائل في روما له أهميته
بسبب قوة الاحتمال المليئة بالكرامة التي أظهرها الأمير البريطاني وتساح
« كلوديوس » وبعد مرور بضع سنوات من غزو بريطانيا ، بدأ استغلال
موارد بريطانيا المعدنية وخاصة رصاص جبال « منديس » Mendiys
وأصبحت هناك حضارة مدنية على نسق الحضارة الرومانية في سبيلها إلى
الظهور . ووقع الاختيار على « كامولدونوم » لتصبح العاصمة وشيد فيها

معبدا « ليلكوديوس » . إن بريطانيا التي وقعت في الأسر قد تدفقت فيها مياه محيط روماني ، هذا ما كتبه شاعر معاصر ، والدعاية الرسمية لا تمجد دائماً غزو المحيط بصورة أقل من تمجيدها لغزو بريطانيا . والآن ، وبعد أن تم الحصول على هذه الجزيرة الغامضة البعيدة ، أصبح هناك شعور بالبهجة نابع من تحطيم الحواجز . وقام « كلوديوس » بتنفيذ أعمال هامة في كثير من أجزاء الإمبراطورية بطموح بالغ ، ففي روما أعاد تنظيم إمداد المدينة بالماء وأضاف اثنين من مجارى المياه الواسعة إلى مجارى مياه المدينة وأجرى تحسينات عظيمة الشأن في منشآت (أوستيا) Ostia كما بنى حوضاً جديداً للسفن يبعد عن « بورتوس » Portus بثلاثة أميال تجاه الشمال ، واستخدمت قوة مكونة من ثلاثين ألف رجل لمدة إحدى عشر عاماً للعمل فى مشروع تخفيف بحيرة « فوكيني » الضخم وذلك لاستصلاح أرضها من أجل الزراعة فى وسط إيطاليا وقد وفق هذا العمل توفيقاً جزئياً فقط ، فقد أعيد تنفيذ هذا المشروع مرات عديدة أثناء العصور الوسطى ولكنه لم يكتمل إلا فى عام (١٨٧٥ م) وأنشئت طرق جديدة عديدة وقد بلغ طول إحدى هذه الطرق حوالى ٣٥٠ ميلاً رومانياً يمتد من رأس البحر الادرياتيكي فوق بحر « برنر » Brenner إلى ضفاف نهر الدانوب بالقرب من « أوجسبورج » Augsburg ولا تزال هناك نقوش نقشت على المبانى تشهد بتفاخر « كلوديوس » لإنجازه عملاً بدأه أبوه « دروسوس » . وفى بلاد الغال أنشئت طرق تمتد حتى شواطئ المحيط الأطلنطى عند بلدة « برست » Brest و « شربورج » Cherbourg و « بولونا » Boulogne وقد وقع الاختيار على هذه البلدة الأخيرة لتطويرها حتى تصبح الميناء الرئيسى لبحر الشمال .

لقد أثار التساهل فى منح حقوق المواطنة تعليقاً يقول بأن « كلوديوس » أراد أن يرى كل شعوب الغال ، واليونانيين ، والأسبانيين ، والبريطانيين يرتدون العباءة الرومانية Toga ولكن إذا فحصنا سياسته نجد أنه قد وضع

شروطاً قاسية في وجه هذه الشعوب فقد كان لابد من وجود درجة كافية من التأثير بالحضارة الرومانية ، بالنسبة للمجتمعات ، أما بالنسبة للأفراد فلا بد من إجادة اللغة اللاتينية لإجادة تامة ، وتقديم الخدمات لروما سواء في مجال القوات المسلحة ، أو في مجال تجارة الحبوب ، وخطابه الذي ألقاه عن السماح للزعماء الغالين بدخول مجلس الشيوخ ، خطاب شهير ، وقد وصلنا في نقش عثر عليه في « ليون » Lyons كما نجده في مؤلفات وكتابات « تاكيتوس » . وكان إنشاء مستعمرات مثل « كولشيستر » في بريطانيا و « كولوني » Cologne في ألمانيا ينمى من الحضارة الرومانية في الولايات الغربية ، ومن الجائز أن لم يدم أى عمل من أعماله سواء أكان عملاً خيراً أو شريراً كما دام تطويره لنظام البروقراطية الإمبراطورى . وقد بدأ العمل به أثناء حكم « تيريويس » أما في أثناء حكم « كلوديوس » فقد كانت هناك ثلاثة مكاتب واسعة للبراسلات ، وتقديم التقارير وتنفيذ العدالة كما كان هنالك مكتب رابع مهمته غير معروفة بالضبط ولكنه اعتبر مصلحة للأبحاث وذلك استناداً على اسمه وهو « مكتب الدراسات » « studiis »

وقد أسندت إدارة هذه المكاتب إلى رجال من العبيد المعتقين هم (نار كيسوس بالاس كاليسستوس وبولوبيوس Narcissus Palass Callistus Polybius) وأسمائهم هذه تدل على أنهم من أصل يوناني . وكانت هذه المكاتب تقوم بعملها خير قيام ، وأصبح رؤساؤها أغنياء لهم نفوذ واسع ، مما جعل الطبقة الأرستقراطية الرومانية تحتقرهم ، وهذا مصدر آخر انبثق منه شعور العداة التقليدى ضد « كلوديوس » ذلك العداة الذى يصوره ، وقد أصبح ألعبه في أيدي النساء والرجال المعتقين . ومن المسلم به تماماً أن « مسيلينا » Messalina أول زوجاته كانت طموحة ومسرقة . ولكن يبدو أن قصص الإغراء الفاحش التى تحكى عن حبه كانت من نسج أعداء كلوديوس وقد بلورها « جوفينال » Juvinal في كتاباته فيما بعد — ولكن « مسيلينا » تأمرت عليه بالاشتراك مع عشيقها

« سيلديوس Silius » وحكم عليهما بالإعدام عام (٤٨ م) وخلفتها « أجريينا » الابنة الرهيبة لأم رهيبة . ولما كانت غير قانعة بالمجد الذى أعقد عليها كإمبراطورة ، ذلك المجد الذى يفوق أى مجد أعقد على (ليفيا) : قتلت « كلوديوس » عام (٥٤ م) وذلك لسكى تضمن خلافة العرش لابنها « نيرون Neron » فقد كانت تأمل فى اتخاذ أداة تحكم هى بها .

وبدأت رئاسة نيرون بفترة من الحكم الصالح وذلك بتوجيه من « بورديوس » Burrius قائد الحرس البروتورى ، و« سنيكا » Seneca معلم نيرون ، ومن الجدير بالملاحظة أن رجلين من سكان الولايات أحدهما من بلاد الغال والآخر من أسبانيا قد توليا مثل هذه الساطة ، ولكن الشاب الصغير الذى أصبح سيداً للعالم وهو فى سن السادسة عشر ، سرعان ما وجد أساتذة له أكثر انسجاماً معه من فيلسوف روائى وانقلب حكمه إلى كابوس من المؤامرات والدعارة والاختيالات ، تلك الاختيالات التى بسببها أصبح هذا العصر مضرباً للأمثال .

وكانت آثار هذا الفساد قاصرة على روما ، أو على حاشية نيرون فحسب ، أما أداة الحكم الإمبراطورى فقد كانت تقوم بمهامها بسهولة متناهية فى معظم أنحاء الإمبراطورية دون أن يعكر صفوها شيء ، وكان الرخاء هو الظاهرة السائدة فى الولايات ، كما كانت الاضطرابات تجابهه بحزم وقوة ، ففى بريطانيا اندلعت الثورة الجامحة تحت قيادة (بوديكا) Boudicca فى عام (٦١ م) وكان المحرك لها هو جشع محصلى الضرائب الرومانيين . واستولى الثوار على لندن) و (كولنشيستر) و (سانت ألبانس) St. Albans وذبحوا سكانها وبدأ الموقف لبعض الوقت ، كما لو كانت روما قد فقدت السيطرة على الولاية تماماً ولكن بعد أن انهمز الثوار ، فتح باب التحقيق واستدعى (سويتونيوس پاولينوس Suetonius Paulinus) ثم اتبعت روما سياسة أكثر اعتدالاً ثبت نجاحها ، وفى جودايا Judaea حدث

انقلاب عام (٦٦ م) . وفي الوقت الذي مات فيه نيرون كان (فسباسيان) منهمكا في إخضاع الولاية جزءاً جزءاً تواجهه مقاومة دينية متعصبة . وعلى الحدود البرثية كان هناك قتال متقلب دام عشرة أعوام قام فيه (كوربولو) Corbulo لأول مرة بلم شتات جيش روماني مفكك في تكوينه ثم قاد القتال بعد ذلك إلى انتصارات باهرة في (أرمينيا) ، بينما كانت هناك قوة رومانية أخرى تحت إمرة (بايتوس) Paetus قد ذاقت مرارة كارثة كانت في طريقها إلى أن تصبح صورة مصغرة من (كرهاي) Minor Carrhae وأخيراً تم الاتفاق وذلك بترشيح رجل (بارثي) لعرش (أرمينيا) ولكنه استدعى إلى روما لتبويجه (٦٦ م) وقد نتج عن هذا التصرف سلام دام نصف قرن من الزمن .

أما في روما ، فقد انفرج الستار عن جو من الرعب مشابهاً لرعب (التراجيديا اليونانية) وكان هذا الجو هو المادة الأولى لمآسى (سنیکا) الملودرامية . وكان مقتل (برتانيكوس) Britannicus ، ابن كلوديوس من (مسيلينا) حادثاً يجب توقعه ، ولكنه سرعان ما تبعه مقتل (أجريينا) التي ماتت وهي تلعن الجنين الذي حملته ، (أي نيرون) . وبعد موت (بروس) Burrus عام (٦٢ م) وقع نيرون تحت تأثير رئيس الحرس البريتوري الجديد وهو (تيجلينيوس) Tigellinus الشهير ، وضرب بكل القيود عرض الحائط . فقد أدت مؤامرة (كايوس بيزو) Caius Biso (عام ٦٦ م) التي كان يشترك فيها عدد من الأراستقراطيين ، إلى موت الكثير بما فيهم (سنیکا) والشاعر (لوكيان) وظهر نوع من المعارضة الفلسفية بين قليل من الرجال ذوى النزعات الرواقية والمتحمسين للجمهورية ، وهم من خلفوا (كاتو) في آرائه . وكان موت (ثراسيا بايتوس) Thrasea Paetus

و (باريا سورانوس) Barea Soranus بمثابة النهاية لزعماء هذا الحزب . ولم تهز أى جريمة من جرائم (نيرون) مشاعر الشعب الرومانى مثلما هزه قتل زوجته الأولى (أوكتافيا) Octavia إرضاء لمنافستها (بوبياساينا) Poppaea Sabina . وأخيراً عندما أمر نيرون القادة العسكريين من أمثال (كوربولو) بالانتحار انعزل بذلك عن كل الطبقات وأصبحت الجيوش فى حالة من الفوضى والتمرد . فأعلنه مجلس الشيوخ عدواً للشعب ثم لاقى حتفه على يده الخاصة (٦٨ م) .

وهكذا انمحنى من الوجود آخر إمبراطور من عائلة «يوليو - كلوديا» وهو فنان من أعظم فناني العالم ، كما يعتقد هو . وطموح نيرون الفنى والرياضى مهد السبيل لانتشار القصص البشعة التى تسرد جرائمه . وقد تماكته الرغبة فى أن يبرع كعزف ولاعب قيثارة وسائق عربة حربية ، وقد وصل إلى حد البراعة فعلاً ، فى أثناء جولاته الشهيرة فى بلاد اليونان صال وجال خلال الحدود سعياً وراء كل مناسبة يقام فيها مهرجان ثم عاد إلى وطنه ومعه مالا يقل عن ١٨٠٨ من التيجان - وهذا بالتأكيد رقم قياسى ! - ودخل عاصمته روما . ومن العجيب أنها لم تتأثر بعبقرية إمبراطورها . واسكن أشهر حادثة وقعت أثناء حكمه هى حريق روما الكبير وما ترتب عليه . فى ليلة ١٨ يوليو عام ٦٤ م حط على روما نوع من المصائب صلى من أجله مخططو المدينة ، فقد شبت النيران فى المقاعد الخشبية فى «السرك الأعظم» Circus Maximus واندلعت بقوة لمدة أسبوع وخربت عشر مناطق من مناطق المدينة البالغ عددها أربعة عشرة منطقة . وكانت نماذج نيرون المجسمة على أتم استعداد ، فقد انتهز الفرصة لإعادة بناء المدينة بحماس شديد . وكان موقفه هذا لا يطاق حتى إن الدعاية المعادية له قد نشرت إشاعة تقول بأنه تسبب فى هذا الحريق عمداً وأصبح الموقف يحتاج وجود كبش للفداء ، والمجتمع اليهودى فى روما قد يؤدى الغرض ولسكنهم كانوا

تحت حماية « بوبيا » . ولكن كانت هناك طائفة صغيرة من اليهود المعتنقين لمذهب مختلف وكان يشك فيهم بسبب جرائم خلقية وذلك لأنهم كانوا يقومون بأعمالهم في سرية تامة ، وكان يطلق عليهم اسم المسيحيين وذلك نسبة إلى رجل يدعى « كريستوس » Christus قد نفذ فيه حكم الإعدام في عهد « تيريوس » على يد « بيلاطس البنطى » Pontius Pilate وهكذا كما ورد في مؤلفات « تاكيتوس » كانت بداية الاضطهاد النيروني الذي جاء منه الاعتقاد بأن نيرون معاد للمسيحية « Antichrist » .

وقد أعقب موت « نيرون » حدوث أزمة حرجة . إذ لم يكن هناك وريث من عائلة « يوليوس - كلوديان » وأصبح المجال مفتوحا أمام من يدعى الرئاسة ولكن لا يمكن أن يدعم هذا الادعاء إلا باستخدام القوة . وهكذا نتج عن ذلك الحوادث البشعة المؤسفة التي وقعت في عام (٦٩ م) ، عام الأباطرة الأربعة ، وكان قد مر على موقعة « أكتيوم » ما يترب من مائة عام — وللمرة الثانية ، زج بالجيوش الرومانية في سلسلة معقدة من الحروب الأهلية ظهر فيها، لأول مرة وبصورة واضحة التنافس بين وحدات الجيش والوقاحة التي كان جنود كل الجبهات يعاملون بها السكان المدنيين . وكان (جالبا) Galba هو مرشح الحرس البريتورى ، يؤيده ويعضده الجيش الأسباني ، فاتخذ لنفسه لقب (قيصر) Caesar في أسبانيا ، وهو بذلك ، كما يقول (تاكيتوس) — يزيح الستار عن سر رهيب من أسرار الإمبراطورية ألا وهو أن الرئاسة من الممكن توليها في أى مكان غير روما — وحل محله (أوتو Otho) ذلك لأن الحرس البريتورى قد تخلى عن تحالفه معه ، ونسشهد بتاكيتوس مرة ثانية إذ يقول (لقد أخذ اثنان من الجنود على عاتقهم مهمة تغيير مجرى إمبراطورية الشعب الرومانى ، وقد أفلحا بالفعل في تغييرها) أما (فيتيلوس) Vitellus فقد رشحه جيش الراين . ولكن الكلمة الأخيرة كانت ترجع إلى الفرق العسكرية في

الشرق فأعلن، (فسباسيان) Vespasian إمبراطورا في الاسكندرية في (١ يوليو) وبعد ذلك أيدته الفرق المعسكرة في سوريا وتلتها فرق الدانوب واستولت قواته على روما في ٢٠ ديسمبر بعد قتال مرير دار في الشوارع وقتل (فيتيلوس) ، وقد وصفت أحداث هذا العام وصفا بديعا في كتب التاريخ Histories التي وضعها تاكيتوس ورسم فيها صوراً لاتنسى لمن قاموا بالأدوار الرئيسية في هذه المسرحية وهم جالبا Galba الذي اتفق الجميع على أنه يصلح لمنصب الإمبراطور ما لم يكن قد تسلم مقاليد الحكم أبداً ، و (أوتو) Otho المخنص وميتته التي اتصفت بالشجاعة ، و (فيتيلوس) الغبي الذي كان في أخرج لحظات الأزيمة يترييض في حدائقه كحيوان خامل لن يتحرك أبدا طالما أنت تطعمه ، لا يهتم بشيء عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل . كما وصف (تاكيتوس) بنفس المستوى البديع معركة (بدرياكوم) Bedriacum ونهب بلده (كريمونا) Cremona الوحشي والقتال الذي دار في روما بين فيتيلوس وجنود فسباسيان من أجل الاستيلاء على السكايتول .

وكان فسباسيان رجلا ينتمى إلى طبقة جديدة من الرجال نالوا نجاحهم عن طريق خدمتهم في سلك الوظائف العامة ، وقد وفدت من عائلة « رياتا » Reata وهي بلدة في أراضي السابين . ولم تسكن هذه الأسرة تتمتع بمكانة أكثر من مكانة محلية حتى جاء أبوه الذي كان جامعا للضرائب في ولاية « آسيا » أثناء حكم « أوغسطس » وكان فسباسيان قائدا للفرقة الثانية أثناء غزو « كلوديوس » لبريطانيا وتولى القنصلية عام (٥١ م) وأصبح حاكما لأفريقيا عام ٦٣ م . وفي عام ٦٦ م أصبح مستقبلا العملي على وشك الانتهاء تقريبا قبل أوانه وذلك لافتقاره للسكون عند ذهابه للنوم أثناء إلقاء نيران إحدى خطبه في بلاد اليونان . ولسكن اندلاع ثورة اليهود جعلته يتولى قيادة أخرى خطيرة ، عزل منها أثناء وقوع أحداث ٦٩ م . وارتدائه لرداء

الباطرة القرمزى لم يفعل شيئا ليغير من لهجته السايينية ومن حياته البسيطة وتفكيره الدينوى وبخله الشديد في المال .

وهذه الصفة الأخيرة كانت وقتية فقط ، لأن بذخ نيرون والحروب الأهلية كانت قد أفلست الدولة تقريبا فأصبح حكم فسباسيان يتميز كله بالتقشف والإصلاح المالى . وعندما أصبح « كنسور » Censor فى عام (٧٤ م) قام بتعديل نظام الضرائب كله ، فقد ألقيت أعباء جديدة على الأفراد والمجتمعات وارتفعت الجزية التى كانت تدفعها الولايات وأصبح البلاط الإمبراطورى يعيش حياة بسيطة وأصبح الموظفون المليون مطالبين باتباع الأمانة الحقة . وكانت هذه الإصلاحات ناجحة بما فيه الكفاية حتى إنهم لم يجعل الدولة تقف على قدميها فحسب ، بل مكنت الإمبراطور أيضا من تنفيذ مشاريع البناء فى روما .

أما فى بلاد الغال وفى جودايا فقد آلت إلى فسباسيان تركه من المتاعب فالأحداث التى أدت إلى موت نيرون كانت قد تسببت فيها ثورة قامت فى بلاد الغال تحت زعامة (فنديكس) Vindex لها طابع الانتفاضة القومية وقد سحقت هذه الثورة . ولكن سرعان ما انبثق انقلاب آخر أكثر خطورة تحت زعامة (كيفيلس) Civiles وقاد لواء من القوات المساعدة مكونا من مواطني بلده وصمم على تحرير (بتافيا) Batavia من النفوذ الرومانى وقد انضمت إليه قبائل من الألمان الأحرار الذين جاءوا عبر الراين وبعد ذلك أعلنت القوات المساعدة الغالية أيضا تمردا على قيادة (كلاسيكوس) Classicus زعيم شعب (التريفيرى) Treveri وأقامت هذه الثورة إمبراطورية لشعوب الغال استطاعت أن تكتسب ثقة الجنود الرومان المعسكرين فى (فيتيرا) Vetera وانتشرت فى بلاد الغال إشاعات خبيثة تقول إن تدمير الكايتول فى عام (٦٩ م) يعنى نهاية الحكم الرومانى وانتقال زعامة الإمبراطورية الغالية إلى الشعوب الكلتية . وهناك عرافة تدعى (فيليدا) Villeda قد تنبأت

للشعوب الألمانية بذلك أيضا . ولكن عندما تمكن فسباسيان من إرسال قوة هائلة انهارت الثورات وأجبر (كيفليس) على التراجع إلى المستنقعات . ولتحاشي حدوث خطر مشابه في المستقبل أصبحت لواءات القوات المساعدة منذ ذلك الوقت تحت إمرة ضباط إيطاليين . ووزعت هذه اللواءات كل على حدة خارج أوطانهم .

أما في (جودايا) فقد انهمك (تيتوس) بن فسباسيان في إشعال الحرب وبعد حصار رهيب دام ١٣٩ يوماً سقطت أورشليم وخرب المعبد وحملت كنوز المدينة لاستخدامها في مواكب انتصارات تيتوس وفسباسيان الرائعة كما وهبت الجزية التي كانت تدفعها أورشليم إلى (جوبيتر كابيتولينوس) Jupiter Capitolinus ولكن صمود قلعة (ماسادا) Masada الواقعة على البحر الميت طوال عامين كان دليلاً على استمرار مقاومة اليهود . ولايزال من الممكن رؤية آثار أعمال هذا الحصار . وقد وصفت كل هذه الأحداث وصفاً حيويًا في كتاب (جوسيفوس) (يوسف اليهودي) Josephus الذي كان موالياً للرومان والذي شاهد سقوط أورشليم وهو واقف بجوار تيتوس مع أنه كان يهتم اهتماماً كبيراً بالحضارة والدين اليهودي .

وكانت نهاية هذه الثورة تعني إعادة السلام إلى نصابه في الإمبراطورية فأغلقت أبواب معبد (يانوس) Janus وشيد معبد السلام الرائع وأضيف إلى مباني الأسواق الإمبراطورية . وكان فسباسيان ، مؤسس الأسرة الحاكمة الثانية ، مهتماً بتشكيل سياسته على غرار أوغسطس مؤسس الأسرة الأولى ، فأعدت الرعاية على الفنون وأنشئت كراسي للبلاغة اليونانية واللاتينية في روما . وكان المظهر الرئيسي من مظاهر إدارته المدنية هو مكانة (تيتوس) ابنه الأكبر الذي نصب بالفعل شريكاً له في الحكم وعين

خليفة له . بينما قدر لابنه الأصغر (دوميتيان) Domitian أن يحافظ على كيان عائلة (فلافيوس) لتصبح الأسرة الثالثة الحاكمة . وقد تسبب هذا فى انبثاق معارضة رواقية مرة أخرى وأعدم (هلفيديوس بريسكوس) Helvidius Priscus عام (٧٥ م) زوج ابنه (ثراسيا بايتوس) ضحية نيرون . كان فسباسيان بصرف النظر عن هذه الحادثة يعامل مجلس الشيوخ بكل احترام ، مع أنه لم يطلق له العنان تماماً . وبعد مماته أله بأمر من المجلس وهو ثانى إمبراطور بعد أوغسطس يليق هذا الجزء .

أما (تيتوس) Titus ثانى إمبراطور من عائلة فلافيوس فقد فاق أبيه فى شعبيته أثناء حكمه القصير الأمد (٧٩ — ٨١ م) وكان معروفا باسم (حبيب الجنس البشرى) . والتساؤل عما إذا كان يستطيع الاحتفاظ بشعبيته لو قدر له أن يعيش فترة أطول قد يكون أمراً مشكوكاً فيه . فإن نيرون ، بل حتى كاليجولا ، قد بدأ بداية طيبة ، ولكن كانت روما تتمتع على الأقل لمدة عامين بإمبراطور أصيل سخى عطوف على كل الناس ، عدالوشاة والجزواسيس وعلى الرغم من أن مدة حكمه كانت قصيرة إلا أنها تتميز بمحدث مصائب وكوارث طبيعية ، فقد انتشر الطاعون انتشاراً مهلكاً ، كما شب حريق هائل فى روما وثار بركان (فيسوفوس) ثورته الشهيرة التى دمرت (بومبي) و (هيركولانيوم) Pompeii, Herculaneum .

أما الإمبراطور الثالث من أسرة فلافيوس ، (دوميتيان) Domitian جعل (٨١ — ٩٦ م) فكما جاء فى كتابات مارتياى Martial جعل الأمور تبدو كما لو كان من الأصالح ألا يتربع على العرش الاثنان السابقان له . إن التيار الجارف للمعارضة المعادية لدوميتيان يصبح كدقات أجراس مرتفعة عند (تاكيتوس) و (جيوفان) فبعد موته دمرت تماثله ومحى اسمه من فوق النقوش ، ولعننت ذكراه . ولكن من الواضح أن عداوته كانت تقتصر على الطبقة الأرستقراطية الرومانية لأن هذه العداوة قد ظهرت

فى السنوات الأخيرة من حكمه (٩٣ — ٩٦ م) عندما أصبح طاغية مستبداً متقلب الأطوار . فنتج عن ذلك حكم الإرهاب الحق ، وانتشر الوشاة بصورة لم يسبق لها مثيل أبداً ، وقتضى على كل من كانوا يقفون فى طريق (دوميتيان) . ولكنه برهن على أنه إدارى قدير معظم فترة حكمه يسير على نهج تيرىوس . لقد كان فى الواقع فى كثير من الأحوال مثل موظفى المكاتب المجتهدين فى العصر الحديث الذين يقال عنهم إنهم كرسوا أنفسهم لشيء ، ولكن لماذا ؟ بصرف النظر عن قدراتهم — هذا غير مؤكد — وإن وجهة نظر دوميتيان فى سلطته كانت متطرفة بالتأكيد ولكنه حاكما استبدادياً بطبيعته فقد كان يجب أن يخاطب (بولانا وإلهنا) وكان يحكم بسيادة القيصر الروسى المطلقة ، فقد حد من سلطات مجلس الشيوخ حتى أصبح لآحول له ولا قوة وذلك عندما حصل (دوميتيان) على السلطة الكسنورية لمدى الحياة ، تلك السلطة التى مكنته من السماح للأعضاء بدخول المجلس أو طردهم منه .

وكانت سياسته الخارجية تتميز بتطورات هامة على الحدود فى بريطانيا كان يقوم بخدمته حاكم قدير فى شخص « جنايوس يوليوس أجريكولا » Gnaeus Julius Agricola حم « تاكيتوس » فقد نظم غزوشمال ويلز وإنجلترا الشمالية وقام بحملة استغرقت خمس سنوات فى اسكتلندا وأحرز نصر أمينا على قبائل الأراضى المرتفعة Highland ، ولكن استدعاه « دوميتيان » وأعاد النظر فى خططه الخاصة بضم « كالدونيا » وقد حدث إعادة النظر هذا دون شك بحكمة على ضوء ما مر بهم من صعاب . وفى جنوب غرب ألمانيا أكمل « دوميتيان » عملا كان قد بدأه فسباسيان ، الغرض منه احتلال الزاوية الواقعة بين الراين وأعلى نهر الدانوب وهذا الموقع يحميه الممر الألمانى Limes Germanicus . وهو خط دفاعى حصين ، ولكن كانت المنطقة الواقعة فى الدانوب السفلى هى التى واجه فيها « دوميتيان » أعوص

تجربة لاختبار قدراته ، ومنذ هذا الوقت كان لهذه البقعة أن تصبح أخطر مكان من كل أرجاء الإمبراطورية . وظهرت نذرا لخطر من مملكة « داكيا » Dacia (وهي روما الحديثة بالتقريب) التي كانت تقع ما بين الدانوب والكارپاثيين Carpathians بما فيها أراضي ترانسلفانيا Transylvania المرتفعة في وسطها، وكانت هذه البقعة أرضاً غنية بمعادنها — الفضة والحديد والذهب — بالإضافة لأرض صالحة للزراعة تماما في الوديان ، وكانت القلاع الهائلة المقامة على التلال تتحكم في الطرق الاستراتيجية ولا تزال أعمال التنقيب قائمة بها . وفي أيام قيصر كان هناك حاكم قوى هو « بوربيستا » Buribesta أقام مملكة قوية مهيبة حتى إن قيصر كان يعد العدة ليشتبك معه ، ولكن وافته منيته . لكن بعد موت بوربيستا نفسه تضاعف خطر مملكته « داكيا » طوال قرن من الزمن . ثم كان له أن يظهر من جديد على يد ملك أكثر طموحا وهو « دكبالوس » Decabalus وقد خلق هذا الرجل أقوى مملكة في وسط أوربا ، وأخذ من جيرانه القاطنين على طول نهر الدانوب حلفاء له ، وأقام علاقات دبلوماسية مع بارتيا . وفي عام (٨٥م) قام جيش من مملكته داكيا بغزو ولاية (مويسيا) Moesia وجأهت روما حربا شعواء ومنيت بهزيمة منكرة عام (٨٦م) إلى جانب فقدتها « فوسكوس » القائد Fuscus . وفي العام التالي أحرزت روما نصراً في « تاباي » Tapae حيث قتل دكبالوس كما يقال ، ولكن اندلاع الثورة في أعالي الدانوب وبين جيوش الدانوب منعت « دوميتيان » من الوصول إلى حل لمشكلة مملكة داكيا . فتم عقد السلام بشروط اعتبرها المؤرخون شروطا غير مشرفة وكانت بالتأكييد تنص على دفع الجزية . وقد يبرهن الزمن أن دكبالوس لم يتخل أبداً عن آماله العريضة .

وفي نفس الوقت وبقوة دفعت ثورة (لوكيوس أنتونيوس ساتورنينوس) Lucius Antonius Saturninus (٨٨م) حكم (دوميتيان) إلى مرحلة أسوأ . وبدافى

ذلك الوقت اضطهاد الطبقة الأرستقراطية ذلك الاضطهاد الذي ترك مثل هذه الانعكاسات الكئيبة في كتابات تاكيتوس وجوفينال . وأصبحت مدينة روما عبارة عن خليط من الرعب والتملق ، لاتنبع منها أى معارضة لامن جانب الرواقين ، وهم أحفاد الرواقين الشهداء الذين عاشوا في ظل حكم نيرون ، والفلاسفة والمستشارين . فنحن نسمع عن حادثتين من حوادث نفي الفلاسفة بما فيهم « أبيكتيتوس » و « ديوخروسوستوم » Epictitus, Dio Chrysostom وعن موت العديدين من الأرستقراطيين الرواقين . ولم يكن تاكيتوس راضياً عن عنادهم الذي لاجدوى فيه وذلك عند مقارنتهم بواقعية هؤلاء الرجال من أمثال « أجريكولا » الذي برهن بسيرة حياته أنه من الممكن ظهور رجال أكفاء تحت إمرة إمبراطور فاشل يتولون الخدمات العامة . ومهما قد يظن الإنسان بعناد الرواقين إلا أنهم حافظوا على الكرامة الإنسانية في وجه الطغيان . ولم تكن معتقداتهم لا أثر لها ، لأنه بعد أن اغتيل دوميتيان نتيجة مؤامرة أحيكت في القصر عام (٦٩ م) أصبح من الواضح أن تولى الرئاسة لا يمكن أن يستمر على سياسة التوارث العائلي .

وهكذا حلت فاتحة عصر جديد وذلك باختيار عضو من مجلس الشيوخ ليصبح إمبراطوراً وهو « نيرفا » (٦٩ - ٩٨ م) ويرجع ذلك إلى خصائصه الطيبة ولكن يرجع أكثر من ذلك إلى افتقاره لبعض المساوى المعينة ، وكونه رجلاً مسناً كان في الصالح تماماً فإن شارل دوى جول ، يصرح لنا قائلاً « إن الإنسان لا يصبح دكتاتوراً وهو في سن الثالثة والستين من عمره » وقد كان « نيرفا » Nerva في السادسة والستين . لقد كان رجلاً مديناً يليق بمجلس الشيوخ ولكن قد لا يكون هناك على الأقل مثل هذا التنافس بين وحدات الجيش الذي أدى إلى وقوع أحداث عام (٦٩ م) وقد يكون حكمه فترة نقاهة للدولة ولكنه ربما يكون طويلاً بما فيه الكفاية

السكى يتنفس الناس الصعداء بعد الإرهاب والسكى يتوصلوا إلى حل أكثر دواما . ويقول تاكيتوس عنه إنه مزج شيئين كانا متعارضين فيما قبل ألا وهما الرئاسة والحرية . وتعنى كلمة الحرية هنا ، حرية مجلس الشيوخ ، ولقد أظهر نيرفال للناس اختلافا بينا عما سبقوه ووضع مصالح روما وإيطاليا نصب عينيه ولكن إدارته كانت إدارة ضعيفة ولم يتمكن من تحاشي الوقوع في مشاكل جديدة إلا بتبنيه قائد جيوش ألمانيا العليا « ماركوس أوليبوس تراچانوس » Marcus Ulpius Trajanus ليخلفه .

لقد كان لهذا الاختيار والرجل الذى وقع عليه الاختيار أهميته ، فالسكل ، عدا قليل من المتعصبين ، كانوا مقتنعين بضرورة دوام الرئاسة . والمشكلة السياسية القومية التى ترتبت على هذه الضرورة هى أن الرئيس لابد وأن يكون أقدر رجل فى الدولة وقد وضع لمدة طويلة وخاصة عن طريق المفكرين الرواقيين أنه قد يتم هذا باتباع وسيلة التبنى . وفى الواقع مكنت هذه الوسيلة روما من التمتع بأطول فترة تتولى فيها حكومة صالحة زمام الأمور (٩٨ - ١٨٠ م) وذلك خلال حكم تراچان Trajan هادريان Hadrian .

كان « تراچان » مواطنا أسبانيا من عائلة حديثة العهد ، وهو أول إمبراطور ينتمى إلى ولاية غير إيطالية يعتلى العرش وقد اعتبره معاصروه وخلفاؤه من أقدر الأباطرة الرومان ووضعوه فى مرتبة أوغسطس . وتضع الشواهد الأدبية الضئيلة العقبات أمامنا — ذلك إن كان هناك تعبير أدبي واحد عن أفكار هذا العصر يصلح لمقارنته بأروع أعماله الفنية : ألا وهو عمود تراچان . ولكن ليس من المحتمل أننا سنختلف مع هذا التقييم للعمود ذلك لأن حكم تراچان كان يتميز ببرناج تحررى فى إيطاليا كما يتميز بإدارة ممتازة للولايات وأعلى درجة من درجات توسع النفوذ الرومانى بعد أن قام بغزواته فى داكيا وبارثيا ، Dacia Parthia وعلاوة على ذلك فإن بناء تراچان للسوق الرومانية Forum قد توج روعة روما الحضارية .

وإن إمدادات المونته Alimenta وهي الهبات التي كانت تمنحها الدولة للمحافظة على الأطفال في إيطاليا كانت أكثر المراحل نضوجاً في مجال الحياة الاجتماعية في العالم الروماني وقد بدأ هذا المشروع كمشروع خاص ثم تولته الدولة أثناء حكم «نيرفا» وأوسعه تراجان . وكانت تموله سلف الدولة التي تمنحها للفلاحين بمعدل ١ / ١٢ أو ١ / ٢٠ من قيمة ثمن أراضيهم ، وكان الفلاحون يدفعون لهيئاتهم المحلية أرباحاً بنسبة منخفضة (حسب مقاييس تلك الأيام) قدرها (٥ / ١٠) وكانت الهيئات المحلية تقوم بتوزيع هذا الدخل من الأرباح على شكل منح لآباء الأطفال الفقراء ، وهناك نقش جاءنا من « فاليا » Valcia الواقعة بالقرب من « بارما » Parma يرجع تاريخه إلى (١٠٣ م) يشرح طريقة تطبيق هذا المشروع : فكانت الدولة تخصص رأس مال أكثر من ١٠٠٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠٠٠ سستيرسيس تقدمه للفلاحين المحليين ، ويدر رأس المال هذا ربحاً سنوياً قدره ٥٢٢٠٠ سستيرسيس . ومن هذا الربح كان هناك ٢٤٥ صدياً يتسلم كل منهم ١٦ سستيرسيس شهرياً ، و ٣٤ فتاة تتسلم كل منهن ١٢ سستيرسيس شهرياً ، وهناك اثنان من الأطفال غير الشرعيين تعم عليهم أيضاً فوائد هذا المشروع (وهذا يدعو للحيرة) الولد بمعدل ١٢ والفتاة بمعدل ١٠ سستيرسيس . وقد علمنا من النقوش أن أكثر من ٤٠ مدينة إيطالية قد ساهمت في هذا المشروع الذي توسع فيما بعد وطبق في الولايات . إن هذا المشروع لا بد وأنه كان عوناً للزراعة بقدر ما كان عوناً للعناية بالأطفال كما أن تكاتف الهيئات المركزية والمحلية المسئولة في هذا المشروع ظاهرة جديرة بالملاحظة . ولا عجب أن النقوش البارزة المنحوتة على قوس تراجان في بنفتوم Beneventum تصور هذه المنح على أنها إحدى أعجاد حكمه .

لقد كان إشرافه على المصروفات العامة في كل أجزاء الإمبراطورية لا ينقطع، بل وربما كان مبالغاً فيه، فقد كان هناك أكثر من سبعين مدينة

من مدن الولايات التابعة لمجلس الشيوخ ملزمة بأن تقدم تقاريرها إلى مبعوثي المجلس الشخصيين Curatores وفي بعض الأحيان كانت ولايات بأكملها تحظى برعاية فائقة مثلما حدث عندما عين « بلني » Pliny حاكماً « لبثونيا » Bithynia ولا يمكن اعتبار المراسلات الشهيرة بين بليني وتراجان من لوازم العلاقات بين إمبراطور وحاكم ولاية ، فقد كانت بيثونيا منطقة لها اعتبار خاص وكان بليني رجلاً في منتهى الدقة والحذر . وعلى الرغم من ذلك فقد وصلت السيطرة المركزية على هذه الولاية إلى درجة مذهلة بإقامة المباني وإنشاء فرق إطفاء الحريق ووجود المجتمعات الخاصة والعبادات الدينية ، والشئون المالية البلدية والقرارات القانونية كل ذلك خلق مشاكلاً كان « بليني » يطلب فيها نصيح الإمبراطور . كما تمدنا مراسلاتهما هذه ببعض الأدلة الأولى على وجهة نظر الحكومة الإمبراطورية في المسيحية .

وعلى الرغم من ذلك فإن شهرة تراجان كانت دائماً شهرة الإمبراطور العسكري إذ يتميز عن كل الأباطرة بحروبه في داكيا وبارثيا . وربما تظهر حروب داكيا الجيش الروماني وهو في قمة عظمته وذلك بفضل إمرة قائده المغوار بالتأكيد . ومما يدعو للأسف أننا لا نستطيع أن نضع تعليقات تراجان بجوار النقوش البارزة المحفورة على عامود في روما لنصدر حكماً عادلاً تماماً على ما يحتويه من أعمال مجيدة . والحقيقة أننا نستمد من العامود صورة رائعة للجيش الروماني وهو في أرض المعركة وذلك بتفاصيل كاملة عن تحركاته العسكرية ومهاتمه وبتأكيد اعتماد هذا الجيش على القائد Imperator كما نرى كذلك مقاومة أهل داكيا العنيفة وأسلحتهم وعتادهم وقلاعهم الهائلة وملسكهم العظيم « دكبالوس » وهو رجل جدير بأن يكون خصماً لتراجان نفسه . ولكن فشلت كل محاولات العلماء المحدثين لتسكين تاريخ سردى متصل بالحملات التي قام بها ، من النقوش المحفورة على العامود وعندئذ يكفي أن نقول إنه ما إن جاء عام (١٠٦ م) حتى كان « دكبالوس » قد مات ووقعت داكيا في أيدي الرومان وضمت إلى الإمبراطورية بوصفها

ولاية . وقد طرد معظم سكانها وذلك لإيجاد أرض جديدة للمستوطنين كما حدث مراراً وتكراراً للهنود أثناء توسع الأميركيين تجاه الغرب . وقد كان استعمار « داكيا » هذا الذي قام به سكان أجزاء عديدة من الإمبراطورية هو الذي ترك أثراً لا يمحى للحضارة اللاتينية في رومانيا . وقد دعم كينز ملك « داكيا » الخزنة Fiscus الرومانية بإمدادات هائلة من الذهب والفضة .

وأسباب قيام تراجان بحروبه في باريثيا (١١٤ - ١١٦ م) ليست واضحة تماماً ولكن من المحتمل أنها جاءت نتيجة لحرق الاتفاق الذي عقده نيرون في أرمينيا . وبقيامه بثلاث حملات ضم تراجان أرمينيا وبلاد ما بين النهرين بوصفهما ولايات كما استولى على عاصمة باريثيا « كتسيفون » Ctesiphon واتجه جنوباً إلى رأس الخليج الفارسي بالقرب من مدينة « عبادان » الحديثة وهناك رأى سفينة تمر تجاه الهند وكانت رأسه حينئذ مزدحمة بالأفكار عن الاسكندر ، وكان ذلك هو زمن ذروة نجاح روما ضد باريثيا ولكن المتاعب حدثت سريعاً ففي عام (١١٧ م) اندلعت ثورة في الولايات البريثة المهزومة كما أثرت ثورة يهودية رهيبه على مصر وقبرص وقد جد كثير من المشاكل أثناء غياب الإمبراطور فاتجه تراجان إلى وطنه ولكنه مات في « كيليكيا » Cilicia وكان مجلس الشيوخ قد أصدر حكمه على رئاسته وأغدق عليه لقب « الأول والأعلى » Optimus وهذا استخدام لأفعل تفضيل كان حتى ذلك الوقت موقوفاً على « جوبيتر » نفسه .

إن نظام التبني قد مهد الطريق أمام خليفة جدير بأن يخلف هذا الإمبراطور العظيم هو حارسه الخاص ، ومواطن من نفس بلده يدعى (بوبليوس إيلوس هادريانوس) Poblus Aelius Hadrianus كان هادريانوس (١١٧ - ١٣٨ م) رجلاً لكل المواقف ذا طاقة عقلية وجسمانية

خارقة للعادة وتشوق شديد لمعرفة كل شيء عن الدنيا . وعندما كان مع جيشه كان يشارك الجندي العادي تدريبه . ويزاول التمارين العسكرية ، وتدريبات السير ، ويرفض أن يستخدم عربة لتنقلاته ، وقد تسلق جبل اتنا Etna وهو في سن الخمسين من عمره وقام شخصياً بعمل مسح ليحدد موقع السور الروماني في بريطانيا ، ولما كان نصيراً متحمساً طوال حياته للثقافة اليونانية فقد اطلع على أترار « اليوسيس » Mystries of Eleusis وقام ببناء حى حديد في مدينة أثينا . وفي داني سأل العرافة عن مولد هوميرو وأصله فجاءته الإجابة المذهلة بأنه كان ابناً « لتليماخوس » ، وقد كان راعياً للفنون كما كان هو نفسه مهندساً معيارياً مرموقاً وخلاقاً . والقليل من الرجال في التاريخ من ترتبط أسماءهم بقائمة تشييد هذه الأبنية الضخمة مثل « الألبيون » Olympceion في أثينا والمعبد المقام في « كوزيكوس » Cyscus ومعبد « فينوس » في روما والمنزل الريفي ، أو بالأحرى القصر الصيفي في تيفولي ومقبرة هادريان .

وكان له أن يواجه في بداية حكمه ، مشكلة إيجاد قرار حاسم بشأن فتوحات تراجان ، وقد فضل التخلي عن سياسة التوسع والتنازل عن كل ما يقع شرق نهر « ايوفراتيس » Euphrates ويقال إنه أيضاً فكر في التخلي عن داكيا ولكنه تراجع لأن الاستعمار كان يسير سيراً حسناً ، وربما كان تغيير سياسة تراجان هذا هو الذي تسبب في مؤامرة القنصل الأربعة (١١٧ م) وكانوا كلهم أعضاء في هيئة قادة تراجان . وتميزت سياسة « هادريان » بالحزم في شتى أوجهها . فقد راجع نظام الضرائب وألغى المستحق منها ، ووضع خطط مشروع جديد يستمر لمدة خمسة عشر عاماً على الرغم من أن الحد الذي وصل إليه تنفيذ هذا المشروع غير مؤكد . كما تولت مصلحة إمبراطورية ، كان قد تم توسيعها ، يتكون أعضاؤها من الفرسان الرومان ، جمع الضرائب بشتى أنواعها . ومن الممكن معرفة

النظام الذى اشتق منها مباشرة فى شكل البروقراطية التى تضخمت فى الأزمنة المتأخرة من عصر الإمبراطورية .

وكانت عناية هادريان بالجيش لا تتوقف أبداً ، فقد أزداد من صرامة نظمه وبدأ استخدام تسكتيكات جديدة ووصلت وحدات الجيش إلى مستوى عال من المران . وقد وصلتنا شذرات من خطابه الذى ألقاه على الجنود بعد المناورات التى قاموا بها فى قاعدة « لامبايسيس الإفريقية » Lambaesis وهذه المناورات كانت عبارة عن دورة لا بد أن يتكرر القيام بها فى كل الحدود . وقد دعمت الحدود نفسها كما وقع الاختيار على خطوط دفاعية جديدة فى الأماكن الضرورية . وأهم مثال نصر به على ذلك فى بريطانيا حيث قام هادريان بعمل يعد أروع قطعة من قطع الهندسة الحربية فى العالم القديم عندما أقام أسواراً تمتد من « تين » Tyne إلى « سولواى » Solway (٧٣ ميلاً) لتصبح الحدود الشمالية للولاية . وبنفس المقدرة — بل وأكثر دواما فى النهاية — كانت مراجعته للقانون وتصنيفه على يد خبراء القانون فى ذلك العصر ، وبالذات ، « Edictum Perpetuum » المنشور الدائم ، الذى قام بعمله « سالفينوس يوليانوس » Salvinus Julianus ومؤرخو القانون يعتبرون هذا العمل من أروع الأعمال التى أتى بها علم القانون الرومانى .

ويجب أن نضيف إلى كل هذا الإصلاحات المحلية التى لا عدد لها والتى نتجت عن رحلات هادريان فى الولايات والتى تسكتظ بها فترة السنوات العشر من (١٢٠ — ١٣٠م) فقد قام بجولة أولاً فى الغال ، وبريطانيا ، وأسبانيا وموريتانيا Mauretannia (١٢٠ — ١٢٣م) ثم آسيا واليونان وبتنوس Pontus وصقلية (١٢٣ — ١٢٧م) وإفريقيا عام (١٢٨م) وأخيراً قام بجولة أخرى فى الشرق تضمنت سوريا وجزيرة العرب ، ومصر ولم يحدث أن رأى رئيس آخر للدولة جزءاً كبيراً من الإمبراطورية كهذا على حالته ،

ومن الممكن ذكر مثلين من أمثلة الإصلاحات ، ففي بريطانيا أدخلت مدينة « فيروكونيوم » الصغيرة (وهي جروكستر) ضمن مشروع تخطيط المدن عندما بدأ ازدهار الحضارة الرومانية أثناء حكم « أجريكولا » ولكن صرفت اعتمادات هذا المشروع أو اختفى المتخصص له . فبعد مرور أربعين عاماً على ذلك ، كان وسط المدينة به مباني عامة لم تكمل بعد ، ولم يكن منظرًا مشرفًا لزاير من الأباطرة ، وبسبب النشاط الذي جاءت به زيارة هادريان لبريطانيا انتهى إكمال السوق العامة Forum على نطاق أكثر اتساعاً ووهب هذا السوق له . ومن الممكن رؤية النقوش التي نقشت على هذه المباني في متحف « شروسبرى » . أما في أفريقيا فقد كانت هناك مشاكل جديدة خاصة بالمستعمرين أصحاب الأرض « Coloni » الواقعة في المقاطعات الإمبراطورية التي وصلت مساحتها إلى حجم هائل منذ إجراءات مصادرة الأراضي أثناء حكم نيرون . وقد أيد هادريان حقوقهم وقام بحمايتهم من سوء الاستغلال ، وبالفعل حث من يمتلكون الأراضي عن طريق وضع اليد على استعمار الأراضي البور ، وقد علق « ديوكاسيوس » على مدن الإمبراطورية تعليقا موجزا بليغا ، إذ قال « لم يقم أى إمبراطور آخر بزيارة مثل هذه الأجزاء العديدة من الإمبراطورية كما فعل هو . وقد قدم العون لكل الناس دون استثناء فمن أجل بعض الناس مد أنابيب المياه ، وللآخرين أقام الموانئ ، وللآخرين شيد المباني العامة ومنحهم ممتلكات وامتيازات » . وهناك مجموعة من المسكوكات ، يعد بعضها من أروع ما سكته دار السك الرومانية ، وهذه المجموعة تعد مجموعة تذكارية للرحلات التي قام بها في الولايات كما أنها تصور الطابع المميز لكل ولاية .

ولم برزق هادريان بأطفال وأصبح وجود خليفة له لا بد وأن يتم عن

طريق التنبؤ ، وتتفق كل المصادر التي وصلتنا عنه على أن الرجل الذي وقع عليه أول اختيار له وهو « لوكيوس كومودوس » Lucius Commodus قبل أن يموت هادريان نفسه. أما ثاني اختيار له فقد وقع على رجل قدر له أن يتمتع بأكبر نصيب من التقدير في كل أنحاء الإمبراطورية دون غيره من كل الحكام الرومان ، وهذا الرجل هو « انتونينوس بيوس » Antoninus Pius (١٣٩ - ١٦١ م) وكان انتونينوس في سن الواحدة والخمسين وذلك عندما تبناه هادريان وكانت فترة حكمه هي أوج مجد السلام الإمبراطوري الطويل الأمد الذي اعتقد الأستاذ « جيبون » Gibbon أن أحوال الجنس البشري خلاله كانت أكثر الأحوال يمنا وازدهاراً ، وأصبح العالم الروماني يحكمه رجل مهذب مستقيم ، كرس حياته لخدمة رعاياه ، صارم في ميوله ، يجد متعته في الحياة العائلية التي يقضيها في مقاطعاته الريفية ، وليس من الممكن أن يكون هناك حاكم بعيد كل البعد عن اللوم مثل هذا الحاكم . أما فترة حكمه فلم يتخللها وقوع أحداث هامة ، كما أنه لم يقوم برحلات إلى الولايات بل كانت علاقاته بمجلس الشيوخ علاقة توافق وانسجام كما كان يراجع القانون بصفة مستمرة فأصبح هذا القانون أكثر إنسانية . وفحوى حكمه تتلخص في كلمة السر التي قالها الحارسه وهو على فراش الموت وهي « الموازنة والاتزان » Equanimity وعندما تقارن بين هذا الاتزان الذي ساد عصره وبين السكوارث المفاجئة التي حلت بالإمبراطورية في عهد « ماركوس أوريليوس » Marcus Aurilius نجد أن هذه المقارنة جافة صعبة حتى إن المؤرخين لجأوا إلى استخدام الصور البلاغية عند عرضها . فهم يصفون عصر « انتونينوس » مثل يوم مشرق من أيام أواخر الصيف أو هدوء يكتنف البحر سيهب منه رياح لتسير سفينة الدولة في مجرى جديد ولكن هذا لا يجدي ، إذ أن وقوع السكوارث المفاجئة قد يرجع إلى الافتقار لبعده النظر ؛ كما أن الموازنة والاتزان ماهي إلا مرحلة من مراحل العقل لا يستطيع أن يوفرها أي حاكم . ويميل المؤرخون المحدثون إلى فترة حكم

« أنتونينوس » باعتبارها السنوات العجاف للإمبراطورية الرومانية ، في وقت ترك فيه الجيش ينزل من علياء مستوياته الرائعة التي كان قد وصل إليها في عهد هادريان ، وبلغت الولايات مرحلة الانحلال أثناء غياب الإمبراطور كما كان فاتحة الاتصال بالشعوب المتبربرة القاطنة على الحدود، ولم تتخذ في هذا العصر أى حركة تقدمية إلا في بريطانيا حيث أقام « أنتونينوس » سوراً جديداً في أقصى الشمال يمتد من مدينة (فورث) Forth حتى مدينة (سليد) Clyde وهذا الحائط كان بمثابة خط دفاعي أقصر من الخط الذي أقامه هادريان (إذ يبلغ طوله ٤٤ ميلاً فقط) ولكن بناء هذا السور منحينا كان أسهل من بناء سور هادريان على هذه الصورة . ووراء هذه الأسوار بين ربوع العالم المتبربر الممتد من غابات ألمانيا وبولندا حتى أبواب روسيا ومنغوليا ، كان هناك بين شعوب هذه المناطق حركة قلقلة لا يهدأ لها حال . ولم يعلم الرومان عنها شيئاً حتى ارتطمت أمواج هذه الحركة في آخر مراحل اكتشافها بأسوار الراين والدانوب الدفاعية فجاء الوقت الذي يجب أن يدفع فيه العالم ثمنها باهظاً عن الأيام السعيدة التي قضاها (أنتونينوس) في جمع محصول السكرم في بلدة (سيجما) Sigma .

لكن على الأقل لم يفشل « أنتونينوس » في تعليم خليفته إذ لم يحدث أن تربع على العرش حاكم قد تسلم بالعلم بصورة أقدر من ماركوس أوريليوس ولو قدر لفترة حكمه (١٦١ - ١٨٠ م) أن تأتي في أحوال أكثر ملائمة لأصبحت بمثابة حكم عادل على النعم التي افترض « أفلاطون » ، أنها تعم على الدنيا عندما يصبح الفلاسفة ملوكاً ، لأنه كان قد تشبع تماماً بطابع الفلاسفة الرواقية المتأخرة التي تقتصر في جوهرها على علم الأخلاق ، وقد شرحها الفيلسوف « ابيكتيتوس Epictitus » في كتابه « الأحاديث » . ومن هذه الفلسفة تعلم « أوريليوس » المثل العليا في تقديم الخدمات

للاخرين ، والمشاركة الوجدانية والابتهاج فى لحظة الاكتتاب والنظرة السامية لما يقوم به الجنس البشرى من أعمال « فهناك رجل يفخر بنفسه لاصطياده أرنباً برياً، وآخر لاصطياده السارماتيين » وكتابه (التأملات) Meditations لم يدونه وهو جالس فى مكتبه ، بل فى خيمته أثناء قيامه بخدمات فعالة فى تلك الأرض الواقعة بين شعب الكوادى Quadi على نهر الدانوب لكن فلسفته هذه لم تعلمه كيف يحكم على الرجال ، ففى بداية حكمه استدرجه مجلس الشيوخ ليوافق على اقتراح فريد فى نوعه : ألا وهو أن يكون (لوكيوس فيروس Lucius Verus) أخوه بالتبني ، إمبراطوراً مساعداً له ، وقد كان هذا الاختيار سيئاً ، لأن (لوكيوس) لم يكن جديراً بحمل هذا العبء . وسرعان ما برهن على ذلك عندما أرسل ليتصدى لغزو قام به (فولوجيسيس) Vologeses ملك براثيا لسوريا . فبينما كان (لوكيوس) يستمتع بمباهج مدينة (أنديوخ) كان قادة جيشه الأكفاء يجمعون شتات الجيش الرومانى فى سوريا كما حدث من قبل . ثم تمكنوا من صد البرثيين واستولوا على مدينة (كتسيفون) .. Ctasephon كما فعل (ترجان) من قبل . وكان أقدر هؤلاء القادة هو (أفيدىوس كاسيوس) Ovidius Cassius الذى ينحدر من أصل سورى ، وقد اكتسب هذا الرجل شهرة ذاتعة الصيت فى كل بلدان الشرق . وقد كان هذا النصر تأكيدياً قوياً للنفوذ الرومانى واسكن جيوش (أفيدىوس كاسيوس) انتصرت على عدو لتطلق العنان لعدو آخر أكثر خطورة — ألا وهو الطاعون — إذ جلبت هذه الجيوش معها إلى أوطانها وباء من أخطر الأوبئة التى عرفت فى التاريخ ، يشبهه فى خطورته (الموت الأسود) وقد نشر هذا الوباء الدمار فى كل العالم الرومانى ، ومن المحتمل أنه قد كان ، كما يفترض البعض ، عاملاً قوياً من عوامل اضمحلال الإمبراطورية .

وتبع ذلك حدوث كارثة أخرى وقعت فى الشمال ، إذ قام ائتلاف قوى

مكون من الشعوب المتبربرة بالهجوم على خط نهر الراين الدفاعي كله - وشمل هذا الهجوم « داكيا » وولايات الدانوب، ووصل حتى رأس البحر الادرياتيكي عند بلدة « أكويليا » Aquileia (في عام ١٦٦ م) ، ولم يحدث أن تفاقمت مثل هذه الأزمات منذ زمن هجوم « الكمبري » أو ثورة « الباثونيين » أثناء حكم أغسطس . وقد تطلب هذا الموقف حضور الإمبراطور ، كما أدى إلى ضياع ثلاثة عشر عاما في قتال مرير ، وهذا ما يسمى بالحروب « الماركومانييه » Marcomannic war التي لانعرف عنها إلا بعض المعلومات الضئيلة . ولكن يبدو أن «ماركوس» قد أعد بالفعل خلال هذه السنوات خطة رائعة للإطاحة بمثل هذه الأخطار إلى الأبد . وقد أدى هذا إلى الرجوع إلى خطة أوغسطس من جديد ، والتي تهدف في طياتها ، إلى مد الحدود شمالا ، حتى نهر الب عن طريق « بوهيميا » وإلى التوسع حتى تلتقي هذه الحدود بحدود « داكيا » الشمالية على طول خط دفاع الكاربانيين . وما إن جاء عام ١٧٥ حتى كان المشروع يتخذ صورته المرسومة . ولكن اندلعت الثورة في الشرق وأعلنت « أفيد يوس كاسيوس » إمبراطورا ، فسارع «ماركوس» بمغادرة الدانوب إلى سوريا ولكنه وجد أن « كاسيوس » قد فارق الحياة والثورة في طريقها إلى الانهيار ، ولكنه في نفس الوقت فشل مشروعه في الشمال ، وبفلس تملؤها الحسرة شرع في القيام به مرة أخرى وإن الإنسان يشعر بعاطفة فياضة نحو تمثال « ماركوس أوريليوس » وهو على حصانه المقام على تل الكاينيتول (وهو يرد التحية على الفرق الرومانية التي ظلت سحابة من غبار طوال ألفي عام) . لقد أنجزت الفرق الرومانية وقادتها مهامها تقريبا ، « فماركومانيا » و « جازوجيا » Jazugia كانتا على وشك أن تصبحا ولايات رومانية . وبالتالي كانت ستؤول أجود أراضي وسط أوروبا إلى الحكم الروماني ، لتتحول إلى قلاع دفاعية حصينة تستخدم ضد هجمات البرابرة طوال القرنين التاليين . ولكن فجأة انتاب « ماركوس » مرض

الحمى عندما كان في معسكره في « فندوبونا » . Vindobona (فيينا الحديثة) ومات كما يجب أن يموت إمبراطور روماني . إذ مات في مركز قيادته — وأصبح الموقف لا يمكن أن يعالج إلا بوجرد خليفة له قوى العزيمة يقود آخر شذمة من الجنود إلى أرض الوطن ولكن « ماركوس » كان قد جعل هذا الأمر مستحيلا بمحض اختياره .

وكان « ماركوس » أول إمبراطور من الأباطرة الذين تولوا العرش الثاني ينبغي أطفالا . وقد كانت الرغبة في خرق نظام التبني إحدى الرغبات التي لم يستطع مقاومتها . ولما لم يكن فشله في تجربته لإقامة حكم مشترك مع « لوكيوس فيروس » قد ألغى الفكرة من رأسه تماما ، بدأ في إجراء تجربة أخرى مع ابنه « كومودوس » Commodus الذي نصبه « ماركوس » إمبراطورا في عام ١٧٧ ، ولا بد أن يكون « كومودوس » هو المثل الأعلى في التاريخ لميل الآباء الصالحين إلى إنجاب أبناء فاسقين . وفترة حكمه (من ١٨٠ إلى ١٩٢) كانت في كل أوجهها كارثة على الإمبراطورية . فقد بدأت فترة حكمه هذه بتخليه عن غزوات « ماركوس » — وهذا ما كان يخشاه أبوه — لكي يوفر لنفسه حرية التمتع بالمنذات في روما . كما وقع تحت تأثير حلقة متتابعة من الأصدقاء النافذين وأصبح أكثرهم تأثيرا عليه هم قادة الحرس البريتوري الذين بدأوا يديرون عملية مخجلة لبيع الوظائف العامة . ونبع من ذلك حكم للإرهاب مثله مثل أسوأ أيام حكم « كاليجولا » و« نيرون » وقد كان « كومودوس » يتمتع بنصيب ما من الشعبية بين غوغاء الرومان بوصفه رجلا يشاركهم ملذاتهم الوضيعة . ولم يجرؤ أحد على اغتياله إلا في عام ١٩٢ ذلك العام الذي جعل « كومودوس » بدايته فريدة من نوعها وذلك بظهوره بين الشعب بوصفه قنصلا وبوصفه مجالدا محترفا في نفس اليوم ، أما ما تركه وراءه من شرور فلم يزل من بعده ذلك لأنه لم يكن هناك من يخلفه . وحدثت نفس الأزمة التي وقعت في عام ٦٩ ، ونشبت سلسلة أخرى من الحروب الأهلية جلبت الدمار والخراب . ولكن في هذه المرة لم يكن هناك (فسباسيان) آخر ليعيد الحكم الصالح إلى العالم .

الفصل الحادى عشر

السلام الرومانى : ١٤ - ١٩٢ ميلادية

عظمة السلام الرومانى التى لاحداها

“Immensa Romanae Pacis Maiestas”

هذه هى عبارة بلينى الرائعة التى لا يستطيع أن يتجنبها أى فرد يتصدى لوصف العالم الرومانى فى أوائل عهد الإمبراطورية. أما عن الحدود فقد كانت هناك حدود بالطبع للعالم الذى يخضع لسلطان السلام الرومانى . فقد امتدت حدوده من اسكتلندا إلى السودان ومن البرتغال إلى نهر الفرات . وأطول قطر له من الشرق إلى الغرب كان يقرب من ٢٨٠٠ ميل وأطول قطر له من الشمال إلى الجنوب يقرب من ١٦٠٠ ميل . وشمل مساحة من أوروبا وآسيا وأفريقية لم تخضع قط مرة أخرى لحكومة واحدة . ولا يمكن لنا معرفة عدد سكان العالم الرومانى فى ذلك الوقت إلا على وجه التقريب ، غير أن الآراء تتفق بوجه عام على أن عدد السكان بلغ سبعين مليوناً من الأنفس . وكانت هناك كثير من اللغات تتحدث بها شعوبه على الرغم أنها لا تبلغ من السكثرة ما هى عليه اليوم ، ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال اللغة السكتية فى بريطانيا وبلاد الغال وبعض أراضى الدانوب وفى غلاطيا ، واللغة الجرمانية على طول الراين ونهر الدانوب الأعلى ، واللغة البونية والمصرية فى إفريقيا واللغة الأرامية فى سوريا . بيد أن ثمة لغتين كانتا تحتلان مركز الصدارة ، وهما اللغة اللاتينية فى الغرب واليونانية فى الشرق ، وكان إمام الفرد بهاتين اللغتين يكفل له الانتقال إلى أى مكان . ومثل هذه الإحاطة كانت تراث كل شخص مثقف . وسادت عملة واحدة وقانون

واحد في مثل هذه الأقطار جميعها . ولم تكن هناك أية حدود أو قيود جمركية كبيرة داخل الإمبراطورية ذاتها ، أما السفر فإنه على الرغم من أنه كان بطيئاً عسيراً بالقياس إلى المعايير الحديثة ، فقد كان يتميز بقدر كبير من السرعة بطريق البر يفوق كل وسائل الانتقال الأخرى فيما قبل عصر السكك الحديدية . والحقيقة أن المستويات التي كانت معروفة في الإمبراطورية الرومانية قد تعذر استعادتها في الوقت الحاضر في بعض الأنحاء التي كانت تحتلها الإمبراطورية . أما السفر بالبحر فلم يكن فيه ضمان كاف . وقد استطاعت الأمم الأوروبية أن تلحق بالمستوى الذي بلغه الرومان وتتفوق عليه في مجال السفر بالبحر قبل ثلاثة قرون من تمكنها تحقيق المستوى ذاته في البر . وكان مبدأ التسامح الديني سائداً ولم تتعرض سوى ثلاث عقائد فحسب للاضطهاد على يد حكومة الإمبراطورية وهذه العقائد هي الدرودية واليهودية والمسيحية . ولم تكن هناك تفرقة عنصرية وعلى الرغم من وجود أحقاد ومنازعات بين بعض الشعوب فلم تكن ثمة تفرقة بين الأجناس بعضها البعض بالمعنى الحديث . وجملة القول إن الإمبراطورية خلال هذه القرون كانت تمثل أقرب المحاولات إلى إقامة دولة عالمية ، حتى وقتنا الحاضر . ويعد هذا من أعظم ما تستند إليه في إثبات حقها في الاستحواذ على اهتمام العالم الحديث .

ويجدر بنا قبل أن نوجه أنظارنا إلى الولايات ، أن نذكر بعض الأمور الخاصة بالإمبراطورية في مجموعها . وأول هذه الأمور ذلك التقسيم الأساسي لها بين شرق وغرب . لقد كان النصف الشرقي من الإمبراطورية منطقة تتمتع بثقافات شهيرة عظيمة وهي الثقافات اليونانية والسامية والشرقية ، كما كانت عريقة في تاريخها الحضارى . فهى عالم حل به الرومان باعتبارهم فاتحين وحكاماً لا باعتبارهم حملة حضارة أسمى من حضارة البلاد المفتوحة أما الغرب فقصته تختلف عن ذلك . ففيه تديننت مجتمعات كلتية وجرمانية

وأيبيرية وغير هذه من المجتمعات القبلية المحلية على يد الرومان . وضمت جميعها إلى الخط الثقافي الذي تميز به العالم اليوناني الروماني . وكانت الحدود الشرقية لولاية إلبيريكوم وولاية إفريقية هي الحد الفاصل بين هذا العالم وذلك . لقد كان هذا تقسيما لم يزد الزمن إلا صلابته وجوداً . كما أكد منه تأسيس عاصمة شرقية في القسطنطينية في أوائل القرن الرابع . كما أصبح لهذا الحد صفة الدوام بعد موت تيودسيوس في عام ٣٩٥ .

وسواء بالنسبة للشرق أو الغرب فإن وسيلة التمدن كانت هي المدينة . ولقد قيل إن الإمبراطورية هي اتحاد بين المدن في ظل حكومة مركزية . وليست هذه هي الحقيقة كاملة ولكنها تؤدي الغرض . لقد كانت مدن الشرق تتمتع بتاريخ عريق في ميدان الحكم الذاتي . الأمر الذي لم تتدخل فيه روما كقاعدة عامة ، إلا في الأحوال التي أرادت فيها أن تعرب عن كرهها للنظم المغالية في الديمقراطية . أما في الغرب فقد شجعت روما على نمو مدن جديدة على غرار عواصم الأقاليم الإيطالية حيث يناط بمجلس بلدي منتخب يتألف من أعيان البلد الوطنيين تصريف الشؤون المحلية . أما من ناحية التركيب العضوي ، فقد كانت هذه المدن الجديدة التي تقوم في الولايات الغربية تتمتع بتخطيط منتظم للشوارع والطرق وبمجار لتصرف المياه ومورد طيب للمياه ومبان عامة ذات أبهة وجلال . كما كانت وسائل الترفيه مثل المسارح والحمامات والفنادق والمكتبات والبساتين مرافق واجبة لهذه المدن ، أما المساكن التي كانت على شيء من الفخامة فكانت تزود بأجهزة للتدفئة المركزية واللوحات الحائطية وأعمال الفسيفساء ثم إذا ذكرنا الأسوار والبوابات الضخمة اكتملت الصورة .

ولكنه على الرغم من الأهمية الثقافية والحضارية للمدينة فقد كان النشاط الاقتصادي الأساسي هو الزراعة . وقد أصابت حركة نشر الحضارة الرومانية أكبر قسط من النجاح حيث كان يفلح الأرض زراع يتكلمون

اللاتينية وذلك ما لا يظهر إلا في الأراضى التى يتيسر فيها قيام نمط للزراعة كمنط الزراعة فى البحر الأبيض المتوسط . وهكذا كانت حركة التمدين فى الإمبراطورية تتمثل أساساً فى تمدين سواحل البحر الأبيض المتوسط ، والأراضى التى تقع من خلفه . ذلك لأنها لم ترسخ فى غابات وسط أوروبا أو فى شواطئ المحيط الأطلنطى . وكان ثمة تعارض خفى بين التفوق الاقتصادى للريف والتفوق الثقافى فى المدينة ، كان من شأنه أن يتطور فىصبح نزاعاً سافراً فى عهد الإمبراطورية المتأخرة .

وهنا أريد أن أعود إلى عرض موجز لأجزاء الإمبراطورية ، أوله الولايات مبتدئاً بالولايات الغربية ثم الولايات الشرقية وأخيراً روما وإيطاليا . أما إذا بدا أن الولايات الغربية تستأثر من عرضنا بأكثر من نصيبها فذلك لأن روما قد قامت هناك بأعظم مهمة لها ألا وهى خلق حضارة لاتينية والعمل على نموها .

ولقد قامت أسبانيا وهى أقدم الولايات فى غرب أوروبا بالإسهام بنصيب كبير فى الحياة الاقتصادية والثقافة فى الإمبراطورية ، ومنها انحدرتراجان وهادريان وسلسلة مرموقة من الكتاب اللاتين تضم الكتابين اللذين يعرفان باسم سينيكا ثم لوكان وكولوميل وكوينتيليان ومارشال . وبمايدلنا على سيادة اللغة اللاتينية فى هذه الولاية الحقيقة الماثلة فى أن لغة الباسك هى اللغة الوحيدة التى بقيت من لغات شبه الجزيرة المحلية . أما سائر اللغات الأخرى الراهنة (وهى الإسبانية والبرتغالية والكاتلانية) فهى لغات مشتقة عن اللاتينية . لقد كانت بمثابة جائزة ثمينة عادت بها حروب الغزو المريرة ، وكانت جائزة ثمينة أيضاً لحركة الاستعمار اللاتينى فى عصر الجمهورية . غير أن حركة نشر الحضارة الرومانية لم يتحقق لها النجاح بدرجات متساوية فى جميع أنحاء شبه جزيرة أيبيريا . فقد بلغت أعظم قدر من التركيز فى المناطق الساحلية الواقعة إلى الشرق وإلى الجنوب وفى كاتالونيا الحديثة وفالانشيا

والأندلس حيث ازدهرت حضارة مدنية عظيمة . وقد منح فسباسيان الذى اختص إسبانيا بعظيم كرمه الحقوق اللاتينية إلى ما يقرب من مائتى مدينة . ويعد ميثاق مالاقة الذى منحه لهم دوميتيان المصدر الرئيسى الذى استقيناه عنه مانعرفه عن نظم الحكم بها . لقد أحالت مدن بايتيكا Baetica وقرطبة وإيتاليكا Italica وهسباليس Hispalis (أشبيلية) و«وادى الكبير» إلى نسخة أخرى من إيطاليا . وكانت قادش هى ميناء إسبانيا الغربية الرئيسى الذى يكتظ بأثرياء التجار وقواد السفن ممن كانوا يتجرون مع جميع أنحاء البحر المتوسط . وكانت تراكو (تراجونا Tarragona) عاصمة أوسع الولايات الإسبانية الثلاث مساحة ، كما كانت مقر اجتماع مجلس الولاية . وكان هناك شبكة محكمة التصميم من الطرق تمتد إلى جميع أطراف شبه الجزيرة وكثير من المدن الإسبانية الشهيرة — سرقسطة وطليطلة وسلامكا وميريدا — تقوم على أساسات رومانية قديمة . ولم يحدث أى تمدن ذو بال فى الشمال والغرب وظل رجال القبائل يعيشون فى ولاية لوسيتانيا Lusitania فى القلاع الجبلية الشهيرة المعروفة باسم Citanias ، غير أن أوليسيبو Olisipo (لشبونة) أصبحت ميناء يتاجر مع إيطاليا كما انتشرت الحضارة الرومانية بصورة كبيرة فى وادى تاجه Tagus الأدنى .

أما فى النواحي الاقتصادية ، فقد تحققت تقدم كبير . فسكان النبيذ الأسباني يصدر إلى بريطانيا والغال وإلى بلاد الراين كما يصدر إلى روما أيضا . وكان زيت الزيتون الإسباني يأتى فى المرتبة الثانية فقط بعد زيت الزيتون الإيطالى وكان إنتاج الغلال على جانب كبير من الأهمية ، وكان يزرع نبات البردى أو السمار لصنع الحبال منه كما يزرع السكتان لصناعة الأقمشة البيضاء . كما أتاحت مناطق الصيد العظيمة على شاطئ محيط الاطلمنى قيام صناعة لحفظ الأسماك وإلى تصدير أنواع من صلصات الأسماك (Garum) إلى جميع أنحاء العالم . وكانت أسماك التونه وأسماك إسقمرى وليست أسماك السردين

من أكثر الأسماك المستخدمة في هذه الصناعة غير أن المعادن ظلت تمثل أعظم مورد اقتصادى بالنسبة لإسبانيا . واستمر العمل في استخراج فضة سيرامورينا ونحاس ريو تينتو Rio Tinto على أوسع نطاق . كما كان الحال في ظل الجمهورية كما افتتحت الإمبراطورية مناجم الحديد والذهب والفضة والقصدير في كل من جبال البرانس وكتالونيا . وذاع صيت صناعات الأسلحة الإسبانية واشتهروا بجودة الصلب الذى يستخدمونه . ولنا أن نقارن بينها وبين أسلحة طليطلة في الأزمنة المتأخرة . وبدلنا نقشان شهيران عشر عليهما في مناجم فيبلاسك بجنوب البر تغال على سير العمل فى مناجم النحاس والفضة فى عهد هادريان . كانت المناجم تخضع للملكية الدولة ولكن امتيازاتها تعطى لمقاولين من الأفراد حيث كانت خزائن الإمبراطورية تستولى على نصف الإنتاج . وكانت القوة العاملة كما كان الحال فى معظم مناجم إسبانيا تتألف من العبيد أو من المجرمين الذين صدرت ضدّهم أحكام . وكانت اللوائح تنص تفصيلا على الشروط التى منحت بموجبها الامتيازات إلى مقاولى المناجم ومقدمى العطاءات ومستأجرى الحمامات وصانعى الأحذية والصباغين والحلاقين . وتجدر الإشارة هنا إلى أن ناظر المدرسة بالمنطقة كان معنى من الضرائب . وقد أدخلت فى ذلك الوقت بعض التحسينات على الطرق الفنية للعمل فى المناجم مثل حفر الآبار للتنقيب عن المعادن واستخدام المياه للاغتسال وتصريف المواد المتخلفة . ويعرض لنا بلينى فى إسهاب سير العمل فى المناجم الإسبانية وخاصة فى مناجم الذهب — ويقدر إنتاج مناجم الذهب فى المنطقة الشمالية الغربية بما يربو إجمالا على ما قيمته ثمانين مليوناً من الدولارات سنويا .

لقد كانت إفريقية الرومانية قطراً من أقطار البحر الأبيض المتوسط . إذ كانت أراضيها التى تفصلها عن القارة الإفريقية جبال أطلس وجبال أوريس ثم الصحراء الغربية تواجه البحر المتوسط على طول شاطئه و يمتد

إلى ألف ميل ، كما يقترب من صقلية في الجهة الشرقية منه ويدنومن أسبانيا في الناحية الغربية . وكانت إفريقيا تنقسم إلى ولايات أربع هي إفريقيا الأصلية (وتمثل جزءا من ليبيا وتونس) وولاية نوميديا أو إفريقية الجديدة ثم مملكة جوبا الثاني السابقة (الجزائر على وجه التقريب) ثم ولايتي موريتانيا (أى مراکش) اللتين أسسهما كلوديوس وكانت هذه المنطقة وبخاصة إفريقيا الأصلية مسرحا لواحد من أعظم الانتصارات التي حققها الحضارة اللاتينية . وتختلف الآراء حول مدى ما بلغه الاستعمار الإيطالي في إفريقيا ولكنه مما لا شك فيه أنه قد جرى على أوسع نطاق . ويقدر كيرشستد Kahrstedt عدد المستوطنين الإيطاليين بمائتي ألف شخص ، وينادى بأن أربعين في المائة من جميع المتحدثين باللاتينية في العالم كانوا يعيشون في إفريقية الشمالية . ولقد ربحت روما هذا العالم وضمته إلى الحضارة الغربية ثم أحواله الغزوات العربية جزءا من العالم الإسلامي . أما الآن فإن فرنسا والعالم الإسلامي يتصارعان من أجل مستقبل المنطقة . لقد كانت إفريقية الشمالية بلاداً تصم الكثير من الشعوب ذات المستويات الحضارية المختلفة ، وكانت أقدم عناصرها هم البربر الذين ينتمون في كثير من القبائل الضخمة التي كان بعضها من القبائل الرحل وما زال هؤلاء حتى اليوم يمثلون العصب الرئيسي للسكان . كما أن لغتهم ما زالت قائمة . أما الشعوب البونية فكانت من نتاج الجهود الاستعمارية التي قامت بها قرطاجنة في إفريقية . وكان معظم هذه الشعوب يقطن في الغالب المدن الساحلية ولو أن بعضها كان من المزارعين الذين توغلوا في قلب القارة . وكانت اللغة البونية شائعة شيوعا كبيرا وبقية هي اللغة الشعبية الدارجة في المدن الكبرى في عهد الإمبراطور أوغسطين ، إذ كانت اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية للبلاد كما قامت مستعمرات صغيرة لليونانيين واليهود في المدن الكبيرة .

وقد نشأت الحياة المدنية في إفريقية عن مصدرين أحدهما لاتيني والآخر بوني . وقد عرف ما يربو على ثلاثمائة مدينة أقيمت على النمط اللاتيني في

الولايات الأربع . وكان بعض هذه المدن ينتسب إلى أصل بونى غير أنها ما لبثت أن اندمجت مع المدن اللاتينية المجاورة وانتهت بالحصول على الحقوق اللاتينية . ومن الميسور أن نعرض صورة عامة عن حركة انتشار الحضارة الرومانية في أرجاء الريف . فقد كان يتحتم أولاً وقبل كل شيء حماية الأرض المزعم استيطانها من البدو الذين كانوا يحاصرون في بعض الأحيان في مناطق خاصة تحدد لهم ، ثم تآتى بعد ذلك مسألة الإمداد بالمياه . وإن الخبراء الفرنسيين إنما يثنون ثناء عاطراً على فن الهندسة المائية الرومانية في إفريقيا بما يتصل بها من خزانات للمياه ومجار مقنطرة وأحواض وقنوات . وثمة نقش عثر عليه في لاماسبا Lamasba بجنوب الجزائر يتضمن جدول الري الخاص بعدد من المزارع . وهكذا فإن المهارات التي اكتسبها قدامى المزارعين في لا تبوم استغلّت في الأرض الجديدة . وكانت المدن التي تقوم بالتسويق تزداد نمواً وتأخذ في التزود بمختلف المرافق التي تيسر العيش الرخى المبهج وبذلك تجتذب إليها سكاناً جديداً ، كلها ازدهرت الزراعة واتسع نطاقها . وهكذا فإن المنطقة المستعمرة أخذت تزحف صوب الجنوب في عهد الإمبراطورية حتى نشأ في المناطق الجديدة حزام من المدن والمزارع الكشيفة السكان يبعد عن الساحل بما يربو عن مائتى ميل . وكانت الحدود الرومانية في إفريقيا تتمثلها أقصى طرف للأرض الزراعية في الجنوب . وكانت تونس وطرابلس تتميز بكثافة السكان بأراضيها كثافة لم تصل إليها أية مدينة أخرى . ولم تكن نوميديا تضم عدداً كبيراً من المدن . أما موريتانيا فهي مثل بريطانيا لم تصل إليها الحضارة الرومانية إلا في وقت متأخر ولم تحس قط بأثرها الكامل .

ومنذ العصور القرطاجية كان عصب الزراعة الإفريقية هو الغلال . وفي ظل الإمبراطورية امتدت الأراضي المزروعة غللالاً إلى أجزاء من الجزائر وموريتانيا . وثمة فقرة شهيرة يقرر فيها يوسيفوس أن المحصول الإفريقي من الغلال المصدرة إلى روما كان ضعف محصول مصر أى أنه

كان يبلغ أربعين مليون كيل Modii سنوياً . ولسنا نعلم كيف يحتفظ بخصب الأرض في مواجهة عوامل التعرية . أما عن أشجار الزيتون في إفريقية فمعلوماتنا عنها طيبة نظراً لأن معاصر الزيتون القديمة لم تزل باقية وفي الوسع التعرف على خططها . وقد أصبحت أشجار الزيتون في كل من تونس والجزائر محصولاً رئيسياً بالنظر إلى أنه من الممكن زراعتها في المناطق القليلة المطر التي لا تصلح لزراعة الغلال . ولقد اقتنى المستوطنون الفرنسيون الطريقة الرومانية في زراعة الزيتون (زراعة جافة) في إفريقية وذلك على أوسع مدى . وكان التين من المحاصيل الدائمة ، أما إنتاج النبيذ فلم يصل قط إلى المستويات التي نشهدها في الوقت الحاضر . ولعله من الجدير بنا أن نشير في معرض الحديث عن المنتجات الإفريقية إلى الرخام الأصفر الذي كانت تنتجه سيمثوس Simitthus في نوميديا (وهو الرخام الأصفر التقليدي الذي كانت تزين به كثير من المباني الرومانية) ثم الأبنوس وبساتين الموالح في جبال أطلس والحيوانات المفترسة التي كانت تعرض في حلبات المصارعة . وكانت قوافل الجمال تقطع الصحراء مستخدمة طرقاً منتظمة حاملة العاج إلى ميناء سابراتا Sabrata وغيره من الموانئ . وكان يقوم بإدارة هذه القوافل بدور حل غير أنها لم تبلغ في اتساع نطاقها وضخامتها القوافل التي كانت تعبر صحراء الشام إلى آسيا الوسطى . وكانت الضياع الكبيرة من المعالم البارزة للزراعة الإفريقية منذ العصور البونية . وما يذكر أن بعض أعضاء مجلس الشيوخ جنوا منها ثروات هائلة في عهد الجمهورية . وكان المستفيد من كل ذلك في النهاية هو الإمبراطور .

ففي عهد نيرون صودرت الضياع الست الكبرى في إفريقيا . وما إن حل عهد هادريان حتى كان الإمبراطور يمتلك الجانب الأعظم للأراضي الزراعية في الولاية ، كما كان مستأجروه يؤلفون عنصراً هاماً من عناصر السكان . وأقام فسياسيان إدارة خاصة في قرطاجة لتتولى مهمة الإشراف على الضياع الإمبراطورية . وكان يقوم بهذه الإدارة وكلاء عن الإمبراطور

يتراسون هيئة من الموظفين . وكان هؤلاء يتألفون من معتمقين وعبيد . وكان المستأجرون يتمتعون بالأمن ، وبالإيجارات المنخفضة ، ولو أنهم كانوا معرضين لألوان الأذى وسوء المعاملة من جانب موظفي الإمبراطورية . وكان هناك ثمة ميل إلى أن يصبح استغلالهم للأرض وراثياً . ويشير المؤرخون إلى أن طائفة سكان المستعمرات التابعة للإمبراطور كانوا فاتحة وتمهداً لنظام الرق الذي ظهر في العصور الوسطى . ولم تحظ سوى قلة قليلة من النقوش الرومانية ، بمثل ما حظيت به من شهرة ، بمجموعة النقوش الرومانية التي كانت تختص بأحوال بعض ضياع هادريان في وادي باكراداس أو بما نشأ حولها من خلاف .

وليس بالوسع أن نذكر سوى قلة قليلة من مدن إفريقيا الشهيرة . كانت مدينة قرطاجنة هي ملكتها ، إذ كانت قصبة ولاية إفريقية ، كما كانت تمثل أحد الموانئ العظمى والمركز الثفاني الرئيسي للبلاد ، كما اشتهرت بفخامة مبانيها العامة ، وبقصور وبساتين أغنياتها . ولا بد أن عدد سكانها بلغ ٢٥٠٠٠٠ نسمة ، كما كانت قرطاجنة تدعو روما « المدينة الشقيقة » . وقد استطاعت قرطاجنة أن تتفوق على غريمها القديمة يوتيكا Utica التي لم تستطع أن تستعيد سابق مجدها إلا في بقاء شديد ، بعد أن كانت قد وقفت إلى جانب الجمهورية في الحرب الأهلية ، وجر عليها ذلك الخراب والدمار . ومن بين المدن الهامة الأخرى في إفريقيا الأصلية مدينتي هيبو Hippo (بون Bône) وهادرومنتوم Hadrumentum (سوس Sousse) .

وهو ميناء مزدهر يعد من المراكز البونية الرئيسية في إفريقيا ؛ وقد ازدهرت مدن طرابلس اعتماداً على الملاحة ، وقوافل الجمال التي تربطها بفزان . وفي جيرما Germa عاصمة الشعب الجارماني Garamantes في فزان يقوم أبعد أثر روماني صوب الجنوب في إفريقية . ولعله كان يمثل ضريح أحد التجار المشغولين في هذه القوافل . وقد عثر علماء الآثار الإيطاليون على بعض السلع الرومانية المعدة للتصدير وذلك في فزان وهذه السلع تشهد

الآن في « متحف المستعمرات » ميوزيو كولونبالي Museo Coloniale في روما . ولا بد أن هناك الكثيرين من جنود الحلفاء ، الذين حاربوا في إفريقية ممن يذكرون آثار لبتييس ماجنا Leptis Magna وهي أروع الآثار التي تشاهد في إفريقية الشمالية على الإطلاق . وكانت مدينة كيرتا Cirta التي أضاف إليها قيصر مستعمرة لقدماء المحاربين ، هي عاصمة نوميديا . وكان الرخام والنحاس يستخرجان من المنطقة ويصدر لإنتاجهما إلى الخارج عن طريق موانئ روسيكادا Rusicada (فيليبينفيل Philippeville) وخولو Chullu (كولو Collo) وكانت لمبايزيس Lambaesis (لامبسا Lambessa) فوق منحدرات جبال أوريس القاعدة العسكرية العظمى . وبعد معسكر الفرقة الثالثة اليوم أكثر المعسكرات سلامة ، من بين ما بقي من آثار مثل هذه المعسكرات في العالم الروماني . ويظهر إلى الجنوب موقع مدينة تاموجادي Thamugadi (تمجاد Timgad) . وقد أسس هذه المدينة الإمبراطور تراجان ، وكان يهدف من بنائها أن تكون تحفة ورمزاً على الأراضي الجديدة المكتشفة جنوبي الجزائر . والحق أن هيكل السكايتول بها إنما يمثل تحفة رائعة . وكانت المدينة الرئيسية في موريتانيا الشرقية هي قيصرية Caesarea وهي ميناء يضم مائة ألف من الأنفس ، زينته وأقام به التحسينات الملك جوبا الثاني الذي كان محباً للحضارة الهلينية ، ومن نقاد الأدب والفن ذوى البصيرة . كما كان مؤرخاً وعالمياً في النبات ، وزوج ابنه كليوباترا . وكان مقر الولاية الغربية هو تنجيس Tingis (طنجة) التي كانت أقوى صلة بإسبانيا عبر مضيق جبل طارق من صلتها بجارتها الشرقية .

وقد نشأ في هذه المدن ، من مدن إفريقية الشمالية ضرب يميز من الثقافة اللاتينية يحمل بعض آثار النفوذ البوني ولسكنه لا يدين لبلاد اليونان بمثل ذلك الفضل الكبير الذي كانت تدين به لهذه البلد الحضارات المعاصرة في

روما وإيطاليا . وكانت المؤلفات اللاتينية القديمة التي تمتد من بلوتوس حتى فيرجيل تلقى رواجاً كبيراً ، وجمهوراً عظيماً من القراء . بيد أن الكتاب المعاصرين كانوا يقابلون بالكرهية . وأسهمت إفريقية خلال القرن الثاني ، في الأدب اللاتيني ، بالكاتبين فرنطو Fronto وأبوليوس Apuleius وقيض لها في العصر المتأخر من الإمبراطورية عدد كبير من الشخصيات المرموقة في المسيحية اللاتينية .

ولا حاجة لأى امرى قدر له أن يشاهد المدن الرومانية في بروفنس إلى ما يذكره بالحضارة المزدهرة التي كانت تتمتع بها الولاية القديمة ناربوننس Narbonensis وتمثل أعظم أجزاء بلاد الغال تشبعاً بالحضارة الرومانية . وقد استغلت عاصمتها المعروفة باسم ناربو Narbo مراكز النقل الخفيفة في إقامة علاقات تجارية مع إفريقية ، وسورية ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، وصقلية . كما تميزت بشراء أمراثا الذين كانوا يشتغلون بالتجارة — وأهم مدن هذه المدينة أيضاً مدينة أريليت Arelate (أرليس Arles) حيث كانت البضائع تنقل إلى الوادى الأدنى لنهر الرون بطريق الصنادل ثم تشحن في سفن عابرة للمحيط . ولا جدال في أن سوقها العامة وهيكل الكايتول بها ومسرحها ، وحماماتها وأروقها ذات العمد ، ومدرجاتها ومجاريها المائية المحمولة فوق قناطر ، وجباتها ، ورافعات المياه الهوائية وقنطرتها المقامة على القوارب ، تعرض لنا مشهداً للحياة المدنية ذات الأبهة والجلال التي يندر أن نجد ما يضاهيها في كل مدن الغرب فيما عدا روما . ولقد بزت هذه المدينة مدينة مسيليا Massilia اليونانية القديمة التي ظل صيتها ذائعاً لما كانت تضم من مدارس للفلسفة ، والطب . واشتهرت نياوسوس Nemausus (نيم Nimes) بمعهد أبولو بها ، وبأسوارها التي بلغت في الطول ست كيلو مترات . أما سوق يوليوس Forum Julii فريجوس Frégus الحديثة) فكانت قاعدة بحرية تلقب بطولون بلاد الغال . وكانت أكواي سكستيان Aquae Sextiae (أيكس Aix) تشتهر

بمياها المعدنية . أما جنيف Geneva وهي جنيف الحديثة فكانت مصيفاً . وعلى طول نهر الرون ، كانت تقوم مدن هامة عند معابر النهر هي أولا فينا Vienna وفالنتيا Valentia (فالنس Valence) وآفينيو Avenio وبعض المدن الصغيرة مثل فاسيو Vasio وجلانوم Glanum خلفت آثاراً وفيرة . وبلغت الولاية برمتها مستوى من التقدم يمكن مضاهاته بالمستوى ذاته الذى بلغته إيطاليا .

ولم يكن التقدم الحضارى أيضا يقتصر على ناربوننيس فقد كانت مدينة لوجدوم Lugdunum (ليون الحديثة) عاصمة ولاية لؤلؤ وجدونيسيس الضخمة تضم شعبا ينتسب إلى أجناس مختلفة وتضم حامية وداراً رسمية لسك النقود . ومما يؤكد قيمتها الاقتصادية قيام صياغ الذهب والفضة ومصدرى النبيذ والمشغولين بالملاحة فى نهري سابون والرون . أما من الناحية السياسية فترجع أهميتها إلى أنها كانت مقر اجتماع القبائل الستين التى تضمها ولايات الغال الثلاث . وكانت هذه القبائل تعقد مجلسها أمام مذبحى روما وأغسطس عند المنطقة التى يلتقى عندها النهران . وكانت أعظم مدينة فى الشمال هى مدينة أوغسطا تريفيروروم Augusta Treverorum (وهى ترييف الحديثة) حيث نمت المستعمرة التى أسسها كلودىوس فأصبحت مدينة مزدهرة قرابة نصف القرن الأول وتميز هذه المدينة بتصميم طرقها القائم الزوايا وضخامة مبانيها العامة التى ينتسب معظمها إلى الإمبراطورية المتأخرة حين اتخذت المدينة عاصمة للإمبراطورية . وكانت تضم حياً للعباد يستلقت الأنظار إذ يشتمل على ما يربو على سبعين هيكلًا تتفاوت فى ضخامتها ومكرسة لمعبودات رومانية وكتبية وشرقية . وفى ولاية أكويتانيا كانت مدينة بورديجالا Burdigala (بوردو الحديثة) ميناء وادى جارون الخصب . وتدلنا النقوش أنه كان يقيم بها أفراد من الولايات الشرقية كما كانت تجر فى النبيذ مع برطانيا ومع أيرلندا أيضا فيما يبدو . ولكن المناطق

القبلية خارج ناربونينسيس كانت تفوق أهمية المدينة ذاتها . وقد نشأت عدة مدن في شمال فرنسا عن عواصم تلك الأقاليم القبلية ولاتزال تحمل اسمها القبلي مثل مدن رايمز Rheims وسنز Sens وأراس Arras وسويسنس Soissons وباريس ذاتها وهكذا كانت المدينة Civitas في شمال الغال مزيجاً من النظم السكتية والرومانية على خلاف الطابع الروماني الصرف الذي اكتسبته مدينة Provence وقد يصدق ذلك أيضاً على الغلات أو المنازل الريفية التي عرف منها ما يزيد على ثلاثة آلاف . لقد كان الأريستقراطي السكتي يعيش على أرضه بصحبة من يعولهم . وأسبغ نظام الفيلا مظاهر الحياة الرومانية الناعمة على هذا الأسلوب التقليدي من الحياة . وثمة منطقتان قد تميزتا بوجه خاص بضخامة فيلاتها وترفها ، إحداهما تقع في وادي موسيل وتضم مشاهد مثل نيننج Nennig ، ويلشبيج Welschbilg حيث كانت ضيعتها تغطي مساحة قدرها ١٢٠ ميلاً مربعاً ، ولعلمها كانت ملكاً للإمبراطور .

والمنطقة الأخرى هي وادي جارون الأعلى في الناحية الجنوبية الغربية حيث تقوم فيلا شيراجان Chiragan بالقرب من تولوز . ولعلمها أنخم المباني التي عثر عليها في الولايات جميعها ، ففي ذلك المكان تحول مسكن بسيط متواضع من مساكن القرن الأول الميلادي يضم منزلاً مركزيًا وأكواخا للعمال ، تحول في القرن الثاني إلى قلعة مترفة تضم أكثر من أربعين مسكناً للسُّتأجرين مجتمعين ، في منطقة تبلغ ستين فدانا تقريباً . وقد أخذت هذه الضيعة في الانهيار خلال القرن الثالث ولا يحتمل أنها صمدت لغزو الفاندال سنة ٤٠٨ .

وإنه لبون شاسع ذلك الذي يفصل بين هذه المظاهر الحضارية وأجزاء بلاد الغال التي كانت أقل من هذه حظاً من الحضارة الرومانية . ففي الشمال

تخترق الطرق المؤدية إلى موانئ بحر المانش غابات موحشة ، أما مستنقعات وغابات بريتانى فكانت أشد منها وحشة وانعز الا إذ كانت من البلاد التي لم تتأثر إلا في القليل بالحضارة الرومانية .

وكان مما شجع على الزراعة والصناعة ما كانت تحتاجه مدن بلاد الغال والجيوش المرابطة على نهر الراين . كانت الغلال تزرع من أجل الاستهلاك المحلي وبغرض التصدير أيضاً . وكانت كل من آريليت وناربو تصدر الغلال إلى أوستيا . وقد بدأت زراعة الكروم تنتشر منذ عهد أوغسطس في اتجاه الشمال عبر بلاد الغال حتى إنه ما إن حل القرن الثاني حتى كانت قد أرسيت قواعد زراعة الكروم الطيبة في فرنسا على طول أنهار موسيل والرون والراين وجارون . وطار صيت منتجات الجبن ولحم الخنزير الغالية وكانت الأوز التي تربي على شواطئ بحر المانش تساق مسافات بعيدة حتى روما ذاتها . أما في ميدان الصناعة فقد قامت هناك تجارة هامة للصوف في الشمال واستغل حديد اللورين وأحجار البناء في جبال البرانس غير أن الفخار — وقد كانت الغال شهيرة بما يسمى « الطين الملون » Terra sigillata — كان يحتل مركز الصدارة بين الصناعات الغالية . وبلغت مصنوعات مصانع لاجروفيسنك La Graufesenque التي تصدر من ناربو ، الأسواق العالمية وذلك بحلول سنة ٥٠ ميلادية . وانتقلت الزعامة فيما بعد (٧٥-١٥٠) إلى ليزوكس Lezoux التي شلت حركة التجارة البريطانية وتجارة الدنواب ثم انتقلت إلى رايينزابرن Rheinabern التي كانت تزود الجيوش الشمالية بحاجياتها . وقد أعانت الدراسة المستفيضة لعلامات الفخار التجارية علماء الآثار عونا كبيرا في تحديد التواريخ المختلفة .

وقد اشتهرت بلاد الغال بنظام النقل الخاص بها . لقد كانت شبكة الطرق التي تتفرع من ليون من عمل الإمبراطور كلوديوس في معظمها ولكن الطبيعة ذاتها قد أمدت البلاد بشبكة رائعة من الأنهار الصالحة للملاحة

التي استغلها الرومان إلى أقصى الحدود . ولقد سبق أن تحدثنا عن حركة الملاحة في أنهار الراين والرون وسايون وموسيل . كانت تقوم على هذه الأنهار وعلى أنهار اللوار والسين ودورنس وجارون نقابات المشتغلين بالملاحة والنقل الذين كانوا بمثابة شرابين للتجارة ، وقامت هذه الأنهار بالدور ذاته الذي قام به نهر المسيسيبي قبل اختراع السكك الحديدية .

وقد بلغت هذه الحضارة الرومانية الغالية ذروة ازدهارها قرابة عام ١٥٠ ق . م . وكانت اللغة اللاتينية هي دون استثناء لغة التعليم في هذه الولاية التي اشتهرت بمدارسها . أما اللغة الغالية فقد ظلت متداولة حتى القرن الثاني . وقد آلت إلينا منها بعض النقوش . ولسكنه بغض النظر عن اللغة البريتونية — وهي لغة كلتية جلبت من بريطانيا من جديد خلال العصور الوسطى — فإن جميع لغات فرنسا تستمد أصولها من اللغة اللاتينية . أما في مجال الدين فقد عاشت العقائد الرومانية والكلتية جنباً إلى جنب واتحدت وامتزجت في سهولة ويسر . ويصور لنا فن النحت معبودات كلتية مثل إلهة الخيل المعروفه باسم إيونا Epona والإله كيرنونوس Cernunnos ذى قرني الوعل والإله سوكوس Sucellos بمطرقته . وإله الجبل إيسوس Esus الذى قرنه الرومان بالإله ميركورى . وكان عدد سكان بلاد الغال الرومانية كبير دون شك حتى وإن لم يسلم المرء بتقديرات بعض علماء الآثار الفرنسيين القائلة بأن عدد السكان بلغ خمسة عشر بل عشرين مليوناً من الأنفس . ومن الإنصاف دون شك أن نتلمس في مثل هذا العدد الكبير من السكان وذلك المستوى الرفيع من الحضارة العوامل التي ساعدت على احتلال فرنسا لمركز الصدارة في أوروبا هذا التاريخ الطويل .

أما في بريطانيا فإن نظام الاستيطان سار وفق الشخصية المزدوجة للجزيرة ، ذلك لأن منطقة الهضاب في الشمال وفي الغرب — وهي اسكتلندا وشمالي انجلترا فيما عدا وادى يورك وويلز فيما عدا السهل الساحلي بالقرب

من نهر سيفرن وشبه الجزيرة الجنوبي الغربي فيما وراء إكسيتر — إنما هي أرض جبال، ومستنقعات وأمطار غزيرة وتربة فقيرة . أما المنطقة السالفة فهي أرض سهول وتلال هينة الارتفاع وتربة خصبة ومعدل معتدل (نسياً بالطبع !) من الأمطار .

أما في المنطقة المنخفضة فقد نشأت الولاية المتدينة المتحضرة . فقد كانت روما تنظر إلى المنطقة المرتفعة أو ذلك القدر منها الذي سمحت لنفسها بالاستيلاء عليه، باعتبارها منطقة عسكرية . وبلغت حركة انتشار الحضارة الرومانية في سهول بريطانيا، إلى حد بعيد، المستوى ذاته الذي بلغته في شمال الغال . وهنا أيضاً كان الإقليم القبلي Canton هو وحدة الحكم الذاتي المحلي . وقد عرف ما يقرب من خمسة عشر إقليماً رومانياً بريطانيا نشأت عن عواصمها، فيما نشأ، مدن لايسستر وشيشستر ودورشستر وكانتربري وونشستر وسانت ألبانز . وثمة مراكز رومانية هجرت في أزمنة متأخرة، وهكذا فقد حلت شروزبري محل فير وكونيا وحلت ريدنج محل كاليفا . وكانت هناك مستعمرات ثلاث هي ليندوم Lindum (لينكولن Lincoln) وجليفوم Glevum (جللوسستر Gloucester) وكامولودونوم Camulodunum (كولشستر Colchester) وكان يقصد كلود يوس بإنشاء المستعمرة الأخيرة أن تصبح عاصمة الولاية ولكن لوندنينيوم Londinium (لندن) حلت محلها وأصبحت لندن هي أضخم مدن بريطانيا — إذ بلغ عدد سكانها ما يقرب من ٢٥٠٠٠ نسمة — ومركزاً للشبكة من الطرق، والميناء الرئيسي للتجارة مع القارة الأوربية ولعل كورينيوم Corinium كبير نسستر Cirencester) وفير وكونيوم Viroconium (وروكستر Wroxeter) وفيرولاميوم Verulamium (سانت ألبانز St. Albans) كانت تضم كل منها ما يقرب من عشرة آلاف نسمة . أما المدن الأخرى فيتراوح عدد سكانها بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ وقد بدأت حياة المدن في بريطانيا بطيئة كما لم تصل إلى مستويات رفيعة، ومع

ذلك فقد كانت المبانى العامة مترفة إلى حد بعيد ، كما كانت هناك المنازل التي تتوافر بها أسباب الراحة ، أما مرافق الحمامات والفنادق والمدرجات فكانت هى القاعدة فى كل هذه المدن وعرفت مسارح ثلاثة ، ولعله كانت هناك مسارح أخرى . وتتميز « باث » التي اشتهرت بمبناها المعدنية ، بالمبانى الضخمة لحماماتها ومعبد إلهة الينابيع الحارة .

وكان صاحب الأرض البريطانى شأن أبنائه عمومته عبر بحر المانش يقدرون مباحج الحياة الرومانية . وتتركز الستائة فيلا أو ما يقرب من هذا العدد فى بريطانيا الرومانية فى الغالب فى المناطق المميزة مثل كوتسولدز وسومرست وكنت الشمالية وساسكس الغربية وهامبشير وجزيرة وايت . ولم يكن بين هذه الفيلات ما يضاهاى فيلا شبراجان أو نيننج . ولكن صاحب فيلا شدورث أو وودشستر لا بد أنه كان يعيش فى رغد وترف لم يصل إليهما أحد فى بريطانيا فى أى تاريخ لاحق حتى عهد الملكة اليصابات . فى أغلب أراضى الولاية ظل النظام المحلى للزراعة الذى يقوم على المزارع المستقلة قائماً ، كما يظهر فى الواقع حتى اليوم فى كل من ويلز وجبال البنين .

وتقع بريطانيا خارج حدود مزروعات البحر الأبيض . ولم يكن يقدر لها أن تجتذب المستوطنين باستثناء المحاربين القدماء الذين يحصلون على إقطاعات مجانية من الأرض . غير أن الزراعة البريطانية التي كانت تمارسها الأيدي المحلية كانت توفر الحاجات الأساسية للولاية مع فائض من الغلال يصلح للتصدير بين حين وآخر . كما كان على بريطانيا أيضاً أن تواجه حاجات الحماية الرومانية إلى الغلال . ومن أجل هذا الغرض تم تصريف المياه من جزء من فنلندا وجرت زراعته تحت إدارة تابعة للإمبراطور . وكانت الأقمشة البريطانية تصدر إلى الخارج ، كما ذكر فى لأشحة التعريفية الجركية الخاصة بقيروان فى إفريقية . وكان المحار البريطانى يلقى الثناء من

جانب الأكولين في فترة ما قبل الغزو ، ووجدت اللآلئ و كلاب الصيد والجلود والقطان وجلود عجول البحر سوقاً رائجة أيضاً لها في القارة الأوربية ، ومكنت هذه المنتجات بريطانيا من استيراد النبيذ والفخار والأقشة والأثاث الفاخر والإفادة من خدمات أصحاب المهن .

غير أن المعادن كانت تحتل في بريطانيا المرتبة الأولى كما هو الحال مع إسبانيا ، برغم أن استخراجها كان يجرى على نطاق أضيق من مثيله في إسبانيا . وبلغت عمليات استخراج الرصاص أوسع نطاق لها وأعظم حد من التركيز عقب الغزو وذلك في مندبس ثم في فليمنتشير وشرو بشير وبلينليمون وجبال البنين فيما بعد . وكان النحاس يستخرج في انجليزى Anglesey وويلز الشمالية وشرو بشير ، كما كان يستخرج الحديد من أماكن كثيرة وبخاصة وبلد وفورست أوف دين . ولم يصنع الذهب البريطاني أصحاباً للملايين ولكن الرومان كانوا يستخرجونه من دولوكوثي في ويلز الجنوبية ، أما القصدير المستخرج من كورنول فكان قليلاً للغاية . ولعل مرد ذلك هو الرغبة في تجنب الدخول في منافسة مع إسبانيا ، ولكن أهميته ازدادت في عهد الإمبراطورية المتأخر . وكان الفحم الظاهر على السطح يستخرج من عدة أماكن ، ولكن الفحم لم يبلغ قط من الأهمية ما بلغه في العصر الحديث . وكان الرومان يستخدمون جميع أنواع أحجار البناء الرئيسية في بريطانيا كما استغلوا أيضاً الملح في دروتوش وتشيشير .

وعلى الرغم من أن أجريكولا دأب على امتداح المستقبل الذي ينتظر البريطانيين فإن الولاية البريطانية لم تسهم قط أي إسهام خطير في ثقافة العالم الروماني . والكاتب الروماني البريطاني الوحيد المعروف هو بيلاجيوس Pelagius الذي كان معاصراً ونحسماً لأوغسطين . وما من شك في أن اللغة اللاتينية كانت هي لغة القراءة والكتابة . فلم يتسن العثور على نقش واحد باللغة الكلتية ، ومع ذلك فتاريخ اللغة في بريطانيا يختلف اختلافاً كبيراً

عن مثيله في بلاد الغال . فقد كتبت الحياة للغتين السكتيتين (الويلزية والكورنية) في تلك المناطق من الجزيرة التي أفلتت من غزو البرابرة المتكلمين باللغة التيوتونية في العصور الوسطى . والمعتقد أن السكتية كانت بالنسبة لمعظم سكان بريطانيا الرومانية هي لغة الحياة اليومية .

وتهيء المناطق العسكرية في بريطانيا لدراسة قدر لها أن تحتذب بعض كبار علماء الآثار في العصر الحديث . فقد كانت ويلز تخضع لأربع نقاط استراتيجية ، ففي الشرق كانت تواجه قواعد الفرق الرومانية في شستر وكايرليون وفي الغرب قلاع كايرنارفون وكارمارفن التي تربطها ببعضها البعض سلسلة من الحصون والطرق الاستراتيجية . وقد ثبت أن الحل الذي طبق على ويلز من المتعذر تطبيقه على كاليدونيا (اسكتلندا) حيث أقنعت أعمال الارتياح التي قام بها أجريكولا في البر والبحر الحكومة المركزية بعدم جدوى الغزو . وتكشف لنا فقرة جميلة بقلم تاكيتوس رد الفعل لدى الرومان إزاء مشهد الأخاديد البحرية الواقعة في غربي الهضاب إذ يقول : « ليس هناك من موضع آخر اقتطع فيه البحر لنفسه ملكا أوسع من ملكه هذا ، إنه يتلوى ذات اليمين وذات اليسار ويشق طريقه داخل اليابسة كما لو كانت هذه تدخل في حدود سلطانه » . وإن أى امرى* قدر له أن ينتظر مركبا تعبر به منطقة الهضاب لابد أن يوافق تاكيتوس على ما ذهب إليه . وكان من المحتم إيجاد حدود شمالية . وقد سبق أن ألمعنا إلى الحل الذى أوجده هادريان بإقادة ذلك الحاجز العظيم الذى يشمل في السور الرومانى الممتد من تاين Tyne إلى سولوى Solway والذى يضم ١٦ قلعة و ٨٠ حصنا يبعد الواحد عن الآخر مسافة ميل و ١٦٠ برجا للإشارة تدعمها كلها قاعدة للفرق الرومانية في يورك وقلاع في جبال بنين . وبعد مضى عشرين سنة على ذلك التاريخ جعل سور أنطونينوس في الوسع تخفيض عدد أفراد الحامية المرابطة على سور هادريان كما مكن من السيطرة على

جنوبى اسكتلندا . ولكن ذلك أيضاً لم يكن هو الحل النهائى . وأصبح من المحتتم قرابة عام ٢٠٠ ميلادية الانسحاب إلى سور هادريان . ولعل أهم ما يلفت الأنظار ويثير الدهشة فى هذا النظام كله هو تلك القوى البشرية العظمى التى احتجزت فى بريطانيا ، ذلك لأن الحماية البريطانية التى كان يتراوح عددها بين ٤٠ ألف و ٥٠ ألف جندى ، كانت تمثل نسبة تتراوح بين ثمن وعشر القوات المسلحة لدى الإمبراطورية . فما الداعى إلى مرابطة كل هذه الأعداد فى مثل هذه الولاية البعيدة ؟ وهل كان هناك جدوى من ذلك ؟ صحيح أن بريطانيا ذاتها أمدت الرومان دون شك بما يقرب من ثمانية عشر ألف جندى من المقاتلين الأشداء ، ولكن هذه المسألة تنطوى مع ذلك على مشكلة لا يمكننا أن نخر فيها جواباً .

أما ولايتا ألمانيا العليا والسفلى اللتان كانتا من خلق دوميتيان فكانتا تعدان من الوجهتين الاقتصادية والاستراتيجية امتداداً لبلاد الغال . فتحت تأثير جيوشهما ، وتأثير قدماء المحاربين الذين استوطنوا المناطق القريبة من حامياتهم القديمة ، اصطبغت أراضى الراين بالصبغة الرومانية . ويمكن أن نشهد كيف كانت المدن الشهيرة تنشأ حول المراكز العسكرية الرومانية ، وقد بات هذا الأسلوب شائعاً ومعروفاً حينئذ فى بلاد مثل كولونيا وماينز واستراسبورج — وكان الزجاج يصنع فى بولونيا والحديد بالقرب من أشين والفخار فى ماينز . وقامت هناك مدارس شهيرة للبنائين فى نيوميجن Neumegen وآرلون Arlon فى وادى موسىل الذى تصور آثاره الجنائزية حياة التجار الأثرياء فى تلك المنطقة . وقد سميت الأراضى العشرية Agri Decumantes فى جنوب غرب ألمانيا بهذا الاسم منذ عهد المستوطنين الغالين الذين قدموا إلى البلاد فى أواخر القرن الأول (ويقصد بالأراضى العشرية تلك التى تدفع خراجاً يقدر بعشر إنتاجها) . وفيما وراء حصون دوميتيان واستحكاماته كانت الأراضى تشغلها الغابات والمزارع

الصغيرة وبخاصة في وادى نيكار Nacker كما كانت تقوم بها بعض المدن القليلة رغم أن مدن فيسبادن ورودفيل وبادبادن تقوم في مواقع رومانية.

ولقد رأينا كيف أن الاعتبارات الاستراتيجية هي التي دفعت روما إلى السيطرة على أراضي الألب والدانوب منذ عهد أوغسطس ، فلم يكن يرجى لأية حضارة آتية أن تنمو وتنمو في بلاد الغال فيما وراء الألب دون التحكم في الممرات التي تصل بين ألمانيا وإيطاليا . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت الحاجة تدعو إلى طريق برى يربط ما بين الشرق والغرب أى ما بين الجيوش المرابطة على الراين والدانوب والجيوش المرابطة في سورية . وقد عثر على هذا الطريق في الشريان الذي يجرى من أكريليا Aquileia إلى بيننطة عن طريق وادى سافا ونايسوس وأدريانوبل . وهكذا دخلت بحلول عهد هادريان تلك المنطقة المترامية الممتدة من سويسرا إلى البحر الأسود والتي تضم سكانا من الكلتيين والجرمانيين والالليين والتراقيين وكثير من الشعوب الأخرى ، في نظام الولايات الذي امتد إلى شمال الدانوب بعد غزو تراجان لبلاد داكيا Dacia . ولكنه لا ينبغي النظر إلى ولايات الدانوب هذه على اعتبار أنها منطقة عسكرية فحسب ، فقد نشأت فيها حياة اقتصادية متعددة الجوانب ، بل نشأت أيضاً بها في بعض أجزائها حضارة تقوم على نظام المدن . والنساء هي البلد الوحيد من بين هذه البلاد الذي له من التاريخ ما يمكن مضاهاته بروما . ولقد أثبتت بارفان Parvan وهو باحث من رومانيا كيف أنه قد مهد لحركة انتشار الحضارة الرومانية جميعها التي بلغت غاية من السرعة ، التجار ورجال الأعمال والمهندسون الإيطاليون الواقدون من أراضي الدانوب في وقت كانت فيه البلاد لم تزال خاضعة لسيطرة البرابرة . ففي هذه المنطقة كما حدث في الإمبراطورية الرومانية في كثير من الأحيان سارت راية الدولة الغالبة في أعقاب قوافل التجار .

ولم يطرأ على ولاية رايتيا Rhaetia الألبية (وهي جزء من سويسرا

الحديثة) كثير من التقدم ، لأن الرومان لم يكن يجيدون التزحلق على الجليد أو علاج مرض السل . وكان عليهم أن يتحملوا عبء حياتهم كاملا . غير أن عاصمة هذه الولاية وتسمى أوغستافنديليكوروم Augusta Vindelicorum مازالت تحتفظ في الاسم الحديث لها أوغسطينج باسم مؤسسها ، كما تقوم مدينتي اتسبروك ورمجنزبورج في مواقع رومانية .

وكانت مملكة نوريكوم Noricum الكلتية القديمة ، تجدد في خام الحديد الوفير في ستيريا Styria ، سلعة ظلت تحظى بطالب كبير آلافا من السنين . وكانت نوريكوم تحتفظ منذ زمن طويل بعلاقات ودية مع روما وحوها أوغسطس إلى ولاية ، كما نشأت بها حضارة لاتينية كلتية تشبه إلى حد بعيد حضارة الغال التي كانت على اتصال وثيق بها ، وثمة آثار رائعة على هذه الحضارة لم تزل باقية في فنون عاصمتها القديمة نوريا Noreia .

وقد أصابت حركة نشر الحضارة الرومانية في بانونيا وهي الولاية التالية للولاية السالفة جهة الشرق وذلك في وديان سافا ودرافا قسما كبيرا من النجاح ، حتى لقد اعتبر هذان الواديان امتدادا شرقيا لإيطاليا ، وأصبحت مدن ناوبورتوس Nauportus وسيسكيا Siscia (سيزاك الحديثة) وسيرميوم Sirmium وسنجيدونوم Singidunum (بلغراد الحديثة) . من المدن الهامة . وكان ثمة أسطول روماني يخفر نهر سافا — كما بلغت السفن التجارية في رحلاتها النهرية البحر الأسود . وقامت على شاطئ الأدرياتيك مدن بولا Pola وترجيسستا Tergeste : تريستا الحديثة) وسالوناي Salonae وهي مدن يمكن مضاهاتها بمدن إيطاليا : وتقع بالقرب من بولا فيلا بريوني جراندي Brioni Grande الشميرة : وكانت من أنخم مباني الإمبراطورية .

أما في وسط القارة فقد كانت الهضبة الجيرية في دالماشيا تمثل منطقة

مختلفة ، غير أن القوى البشرية في كل من بازنونيا ودلماشيا — وهى المنطقة التى كانت تسمى فى شىء من التجاوز ولاية الليريكوم — كانت بالغة القيمة بالنسبة لجيوش الإمبراطوية .

وقد قدر للأباطرة والجنود الإليريين أن يعبروا بالعالم الرومانى محسن القرن الثالث . وإذا ما اتجهنا شمالاً فإننا نقف على طول جبهة الدانوب على عالم معسكرات الجيش وحملات الحدود . وكانت كارنتوم Carnuntum التى تخلفت عنها آثار كبيرة هى مقر قيادة الفرقة الرابعة عشر والقاعدة الرومانية الرئيسية . وكانت فيندوبونا Vindobona قاعدة للفرق الرومانية أيضاً ومرفأً لأسطول الدانوب ، وقد نشأت عنها مدينة فينا . أما غريميتها بودابست فنشأت عن مدينة اكوينكوم Aquincum .

وقد امتد كودايوس بولاية مويسيا Moesia وهى أقصى ولايات الدانوب جهة الشرق ، إلى البحر المتوسط . وكانت عاصمتها هى نايسوس Naissus (وهى مدينة نيس الحديثة) وأسس تراجان مدناً أخرى واستطاعت سلسلة من المستعمرات أن تنشر الحضارة الرومانية فى وادى الدانوب الأدنى وبما تجدر الإشارة إليه ، ما قام به بلوتيووس سيلفانوس Plautius Silvanus بين عامى ٥٢ و ٥٣ ميلادية من توطين مائة ألف من البرابرة على الضفة الجنوبية لنهر الدانوب ، بعد أن كانوا يقطنون الضفة الأخرى . وقدر لأعمال التهجير هذه أن تصيب شيئاً كبيراً من الذبوع ، كما أصبحت مصدراً كبيراً للخطر فى عصر الإمبراطورية المتأخرة ، وكان كلودايوس أيضاً هو الذى ضم تراقيا إلى الإمبراطورية وجعلها ولاية تربط بين مويسيا ومقدونيا . أما التراقيون فسكانوا يمثلون معدناً طيباً للجنود كما أسهموا بعدة وحدات من القوات المساعدة .

ولو أمكننا استعادة قصة استعمار داكيا كاملة لأصبح بين أيدينا فصلاً

من أهم الفصول في تاريخ الإمبراطورية . ومن المعروف أن دلماتيا Dalmatia وآسيا الصغرى قد أسهما بتعداد كبير من المستوطنين الذين وجدوا في اللغة اللاتينية رطانة مشتركة . وجرى العمل على نطاق واسع في استغلال مناجم الذهب ومصادر الملح بها وكانت بها ضياع شاسعة تتبع الإمبراطور وتسير في إدارتها على نمط الضياع الإفريقية ، ومستعمرات لقدامى المحاربين ، وتنطورت قراها إلى مدن تقوم بها الأسواق وتمتتع بالحقوق المدنية وكانت هذه هي آخر نقطة ازحف الحضارة الرومانية .

لقد قيل دائماً إن بلاد اليونان كانت تعاني في ظل الإمبراطورية من نقص متزايد في عدد السكان ومن الانحلال والضعف . ويأتى الدليل على ذلك من أدباء أمثال سترابو وديو خروسوستوم اللذين يؤكدان أن المدن الصغيرة بالأقاليم الريفية كانت في سبيلها إلى الانهيار . غير أن البحوث الحديثة تعرض لنا صورة مخالفة من أهم معالمها ظهور الضياع الضخمة التي يعمل فيها المستوطنون Coloni ونشأة بعض المدن الكبيرة . ولقد أفادت بلاد اليونان بوجه عام ، وأثينا بوجه خاص من روح الميل للهلمينية التي كان يتسم بها نبيرون . ولقد جعل الفن والتعليم وصناعة السياحة في وسع أثينا أن تجتني رزقاً طيباً استناداً إلى ماضيها المجيد ، كما وجدت من صاحب الملايين هيروديس أتيسكوس (توفى عام ١٧٧) نصيراً وراعياً لها ، كما تمتعت في عهد هادريان بحقبة من حقب البناء العظيمة في تاريخها . أما أسبرطه فقد خلدت إلى السلام ، والتجارة ، واستغلال محاجر تايجيتس Taygetus على نحو رتيب لا تألق فيه .

وكانت كورنثة تمثل سوقاً بين الشرق والغرب ، كما اشتهرت أو هي بالأحرى اشتهرت سمعة سيئة باعتبارها مدينة للهو . أما عن مشروع نبيرون لشق قناة تقطع خليج كورنثة فلم يقدر له أن يتم قط ، وازدهرت من بين مستعمرات أوغسطس باتراى Patrae (باتراس Patras)

باعتبارها محطة ملاحية للسفن المتجهة إلى إيطاليا ، أما نيكوبوليس Nicopolis فإنها لم تنل مثل حظ باتراى . وكانت تربية الماشية من الأعمال الهامة فى كثير من أنحاء اليونان . فكانت تساليا تربي الخيل الذى يستخدم فى الملاعب والجيش ، وكانت أركاديا تنتج الخمر ، والبغال العفية . وظلت بعض الاتحادات الفيدرالية التى ظهرت إلى الوجود فى العصر الهلينى قائمة . واستمرت الاحتفالات الرياضية مع إضافة مباريات كانت تقام فى نيكوبوليس لإحياء لذكرى موقعة أكتيوم . وكانت دلفى قد أصابها الانحلال غير أن أسرار إليوسيس وعقيدة اسقولا ب فى إبيد أوروس احتفظتا بهيئتهما ومكانتهما .

وكانت مقدونيا لم تنزل بلاداً قبلية إلى حد بعيد . وظل التقسيم الذى وضع لها فى القرن الثانى ق. م إلى مناطق أربع تتمتع كل منها بالحكم الذاتى المحلى سارياً . ولكنه كان يوجد فى بضعة مدن عنصر لاتينى قوى كما فى قبلى حيث كانت قد تأسست مستعمرة لقدماء المحاربين ، فى جيش أنطونيوس وكانت بيرويه Beroea مركزاً تجارياً هاماً . وقدر لمدينة تسالونيكى التى حلت محل العاصمة القديمة بيلا Pella أن تصبح أعظم مدينة فى شمال اليونان وهى لم تنزل كذلك حتى اليوم . وتضم آسيا الصغرى تلك السكتلة من الأراضى الواقعة بين البحر الأسود ، وسواحل الشام المطلة على البحر المتوسط . وهى فى سعتها واختلاف تضاريسها تسكنى لأن تصبح شبه قارة . ولقد أخضعتها روما لحكم موحد الأمر الذى لم تعهده إلا فى فترات قليلة للغاية من تاريخها . ولقد دخلت روما هذه المنطقة ، خليفة للمهالك الهلينستية التى كانت عهداً تتميز على الدوام بوجود بون شاسع ، وفارق كبير بين المدن المزدهرة الواقعة على الأطراف الساحلية فى الشمال ، والغرب ، وبين حياة التخلف على هضبة الأناضول .

ولقد رأينا كيف أن العشارين الرومانيين Publicani فى الجمهورية

كانوا يسلبون أهلها . وفضلا عن ذلك فقد حيل بينها وبين استعادة قوتها من جراء التبرعات التي فرضت عليهم والتي كانت تجنى منهم قسراً لصالح جيوش بروتوس ، وماركوس أنطونيوس . غير أن الإمبراطورية قد جلبت السلام ونشرت ظلاله . وقد ارتفعت النهضة الاقتصادية التي قامت في عهد أوغسطس بحالة الرخاء في آسيا في أوائل القرن الثاني إلى مستويات عالية لم تتمتع من قبل ، والحقيقة أنها لم تتكرر قط ، لأن الأحوال الاقتصادية بهذه البلاد لم تصل مرة أخرى إلى المستوى الروماني .

وثمة شبكة رائعة من الطرق امتدت إلى داخل البلاد وهيأت سبل التغلغل فيها كما أدت إلى نشأة المدن في كل من فريجيا وبيسيدا . غير أن المدن الساحلية بقيت هي المدن التي تحظى بأكبر قسط من الرخاء والازدهار . فكان هناك ما لا يقل عن ست مدن يتجاوز عدد سكانها المائة ألف نسمة كما أن هذه المدن أخذت تتبارى منذ عهد فلافيوس في إنشاء المباني العامة الفخمة ، وفي التنافس حول ألقاب مثل « عاصمة آسيا » . وهناك خطبة ألقاها أيلبوس أرسطيديس Aelius Aristides حول مباحج الحياة في أزмир تعتبر كفيلة بأن ترفع شأن أي مكتب حديث للدعاية درجات ، ودرجات لو استطاع أن يأتي بمثلا . وترجع نهضة أزмир إلى التاريخ الذي ساندت فيه روما ضد مثيري داتيس . وقد أصبحت بعد ذلك ميناء عظيم ومركزاً للعلوم والطب . وكانت أفسس هي أضخم مدينة في العالم اليوناني بعد الإسكندرية وإنطاكية . ولم يكن كهنة معبد ديانا يشرفون على أشهر العبادات الآسيوية بل يشرفون أيضاً على واحد من أضخم المصارف المالية في العالم الروماني . واكتسبت في شمال غربي المنطقة مدينة طروادة الاسكندر Alexandria Troas أهمية كبرى . وكانت مدينة كيزيكوس Cyzicus على بحر مرمرة من المدن المنبوذة في عصر الإمبراطورية الأولى ولكنها وجدت في هادريان نصيراً وراعياً صالحاً لها . وفي بيسينيا قامت المنافسة بين نيقيا ، ونيكوميديا المدينتين التوأمتين وانتهت في صالح مدينة

نيكوميديا في القرن الثالث عندما أصبحت هذه المدينة عاصمة للإمبراطورية .
أما عن مدن السواحل الجنوبية فلم يقدر لغير مدينة طرطوس وحدها ، في
كيليكيا التي اشتهرت بصناعة الأقمشة الكتانية أن تنمو بعض الشيء .
وأن عبارة بولس الرسول التي وصف فيها هذه المدينة بقوله « إنها مدينة
ليست بالوضيعة » لقول مشهور كما أنه يذكرنا بما نحصل عليه عرضاً من
معلومات كثيرة من سفر أعمال الرسل حول مدن آسيا في القرن الأول .
وكانت كل هذه المدن الآسيوية عرضة للزلازل في كثير من الأحيان .
ويتناهى إلينا مراراً وتكراراً أن منحنا قدمها الإمبراطور لإصلاح ما وقع
من تخريب وظلت غلاطية موقعاً حروباً كتيباً متقدماً . وكان أفراد
الإرساليات الدينية يأتونها من بلاد الغال للوعظ باللغة السكائية . وذلك
في القرن الثاني ، وقد ظلت هذه اللغة قائمة حتى القرن الرابع على
أقل تقدير .

وكانت صناعات آسيا هي أكثر الصناعات تطورا في العالم . وكانت
المنسوجات تأتي في المرتبة الأولى وتقوم صناعتها على أصواف سلالات
شبيبة من الأغنام والماعز التي ترعى في مراعيها النسيجة الجيدة . وكان
منالك الكثير من أنواع الأقمشة الخاصة التي تتراوح بين اللباد الثقيل وبين
الأقمشة الفخمة التي كانت تنتجها ميليتوس وكوس . وكانت لأودكيا
تنتج صوفاً داكناً مشهوراً . وبلغت صناعة الجلود في آسيا الغاية في الرواج
والازدهار . كما كانت آسيا تنتج الأواني الفخارية التي قدر لها أن تطغى
على كل السوق الشرقية وكانت تزرع أنواع متعددة من الأعشاب بقصد
استخدامها في صناعة العقاقير والعطور ، وأن زراعة الخس في كوس لتذكرنا
بمهارة زراع الخضروات الآسيوين الذين كانوا يعدون إنتاجهم للسوق .
وكانت بونتوس وكيليكيا تصدران الأخشاب التي تستخدم في صناعة
السفن . أما تجارة «النقل» مع الغرب التي ، شل الإيطاليون حركتها في ظل

الجمهورية فقد عادت من جديد إلى أيدي آسيوية . ولم يعد يرتفع علم أي مدينة فوق صاريات السفن التي تتخذ هذه الطرق الهامة سوى سفن قادش وكانت هناك أنواع كثيرة من الرخام الثمين وخاصة الأحجار القمرزية التي تنتجها بروكونيسوس Proconnesus وتصدر من من كيزيكوس في رحلات بعيدة تصل إلى بلاد الغال ذاتها . وظل الحديد يستخرج من بونتوس . وبعد البحر الأسود وخليج البوسفور من أحسن مناطق صيد الأسماك في العالم حيث يصطاد الكفيار والتونة وأسماك موسى والسردين والجبري وسرطان البحر والقواقع . وكان هناك الكثيرون من أصحاب الأراضي الكبار من الأفراد . كما كانت هناك أيضا الضياع الإمبراطورية التي تشتمل على أراض زراعية ومناجم ومحاجر في كثير من أنحاء آسيا - كما كانت هناك الضياع الكبيرة التي تتبع المعابد . وكثير منها يرجع إلى أزمنة غابرة . وينبغي الرجوع إلى القسم الخاص بآسيا في مؤلف تني فرانك Tenney Frank بعنوان (دراسة اقتصادية لروما القديمة) إذا ما أريد - ثبتنا كاملا تماما بالوثائق التي تصور هذا الاقتصاد الذي بلغ الغاية من التطور والتنوع

ونقف على مثل هذه الدرجة من الرخاء في الشرق الأدنى الروماني فيما عدا فلسطين . لقد كانت الولايات الرومانية في كل من سوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى الولايات الغريبتين التابعتين للإمبراطورية وهما ولاية ما بين النهرين وبابيلونيا تؤلف عالما تتجاوز فيه وحدته الثقافية والاقتصادية الخلافات المحلية . ولقد كان لهذا العالم تأثير كبير عميق على حضارة العالم الروماني ، فقد أخرج الكثير من الكتاب والفلاسفة والسفسطائيين اليونانيين الكبار في فترة الإمبراطورية الأولى كما كانت بعض مدن هذا العالم مراكز للتعليم اليهودي والسرياني . كما ابتدع أنماطا جديدة في فن المعمار كان لها تأثير على طراز البناء في العصور الرومانية

والبيزنطية المتأخرة وهو ما يمكن أن نشهده في مدن هليوبوليس وتدمر
والبتراء وكتيسيفون Ctesiphon .

وقد خرجت من هذا العالم أعظم ديانتين عالميتين وهما ديانة مثراس
التي تؤمن بالإله الشمس ثم بالمسيحية .

ومن المرجح أن عدد سكان سوريا وفلسطين كان يبلغ عشرة ملايين
وبعض النظار عن المدن الفينيقية الساحلية القديمة ، فقد كانت المنطقة لا تضم
سوى قلة من المدن الهلينستية الكبيرة التي بشت في منطقة ريفية يتحدث
أهلها باللغة الأرامية . كانت اليونانية هي لغة الثقافة بالبلاد ، أما اللاتينية
فكانت لغة الحكم والإدارة . وكانت إنطاكية على نهر العاصي وهي عاصمة
ولاية سورية ثالث مدينة في العالم الروماني وتضم من السكان ما يقدر فيما
يرجح بستمائة ألف نسمة . وكانت المنطقة الراقعة فيما حول المدينة بما لها
من ضياع ومنازل ريفية كبيرة ، تؤلف في مجموعها في واقع الحال إقليما
حضريا مركزيا ، بل إن أيا من كورنثة أو كانوبوس Canopus في مصر
لم تستطع منافسة حدائقها الترويحية في ضاحيتها المعروفة باسم دافى .
أما بيروتوس Berytus (بيروت) فقد كانت ميناء ومركزاً ثقافيا يضم
مدرسة شهيرة للقانون الروماني . وقد ازدهرت الموانئ الفينيقية القديمة .
وكان التجار السوريون يذهبون إلى مسافات بعيدة تصل إلى بريطانيا .
وطار صيت صور وذاع في كافة أنحاء العالم ، لصناعة الصبغة القرمزية التي
كانت تقوم بها . ونهضت صيدا على أساس من الاختراع الجديد ، وهو
نفخ الزجاج . وفي وسعنا أن نتتبع تاريخ شركة صناعية واحدة وهي شركة
إنيون Ennion في صيدا . وقد عثر على أواني هذا الصانع الزجاجية في مصر
وروسيا وإيطاليا . وقد افتتح إنيون فيما بعد فرعاً له بالقرب من روما ثم
نقل في النهاية مصانعه كلها إلى هناك . وفي عهد هيرودس الزاهر كانت
أورشليم تضم عدداً من السكان يقارب مائة ألف نسمة ، ولكن الفقر

قد ضرب عليها مع أراضي فلسطين برمتها من جراء الحروب التي دارت في عهدي فيسباسيان وهادريان .

ولكن حركة مرور القوافل هي التي كانت العامل الأول في إثراء سوريا بل المنطقة جميعها . وكانت أهم طرق القوافل هي التي تصل ما بين ساحل البحر المتوسط وبلاد الفرس وأفغانستان والهند والصين . أما في الشمال فكانت طرق القوافل تبدأ من إنطاكية وتصل إلى سلوكية على نهر دجلة عن طريق حلب وثابساقوس Thapsacus ، وتبدأ إلى الجنوب من ذلك من دمشق حتى دورا على نهر الفرات عن طريق تدمر . وكانت هناك طرق أخرى تصل عن طريق البتراء إلى شبه الجزيرة العربية وخليج العقبة ، وأخرى تمتد من إفريقية إلى أرمينيا والبحر الأسود . وكانت حركة المرور على طول هذه الطرق تتبع نظاما غاية في الإحكام ، كما كانت بها الشرطة ودوريات الحراسة . وكانت المياه تخزن على مسافات منتظمة ، كما كانت تنتظم على طولها الفنادق ، والاستراحات . وكانت القوافل تسير في طوابير تحت رعاية حداة مدربين . وعلى طول هذا الطريق كانت ترد أقنشة الصين الحريرية والقرفة والفلفل وتوابل الهند وبخور شبه الجزيرة العربية . وكانت هذه التجارة هي مصدر ثراء الأفراد ومدن القوافل الشهيرة . والمدينة المعروفة الشهيرة من هذه المدن في الوقت الحاضر هي دمشق التي تتوسط واحة غنية تنمو بها أشجار النخيل والبلسم . أما في القرنين الأولين من الميلاد فقد كانت تدمر تعد أعظم هذه المدن . فإن واحتها كانت تزرع بأكلها وبلغت من الثراء حدا جعلها جديدة بأن تصبح في القرن الثالث عاصمة جزء مستقل من الإمبراطورية . ومن بين النقوش التي عثرت بها نقشا يذكر التعريف الجركية في عهد هادريان . كما أن جباناتها تعد من عجائب الآثار في الشرق الأدنى، بل إنه لأدعى من هذه إلى العجب والدهشة تلك القبور الصخرية التي كانت لغريمها البتراء والتي كان لاكتشافها في القرن التاسع عشر

صدي طيب في جميع أنحاء العالم . وإلى الشرق من الصحراء — وفيما وراء حدود الإمبراطورية في العادة — كانت تقوم سلوكية (بالقرب من بغداد ودورا) وبقيت سلوكية التي كانت فيما سبق العاصمة الشرقية لسوريا الهلينستية والتي كانت في اتساع إنطاكية مركزاً للثقافة اليونانية في بلاد ما بين النهرين . وكان تدميرها على يد أفيدوس كاسيوس Avidius Cassius عام ١٦٤ تهوراً ونزقاً بحت ، لأنه قوض بذلك أركان الحضارة الهلينية غربي بارثيا ، ودعم نزعة قومية شرقية متأججة تناصب روما العداء . وإننا نعلم عن مدينة «دورا» أكثر مما نعلم عن أية مدينة من مدن القوافل الأخرى . والفضل في ذلك يرجع لأعمال الحفر التي قامت بها جامعة ييل . وقد كشفت هذه التنقيبات عن الصورة التي تم بها اندماج عناصر يونانية وبارثية ورومانية ويهودية في حياة مجتمع كان رخاؤه يتوقف على السلام المنعقد بين إمبراطوريتين ، وهو المجتمع الذي حطمه البارثيون في النهاية عام ٢٥٧ . وقبل هذا التاريخ ظل هذا المجتمع في قبضة الرومان ما يقرب من قرن كامل . كما أن حفريات القلعة الرومانية قد أخرجت إلى النور مجموعة رائعة من الوثائق العسكرية . وتشير الفنون الدينية أيضاً في معابد دورا وبجامعها عظيم الاهتمام . كما أن ميكائيل روسستوفتوف Michael Rostovtzeff عالجها في سلسلة من الدراسات الطريفة الرائعة .

أما مصر الرومانية فلا تعوزنا عنها الوثائق ، ولكنه من الصعب أن ننسق بينها في حدة مترابطة فإن العدد الهائل من أوراق البردي — ومعظمها من أوكسيرينخوس Oxyrhynchus والفيوم — تقدم لنا أكداسا من المعلومات التي يختلط فيها النعث بالثمين والصالح بالطالح والتي تدور حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، كما كانت جنوبي الدلتا . وتكتظ هذه الوثائق بالشكاوى من ارتفاع الضرائب وظلم المسؤولين وتضخم الأسعار والسخره والمجاعة وفرار الفلاحين من الأرض . ومع ذلك فإن المدينتين أو المدن الثلاث التي أجريت فيها أعمال التنقيب تدل على أن حالة الرخاء ظلت قائمة

حتى القرن الثالث . ولقد قيل إنه ينبغي التغاضي عن جانب كبير على أقل تقدير من طابع الكتابة الذي يسود الوثائق البردية ، ذلك لأن ما هو شاذ يخرج عن المألوف ، هو ما يكتب على الورق ويبلغ للمسؤولين ، كما أن الشكاوى وحدها هي التي تودع بالملفات ، وعلى الرغم من ذلك فلا جدال في أن الفلاح المصرى وجد من الإمبراطورية الرومانية صاحب عمل غاية في الشدة والصلابة . ولقد سبق أن شرحنا كيف أن أوغسطس تسلم من البطالة قطراً مصرياً منظماً تنظيماً علمياً دقيقاً ويخضع لنظام محكم للضرائب باعتباره ضيعة مملوكة . وقد تراخى هذا التنظيم في عهد الحكام المقدونيين المتأخرين فجاءت الكفاءة الرومانية وشدت وثائق وزادت من إحكامه . ومهما بلغ طمى النيل من خصب فقد كان من الأيسر اتزاع آخر ملهم من الضريبة وآخر سعر من الجهد من الفلاح المصرى عن استغلال قدرة الأرض الإنتاجية إلى أقصى حد ممكن .

بيد أن ثمة طبقات أخرى في المجتمع كانت تحظى بعطف الحكام الروماني ورعايته فكثير من قدماء الحجار بين قد استقروا في البلاد وألفوا طبقة أرستقراطية داخل القرى كما فعل الجنود المر تزقة اليونانيون من قبلهم . وتدفق التجار وأصحاب الأعمال على المدن وأتاحت فرص جديدة بتخلي الإمبراطورية عن بعض ألوان الاحتكار، على الرغم من أن الاحتكار على السكتان وأوراق البردى فيما يحتمل ظل قائماً : وكانت المناجم والشحار تخضع للملكية الإمبراطورية الخاصة . ولسكنها كانت تؤجر في العادة للمقاولين من الأفراد .

أما المحاجر الرومانية في مصر ، فغنية عن التعريف وخاصة جبل كلوديانوس الذي ظلت أحجار الجرانيت الرمادية تقطع منها طوال سبعين سنة . وكانت حركة الملاحة في النيل والقنوات منتظمة تنظيماً محكماً لأن

المجارى المائية كانت وسيلة نقل معظم السلع التى يدور حولها النشاط
التجارى بالبلاد .

وقد أحالت السوق العالمية ، الاسكندرية ، إلى أعظم مستودع للبضائع ،
فكانت الطرق البحرية المؤدية للهند تجلب منتجات الشرق إلى موانئ خليج
السويس ثم تنقل هذه المنتجات بوساطة القنوت إلى الاسكندرية ثم يعاد
تصديرها من هناك (بعد تصنيعها وهى مازالت مواد خام) إلى الغرب .
وكان هناك طريق آخر لجلب منتجات الحبشة وصعيد مصر بالسفن إلى
مصعب النيل . وكانت مصانع الاسكندرية تحقق إنتاجاً ضخماً من المصنوعات ،
المدينة وأدوات الترف والخطور والزجاج . وكانت سفن الشحن الضخمة
التي تتراوح حمولتها بين ثلاثة أو أربعة آلاف طن وهى أضخم السفن
التي بنيت فى العالم القديم تحمل الغلال المصرية إلى أوستيا Ostia أداء
للجزية السنوية . وكانت مدينة الاسكندرية تضم من السكان ما يقدر بثلاثة
أرباع المليون نسمة ، أى أنها تأتى من حيث عدد سكانها فى المرتبة الثانية
بعد روما . أما عن عدد السكان بمصر فكان يقرب من سبعة ملايين .
وظلت الاسكندرية مركزاً ثقافياً عظيماً . وبذل المتحف أو مكتبة الاسكندرية
التي شجعها عدد من الأباطرة الرومان جهداً طيباً فى ميادين الطب و فقه
اللغة والفلسفة . أما فى ميدان العلوم فقد كانت عموده الزاهرة قد انقضت
على الرغم من أنها قد أخرجت بالفعل العالم الفلكى والجغرافى بطليموس
(وسطع نجمه فى ١٥٠) . ولعب العلماء اليهود المتأغر قون فى الاسكندرية
دورا هامة فى الفكر اليهودى والمسيحى . واشتهرت المدينة أيضاً فى ناحية
لا تحمد لها وهى جمهورها من الدهماء الذى كان نزاعاً إلى أعمال الشغب
والاضطراب وإلى ذبح الأثرياء وإلى الظهور بمظهر القححة أمام
الزوار الكبار .

أما في خارج الاسكندرية فالمدينة الجديدة الوحيدة بمصر كانت هي أنتينوبوليس Antinopolis التي أسسها هادريان لإبقاء لذكرى صديقه المقرب أنتينوس والتي كان معظم شعبها من اليونانيين ، وقد قدر لبعض المراكز الإدارية المصرية القديمة أن تزدهر وتنمو بحيث كانت تميل إلى إنشاء مبان عامة تجرى على نمط البناء اليونانى . غير أن الصورة العامة لمصر اليونانية باستثناء الاسكندرية لم تكن توحى بالبشر . فقد خضعت الأرض وخضع الشعب لمطالب الدولة التي لم يكن لهم منها فكاك . كما كان تسويقهم إلى العمل ببيروقراطية استبدادية ضخمة ، وخلاصة القول إن مصر قد سبقت الإمبراطورية المتأخرة في أحوالها المعيشية السكثية بمدة قرنين .

ونظمت جزيرة كريت وقيروان Cyrenaica في ولاية واحدة على الرغم من أنه لم يكن بينهما صلة . فقد كانت كريت بلاداً مختلفة وعاصمتها هي مدينة جورتون Gortyn القديمة بيد أنه لم يحدث فيها تطور في أى ميدان على الرغم من أن أقدم المعابد في العالم اليونانى بها كان يجتذب السياح . أما قيروان فقد كانت زراعتها مزدهرة كما كانت تعتبر إلى حد ما صورة مصغرة لولاية أفريقية وقد تعرضت المنطقة للمحن والويلات إبان الثورة اليهودية التي قامت في حكم تراجان .

وكان هناك كثير من أوجه التشابه بين صقلية في عهد الإمبراطورية ووبين بلاد اليونان . فقد تميزت كل منهما بنشأة الضياع الكبيرة ، وكانت تسمى في صقلية باسم Massae ويقوم بزراعتها مستأجرون . وبعض هذه الضياع وجد أساساً لقيام عدد من القصور الريفية المترفة ، ومن هذه القصور الفيلا التي اكتشفت في بيازا أرميرينا Piazza Armerina والتي تعتبر من بين الاكتشافات الأثرية الشهيرة التي تمت في السنوات الأخيرة . وعلى الرغم من أن هذه الفيلا تنسب إلى أواخر عصر الإمبراطورية إلا أنها بزخارفها الرائعة من الفسيفساء تقدم لنا صورة طيبة . وازدهرت بها بضعة مدن

كبيرة - كاتانيا Catania وسرقوسة في الشرق ، وبانورموس Panormus (وهي مدينة بالرمو الحديثة) وليلبيايوم Lilybaeum (وهي مدينة مارسالا الحديثة) في الغرب غير أن انهيار مدن الأسواق الصغيرة ، لم يكن واضحاً وضوحه في بلاد اليونان . وكانت صقلية تتمتع أيضاً بحركة سياحية نشطة ، لم يكن الحافز عليها هي آثار الجزيرة فحسب ، بل مناخها الطيب ، وشمسها المشرقة فضلاً عن أعجوبتها الطبيعية العظيمة ، ألا وهي بركان إتنا . ويبدو أن حركة السياحة هذه كانت تخضع لتنظيم دقيق إذ كان الأدلاء المحترفون يمسحبون السائح إلى قمة البركان ، حيث يمكنه أن يقضى الليل في مكان مسقوف ، وأن يشهد شروق الشمس . كما كانت هناك الفنادق بالقرب من كثير من الينابيع الساخنة ، على سفوح الجبال . وفي غرب الجزيرة كان أعظم ما يجتذب السائح معبد فينوس في إيريكس Eryx الذي قام بترميمه أكثر من إمبراطور واحد فضلاً عن احتفالاتها الشهيرة وكانت صادرات صقلية تشمل على الغلال التي تصدر لأوستيا ثم النبيذ الذي اكتسب شهرة عظيمة والكبريت من أجريجنتم Agrigentum الذي يعد في الوقت الحاضر من موارد الجزيرة الرئيسية .

وقد أرجأنا الحديث عن قلب هذه الإمبراطورية العالمية إلى النهاية . والمعتقد أن سكان إيطاليا الذين كان يبلغ عندهم قرابة خمسة عشر مليوناً قد بلغ بحلول عهد تراجان عشرين مليوناً من الأنفس . أما عن اقتصاد إيطاليا فإنه يتطلب دراسة مفصلة لآقليمها المختلفة لا يتسع المجال لها في هذه الصفحات ، وقد استمر حال إيطاليا الجنوبية على ما كان عليه من التدهور والانهيار . كما يبدو أن اتروريا كانت بسبيلها أيضاً إلى الانهيار . غير أن هاتين البقعتين إنما تمثلان نقطتان مظلمتان في صورة تبدو في نواحيها الأخرى بهيجة تبشر بالأمل . فقد استمرت كامبانيا في إفاة ذلك التوازن بين إنتاجها الزراعى وصناعتها وحركة السياحة بنسب متعادلة طيبة وكانت كابوا Capua

وليسست نابولى هى أضخم المدن فى تلك الأنحاء . وبقيت بوتىولى Puteoli الميناء الرئيسى لإيطاليا إلى الوقت الذى اشتدت فيه منافسة أوستيا لها فطغت عليها . ولقد كان لثورة بركان فيزوف الهائلة عام ٦٩ أن حفضت لنا فى بطن حمم اللافامدينيتين من مدن كامبانيا وهما ميناء هيركولانيوم Herculaneum الجميل ومدينة بومبى Pompeii التى كانت ميناء وسوقاً رائجة . وبفضل ما يقرب من مائتى سنة من أعمال الحفر أصبحنا نعلم من حياة هاتين المدينتين قسطاً أكبر مما نعلمه عن الحياة السائدة فى أية مدينة أخرى من مدن العالم القديم . فقد كانت الشواطىء التى يهرع إليها الناس وقت العطلات — باياى Baiae وستابياى Stabiae وسورنتوم Sorrentum — والقصور الريفية الفخمة تنتظم على طول ساحل خليج نابولى . لقد كانت هذه أشبه بريفييرا أوفلوريدا العالم الرومانى . وكانت تقوم بلاتيوم وجبال ألبان وفيما حول تيفولى مناطق مماثلة . فلقد كانت فيلا دوميتيان فى ألبانو وفيلا هادريان فى تيفولى مقامتين على نطاق ملكى حق . وتدل سفن كاليجيولا التى رفعت بمحتوياتها من قناع بحيرة نيمى على الأبهة الإمبراطورية إذا ما أحاطت برعايتها عبادة قديمة . وإلى الشرق من ذلك كانت لاتيوم Latium بلاد المزارع الصغيرة والمدن المتواضعة ذات الأسواق والتاريخ العريق . كانت هذه هى الحقبة التى بلغ فيها وادى البوأوج ازدهاره . فقد كانت باتافيوم Patavium (بادوا الحديثة) بصناعاتها الصوفية تضم بين مواطنيها ما يربو على خمسمائة من الأثرياء .

وروما وحدها هى التى كانت تحظى بعدد يفوق هذا العدد ، وذلك بالنسبة لجميع أنحاء إيطاليا . وكانت مدينة أكويليا Aquileia هى سوق التجارة مع أراضى الدانوب وشمال أوروبا وبحر البلطيق . وكان يجلب إليها الكهرمان والفراء والجلود والصلب أما هى فكانت تصدر النبيذ الإيطالى والفخار والمصنوعات المعدنية والملابس . وكان لهذا الرخاء الذى تمتعت به

أن أطلق عليها لقب روما الثانية (Roma Secunda) . أما رافنا Ravenna التي كانت مركز قيادة أسطول الادرياتيک فقد أقيمت على ركائز وعمد مثل مدينة البندقية . وكانت مديولا نوم Mediolanum (ميلانو الحديثة) مركزاً صناعياً وعاصمة منطقة زراعية غنية وهمزة الوصل الرئيسية للطرق الممتدة في شمال إيطاليا . وقد أصبحت كل من ميلانو ورافنا من العواصم الهامة في عصر الإمبراطورية المتأخرة . كانت هذه البلاد الرئيسية في أرض كانت وما زالت تعج بالحياة الحضرية النشطة المؤملة ، ويمكن أن نخرج بفكرة عنها من الآثار التي تخلفت عن أكويليا وسوسا وعن ملاعب فيرونا وبولا .

وتؤكد جميع التواريخ الاقتصادية الخسارة التي منيت بها أسواق التصدير الإيطالية خلال القرن الأول . فقد لقي النبيذ وزيت الزيتون والفخار والمصنوعات الصوفية والأدوات المعدنية منافسة شديدة من جانب الولايات الغربية خلال هذه الفترة . وأشهر مثل على ذلك طغيان الفخار المصدر من جنوب الغال على فخار أيتيوس . ولعل أصحاب المصانع الإيطالية قد أقاموا عن عمد فروعا لهم في الولايات للحد من تكاليف النقل . وربما صدق هذا على الحالة التي نحن بصددنا والحالات المماثلة الأخرى كما يفعل في الوقت الحاضر أصحاب مصانع السيارات البريطانيون حين يقيمون أفرعا لهم في استراليا . فضلا عن ذلك فلعل نمو عدد السكان في إيطاليا ذاتها كان فيه ما يعوض عن تلك الخسارة بيد أنه كان مقدرا أن تبلغ النتائج الاقتصادية في المدى الطويل درجة كبيرة من الخطورة .

أما روما عاصمة العالم فقد كانت خليطا عجيبا بين نخامة القصور وقذارة الأكواخ . ولعل قصائد جوفينال الساخرة ونابلي أيضاً كما تبدو في العصر الحديث تقدم لنا صورة لروما القديمة . وليس هناك من مدينة في العالم الحديث تداني روما نخامة وجلالا . ولقد رأينا عظم ما قام به أوغسطس

من أجل هذه المدينة . ومنذ وفاة أوغسطس إلى موت هادريان كان معظم عمليات البناء في روما تتجه إلى وجهتين الأولى للترفيه عن الشعب الروماني والأخرى لإعداد المسكن الملائم للإمبراطور وبلاطه . أما عن أعظم المشروعات قاطبة في مجال إنشاء قصور الإمبراطور ، ألا وهو مشروع نيرون الخاص بإنشاء « الدار الذهبية » ، فإنه لم يتم قط . وكان يقصد به أن يقيم الإمبراطور في فيلا ضخمة مهيبه تنشأ وسط حديقة مخططة نخطيطاً رائعاً في قلب مدينة روما . وعلى الرغم من أن الدار الذهبية لم يتم بناؤها إلا أنها تعد نقطة تحول في تاريخ فن المعمار الرومان . وقد واصل دوميتيان وكبير مهندسي المعمار لديه وهو رابيريوس Rabirius مشروعاً كان من شأنه أن أحال في واقع الأمر جبل بلاتين جميعه إلى قصر إمبراطوري . وكانت المشككة الرئيسية التي تواجه بناء الملاعب العظيمة والمسارح والحمامات هي كيفية توفير المسكان لأعداد غفيرة من الناس . وكان ملعب الكولوسيوم Colosseum يمنح خمسين ألف نسمة زادهم اليومى من متعة الإيذاء والانتقام الكامنة في نفوسهم . وكان في إمكان ٣٠٠٠٠٠ شخص أن يحضر سباق العربات الحربية في حلبة ماكسيموس Circus Maximus كما كان في وسع ٣٠٠٠٠ من النظارة مشاهدة الأحداث التي تجرى في استاد دوميتيان الذي كان الإمبراطور من « الحكمة » بحيث زود أورفته الخارجية ببيوت للدعارة . كانت هذه هي الساحة التي صان لنا ميدان بياز نافونا Piazza Navona الجميل مقاييسها وأبعادها حتى اليوم . أما الحمامات العظيمة فلم تسكن تمد روادها بوسائل الاغتسال الخشب ، بل كان بها المطاعم والبارات وقاعات المحاضرات وقاعات الموسيقى ومعارض الفنون والمحال التجارية وملاعب لمباريات الكرة . لقد كانت هذه الحمامات أشبه بما يعرف بالكورسال Coursaal حيث من الممكن أن يجد آلاف من الناس فرص الاستمتاع طيلة يوم كامل . وأقام فسباسيان ونيرفا أسواقاً رومانية جديدة في روما غير أن هذه الأسواق التي بنوها وغيرها من المنشآت السابقة ما لبثت أن بنى

ضئيلة حقيرة إلى جانب السوق الروماني الرائع الذي أقامه تراجان ووضع تصميمه أبولودوروس Apollodorus الدمشقي والذي استمدت مواد بنائه من أسلاب الحروب التي جرت في داكيا . فإن ميدان هذا السوق في محيطه الذي يأخذ شكل أنصاف دوائر ثم ذلك البناء الفخم المعروف باسم باسيليكيا أولبيا Basilica Ulpia (التي ظهرت نسخة أخرى منه في كترائية القديس بولس ، ثم تلك المكتبات اليونانية واللاتينية والعمود ذاته Column بزخارفه البارزة إنما تكون جميعها تحفة معمارية دقيقة محكمة البناء أجمعت الآراء على أنه ليس لها نظير في العالم . وكان هادريان من الحكمة بحيث أعرب عن أطباعه المعمارية في المباني العظيمة المنفردة وبخاصة ضريحه الذي أصبح الآن قلعة القديس أنجيلو القائمة بالقرب من النهر في مواجهة ضريح أوغسطس .

وكان أيسر على العامة أن يحصلوا على ألوان التسليمة من حصولهم على عمل ، ذلك لأن روما كانت تعيش حالة على اقتصاد العالم . إن أعمال المقايضة والبناء وتجارة القطاعي يمكن أن تكون عاملا لازدهار أية مدينة يزيد عدد سكانها على مليون نسمة ، غير أن روما لم يكن لديها غير عدد قليل من المنتجين كما لم يكن لديها ما تصدره باستثناء الحكام وموظفي الحكومة ، سوى الشيء القليل . أما عن شعبها المختلط الجنسيات فقد أتى إليها من أركان الأرض الأربعة ، ولكن مصدره الرئيسي كان هو آسيا وسورية . وإن الصورة التي يعرضها جوفينال في قوله إن شعبها كان شعبا من المهاجرين واللاجئين لتجد سندا في النقوش الجنائزية التي لا تضم من الأسماء الإيطالية سوى نسبة الربع .

ولمواجهة ضرورة تزويد هذا العدد الهائل من السكان بالمواد الغذائية نشأ ميناء كبير في أوستيا ، ونشطت حركة مرور الصنادل نشاطا منقطع النظير على نهر التيبر . وليس ثمة موقع أثرى في إيطاليا يفوق موقع أوستيا

أهمية . فيمكن لنا أن نستمد من هذه المدينة — وهو ما لا يتيسر لنا في روما — فكرة عن المنازل السكنية الضخمة التي تجاورها الخانات والمقاهي ، أي تلك المشاهد الدالة على حياة جماعية صاخبة متدفقة كذلك التي نراها في مدينة تراستيفير Trastevere اليوم ، ثم كانت هناك المباني الخاصة بالميناء والأرصفة والخازن وثكنات الشرطة . وكانت بها المباني العامة الضخمة ثم السكايبتوليوم الذي يرتفع فوق قاعدة عالية والحمامات المزينة بلوحات الفسيفساء الجميلة ذات المناظر البحرية ثم مجموعة من المباني تضم المسارح ومعبد كيريس Ceres والميدان العظيم الذي تحيط به مكاتب شركات الملاحة التي تتعامل مع إفريقية وإسبانيا وبلاد الغال ومصر . وكان تراكم الرواسب عند مصب نهر التير من المشاكل الدائمة . وقد قام كلوديوس أولاً ثم تراجان ببناء موانئ وأرصفت جديدة . ويرجح أن أوستيا وضواحيها كانت تضم بحلول عهد هادريان مائة ألف نسمة .

أما عن النشاط التجاري الذي كان قائماً بين الإمبراطورية والعالم الخارجي فإنه يعد من الدراسات الممتعة التي ينبغي أن تتخذ فيها من مؤلف السير مورتيمر هوليل الذي وضعه مؤخراً أعظم هاد ومرشد . والكتاب بعنوان « روما فيما وراء حدود الإمبراطورية » وكانت الحركة التجارية مع الهند هي أعظم أوجه النشاط التجاري قاطبة . ولقد سبق أن ذكرنا الطرق البرية التي تمتد من مدن سوريا الصحراوية إلى أفغانستان والهند والشرق الأقصى عن طريق بارتيا وذكرونا أيضاً طرق البحرية التي تبدأ بموانئ البحر الأحمر . وقد اكتسبت الطرق البحرية أهمية كبرى عندما اكتشف شخص يدعى هيبالوس Hippalus كيفية الاستفادة من الرياح الموسمية في القيام برحلات بحرية إلى الساحل الشرقي للهند ، ومنه مباشرة .

أما عن تاريخ ظهور هذا الشخص فلا يمكن تحديده ، ولكنه يبدو أنه لا يتجاوز عصر أوغسطس . ومعلوماتنا وفيرة عن هذا النشاط التجاري

ويرجع الفضل في ذلك إلى كتاب Periplus Maris Erythraei وهو دليل للبحارة إلى المحيط الهندي كتب في القرن الأول الميلادي وبه تفاصيل عن الموانئ والأحوال الملاحية والشحنات بين خليج السويس وشرق إفريقية والهند . وكانت الحركة الملاحية في شرق إفريقية تصل إلى زنبار أو دار السلام حاملة الفخار أو الأدوات وآتية بالعاج والخل والقرقة وقرن الخرتيت . وكان ثمة ميناء عربي يسمى موزا Muza بالقرب من خليج باب المندب . وقد لعب هذا الميناء دوراً هاماً في هذا النشاط التجاري وكان يشبه في نشاطه ورواجه ميناء عدن اليوم . ولنا أن نتوقع الحصول على مزيد من الوثائق حول هذه الحركة التجارية بتطور الاكتشافات الأثرية في أفريقية . ويذكر كتاب المرشد السالف الذكر أن في الهند محطتين نهائيتين هما باريجازا Barygaza (برواش الحديثة) على خليج كامبي وذلك بالنسبة للطريق البحري الشمالي . أما بالنسبة للطريق البحري الجنوبي فكانت المحطة النهائية هي موزيريس Muziris (كرانجانور الحديثة) على شاطئ ملبار ولكن هذا المرشد يذكر أيضاً كثيراً من محطات التجارة الأخرى (emporia) وقد قام ويلر وعلماء الآثار الفرنسيون بالتنقيب في إحدى هذه المحطات وذلك في أريكاميدو Arikamedo بالقرب من بوند يشيري . وفي هذه المحطة كانت الواردات الغربية هي النبيذ وأدوات المائدة والمصاييح والزجاج . ويقارن هويلر Wheeler بين هذه المحطات التجارية ، وبين المصانع التي أقامتها الدول الأوروبية في الهند خلال القرن السابع عشر . أما في الشمال فقد عثر المنقبون على وثائق تدل على حركة نقل البضائع بطريق البر وذلك في موقعين على وجه الخصوص وهما تاكسيلا Taxila بالقرب من بيشاور في باكستان وبيجرام Pegram في أفغانستان بالقرب من كابول . وكانت كل من المحطتين تقعان على الطريق العظيم الذي يصل بين باكترا Bactra (بالخ الحديثة) وبين وادي نهر هندوس عبر إقليم هندوكوش . وكانت السلع الغربية الرئيسية في هذه المنطقة تتمثل في التحف

الفنية الرفيعة التي تمتدق ونمط الفن البوذى المتأثر بالغرب في شمال الهند
قراة عام ١٥٠ ميلادية .

أما التجارة الرومانية مع أوربا الشمالية فتشهد بها مئات من الآثار التي
عثر عليها في ألمانيا ، وبولندا والدانمرك ، وجنوب السويد بل وفي النرويج
أيضاً . وكان هناك طريق رئيسي يصل بين أ كويليا و كارننتوم Carnuntum
على الدانوب ثم يأخذ طريق الأنهار من هناك إلى شواطئ بحر البلطيق .
وبعض طرق الأنهار هذه كانت قد استخدمت لنقل السكرمان منذ أوائل
عصر البرونز ، وبهذه الطرق كان النيزد الإيطالي ، والفخار والأدوات
المعدنية والزجاج والساع الكهالية تصل إلى رؤساء العشائر الأغنياء في الشمال
ولعل الراحل الذي دفن في مدينة هوبي Hoby في جنوب الدانمرك شاهداً
على ما نقول ، فقد نقل معه إلى القبر عدة أشياء مستحدثة ونفذتان من لحم
الخنزير ، وطاقي من أدوات المائدة الفاخرة التي يرجع إلى عصر أوغسطس
وأبرز من هذا الاكتشاف وأجدر بالملاحظة ، تلك الكمية الضخمة من
الأوعية الفضية ذات طابع البحر الأبيض المتوسط التي عثر عليها في هلديشايم
Hildesheim بالقرب من هانوفر . ولكنه ليس من المؤكد ما إذا كانت
هذه الأشياء تمثل سلعة تجارية أو أنها كانت أسلاباً منهوبة . وعندما بدأت
منتجات بلاد الغال ، وبلاد الراين تروج في أسواق الشمال كانت ترسل
شرقاً عبر نهر الراين من مدينتي فيتيرا Vetera وموجوتيا كوم
Mogutiacum .

وفي عصر الإمبراطورية المتأخر نقف هناك على بعض الشواهد الدالة
على قيام حركة تبادل للسلع بين البحر الأسود ، وبحر البلطيق على طول نهر
دينيسر ، ونهر الفستولا . والمعتقد أن القوط كانوا يقومون بدور الوسطاء
في هذه التجارة . وينبغي علينا لكي نختتم هذه الدراسة بأن نعرض للحركة
التجارية التي قامت مع كاليدونيا Caledonia التي من أجلها أقيمت نقط

العبور والمراكز الجمركية فوق سور هادريان ، كما تجدر الإشارة إلى الحركة التجارية مع أيرلندا من جانب موانئ بريطانيا وغالية .

لقد كانت الأحوال في الإمبراطورية تتميز بتباين لا حد له . ولا ريب أن هذا هو بالفعل الشعور الذي نخرج به من مثل هذه الدراسة ، ولكن ماذا عن مظاهر الوحدة ؟ وما مدى الشعور بالولاء المشترك سواء كان مصدره المصلحة الذاتية ، أو الإيمان الشخصي أو كانت تعزز منه رسمياً تلك الحيل التي تشمل في عبادة الإمبراطور وفي عقيدة روما ؟ أما فيما بين القوات المسلحة ، فلا ريب في أن سياسة نشر الحضارة الرومانية كانت في غاية من النشاط بالنسبة لوحدات القوات المساعدة ، وإن تقويم مدينة دورا المعروف باسم فيليالي دورانوم Feriale Duranum وهو تقويم عسكري ظهر في دورا في القرن الثالث قد يعيننا على فهم هذه النقطة .

فقد كانت الوحدة العسكرية المكلفة بالخدمة في هذا الموقع المتقدم في الشرق من بين قوات تدمر ، ومع ذلك فليس هناك من عيد واحد خلال السنة كلها يختص بغير العقيدة الرومانية ، وبغير الاحتفالات التي تقام في ذكرى الأباطرة . فبغض النظر عن جنسية الجندي في القوات المسلحة ، وبغض النظر عن الموقع الذي يربط فيه سواء كان على ضفاف نهر الفرات أو نهر الراين وبين ثلوج أرمينيا ، أو فوق مستنقعات هضاب نورثمبرلاند حيث يغرد الكروان وسط الأمطار المنهمة ، فقد كان هذا الجندي يدفع إلى الشعور بأنه جندي روماني . وكانت حقوق المواطنة الرومانية التي تمنح له وحده بالإضافة إلى زوجته ثم ذريتهما هي المكافأة التي يحصل عليها عند تسريحه . أما المسؤولون ذوى المناصب العليا ، سواء من المدنيين أو العسكريين فقد كان من الممكن بطبيعة الحال أن تتسع نظرتهم فتشمل العالم كله . وإن أُنْتخب هنا من بين عدد كبير من النقوش التي تسجل أعمالهم وحياتهم العامة مثلين . فإن باوتيسوس سلفانوس الذي ذكرناه من

قبل قد دفن في ضريح أسرته في تيفولى . ويقول النقش المكتوب عنه
لأنه خدم في أول الأمر في ألمانيا تحت قيادة تيبيريوس ، ثم كان من
بين هيئة أركان حرب كلوديوس أثناء غزو بريطانيا ، وتولى منصب
القنصلية سنة ٤٧ ، ثم أصبح حاكماً لولاية آسيا التابعة لمجلس الشيوخ ، ثم
نصبه أوغسطس بعد ذلك حاكماً لمويسيا Moesia وكانت هذه هي أخطر
مرحلة وأبرزها في حياته العامة ، وقد عمل على توطين أعداد كبيرة من
القبائل على الضفة الرومانية من النهر . وقمع ثورة قامت بين السمراتيين ،
واشترك في الحروب ، والنشاط السياسى على طول وادى الدانوب الأدنى
جميعه وفى البحر الأسود حتى القرم . وأرسل كمية ضخمة من الغلال وكانت
أول شحنة يرسلها من ولايته إلى روما . أما فى عهد نيرون فلم يكن بمن
يرضى عنهم الإمبراطور . ولكن فسباسيان نصبه أول الأمر حاكماً على
إسبانيا تراكوننسى Hispania Tarraconensis ثم ضابطاً لإحدى المدن
ثم منحه رتبة القنصلية مرة أخرى عام ٧٤ . وفى القرن التالى كان هناك
شخص يدعى ماركوس كلوديوس فرنسو M. Claudius Fronto تولى
قيادة خاصة فى داكيا ، ومويسيا العليا ، واشترك فى حرب بارثيا تحت
إمرة فيروس . ونال مرتبة الشرف ، وأصبح بعد ذلك ضابطاً للتجنيد فى
إيطاليا ، ثم قام بقيادة قوات مختلطة الأجناس زاحفاً على أرمينيا وأوزروهوبى
Osrhoeme وتولى قيادة الفرقة الأولى ، ثم الحادية عشر على التوالى .
وكان آخر خدمة له فى الجيش إبان حرب ماركومانيا ، حيث سقط بعد
عدة معارك مظفرة ضد الجرمانيين والجازوجيين Jazges وهو يقاتل
فى بسالة واستماتة من أجل بلاده . ومن أجل ذلك ، وبمرسوم صدر
عن مجلس الشيوخ بأمر من الإمبراطور ماركوس أوريلوس ، أقيم تمثال
له بزيه العسكرى على نفقة الحكومة فى سوق تراجان ، .

وقد أشاد الأدب بالنعم التى أسبغها السلام الرومانى فى موضعين شهيرين
وهما أولا الخطبة التى ألقاها تاسكيتوس ، على بيتيلوس كرياليس

Petilius Cerealis بعد ثورة الغال عام ٧٠ والخطبة التي تحمل عنوان « إلى روما » والتي ألقاها في مدينة روما ، السوفسطائي اليوناني أيلوس أرسطيديس Aelius Aristides عام ١٥٠ . وكتبا الخطبتين تؤكدان انتشار السلام ، وذيوع الرخاء ، ومنح الامتيازات وحقوق المواطنة الرومانية في سخاء وكرم ، والمساواة المكفولة للجميع أمام القانون وأمام الإمبراطور . ولكنه ينبغي علينا ألا ننسى أنه قد كان هناك صوت آخر وهو صوت كانوا يكونون الكراهية لروما . وقد أتاح تا كيتوس لنا سماع هذا الصوت في خطبة رئيس العشيرة السكلدونية كلجاكوس Calgacus قبل أن يواجه أجريكولا ، إذ قال « إن الرومان يصنعون صحراء ويسموننا سلاما » . ويعرب بوديكا Boudicca في مؤلفات ديوكاسيوس عن مشاعر مماثلة . كما نسمع عن المشاعر المعادية للرومان في الكتابات المعروفة باسم أعمال الشهداء الوثنيين التي ظهرت في الإسكندرية . وبطبيعة الحال وبالنظر إلى تاريخ اليهود فإن هذه المشاعر كانت تتردد في الأدب اليهودي الذي ظهر خلال القرنين الأول والثاني، بل وتظهر على أوضح صورة في رؤيا يوحنا اللاهوتي : « وألقوا تراباً على رؤوسهم وصرخوا باكين ونائحين قائلين ويل ويل . المدينة العظيمة التي فيها استغنى جميع الذين لهم سفن في البحر من نفائسها لأنها في ساعة واحدة خربت . أفرحى لها أيتها السماء والرسل والقديسون والأنبياء لأن الرب قد دانها دينونتمكم » .

الفصل الثاني عشر

الانهيار والسقوط : ١٩٣ إلى ٤٧٦ ميلادية

وعلى الرغم من الآمال التي راودت مؤلف رؤيا يوحنا اللاهوتي فإن الإمبراطورية لم تواجه نهاية عاجلة . فإن ثلاثة قرون تقريباً تفصل بين موت كومودوس وبين آخر إمبراطور روماني في الغرب . ولكنه كان من الممكن أن يحل الانهيار التام والتفكك النهائي للإمبراطورية في منتصف القرن الثالث، عندما انتهكت حدود الراين والدانوب. وقامت إمبراطوريتان في كل من بلاد الغال والشرق ، واجتاح ما بقى من ملك روما التدهور الاقتصادي والفوضى الاجتماعية . وكان الفضل في درء هذه الكارثة يرجع أولاً إلى الجهود التي بذلها ثلاثة أباطرة الليريون هم كلوديوس جوثيكوس Claudius Gothicus وأوريليان وبروبوس ، ثم ، وفي خلال فترة الهدوء التي نجمت عن ذلك ، إلى الإصلاحات التي قام بها دقلديانوس وإلى الجهود التي بذلت أيضاً لتعديل هذه الإصلاحات ودعمها خلال عهد قسطنطين الطويل (٣١٢ - ٣٣٧) . ولكن هذه الإصلاحات بلغت من الصرامة والتطرف حدا جعلها تقلب نمط الحياة في الدولة رأساً على عقب . وإن الفرق بين الجمهورية وأوائل عصر الإمبراطورية ليلبغ من الجسامة الحد الذي يبدو عليه الفرق بين عهد ماركوس أوريليوس وأواخر عصر الإمبراطورية . وتحمل هذه الحقيقة بالإضافة إلى اعتناق قسطنطين للمسيحية كثيراً من المؤرخين على النظر إلى عهد قسطنطين باعتباره بداية العصور الوسطى ونهاية العصر الكلاسيكي القديم . ف منذ سنة ٣٥٠ وما بعدها صاحبت المراحل الأخيرة لانحلال الإمبراطورية الغربية تجدد هجمات البرابرة على

نطاق واسع . وقد أمكن صد هذه الهجمات لفترة قصيرة من الزمن خلال عهده فالنتينيان Valentinian وثيودوسيوس الكبير . ولكنه بوفاة آخر الأباطرة عام ٣٩٥ انقسمت الإمبراطورية نهائياً إلى قسم شرقي وقسم غربي ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ٤٧٦ لا تتضمن قصة الغرب إلا سرداً لمواطن الضعف التام وللأزمات المتلاحقة ، ولو أن روما قدمت للإنسانية خدمة سياسية أخيرة في إيقاعها الهزيمة بآتيلا والشعوب الهانوية (عام ٤٥١) . وما إن انتصف القرن الخامس حتى كانت بلاد الغال في قبضة الفرنجة والبورجنديين ووقعت أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين والسويبيين ، واحتل الفاندال إفريقية وقطعت الصلة بين بريطانيا والإمبراطورية واجتاح بعض أجزائها الإنجليز والساكسون والبيكتيون . أما روما ذاتها فقد استولى عليها وأعمل فيها يد التخريب والتدمير آلاريك القوطي عام ٤١٠ ثم واجهت المصير ذاته على يد جيزاريك Gaiseric عام ٤٥٥ ، وعندما خلع أودواكر Odoacer الجرمانى آخر الأباطرة الضعاف في الغرب وهو رومولوس أوغسطولوس وأعلن نفسه رئيساً للجنود في إيطاليا كانت النهاية قد حلت بالفعل .

ولا يمكن لنا أن نعالج موضوع هذه الفترة تفصيلاً ، فإنه لو أن المجال كان يسمح بذلك فإن النتيجة التي سنحصل عليها ستكون أدعى إلى تشيبت فسكر القارى* واختلاط الأمر عليه ، لأن الجانب الأعظم من هذه الدراسة سوف لا يعدو ترديداً لأحداث تتمثل في اعتقال سلسلة من الأباطرة القصيرى الأجل للعرش ثم مصرعهم . وحسبنا أن نسرّد قصة طرف من الأحداث الرئيسية والاتجاهات العظمى خلال فترة تبدأ بالبوادر الأولى لاضمحلال أبهة الملك الإمبراطورى وتنتهى بشفا العصور الوسطى .

ولقد كانت الحروب الأهلية الطويلة التي أعقبت وفاة كومودوس بمثابة عوامل تخريب وهدم في حد ذاتها وفي النتائج التي أسفرت عنها .

وكان الفاتح النهائي في هذه الحروب هو سبتيميوس سيفيروس ، وهو من أصل أفريقي ، وكان والياً على بانونيا ، ولم يرغب عن باله قط أنه مدين في انتصاره إلى الجيش وأن الاحتفاظ بولائه هو الهدف الأسمى . وكان سبتيميوس صارماً أشد الصرامة في انتقامه من أنصار خصمه نيجر Niger وألبينوس Albinus وقد جمع لنفسه ثروة خاصة هائلة عن طريق مصادرة ضياعهم . وكان هذا هو الذي فعله أيضاً قائد الحرس الجمهورى بلوتيانوس Plautianus مدة رضاء الإمبراطور عنه . وبعد فترة من الوفاق انقلب سيفيروس على مجلس الشيوخ وسار علانية على نهج سولا وماريوس فأعدم ٢٩ من أعضاء مجلس الشيوخ وصادر ممتلكاتهم . وكانت إصلاحاته العسكرية تهدف أساساً إلى تحسين حال الجندي النفر وضمان مستقبله . وحل الحرس البرائتورى القديم وأقيم حرس جديد يسمح بدخوله لأى جندي لائق من جنود الفرق الرومانية . وكان الإمبراطور يعين في المناصب الشاغرة بالقيادات العليا أفراداً من هذه الفرقة من الجنود التي كانت أشبه بكلمة أركان الحرب . وقد كان سيفيروس يدلل الجيش بالإضافة إلى أنه كان يعمل على زيادة رواتبه بالمنح المتكررة . وهي في الحقيقة رشاوى إن شئنا أن نسمى الأشياء بأسمائها . وقد بات من الضروري أكثر من ذى قبل ، لمواجهة النفقات المتزايدة ، الالتجاء إلى المطالب الجبرية التي تتمثل في العمل أو تقديم الخدمات سخرة . وقد قدر لهذه المطالب الجبرية أن تصبح من أنكى اللعنات التي حلت بأواخر عصر الإمبراطورية . ولكن الحدود قد استعيدت على أقل تقدير في عهده كما سلطت الإمبراطورية من الغزو الخارجى . وقد أحيى ذكرى انتصاراته الهامة على البارثيين والعرب بإقامة قوس سيفيروس في السوق الرومانية .

أما في بريطانيا فقد كان يواجه موقفاً على جانب كبير من الخطورة . فإن انسحاب الفرق البريطانية عام ١٩٧ بقيادة ألبينوس أثناء محاولته

الاستيلاء على العرش أتاح للكاليديونيين فرصة نادرة ما كانت لتفلت من أيديهم . فقد اجتاحت الحدود الشمالية وهدم سور هادريان حتى أصبح أثراً بعد عين ، واحتلت الولاية حتى يورك وتشستر . وقد صد البرابرة وردهم على أعقابهم اثنان من الحكام في بريطانيا . غير أن سيفيروس قرر أن يقوم بهجوم واسع النطاق . وفي خلال حملتين توغل في أسكتلندا إلى مسافة لم يبلغها أى جيش روماني من قبل . ويرجح أنه بلغ موراي فيرث Moray Firth غير أن الخسارة التي تسببها الرومان في الأرواح كانت باهظة . ولم يكن الإمبراطور السكهل ليقوى على مواجهة هذا الموقف العصيب . وفي عام ٢١١ قضى سيفيروس نحبه في مدينة يورك ، وما لبث الجيش الروماني أن تخلى عن فتوحاته باسكتلندا وأصبح سور هادريان يمثل الحدود الشمالية بعد أن بنى من جديد بكل عناية ودقة إلى الحد الذي ظل معه بعض علماء الآثار حتى القرن التاسع يعزونه إلى سيفيروس دون هادريان . وقد ترك سيفيروس وهو على فراش الموت وصيته السياسية إلى ابنه في عبارة يمكن أن نشرحها كالآتي : « اتحدا معاً وادفعا للجنود رواتبهم ، ثم لا تهتما لشيء بعد ذلك » .

أما عن الوصية الأولى فما لبثت أن ذهبت أدراج الرياح ، ذلك لأن كاراكالا اغتال شقيقه جيتا Geta وأعمل السيف في آلاف من أنصاره ، وحى اسمه من جميع النقوش . أما عن الوصية الثانية فقد تمسك بها كاراكالا ولم يتخل عنها قط . وقد اعتاد القول : « لا ينبغي أن يكون لأحد مال سواى ، حتى أستطيع أن أمنحه كله إلى جنودى » . واستطاع أن يحقق هذا الهدف باختياره جنوداً ليقوموا بدور الجواسيس والبوليس السرى بل لقد بلغ في ذلك إلى الحد الذي ألغى فيه ، في كثير من الأحيان ، دوره كوسيط . وشهد عهده أيضاً تدهوراً في القيمة الفعلية للعملة (عام ٢١٥) مما كان مظهراً من المظاهر الدالة على انهيار الإمبراطورية وأحد الأسباب التي أدت إلى ذلك الانهيار . ولعل في الإمكان تفسير المرسوم الشهير

الذي صدر عام ٢١٢ والذي منحت بموجبه حقوق المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية في واقع الأمر على أنه إجراء قصد به زيادة أعداد ممولى الضريبة . ويميل الباحثون المحدثون إلى النظر إلى هذا المرسوم باعتباره حجر الزاوية في التاريخ الدستوري الروماني كما يميلون إلى امتداح روحه التحررية . أما في ذلك العصر فلا يبدو أن هذا المرسوم قد أثار كثيراً من التعليقات ، أما ما ظهر منها فعلاً فكان متسماً بالشك والريبة . وما يبدو واضحاً هو أن حقوق المواطنة الرومانية أصبحت عامة ، عندما لم تعد امتيازاً بل عبئاً . وبما يشهد بأن كاراكالا كان يوسعه أن يطمح إلى مشروعات جليلة ضخمة ، خطته من أجل إنشاء إمبراطورية رومانية بارثية يقوم فيها هو نفسه بدور الإسكندر الجديد ، فقد قام بقراءة سيرة الإسكندر واستظهرها ، ثم درب فيلقاً مقدونياً وزوده بالأسلحة الملائمة رغبة منه في أن يضفي على مشروعه شيئاً من الواقعية ، ثم شن هجوماً على بارثيا في حماس يقل بعض الشيء عن حماس النموذج العظيم الذي احتذاه (عام ٢١٥) . ولم يكن قد تحقق شيء حاسم في هذه الحرب عند ما لقي حتفه عام ٢١٧ .

ويخيم على هذه الحقبة الغربية حكم أغرب منها طبيعته وهو حكم باسيانوس Bassianus الذي خلفه بعد فترة قصيرة من حكم ماكرينوس Macrinus . فإن ذلك الغلام المسمى باسيانوس ذو الأربعة عتس ربعاً والكاهن الأعلى لإله الشمس المعروف باسم إيلاجابال Elagabal في إيميسا Emesa والذي كان يعرف عادة باسم إيلاجابالوس Elagabalus (أو هيليو جابالوس Heliogabalus) قد نصب على العرش بمساندة الفرق الشرقية التي اشتراها بأموال المعبد التي أطلق فيها يده دون ما حرج . وقد تحولت الحياة في روما خلال السنوات الثلاث التي تولى فيها الحكم إلى ألوان من مظاهر الانحراف التي باركها الدين . ويمكن أن نقرأ التفاصيل المذهلة لهذا الحكم في مؤلف « التاريخ الأوغسطى Historia Augusta » . وفي عام ٢٢٢ اغتاله الحرس البرابيتوري هو وأمه وخلفه على العرش ابن عمه الإسكندر سيفيروس ،

وهو شاب واسع الأفق عظيم الخلق لسكنه كان واقعاً إلى حد كبير تحت تأثير أمه جوليا ماميا Julia Mamaea ويظهر عهده سواء عن حق أو غير حق على أنه عصر هدوء ونهضة اقتصادية وتعاون بينه وبين مجلس الشيوخ . ولكن الحرب نشبت عام ٢٣٥ على الحدود الجرمانية . فسارعت قواته وقد أثار سخطها نحمول الإمبراطور — أو العطف الذى أبداه على الفرق الشرقية — إلى اغتياله ، ونصبوا مكانه واحداً من بينهم وهو الجندى ماكسيموس ثراكس Maximius Thrax . وهو أول إمبراطور روماني يخرج من بين صفوف الجنود . وصاحبت عهده بداية عصر مروع من الاضطرابات التى منى بها العالم الروماني . فقد قام به اثنا عشر إمبراطوراً واجتاحته الحروب الأهلية التى ما كادت تنقطع إلا فى القليل وذلك بين عامى ٢٣٥ و ٢٦٠ . واستنزفت الضرائب وقرارات المصادرة والاستيلاءات قوى المدن وهبطت بالأثرياء إلى درك الفقر واليأس . وحل وباء رهيب اجتاح البلاد دون ما عائق مدة خمس عشرة سنة ودمرت الزلازل كثيراً من مدن آسيا وتدهورت التجارة وتركت الأراضى بغير فلاحه وباتت بلاد فارس فى ظل الأسرة المالكة الساسانية الجديدة عدواً رهيباً يخشى بأسه .

وقد أسر سابور سنة ٢٦٠ الإمبراطور فاليريان . وفى هذه الأثناء ظهر عدو شديد الغدر على طول نهر الدانوب ، وهم القوط ، فقد انحدر هذا الشعب الرهيب من جنوبي السويد — حيث تحتفظ أراضى القوط Gotland حتى الآن باسمهم — وانتشروا إلى الوادى الأدنى لنهر الفستولا حتى بلغوا البحر الأسود . وخلال السنوات التى ظهر فيها الضعف على الرومان أخذوا فى شن غاراتهم على أراضى الدانوب وعلى بلاد اليونان وآسيا فى صورة تشبه الغارات التى شنها الفايكنج على غرب أوروبا بعد قرون من هذا التاريخ . وقد سقط الإمبراطور ديكوس صريعاً فى معركة ضدهم عام ٢٥٠ وفى عام ٢٥٧ قاموا بحملة سلب ونهب بطريق البر والبحر واستولوا على

خلكيدونية ونيقيا ونيكوميدا . وفي عام ٢٥٨ غزا شعب جرمانى آخر هو الشعب الألماني Alamanni إيطاليا نفسها ، ولم يتيسر صده حتى كان قد بلغ ميلانو . ولا غرو وهذه حال الحكومة المركزية من الضعف والوهن أن انفصلت عنها بعض أجزاء الإمبراطورية لتصرف شئونها بنفسها . ففي الغرب أقام بوستوموس Postumus إمبراطورية للغالين ، اعترفت بها القوات المرابطة فى كل من إسبانيا وبريطانيا . وفى سوريا قامت إمبراطورية شرقية قصيرة الأجل أعقبها محاولة كتب لها قسط أكبر من النجاح على يد أذينة Odenath ملك تدمر وقد قام بطرد سابور خارج الولايات الرومانية ونال هو نفسه اعتراف الإمبراطور الرومانى جاليانوس .

وفى عهد جاليانوس (٢٦٠ - ٢٦٨) طرأ هناك بعض التحسن . فقد ألقت قوات احتياطية خفيفة الحركة ولقى القوط هزيمة منكرة قرب نائسوس Naissus (٢٦٧) . ولم يكن الوقت قدحان بعد لاستعادة الأجزاء الضائعة من الإمبراطورية . غير أن الخطوة الأولى قد اتخذت فى هذا السبيل وتبعها خطوات ناجحة أخرى نتيجة لجهود ثلاثة أباطرة إيليريين : هما كلوديوس جوثيكوس (٢٦٨ - ٢٧٠) وأوريليان (٢٧٠ - ٢٧٥) وبروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢) وأصبحت العملة تحمل شعار الفخر الذى يقول « بسالة الإيليرين » (Virtus Illyricorum) . وقد سطعت هذه البسالة بين الجنود وفوق رأس الإمبراطور خلال هذه الحقبة . فقد دحر كلوديوس أثناء فترة حكمه القصير جيش القوط العظيم فى معركتين . وظهر البحر الأسود من سفنهم وعمل على توطين من استسلم منهم فى المستعمرات التى أقامها بأراضى الدانوب . أما أوريليان فقد دفع الغزاة الجرمانين خارج إيطاليا وإلى ما وراء الدانوب وحصن روما بسور هائل يبلغ طوله اثنى عشر ميلا ويحمل اسم أوريليان . وهذا السور يعد فى الوقت الحاضر من أروع

الآثار في روما ويقوم شاهداً على العصر الذي بنى فيه . ثم اتجه أوريليان شرقاً لمهاجمة إمبراطورية تدمر التي أصبحت آنذاك تخضع لحكم الملكة المتألقة الموهوبة زينب Zenobia وحكم ابنها وابلات Waballath . وما لبث أن كسرت شوكة تدمر خلال حملتين شاقتين ثم سقطت المدينة واقتيدت زينب إلى روما أسيرة لكي تسام متاعب القرار الذي قضى بتحديد إقامتها في فيلا هادريان في تيفولي . وفي عام ٢٧٤ لقي الإمبراطور الغالي تريكوس Tetricus الهزيمة واستعيت وحدة الإمبراطورية ورغبة في دعم هذه الوحدة أنشأ أوريليان ديانة رسمية جديدة هي عقيدة الشمس التي لا تقهر التي لها السيادة على الإمبراطورية الرومانية ، . وكان مقدر أن يكون لهذه العقيدة أثر كبير على طبيعة الحكم الملكي في الإمبراطورية لو أن الإمبراطور أوريليان قد أعلن — وهو ما يبدو أنه قد فعل — أن العرش هو منحة من الله وليس من قبيل مجلس الشيوخ أو من الجيش ، ولم يعد الإمبراطور الروماني على ذلك أول مسئول في روما بل أصبح مختاراً من الله . ومن ثم تحولت الإمبراطورية إلى حكومات استبدادية كالتى كانت قائمة في بلاد الفرس . وعلى ذلك فعلى الرغم من أن قطع العملة لدى أوريليان كانت تعلن أنه Restitutor Orbis (مصلح العالم) فإن العالم الذى اتخذ لم يكن هو عالم أوغسطس أو عالم هادريان ، فقد كان ذلك قد ذهب وولى بلا رجعة إبان الفوضى التى اجتاحت القرن الثالث كما أن الإمبراطورية لم تكن تمثل من الناحية الجغرافية أيضاً العالم الذى كانت تمثله فى الماضى لأن أوريليان قد تخلى عن داكيا — وقد كانت آخر الولايات الرومانية فى أوربا التى أقامتها روما ، وأول ولاية تخرج من حظيرتها — واستولى عليها القوط . غير أن الجهود التى بذلها وجهود خليفته بروبوس الذى تابعها ودعمها ضمننت للإمبراطورية فترة جديدة من الحياة . أما عن الصورة التى قدر أن تأخذها هذه الحياة فقد رسمتها إصلاحات دقلديانوس وقسطنطين .

ولطالما ترددت الإشارة إلى أوجه التشابه بين أوغسطس ودقلديانوس . فقد اعتلى كل منهما كرسي الحكم في عالم أنهكته الحروب والمنازعات ، وكان كل منهما يميل إلى الأخذ بإجراءات متطرفة رغبة في صون السلام . وقد تمتع كل منهما بحكم طويل إذ امتد حكم أوغسطس إلى خمسة وأربعين سنة ، وقضى دقلديانوس قبل أن يعتزل منصبه عشرين سنة في الحكم . غير أن المشاكل التي واجهت دقلديانوس كانت تفوق في خطورتها وشدتها المشاكل التي واجهت أوغسطس . كما أن الأمل في التغلب على هذه المشاكل كان ضعيفاً للغاية . فعلى حين أن أوغسطس كان الطبيب الذي يسفر علاجه عن شفاء المريض وتحسن صحته فقد كان دقلديانوس يلعب دور الجراح الذي يقدم على عملية خطيرة لكي يسمح لمريضه بالعيش بضع سنوات أخرى في مستوى ضعيف من الصحة .

وكانت المهمة الأولى التي تواجه دقلديانوس هي أن يضع حداً للانقلابات العسكرية والمنازعات المتصلة من أجل الوصول إلى العرش . ومن ثم جاء نظام الحكم الرباعي الشهير Tetrarchy أو مجلس الأباطرة الأربعة الذين ينبغي عليهم أن يقسموا الإمبراطورية فيما بينهم ، اثنان منهم في مرتبة الأوغسطيين Augusti أو الإمبراطورين الكبارين الذي ينبغي على كل منهما أن يختار قيصراً ينوب عنه . فعندما يموت الأوغسطس أو يحال إلى التقاعد (ويبدو كما لو أن مدة حكم الأوغسطس قدرت بعشرين سنة) يخلفه قيصر تمرس بالفعل على شؤون الحكم . ورغبة في الحيلولة دون قيام الانقلابات على أيدي حكام الولايات الطموحين ، فقد قسمت الولايات إلى وحدات صغيرة — بلغ عددها مائة وحدة تقريباً — وأعيد تنظيمها في اثنتي عشرة دوقية ست منها في الشرق وست في الغرب . وفي كل ولاية من هذه الولايات كانت السلطة المدنية منفصلة انفصلاً تاماً عن السلطة العسكرية . وثمة تنظيم شامل كلي للبناء العسكري بدأه دقلديانوس وأتمه

قسطنطين . وقد رأينا أن من الصواب وصف هذا النظام في صورته النهائية .

ثمة درسان بارزان تمخضت عنهما الكوارث العسكرية التي وقعت في القرن الثالث . الدرس الأول هو أن نظام أوغسطس القائم على مرابطة الجيوش على الحدود لم يعد صالحاً للعمل به إذ أنه لم يكن يوفر قوات احتياطية مركزية ، ولم يكن من الممكن مواجهة خطر يهدد نقطة بعينها إلا عن طريق إضعاف وسائل الدفاع في نقطة أخرى ، أما وقد أصبحت الحقيقة المرة هي ضرورة القتال في عدة جهات كبرى في وقت واحد ، فإن مواصلة العمل بهذا النظام معناه طلب الكوارث والبحث عن المتاعب ، وهذا هو ما أدركه جاليانوس . والدرس الثاني هو تلك الحقيقة العسكرية التي أكدتها الحروب الفارسية والقوطية وهي أن التفوق العسكري قد آل إلى سلاح الفرسان ، فلم يعد للجنود المشاة السيطرة بعد على ميدان المعركة .

وعلى ذلك فقد نظمت أفضل الوحدات من الفرسان والمشاة في قوة ضاربة جديدة تنقسم بدورها إلى كتائب حراسة palatini وإلى وحدات أخرى باسم كوميتاتنسيس comitatenses . وكانت كل من هاتين القوتين تجندان أساساً من بين الجرمانيين والإليريين . وكان للفرسان في كل منهما مركز الصدارة . أما قوات الحدود limitanei فقد أصبحت قوات محلية من الحرس الوطني يختار جنودها من بين أبناء الولاية التي يخدمون فيها . ولم تكن لهذه القوات أية أهمية عسكرية تتعدى كونها سياجاً دفاعياً أمامياً .

ولعله من الواضح أن جميع هذه الإصلاحات قد زادت من ضخامة قواتهم الرواتب التي تدفعها الدولة للجنود زيادة بالغة . فقد قامت هناك في ذلك الوقت قصور أربعة بحاشياتها وأربع عواصم إمبراطورية في كل من نيكوميديا وتريفيس وسيرميوم وميلانو أو روما . وزادت أعداد

القوات المسلحة وهيئة الموظفين ذوى النزعة البيروقراطية المغالية . كيف كان يتسنى دفع رواتب كل هؤلاء حين كانت الدولة قد ضرب عليها الفقر وحين كان الإنتاج فى هبوط وتدهور ؟ لم يكن هناك من سبيل إلا بالاتجاه إلى نظام ضرائبى صارم لا يستطيع أحد أن يقلت منه ، ثم بالاستيلاء على السلع والخدمات لإضافتها إلى ما يتجمع من مال عن طريق الضرائب . وعلى ذلك فلم يكن هناك مفر من أن تقطع إصلاحات دقلديانوس بالإمبراطورية أشواطاً بعيدة فى طريق الدولة الاستبدادية . فقد أجبرت النقابات أو الجمعيات collegia التى توفر الخدمات الأساسية — الخبازون والطحانون وأصحاب السفن ومن شابههم — على تقديم خدمات مجانية للدولة . ولم يكن فى وسعهم تحاشي هذا العمل الذى لا يعود عليهم بأى أجر عن طريق اعتزال عملهم لأنهم كانوا موثوقين إلى مهنتهم مقيدين بها . كما كان ذلك حال أبنائهم من بعدهم . وكان يتحتم على أبناء الجنود أيضاً أن يتبعوا حرفة آبائهم . كما كان المستوطنون فى الضياع العظيمة مرتبطين بأرضهم . والهدف من ذلك هو الاحتفاظ بمعدل الإنتاج الزراعى ثابتاً . وقد أجبر أعضاء مجالس المدن على القيام بدور محصلى الضرائب دون أجر من أجل الدولة . كما كان عليهم أن يسدوا بأنفسهم أى نقص فى حصيلة الضرائب المفروضة على مجتمعاتهم .

وما لبث وضعهم الاجتماعى باعتبارهم أعضاء المجالس البلدية أن أصبح وضعاً منبوذاً مكروهاً من الجماهير ، ثم بات هذا العبء وراثياً أيضاً . ومن ثم فقد نشأ هناك نظام للشيع والنحل يشبه ذلك النظام الذى كان سائداً فى الممالك الشرقية القديمة أو الذى ساد العصور الوسطى . وكان هذا أبعد ما يكون عن الحرية التى كان يتمتع بها المواطن الرومانى فيما مضى . غير أن دقلديانوس نفسه أدرك أن هناك حدوداً لما يمكن أن تفرضه الدولة . فقد حاول فى مرسوم الأسعار الشهير الذى أصدره عام ٣٠١

والذى مهد له — الأمر الجدير بالملاحظة — باستنكار تعدى الانتهازيين على رواتب الجند وسلبهم لها بطريق أو آخر ، أن يفرض حداً للأسعار والأجور فى جميع أجزاء الإمبراطورية . غير أن هذا المرسوم تعذر تطبيقه وتحتم سحبه من جديد وقد قدم لنا هذا المرسوم على أقل تقدير أخطر وثيقة اقتصادية شاملة عن العالم القديم . ومع ذلك وعلى الرغم من جميع الأغللال التى أحاط بها دقلديانوس أعناق الناس فإنه لم يكن طاغية كما لم يكن فى شخصه نزاعاً إلى المطامع الواسعة . فإنه بعد أن قضى فى منصب الأوغسطس عشرين سنة ، اعتزل هذا المنصب كما يقضى النظام الموضوع ، وعاش بعد ذلك فى قصره المقام فى مدينة اسپالاتو Spalato (سبيليت الحديثة) والذى يعد فيما يرجح أنفم المباني الرومانية التى آلت إلينا على الإطلاق . كما أنه حمل زميله ماكسيميان على اعتزال الحكم أيضاً . وكان لاعتزالهما الحكم أهمية بالغة بالنظر إلى أن إصلاحات دقلديانوس قد أضفت على مركز الإمبراطور هالة جديدة من المجد ، فدفعت بذلك التيار الذى كان يتجه إلى نمط من الحكم يشبه نمط الملكيات الشرقية ، وهو ذلك الاتجاه الذى ظهر أول الأمر فى عهد أوريليان ، بل وفى عهد جاليريوس فأصبح الإمبراطور يلبس آنذاك التاج وكان يحاط بمراسيم معقدة مستمدة من نظام البلاط الفارسى . ولم يعد تأليه الإمبراطور بعد وفاته بكاف . فقد زعم دقلديانوس أنه ينحدر عن جوبيتر وادعى ماكسيميان أنه من سلالة هرقل ونادى كونستانتينوس كلوروس Constantius Chlorus والد قسطنطين بانحداره عن أبولو . وهكذا فقد بذل كل جهد لى يصبح الإمبراطور شيئاً مستقلاً يفوق سائر بنى البشر .

وظل نظام الحكم الرباعى قائماً وصالحاً طوال المدة التى كان دقلديانوس يدير فيها دفته ، فقد أمكن صون الحدود وأمكن قمع الاضطرابات التى قامت فى عدة أجزاء من الإمبراطورية بصورة أكثر فاعلية مما لو كان قد قام

بهذا العمل حاكم واحد . وأبرز هذه الاضطرابات كان قيام الإمبراطورية البريطانية على يد كاروسوس Carausius قائد أسطول بحر المانش ، وذلك في عام ٢٨٩ . وقد تم لكونستانتينوس كلوروس قمع هذه الثورة نهائياً عام ٢٩٦ الأمر الذي أبتهج له سكان الولاية . وهناك قلادة ذهبية تخذ ذكرى إغاثة لندن وتدعو كونستانتينوس بأنه Redditor Lucis Aeternae أى الذى أعاد نور الحضارة الرومانية السرمدية ، غير أن هذا الجهاز ما لبث أن تعطل بعد تقاعد دقلديانوس كما أنه من العسير أن يجد المرء أى سبب يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا النظام كان من الممكن أن يبقى بعد اعتزال مؤسسه له . فعلى النقيض مما كان مرجواً من هذا النظام وهو القضاء على المنازعات والمنافسات من أجل بلوغ كرسى الحكم ، فإنه قد نظم من هذه المنازعات وذكى من نيرانها . فقد حدث خلال سنوات الاضطراب التى أعقبت عام ٣٠٥ أن كان يعتلى الحكم فى بعض الأحيان أغاوسة ستة — لأن أحداً من الناس لم يكن ليقتبل تولى منصب القيصر الذى يأتى فى المرتبة الثانية بعد منصب الأوغسطس — ثم هبط عدد الأغاوسة إلى أربعة مرة أخرى . وفى الخطوة التالية أزاح قسطنطين خصمه فى الغرب ، ماكسينتيوس ، فى معركة قنطرة ميلفيان Milvian (٣١٢) كما تخلص ليسكينتيوس من خصمه فى الشرق ، وظالت الشركة المزعزعة بين قسطنطين وليسكينتيوس قائمة حتى عام ٣٢٣ عند ما انتصر قسطنطين بعد سلسلة من المعارك الكبيرة فى الجولة الأخيرة واستحوذ لنفسه على الجائزة المنشودة ، إذ أصبح الحاكم الوحيد للعالم .

وتعد أعظم المشاكل السياسية أهمية فى عهد قسطنطين هى تلك التى تتصل بعلاقاته مع الكنيسة المسيحية . ولقد كان للقرارات التى اتخذها خطراً بالغاً فيما يتعلق بنتائجها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية وللعالم أجمع . وعلى الرغم من الاعتقاد الشائع ، فإن اضطهاد الحكومة الرومانية للمسيحية

لم يكن كثير الحدوث ، كما لم يكن واسع النطاق . غير أن المسيحية لم تكن عقيدة مسموحاً بها religio licita وتلوث سمعة معتنقيها بالنظر إلى أنهم يرفضون تقريب الذبائح إلى المعبودات الرسمية نيابة عن الإمبراطور . ومن ثم فقد كانت المسيحية عرضة للشك والريبة على الدوام ، بل كانت هدفاً للهجوم أثناء المحن والأزمات وعندما تدعو الحاجة إلى وجود ضحية ينحى عليها باللوم أو كبش للفداء . ولقد رأينا ما وقع للجالية المسيحية في روما وقت نشوب النيران في المدينة في عهد نيرون . وكان بليني قد طالب من تراجان النصيح بما يتبع في معالجة أمر المسيحيين في بيشنيا . وكان رده هو أنه لا ينبغي أن تجرى تحقيقات أو محاكمات أو يلتفت إلى البلاغات المجهولة . أما من يبلغ عنهم بالطريقة الرسمية ويجرى معهم التحقيق وتثبت إدانتهم فينبغي عقابهم إذا ما ظلوا يرفضون عبادة الآلهة الرومانية .

لقد كانت هذه هي عصور التسامح والتحرر ، غير أن مثل هذا التسامح لم يظهر خلال كوارث القرن الثالث . فقد وقع اضطهاد مفرج في عهد ديكْيوس عام ٢٥١ وفترة أخرى أخرى من الاضطهاد في عهد فاليريان عامي ٢٥٧ و ٢٦٠ غير أن هذه الاضطهادات واستشهاد بعض الأفراد على فترات متباعدة لم يكن ليقت في عضد الديانة المسيحية أو يضعف من الإيمان بها ، بل إن دماء الشهداء كانت على العكس من ذلك هي في واقع الأمر بذور الكنيسة النامية . وما إن حل عام ٣٠٠ حتى كانت تقوم الكنائس المسيحية في جميع الولايات كما أضحى الكنيسة أقوى منظمة في الإمبراطورية ، ينضوي تحت لواها ما يقدر فيما يبدو بعشرة في المائة من سكان الإمبراطورية . وكانت الاضطهادات الكبيرة الأخيرة التي جرت تحت حكم دقلديانوس ، على الرغم من أنها كانت ترجع إلى حد كبير إلى نفوذ جاليريوس ، هي آخر محاولة لسحق المسيحية . ولم يكن قسطنطين أو أبوه يوليوس القائمين بالاضطهاد ثم إنه بعد معركة قنطرة ميلفيان أصبح مستقبل الكنيسة يبشر بأعظم الآمال ،

وتغير بذلك كلية عما كان يبدو عليه قبل وقوع هذه المعركة . وفي عام ٣١٣ أعلن مرسوم ميلانو حرية العبادة للجميع وأحال الكنائس إلى منظمات مشروعة . وقد أبدى قسطنطين منذ ذلك التاريخ حتى نهاية حكمه تحيزاً نحو المسيحية في كل ناحية من النواحي . فقد عمل على إصدار تشريعات في صالحها . وكان يشترك في مراسيمها ، وترأس مجمع نيقيا عام ٣٢٥ وشيد كاتدرائتي القديس يوحنا لا تيران والقديس بطرس في روما إلى جانب الكنائس العظيمة الأخرى وأسس العاصمة المسيحية الأولى ، ألا وهي القسطنطينية ، ودخل سر المعمودية المسيحي وهو على فراش الموت .

ولقد قامت هناك المجادلات التي لا تنتهي حول ما إذا كان تأييده للمسيحية ، يرجع إلى إيمانه الشخصي أو إلى ضرب من الانتهازية السياسية . ولكننا نعلم على أقل تقدير ما قاله قسطنطين نفسه إلى أوسيبوس ، أسقف قيصرية . فإنه في أثناء زحفه في جراحة على إيطاليا لتجدي قوات ماكسينتيوس التي كانت تفوق قواته إلى حد بعيد ، عدداً وعدة ، تراءى له الصليب في السماء وقد كتبت عليه عبارة *In hoc signo vincas* أي بهذه العلامة تغلب أعداءك . وظهر له المسيح في حلم في تلك الليلة وأكد له أن النصر سيكون حليفه . ولقد ظفرت قواته بانتصاراتها ضد ماكسينتيوس كما خاضت الحرب ضد ليسكيونيوس فيما بعد تحت الراية الشهيرة باسم لا بروم *Labarum* وهو اللواء الذي يحمل شارة الصليب . وبعد أن تم له النصر النهائي ، أعلن قائلاً : « إنني الوسيط الذي رأى الله أن من الملائم الإفادة من خدماته لتحقيق مشيئته » وعند ذلك نظر قسطنطين إلى المسيح على أنه مانح النصر كما لم يجب ظنه في ذلك قط . وكان ينتظر من المسيحية أن تكون أساساً للوحدة لا في داخل الإمبراطورية فحسب ، بل مع هؤلاء الذين يقطنون فيما وراء الحدود فيما يبدو أيضاً . ولكنه في هذه النقطة غاب أمله ، لأن المسيحية في ذلك الوقت كانت نهبا لطائفة من البدع ، مما يفسر

حرصه على القضاء على بدعتى دوناتس وآريوس على الرغم من أن الإمبراطورية لم تحتم المذهب الأرثوذكسى على الجميع إلا بعد مضى خمسين سنة على هذا التاريخ ، وذلك تحت حكم ثيودوسيوس . ولم يكن من الممكن إعلان ذلك فى عصر قسطنطين حين كانت العقائد الوثنية ما زالت قوية وبخاصة فى روما . وكان عليه أن يلزم طابع الغموض المتعمد الدقيق فى سياسته الدينية للأسباب ذاتها التى دعت الملكة اليبسابات الأولى إلى ذلك فى إنجلترا . وإن الأشباح القائمة التى خيمت على عهد اليبسابات من جراء إعدام الملكة ماري الأسكتلندية تضاهيها الظلال السكتية التى اكتنفت حادثتين تبالغان الغاية من البشاعة ، وقعتا فى عهد قسطنطين وهما إعدام ابنة كريستوس فى أول الأمر ثم إعدام الإمبراطورة فوستا زوجته بعد ذلك .

وقد تأسست مدينة القسطنطينية لى تواجده الحاجة المحلية إلى إيجاد عاصمة للقسم الشرقى من الإمبراطورية . ولقد لعبت نيكوميديا هذا الدور فترة من الزمن ولكنه كان من الواضح أن تأسيس مدينة جديدة سيكون له فى المدى البعيد ميزات كبرى على أية مدينة قائمة بالفعل . فقد دار الحديث فترة من الوقت حول المشروع القديم الذى كان يهدف إلى إعادة تأسيس طروادة . كما اتجهت النية كذلك إلى اتخاذ نايسوس ، مسقط رأس قسطنطين ، عاصمة للإمبراطورية الشرقية غير أن المزايا الطبيعية الكبيرة التى يتمتع بها موقع القسطنطينية هى التى ظفرت بالقبول فى النهاية . فى هذه البقعة يعبر الطريق البرى العظيم الذى يصل ما بين الدانوب وآسيا الممر المائى الممتد بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط ، ولو أن ذلك لم يكن فيه الكفاية فإن القرن الذهبى التى تحيط به اليابسة يهىء واحداً من أصلح المرافق الطبيعية فى العالم . وقد جاء وصف كل ذلك فى فقرة رائعة كتبها جييون ، يجدر على أى دارس للتاريخ الرومانى أو للنثر الانجليزى أن

يقرأها . وكانت تحتل هذا الموقع منذ وقت بعيد المستعمرة اليونانية المزدهرة بيزنطة Byzantium غير أن المدينة الإمبراطورية الجديدة قد طغت عليها . وأن هذه المدينة لتعد بحق أول مدن العالم الكبرى . وقد بدأت أعمال البناء عام ٣٢٥ وافتتحت المدينة رسمياً في الحادى عشر من مايو سنة ٣٣٠ . ولما كانت هذه المدينة قد كرسن للثالوث الأقدس والسيدة العذراء فقد كانت مؤسسة مسيحية . غير أن نظمها كانت رومانية الطابع فى كل نواحيها إلى حد توزيع جرايات من الغلال على سكان المدينة الفقراء . كما أن مكتبتها ومتاحفها جعلت منها قلعة من قلاع الحضارة الهيلينية . وكان شعبها المختلف الأجناس يضم عدداً كبيراً من المتحدثين باللاتينية الوافدين من أراضى الدانوب ومن إيطاليا أيضاً . وعلى الرغم من أن اسم القسطنطينية ما لبث أن حل محل الاسم الذى اختير لها وهو « روما الجديدة » فقد ظل سكانها يدعون أنفسهم باسم الرومانيين (Romaioi) حتى النهاية .

وهكذا بدأت القسطنطينية رسالتها النبيلة باعتبارها محقلاً للمسيحية وقاعدة للحضارة القديمة ، وهى الرسالة التى حملتها خلال كثير من الاضطرابات حتى ذلك اليوم المشؤوم وهو التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣ وهو تاريخ استيلاء الأتراك عليها .

وتمت خدمتان أخريتان قدمهما قسطنطين إلى الدولة ، حقيقتان بالثنوية ، الأولى - إذا كان فى الوسع أن نعزوها إليه وليس إلى دقلديانوس - هى إقامة مجلس شورى جديد وهو الكونسيتوريوم consistorium الذى كان جميع رؤساء المصالح الكبرى أعضاء فيه . وكان المجلس القديم المعروف باسم كونسيليوم consilium يتألف فى غالبية من أعضاء يعينهم الإمبراطور . والخدمة الثانية هى الإصلاح الذى أدخله على العملة - وهو التعديل الثالث منذ عهد أورليان - وذلك بإدخال قطعة ذهبية ثابتة القيمة هى السوليدوس solidus . وقد أثبتت هذه القطعة الذهبية ثبات قيمتها

وقدرتها على الصمود في عالم يحتاجه التضخم المالى وتسوده الأزمات الاقتصادية المتفاقمة . وفيما عدا ذلك فلم يستطع أى من دقلديانوس أو قسطنطين أن يقدم أى قدر من العون لمواجهة المشكلات الاقتصادية . وزادت وطأة الضرائب أضعافاً مضاعفة وتضخم النظام البيروقراطى وازدادت فساداً وعجز عن أداء واجبه . وإن هناك تناقضاً يثير الرثاء بين الطابع الإنسانى الذى ساد بعض التشريعات المتأخرة مثل مجموعة قوانين ثيودوسيوس التى صدرت تحت التأثير المسيحى ، وقسوة العقوبات ووحشيتها المتزايدة حيال محاولات خداع خزانة الدولة والمرافعة من مطالبها الجشعة . ولكنه على الرغم من فشل دقلديانوس وقسطنطين فى النواحي الاقتصادية فإنهما قد دعمتا الدولة وشدا من أزرها ، بل إنهما أسهما فى عودة مستوى لا بأس به من الرخاء . وقد قدر لحالة الرخاء النسبى هذه أن تبقى قائمة حتى سنة ٣٥٠ تقريباً .

بيد أن الأحداث ما لبثت أن تحولت تحولاً مروعاً إلى عواقب وخيمة . ففي أول الأمر وقعت كارثة جرها الرومان على أنفسهم وهى ذلك الصراع الذى نشب بين كونستانتينوس الثانى وماجنتيوس *Magnentius* مغتصب عرش الإمبراطورية الغربية . وشهدت معركة *Mursa* عام ٣٥٣ الهزيمة أرقى جيوش الإمبراطورية يخوضون غمار مذبحه مشتركة . وثمة كارثة أخرى جرها الرومان على أنفسهم أيضاً على نحو ما إذ أنها قد نشأت عن ميل لا ينقطع إلى الهرطقة التى منيت بها الكنيسة المسيحية طوال القرن الرابع . ولم يستطع مجمع نيقيا الذى دعا إليه قسطنطين ليرسى قواعد الوحدة فى الكنيسة ، أن يضع حداً لبدعة آريوس القوية . وقد ذهب الأمر إلى أن قسطنطين نفسه جنح إلى ذلك الاعتقاد فى أواخر سنى حياته . أما كونستانتينوس فقد كان أكثر إيجابية فى تأييدها ومساندتها . وقد قدر للنزاع الذى قام بين المذهب الأرثوذكسى ومذهب آريوس (الذى

أنكر أن طبيعة الاين كانت هي ذات طبيعة الأب) أن يسفر بالنسبة للإمبراطورية عن النتائج الوخيمة ذاتها المتمثلة في الصراع والتفكك التي أسفرت عنها المنافسة بين المذهب الكاثوليكي والمذهب البروتستنتي خلال حرب الثلاثين بالنسبة لأوربا . وكان الكاثوليكون من البرابرة خارج حدود الإمبراطورية قد اعتنقوا مذهب آريوس . وكان من بين هؤلاء القوط والفرنجة . وكانت خيبة الأمل في المسيحية هي السبب في قيام رد الفعل الوثني القصير الأجل الذي ساندته جوليان المرتد (٣٦٠ - ٣٦٣) . وليس بغريب أن يصور التاريخ المسيحي جوليان في صورة الخصم الأعظم ، ولكنه كان في الواقع بطلا من الأبطال الذين هم على شاكله يبرون أي أنه كان شاباً يافعاً ممتلئاً بالحس ، نزاعاً إلى الثورة ما له أن يموت ميتة مبكرة في سبيل قضية خاسرة . ذلك أن التيار الوثني الجديد لم يكتسب الكثير من الأنصار : أما محاولته في أن يقتني في حكمه أثر ماركوس أوريليوس ، وقد بعث من جديد في شخصه ، فقد كانت محاولة يائسة للعودة بعجلة التاريخ إلى الوراء . أما من الناحية السياسية فقد قدم الإمبراطورية خدمة جليلة بأن طهر بلاد الغال من غزو قام به الفرنجة والألمانيون . غير أن حملته ضد بلاد الفرس كانت سيئة التنظيم ضعيفة القيادة . وقد دفع جوليان حياته ثمناً لها . أما بالنسبة للإمبراطورية فقد خسرت بذلك آخر جيش يمكن لها أن تعبثه من أجل القتال في الشرق . أما عن حكم جوليان وخليفته فالينتينيان (٣٦٤ - ٣٧٥) الذي تلاه بعد إمبراطور واحد ، فعملوا ماتنا عنه وفيرة . ويرجع الفضل في ذلك إلى أميانوس ماركيلينوس Ammianus Marcellinus وهو المؤرخ الكبير الوحيد الذي جاء بعد تاكيوس .

وقد عمد فالينتينيان إلى تجنب المشكلات الدينية إذ أنه كان في شغل شاغل عنها بغزوات البرابرة الجديدة التي كانت تفوقها خطورة . وإن

الهجوم العظيم الذى وقع على بريطانيا عام ٣٦٧ إنما يدلنا على النطاق الكبير التى كانت تجرى عليه هذه الغزوات بالذات . فقد وقع هجوم موحد التوقيت من جانب الأيرلنديين والبيكتيين والساكسون على الولاية ، لعبت فيه المخبرات دوراً كبيراً فى مجال تنسيق الخطط . فاكتمت الحصون والمواقع الدفاعية وتعاون جنود الحدود مع الغزاة وسقط نكتاريدوس Nectaridus الذى كان يشغل منصب كونت الشاطئ الساكسونى ، كما سقط فولوفوديس Fullofaudes دوق بريطانيا وقائد الجيش المقاتل صريعين فى مراكز قيادتهما . ولا بد أن أجريكولا كانت ستستبد به الدهشة لاسميهما البربريين كما كان سيدهش أيضاً للواجبات الدفاعية الأساسية الملقاة على عاتقهما . غير أن الموقف قد استعيد من جديد على يد ثيودوسيوس والد الإمبراطور المقبل الذى يحمل نفس الاسم . وعادت من جديد الحاميات فوق سور هادريان ، على الرغم من أنها كانت تتألف من ذلك الصنف الجديد من الجنود ألا وهو طائفة الجنود الفلاحين .

وفى عام ٢٧٥ أى فى تلك السنة التى توفى فيها فالنتينيان ظهرت قلاقل جديدة على حدود الإمبراطورية المخاذية لنهر الدانوب . وكان الهانيون وهم شعب بدوى مقاتل معروفون من زمن بعيد لدى الصينيين باسم هسيونج Nu-Hsiung . وقد أقيم سور الصين العظيم لصد هذا الشعب نحو عام ٢٠٠ ق م) كما استطاعت الأسر الصينية المماليكة القوية أن تصون الحدود . وأدى ذلك إلى أن اتجه الهانيون صوب الغرب لى ينشئوا لهم دولة قوية فى تركستان شمالى جبال تين شان ، ودفعتهم أراضى الاستبس المترامية ناحية الغرب إلى ما وراء بحر آرال وبحر قزوين . وفى عام ٣٧٥ انقضوا كالسيل الجارف على مملكة القوط بين نهري دنيستر والدانوب فقوضوا أركانها . وفى عام ٣٧٥ ظهر جزء من شعب القوط ، تحت السلاح ، على نهر الدانوب ، وطلب الدخول إلى حظيرة الإمبراطورية . فأجيبوا إلى طلبهم ولسكنهم لم يلبثوا

أن شكوا من الضغط الواقع عليهم وراحوا يغيرون على مقدونيا . فاستدعى الإمبراطور فالينس الجيش المقاتل بالشرق لمواجهةهم . ولكنه منى بالهزيمة ووقع صريعاً في التاسع من أغسطس سنة ٣٧٨ على يد القوات القوطية وذلك بالقرب من أدريانول . ولقد كانت هذه المعركة كما قال أميانوس « كارثة تستعصى على العلاج ، كلفت الدولة الرومانية غالياً » .

وكان السبب في أن معركة أدريانوبل الخاسرة مستعص علاجها هو أن الإمبراطورية لم تعد قادرة على أن تعوض خسائرها اعتماداً على مواردها . فقد قام الإمبراطور الذي بقي على قيد الحياة وهو جراتيان Gratian باستدعاء ثيودوسيوس لانقاذ ما يمكن إنقاذه . ولكن هذا الأخير اضطر إلى عقد الصلح مع القوط ومنحهم كثيراً من المناصب الخطيرة داخل الإمبراطورية وسلم الدفاع عن الدانوب لقوات قوطية (foederati) تعمل تحت إمرة قوادها . أما ما كانت تعنيه عبارة الجيوش الرومانية في تلك الحقبة فيظهر في وضوح وجلاء من معركة سيسكيا Siscia (٣٨٣) ، فقد قاد ثيودوسيوس ماكسيموس الذي حاول الاستحواذ على الإمبراطورية الغربية جيشاً يتألف من القوط والألانيين والهانيين للانتصار على جيش غربي يتألف من الغالين والبريطانيين والجرمانيين الذين يعدون آخر الممثلين الحقيقيين للجيش الروماني القديم . وكان من بين قواد ثيودوسيوس أربوجاستيس Arbogastes وهو من الفرنجة ، وقد أصبح فيما بعد رئيساً للجنود magister militum لدى إمبراطور الغرب فالينتيان الثالث . وقد قدر لهذا المنصب أن يكون أكبر مصدر للسلطة في المرحلة الأخيرة للإمبراطورية الغربية . ولكنه عند ما حاول أربوجاستيس مساندة الحزب الوطني في روما وإيطاليا لإقامة إمبراطورية إمامة من لدنه كسر ثيودوسيوس شوكته في معركة فريجيدوس Frigidus بالقرب من أكويليا (٣٩٤) . وبعد هذه المعركة هجرت الطقوس الوثنية وتحولت المعابد الوثنية في الغرب

إلى متاحف . وكانت هذه هي نهاية الوثنية باعتبارها قوة سياسية . وكان انتصار ثيودوسيوس للمذهب الأرثوذكسي أن أدن إلى إضعاف مذهب آريوس في الشرق إلى حد كبير . وهكذا استحق عن جدارة لقب «الكبير» الذي خلعه عليه التاريخ المسيحي كما خلعه على قسطنطين . وكان عصره عصر ازدهار للفن المسيحي والأدب المسيحي وعصر بناء الكنائس في روما (مثل كنيسة القديس يولس « بغير الأسوار ») وفي ميلانو . وكان القديس أمبروز أسقف ميلانو وطليعة رجال الكنيسة العظام الذين ظهروا في العصور الوسطى ، وذلك عندما حمل الإمبراطور على التكفير عن تصديه من الفظائع التي ارتكبت في مذبحه تسالونيكي .

غير أن ثيودوسيوس كان آخر من تولوا الحكم في إمبراطورية موحدة . إذ أن الإمبراطورية قسمت إثر وفاته (٣٩٥) بين ابنه هو نور يوس Honorius على الغرب وأركاديوس Arcadius حاكماً على الشرق . ولم يقدر لذين النصفين أن يلتصبا قط إلا في فترة قصيرة وفي أجزاء دون أجزاء نتيجة لفتوحات جستينيان في القرن السادس . وكانت آخر مرحلة للانحلال قد حلت حينئذ بالغرب ، فقد كان جميع أباطرة تافهين لا حول لهم ولا طول . فأما هو نور يوس فكان يربي الدواجن ، وورقي جليسيكيوس Glycerius من منصب الإمبراطور إلى منصب أسقف سالوناي Salone . وقد بلغ منصب الإمبراطور من التفاهة وهو ان الشأن أن استطالت عهود بعض الأباطرة إلى درجة بعيدة . فقد تولى هو نور يوس الحكم ٢٩ سنة . وبقي فالتنين الثالث إمبراطوراً مدة واحد وثلاثين عاماً ، وطلب للأمن نقل البلاط إلى مدينة رافنا Ravenna وهي مدينة حصينة تقع وسط منطقة من المستنقعات فضلا عن كونها ميناء يمكن الجلاء منه على وجه السرعة إن لزم الأمر . وأصبحت إدارة الأقاليم في يد مجلس الشورى consistorium الذي كان على الدوام ضعيف الرأي وإن كان يبعد القدرة من وقت لآخر على

أن يضرب فريقاً من البرابرة بفريق آخر . أما السلطة الحقيقية فكانت في قبضة رؤساء الجند *magistri militum* . وقد كان جميعهم من البرابرة ذوى الأطماع الذين لا يؤمن جانبهم . أما أوربا الوسطى والشمالية فقد كانت تحتاحها دوامة تتمثل في أخطر الهجرات الجماعية التي وقعت في التاريخ . وكان القوط قد اخترقوا حدود الإمبراطورية ، ولم يكن من المعروف أين ستكون وجهتهم . لقد كانت الإمبراطورية أشبه بحوت عظيم قامت في وجهه وأبطأت من سيره شذمة من القتلة هم البرابرة الذين أطلبقوا عليه ليزقوه إربا . وقد اجتاح القوط بلاد اليونان ثم انتقلوا بعد ذلك إلى إليريكوم . وعندما هاجموا إيطاليا صدقهم قائد عظيم هو استيليكو *Stilicho* الذى كان يحتل منصب رئيس الجند لدى هونوريوس ، غير أن حصون الراين قد انهارت في الليلة الأخيرة من عام ٤٠٦ م أمام جيحافل الفاندال والألان والسويبيين الذين تدفقوا إلى بلاد الغال وزحفوا إلى ماورائها حتى إسبانيا . وكانت بريطانيا قد انقطعت صلتها بالفعل عن الإمبراطورية إلى ما لا نهاية فيما يرجح ، على الرغم من أن بعض المؤرخين يعتقدون أن الوضع قد عاد إلى ما كان عليه فترة وجيزة من الزمن بين عامى ٤١٠ و ٤٤٦ . وعندما اغتيل استيليكو عام ٤٠٨ م بناء على أمر هونوريوس الذى جانب فيه الحكمة والصواب ، لم يعد هناك ما يعترض طريق القوط إلى إيطاليا ، وكان لاستيلاء آلاريك *Alaric* على روما فى عام ٤١٠ م صدى رهيب فى جميع أنحاء العالم . فقد تساءل الناس قائلين : «وما نفع أضرحة الرسل إذن؟» . ولقد كان هذا تساؤلاً يمس نقطة بالغة الحساسية بالنظر إلى أنه قبل ما لا يزيد على جيل واحد أزيح شمال «النصر» من قاعة مجلس الشيوخ على الرغم من احتجاج الوثنيين الشديد ودعوتهم إلى المحافظة على التقاليد والإبقاء على رمز الحظ والتوفيق الذى تمتعت به روما فترة طويلة من الزمن . أما الرد المسيحى على هذا التساؤل فقد قام به أوغسطين فى كتابه « مدينة الله » الذى دلى فيه على أنه ليس بهذا العالم موطننا لمدينتنا الراسخة على مر الزمن . بيد أنه

على الرغم من أنه لم يكن ثمة أمل في نهضة ما إلا أن نهاية روما لم تكن قد حانت بعد . وتجاوز آلاريك روما متجها صوب الجنوب ، ولقى حتفه في كالابريا Calabria . وقد شجع ذلك القوط على العودة إلى بلاد الغال وفتحها من جديد ، لصالح الإمبراطورية . وعندما تزوج أتولف Ataulf ملك القوط جالابلا كيديا Galla Placidia ابنة ثيودوسيوس بدا كما لو أن القوط قد أصبحوا هم حماة الإمبراطورية البرابرة الذين يقومون بدورهم خير قيام . واقتسم بونيفياكي Boniface الكونت على إفريقية وآيتيوس Aëtius رئيس الجند في إيطاليا ما تبقى من الإمبراطورية في الغرب . ولسوء الحظ دب ديب الخلاف بينهما ، وإثر هزيمة بونيفياكي استولى الفاندال على إفريقية وأقاموا مملكة قوية مقرها قرطاجنة . ثم أعقبت ذلك أشد غزوات البرابرة رهبة ، ألا وهي غزو الهانين بقيادة ملكهم آتيلا Attila الملقب « بسوط الله » . وبعد أن اكتسح آتيلا إليريكوم ، عبر نهر الراين وتوغل في بلاد الغال عام ٤٥١ . فجدد آيتيوس ضده جماعة مؤلفة تتضمن جميع انغزاة السابقين لبلاد الغال وهم القوط والفرنجة والبرجنديون والألانيون والأموريكانيون بالإضافة إلى ما بقي من الجيش الإمبراطوري ، وتمكن هذا الخليط العجيب من إيقاع الهزيمة بالهانين عند « شالون سيرمارن » Châlons-sur-Marne وهي أول معركة على نهر مارن ترتقى إلى مصاف المعارك الحاسمة في العالم . وعندما قام آتيلا بغزوة أخرى في العام التالي ، رد على أعقابه من جراء خليط أعجب من الخليط السابق قوامه عوامل متباينة كالذهب والصلوات والرهبنة التي أثارها البابا ليو Leo والافتقار إلى معدات الحصار واضطراب تفكير البرابرة . ولكن الهانين محقوا أكويليا ومحوها من الوجود قبل رحيلهم . وأسس اللاجئون الذين فروا من المدينة قرية كانت هي الأصل الذي نشأت عنه مدينة البندقية . وفي عام ٤٥٣ مات آتيلا . وهكذا مضت لحظة الخطر الداهم ولم يكن يقدر لأوربا أن تصبح أقصى ولاية في الإمبراطورية المغولية جهة الغرب . فلم يكن هناك من شخص

أحق من آيتيوس بالغرب ، وقد فاز بجائزته وهي أنه أعتيل على يد
فاليثينيان الثالث .

وتتابعت الأحداث في الإمبراطورية الشرقية بعد وفاة ثيودوسيوس
على نفس النمط الذي سارت عليه الأحداث في الغرب إلى حد كبير . لقد
كان هو نوريوس يربى الدواجن وهنا رأينا أركاديوس ينسخ المخطوطات .
كما أن السلطة وقعت في الحالتين في قبضة رؤساء الجند البرابرة . غير أنه قد
قامت مذبحه طيبة للقوط . عام ٤٠٠ . وعقد السلام مع الفرس وأمكن درأ خطر
الهانين فترة من الزمن عن طريق أداء الجزية لهم . وكان رحيلهم إلى الغرب
ضربة عظيمة من ضربات الحظ بالنسبة للقسطنطينية . ثم حدث في عام
٤٥٧ أن تمخض الشرق - الأمر الذي لم يتسن للغرب بعد ثيودوسيوس -
عن إمبراطور قوى قدير في شخص ليوا الأول . وقد استطاع أن يدعم قوة
الغرب إلى الحد الذي يمكنه من القيام بهجوم على إفريقية تمهيداً لإعادة
فتح الغرب . بيد أن الفاندال وقفوا في طريقه . وهكذا أفلتت الفرصة منه ،
غير أن مغزى هذه الحملة لم يخف على القواد البرابرة الذين كانوا يسيطرون
على الغرب . فقد خرجوا منها بدرس نافع . وهكذا فعندما بدأ أن مارجوريان
Marjorian يليق بهذا الدور في فترة من الزمن خلع عن عرشه (٤٦١)
وتلته سلسلة من الأباطرة الضعاف القصيري الأجل تحت إشراف ريكيمر
Ricimer رئيس الجند . وفي النهاية عثر أودواكر Odoacer على حل موفق
فقد خلع الإمبراطور الغلام رومولوس أوغستولوس Romulus Augustulus
وحمل مجلس الشيوخ على إصدار قرار مؤداه أنهم يرتضونه رئيساً للجند في
إيطاليا . وأعيدت أبهة الإمبراطورية إلى القسطنطينية . وكانت الإمبراطورية
الغربية قد بلغت نهايتها ، فلم تعد الدولة الرومانية تعيش إلا في العالم الذي
تحكمه القسطنطينية وفي أذهان البشر .

وعلى الرغم من ذلك فإن المعاصرين لهذه الفترة لم يكونوا يعتقدون أن

سنة ٧٦٤ ؀ تمثل نقطة تحول . والواقع أن إجراء أودواكر قد صان وحدة الإمبراطورية على نحو ما بالنظر إلى أنه حفظ إيطاليا الإمبراطور زينو Zeno وهو الإمبراطور الروماني في القسطنطينية: ولعل وحدة الدولة الرومانية كانت شبحا ولكنه كان من الأشباح التي يصعب تهديتها . فقد أعاد بالفعل الإمبراطور جستينيان في القرن السادس كيان الدولة الرومانية من جديد لفترة من الزمن بغزوه إفريقية وإيطاليا وصقلية وقسم من إسبانيا . وبعد زوال سلطنة بيزنطة في الغرب كان تنويج شارلمان باعتباره إمبراطورا رومانيا عام ٨٠٠ هو أصل تلك الظاهرة الغربية ألا وهي الإمبراطورية الرومانية المقدسة للشعوب الجرمانية ، وهي وإن لم تكن مقدسة أو رومانية أو لها صفة الإمبراطورية على الإطلاق فقد بق اسمها على أقل تقدير حتى عام ١٨٠٦ حين نبذه فرانسيس الثاني Francis II مفضلا عنه لقب إمبراطور النمسا . وإن شئنا قسطا أكبر من الواقعية لقلنا إن مكانة البابوات العظام مثل جريجورى وهيلدبراند Hildebrand وإنوكنت Innocent الثالث هي التي كانت توحى بدوام سلطة روما في العصور الوسطى . ثم قامت في القرن العشرين الإمبراطورية الرومانية الحديثة على يد موسوليني .

ولكنه ينبغي على المؤرخ أن يقف في ثبات وألا يروج للأوهام والخيالات فلو قام أحد بإنكار أن سقوط الإمبراطورية الغربية وقع في عام ٤٧٦ ؀ ففي وسع المؤرخ أن يستند إلى حجة غير معهودة . فعندما ناشد كل من رومولوس وريموس عام ٧٥٣ السماء لكي تبعث لهما بعلامة تدل على من يقوم منهما بتأسيس المدينة الجديدة فاز رومولوس بتسجيل اثني عشر نسرا مقابل ستة نسور لمنافسه ، وتبني هذه النسور الاثني عشر وفق الأساطير الغيبية الرومانية بأن حياة روما ستمتد إلى ١٢٠٠ سنة . والحقيقة أن الفترة بين ٧٥٣ ق م و ٤٧٦ ميلادية هي ١٢٢٩ سنة ، ومن ثم فإن معدل الخطأ ليس جسيما .

الفصل الثالث عشر

الثقافة القديمة والمسيحية : ١٤ - ٤٧٦ ميلادية

ليس من اليسير بأى حال من الأحوال أن نسيغ طابع الوحدة والتماسك على تاريخ الإمبراطورية الثقافى . فالحقيقة أنه على الرغم من أن الأدب اليونانى يكاد لا يحوى اسماً واحداً لكاتب فى المرتبة الأولى ، فإن تياره لم ينقطع منذ عهد أوغسطس حتى القرن الرابع . أما بالنسبة للأدب اللاتينى فالأمر يختلف عن ذلك . فإن العصر الفضى للأدب اللاتينى الذى يبدأ بموت أوغسطس لا يمتد إلى ما بعد موت هادريان فى عام ١٣٨ . وبعد ذلك التاريخ يظهر أبوليوس Apuleius وفرونطو Fronto فى عهد الإباطرة الذين ينحدرون عن انتونينوس Antonines ثم خيم سكون مطبق طويل ، ثم وقع للأدب انتعاش أخير فى القرن الرابع فى عهد أميانوس ماركيلينوس Ammianus Marcellinus وكلاوديان Claudian وأوسونينوس Ausonius . ولهذا السبب تختتم المدارس والجامعات دراستها للأدب اللاتينى بتا كيتوس Tacitus وجوفينال Juvenal وهما آخر كاتبين من الكتاب اللاتينيين « الكلاسيكيين » حقاً . ولكننا لو أردنا أن نضع قائمة الكتاب اللاتينيين الذين خلف إنتاجهم أعظم الأثر على الإنسانية ، فهناك اسم ثالث ينبغى أن يوضع إلى جانب شيشيرون وفيرجيل وهو اسم أوغسطين Augustine . ففيه امتزجت التقاليد القديمة والتقاليد المسيحية فى أسمى مستوياتهما . فما من مؤلف لاتينى حظى بالقراءة فى إلحاح ودون انقطاع مثلما حظيت الترجمة اللاتينية للإنجيل المعروفة باسم Vulgate التى قام بها جيروم Jerome . ويؤكد هذان المثلان القويان ، فى حد ذاتهما ، أن الموضوع الرئيسى فى تاريخ الإمبراطورية الثقافى منذ القرن الثانى وما تلاه

هو التفاعل الذى تم بين المسيحية والثقافة القديمة فى الدين والفلسفة والفن والأدب على حد سواء .

ولكن بوادر هذا الصراع الثقافى الهائل لم تظهر قبل عهد الأباطرة المنحدرين عن أنتونينوس . وقد استمد الأدب اللاتينى الذى ظهر فيما بين عهدى أوغسطس وهادريان ، أصوله من أدب عصر الجمهورية المتأخر وعهد أوغسطس كما تطور وفقاً للأحوال التى كانت سائدة فى أوائل عصر الإمبراطورية . وكانت أهم هذه الظروف هى تأثير البلاغة والشهرة الطاغية التى كان يتمتع بها بعض كتاب العصر الذهبى ، ولا سيما فيرجيل وقيام حكومة إمبراطورية كان لها أن تتخذ إجراءات عنيفة رادعة ضد الكتاب الذين كانت لا ترضى عنهم . وتجتمع هذه العوامل على صبغ الأدب فى هذه الفترة بصبغة موحدة اصطلاح على تسميتها « اللاتينية فى عصرها الفضى » . والفضة معدن نفيس يأتى فى المرتبة الثانية بعد الذهب مباشرة . وقد أنجب العصر الفضى كتاباً ذوى مكانة رفيعة . فى الإمكان مقارنة تاكيتوس وجوفينال بأى كاتب آخر من لونهم فى أى عصر من العصور . كما أن لوكان Lucan وبترونيوس Petronius وسينيك Seneca ومارشال ، على سبيل المثال لا الحصر ، يعدون من الكتاب الجديرين باهتمام القارئ من أجل ذواتهم من ناحية ولما كان لهم من تأثير على الأدب فى العصور التالية أيضاً .

وإذا كان المرء يحس فى أغلب الأحيان أن هذه الفضة لم تكن خالصة نقية بل مجرد غشاء سطحي يغلف معدناً رخيصاً آخر ، فمرد ذلك إلى أثر البلاغة على أدب ذلك العصر . وقد رأينا كيف بدأت البلاغة تطغى على التعليم الرومانى فى عهد أوغسطس وكيف تظهر آثارها واضحة فى شعر أوفيد Ovid كما تبدو فى سعيه الدائم فى سبيل التأثير على القارئ بالاتجاه إلى الأمثال والأقوال المأثورة ثم إلى الطباق والجناس ، والاستعراض

اللغوى أيضا . وكانت هذه المحسنات هي التي تؤهل للحصول على الدرجات النهائية في المسابقات التي تعقدتها مدارس البلاغة . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هذه المحسنات تطبق على موضوعات لا تمت إلى أنواع بصلية ، كما هو الحال مع القصص الخيالية التي تدور حول الفضاء الخارجي في العصر الحديث . ويشكو بترونيوس من ذلك بقوله « إنهم يتعاملون دائماً مع حكام طغاة يأهرون الأبناء بقطع رؤوس آبائهم ، أو نبوءات تطالب بالتضحية بثلاث عذارى فإذا ما كان هذا هو غذاؤهم الذهني على الدوام فما هي الفرص المتاحة لهم لتعلم الإدراك السليم ؟ ولا بد أن نقرر هنا أن الإدراك السليم لم يكن هو طابع جانب كبير من المؤلفات اللاتينية في العصر الفضي . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الميول التي تدعها وتذكها المدارس البلاغية كانت تنميتها أيضاً التلاوات العامة . وفي ذلك المجال كانت تقوم الشهرة وتبقى راسخة على الدوام ، وفي ذلك المجال أيضاً كان كل شيء يهدف إلى المظاهر لا الجوهر . فقد كان الجمهور يريد أن يشعر بقشعريرة تسرى في بدنه إذ يستمع إلى ما هو مفزع مرعب وأن يحمل معه الآراء السديدة والأقوال المأثورة ، والأبيات الجارية بالحكمة والفقرات التي يتلاعب الكاتب فيها بالألفاظ بما يثير الدهشة والغرابة في النفوس . وفي مثل هذه المباريات الكلامية لم يكن ينال التصفيق والإعجاب سوى الضربات الحاسمة .

ولكن لو تقبلنا تقاليد تلك الفترة (كما هو الحال بالنسبة لفن المعمار الغربي الذي ظهر في العصور الوسطى) ففي وسعنا أن نستمد قدراً كبيراً من المتعة من أكثر المؤلفات اللاتينية التي ظهرت في العصر الفضي . وقد وجدت فقرات معينة مثل انجلترا في العهد الأليصاباتي واليعقوبي أن هذه المؤلفات تبلغ من الطرافة حداً يجعلها مصدراً رئيسياً من مصادر الوحي . ويصدق ذلك على التراجميات التي وضعها سينيكا (وعاش من ٥ ق م

إلى ٦٥ ميلادية) التي كان لها على المسرح في كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا
تأثير أكبر من مؤلفات أيسخيلوس Aeschylus وسوفوكليس Sophocles
التي تفوقها جمالا وروعة . فإننا لا نخلص من قراءة مسرحية ثيستيس
Thyestes إلا بمعرفة الموطن الذي انحدر عنه تيتوس أندرونيكوس
Titus Andronicus . وكان على ثيستيس كما تقضى الأسطورة أن يأكل
لحم بنيه ولكن سينيكاً يصف كيف أن لحم هذا قد طهى ، كما يصور
ثيستيس متجشماً . وإن العالم الذي يصوره سينيكاً غاصاً بالأشباح والقتل
والخيانة والانتقام يوشك حقاً أن يبلغ حد السخف المزرى . ولكن كم يبلغ
عدد الجثث في مسرحية هاملت ؟ لقد رأينا أخيراً أن مسرحية مثل
أندرونيكوس يمكن تقديمها على خشبة المسرح . كما أن قراءة مسرحية من
مسرحيات سينيكاً التراجيدية في عهد نيرون لم تكن تخلو من متعة وعمق .
أما عن مؤلفاته الفلسفية فهي أعسر على الفهم . فإن الصور الخلقية
والمواعظ الأدبية التي أوردها سينيكاً مثل صورة الزاهد الرواقى الذي
احتفظ بثروته لأن الثراء العظيم لا يختلف من حيث أثره على الفضيلة عن
الفقر المدقع والمؤلف الذي كتب بحثاً عن الرحمة De Clementia في حين
أن قسوته في المطالبة بما له من ديون قد عجّلت من قيام ثورة بوديكا
Boudicca ، لم يكن لها أن تجتذب السامعين ، إن اعتمدت فحسب على
بلاغة الأسلوب . ولكن من الممكن تذوق قصيدته المسماة أبوكولوكينتوسيس
Apocolocyntosis وهي قصيدة هجائية مؤداها أن الإمبراطور كلاوديوس
قد تحول إلى « قرعة » بدلا من تحوله إلى إله ، وذلك لما تنطوى عليه من
فكاهة وإن لم يكن بوسعنا أن نتغاضى عن النغمة المستهجنة السائدة فيها .
إذ أن ناظم هذه القصيدة هو أحد الشعراء الذين كانوا من صنيعة كلاوديوس
وقد وضعها للتسرية عن قتلته . ولكن سينيكاً نفسه عندما حكم عليه بالإعدام
لاشترائه في مؤامرة ضد بيزو Piso استطاع أن يختم حياته بخاتمة
مشرفة ضرب فيها المثل للبلاء الرومان في عهد نيرون ودوميتيان .

ويمكن أن نحقق قدرا أعظم من النفع من قراءة لوكان Lucan وهو ابن أخيه الذى لقي المصير ذاته وهو فى السادسة والعشرين من عمره. ويتناول مؤلفه بعنوان « الحروب الأهلية » إحدى القضايا الكبرى فى التاريخ الرومانى ألا وهى الصراع بين قيصر وأنصار الجمهورية ، من وجهة نظر أولئك الذين كانوا يعطفون على الجانب الخاسر فى هذا الصراع . وهو يصور فى براعة فائقة تمسك كاتو Cato الشديد بأهداب الفضيلة والخلق ونشاط قيصر الخبيث ، وعلى حين أن معالجته لأحداث الحرب تتميز بطابع يمنح إلى المزج بين ما هو مبهج وما هو محزن فى الوقت ذاته إلا أنها فى بعض الأحيان ترتفع إلى مستوى المأساة . وقد تصدى لأحد الطغاة وذلك قبل أن يقضى نحبه ، كما أوحى لغيره من الناس بقتل الحكام الطغاة .

أما عن الملاحم الأخرى فى الأدب اللاتينى فى عصره الفضى فليس فى إمكاننا أن نذكر عنها سوى النذر اليسير . وقد تخير سيليوس ايتاليكوس Silius Italicus الحديث عن الحروب البونية وهو موضوع طيب ولكن لم يفعل بعد ذلك أكثر من نظمه لأطول قصيدة كتبت باللاتينية (وعاش بين ٢٦ - ١٠١) وألف فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus (الذى توفى عام ٩٠) عن أسطورة بحارة أرجوس . وقد ذهب البعض إلى القول بأن مستوى معالجته لقصة حب ميديا وياسون Medea-Jason يعد أرفع من مستوى أبولونيوس Apollonius الرودى الذى كان فاليريوس يتخذة نموذجا له فى هذه القصة بل تجاوزوا ذلك إلى القول بأنها أرفع أيضا من معالجة فيرجيل لقصة أينياس Aeneas وديدو Dido ... ياله من ذوق غريب ! أما ستاتيوس Status (عام ٤٥ - ٩٦) الذى نظم قصائده فى عهد دوميتيان فقد نظم ملحمة طيبية Thebaid فى ستة كتب وملحمة أخيليلوس Achilleid فى كتابين ، وقد نعم بشعبية فى عصره وعده دانتى Dante فى مصاف فيرجيل وأوفيد . وقد وجدت ملاحمه عددا ضئيلا

من القراء في العصر الحديث واكن بعض قصائده القصيرة مثل الرياض
Silvae تجد مكانها دائماً في أية مختارات من الشعر اللاتيني .

و يعد مؤلف بيترونيوس Petronius الساخر بعنوان Satyricon من
أروع المؤلفات في عهد نيرون . وما آل إلينا لا يعدو جزءاً من قصة ضخمة
عن المتشردين تتناول المغامرات التي قام بها ثلاثة من الشباب المنجل في حانات
وموائى إيطاليا ومواخيرها . وأكثر مقطوعاتهم شهرة هي المقطوعة المعروفة
باسم كينا تريمالخيونييس Cena Trimalchionis وهي قصة هزلية صاخبة
تصف حفل عشاء يقيمه غني محدث الثراء . وقد أبدع الكاتب في أسلوب
الكشف عن هذه الشخصية الضاحكة بأن سمح لها فحسب بأن تتحدث عن
نفسها . وهو لا يعدو شخصية واحدة من عدد كبير من الشخصيات التي
كانت كلها شائنة السمعة وإن لم تكن منفرة تماماً ، ولكن بيترونيوس أحالها
شخصية حية ماثلة للأذهان .

وكان مرتيال Martial (٤٠ - ١٠٤) — في النطاق الذي رسمه
لنفسه — من أكثر الشعراء الرومان براعة . فهو يتميز بالفطنة والرشاقة
والحس المرهف كما تعرض كتبه الاثنا عشر التي تضم مقطوعات عن الحياة
في روما في عهد دوميتيان صوراً تنبض بالحياة . ولا يقصيه عن المرتبة
الأولى من الشعراء سوى افتقاره إلى القيم الخلقية وإلى شعور
بالكرامة الشخصية .

ولعله ليس هناك من بين العديد من شعراء العصر الفضي الذين
ضاعت أعمالهم من هو ادعى إلى أسفنا من الشاعر البيروفانوس يبدو
Albinovanus Pedo . وقد عاش في عهد تيبيريوس وكتب عن حملة
جيرمانيكوس Germanicus إلى المياه الشمالية . وقد بقي من هذه القصيدة
ما يقرب من عشرين بيتاً . وتتميز هذه الأبيات بطابع فريد أصبحت معه
هذه القصيدة من بين أشد المنظومات تشويقاً في الأدب اللاتيني . ولم سيكون

رائعاً لو أمكن الحصول على هذه القصيدة لتوضع إلى جانب تلك القصائد التي تسجل رد الفعل الذي ظهر لدى أبناء أوروبا تجاه قارة أمريكا الجديدة قبل أن يتم ارتيادها .

وقد تعرضنا من قبل إلى الرسائل التي تبودلت بين بليني وتراجان والتي تمثل أحد كتب بليني العشرة الخاصة « بالرسائل » Epistles . عاش بليني (من عام ٦١ إلى نحو عام ١١٤) حياة عامة مرموقة . وكان يمتلك ضياعاً كبيرة في شمال إيطاليا . وتصور رسائله عالم الأقاليم الذي يتميز بروحه العامة وإن كان لا يمثل أية قيم أدبية ذات بال ، بحيث يبدو متناقضاً أشد التناقض مع حياة العاصمة المتألقة . وقد حقق كوينتيليان Quintilian (نحو عام ٣٥ — ٩٥) وهو أول من تولى كرسى البلاغة في روما ، ذلك العمل الفريد ، وهو الكتاب المتزن الذي وضعه عن التعليم ، وذلك على الرغم من أنه لم يستطع أن يتجنب طابع الملل الذي يفرضه عليه منصبه التعليمي هذا في مؤلفه بعنوان « النظام الخطابي » الذي يتألف من اثني عشر كتاباً .

وكان تاكيتوس Tacitus وجوفينال Juvenal هما آخر الكتاب اللاتين التقليديين ممن يحتلون المرتبة الأولى . فكل منهما يكشف عن خصائص الأدب اللاتيني في عصره الفضي ولكنه يتجاوز حدوده أيضاً بصورة إن تتأقن لأي كاتب آخر . وقد كتب كل منهما إبان العهد السعيدة لكل من تراجان وهادريان ولكنهما أصيبا بصدمات لا يمحي أثرها من جراء طغيان دوميتيان . وإننا لانعرف الكثير عن حياة تاكيتوس فيما خلا انتسابه إلى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ ، ولكنه في حياته العامة احتل منصب القنصل (عام ٩٧) وولى على آسيا (عام ١١٢) كما قد اقترن بابنة أجريكولا Agricola . وكان أول مؤلف تاريخي له بمثابة تاريخ لسيرة حاه . ويعد هذا المؤلف من أعظم السير التي كتبت في العصر القديم ولكنه

لا يشبع نهم الباحث في موضوع بريطانيا الرومانية التي يتحدث عنها تاكيتوس حديثاً مشمراً مفيداً ولكنه كان بوسعها أن يفيض في الحديث ويسترسل فيه ويعرض من جوانب الحياة في بريطانيا الرومانية أكثر مما فعل . ولكن هذه الولاية لم تكن تثير اهتمام تاكيتوس إلا باعتبارها صورة خلفية تبرز أعمال أجريكولا الفذة وانتصاراته الضخمة . أما عما كتبه عن توزيع السكان وعاداتهم وعن تضاريس ولاية جرمانيا ، فقد كان أوفر مما سبق تفصيلاً مما جعل للمؤلف أهمية ثابتة على الزمن باعتباره الوثيقة التاريخية الأولى التي كتبت حول ألمانيا . وثمة جانب طريف أيضاً يختص بهذه الوثيقة ويمكن في أنها المرة الأولى التي ظهر فيها موضوع «الهمجي النبيل» . وبما يدعو إلى الأسف أنه قد قام على أساسه جانب كبير من الهراء في القرن التاسع عشر حيث جرى الحديث عن منابع الديمقراطية في غابات جرمانيا . وكانت هذه الرسائل والمقالات تمهيداً لمؤلفاته التاريخية الكبرى وهي التاريخ Histories التي تعالج الأحداث التي جرت بين عامي ٦٩ و ٩٦ ، ثم المؤلف العظيم التالي وهو «الحوليات» Annals التي تعالج الفترة الممتدة من وفاداً وغسطس إلى موت نيرون . وإذ إنه ليجتدل بهذين المؤلفين مكانه بين أساطين الكتّاب . وثوكيديديس Thucydides هو الوحيد الذي يقف معه على قدم المساواة في قدراته على المعالجة الدرامية . كما أن مؤلفات تاكيتوس باتت بمثابة ينبوع متدفق اغترف منه كتاب المسرح المتأخرين . ومهما قيل عن قدرته على النقد وضيق نطاق اهتماماته وأفق المحدود أو عن تحيزه الدائم ضد الإمبراطورية وكل ما يتعلق بها فإن أحداً من الدارسين لتاكيتوس لا يمكن قط أن تفوته تلك القوة الطاغية التي تسكن في شخصية تاكيتوس وفي نظراته إلى الأمور . ففي أي موضوع من الموضوعات يجد المرء في نفسه اهتماماً وحافزاً على أن يعرف ما سوف يقوله تاكيتوس وعلى أي نحو سيعرب عما دار بخله . وحياتة تاكيتوس تقوم على أساس مخطوط واحد يمثل خير مؤلفاته التاريخية العظمى .

أما جوفينال (نحو عام ٥٠ حتى عام ١٢٧) فقد كان وضع الأصل مما لا يرتقى به إلى مرتبة تاكيتوس ، فقد انحدر عن أسرة برجوازية كانت تعيش في بلدة أكوينوم Aquinum بالأقاليم . وكانت آماله في أن ينخرط في سلك حياة عامة مرموقة قد عصفت بها الأنواء وهو ما يزال في ميعة الصبا . وقد ذاق طوال الجانب الأعظم من حياته مرارة الاعتماد في معاشه على أحد النبلاء في روما . ويبدو أن الإمبراطور هادريان قد منحه في شيخوخته شيئاً من المعاش الأمر الذي تدل عليه تلك اللهجة اللينة المخففة التي تبنت في كتاباته الأخيرة . بيد أن « تلك الغضبة النارية الجامحة » (saeva indignatio) التي اتسمت بها باكورة مؤلفاته هي التي ترفعه بالفعل إلى مصاف كتاب مثل « فولتير » و « سويفت » . وإن قصيدته الهجائية الثالثة التي تتحدث عن حياة البؤس والشقاء التي يعيشها الفقراء في روما والتي تعتبر استنكاراً صارخاً لما وصفه لويس مومفورد « Lewis Mumford » بالعاصمة التي تجرى فوق مسرحها أحداث الحياة الإنسانية ، كما أن القصيدة الساخرة السادسة التي تدور حول مبادئ النساء ورجالهن والقصيدة الهجائية العاشرة التي تدور حول بطلان الآمال الإنسانية ، وانعدام جدواها ، إن هذه كلها نالت المجد والشهرة عن جدارة واستحقاق ، كما ظهر لها كثير من المقلدين . بيد أن صفات جوفينال وخصائصه لا تظهر فيما يبدو في أي موضع آخر كما تظهر في القصيدة الهجائية التاسعة التي تصف اجتماعاً لمجلس الإمبراطور دوميتيان الخاص . والمناسبة التي اجتمع المجلس من أجلها مناسبة مضحكة ساخرة إذ اجتمع ليقرر كيف يتم له التخلص من سمكة « ترسة » كبيرة ، إلا أن وصفه لأذئاب الطغاة وبطاتهم يبلغ حد الكمال . ويتمثل أحد هؤلاء الأذئاب في مخبر « في وسعه أن يجز الرقاب بهمسة من شفثيه » وآخر يظهر كشيخ دمث الخلق رقيق الطباع يعزى طول أجله إلى أنه لم يسبح ضد التيار قط . ولم يمنح دوميتيان فيما جرى من حوار ، الحاضرين سوى

عبارة واحدة لا تعدو ملاحظة عادية لرئيس مجلس من المجالس ، غير أن المرء ليحس مع ذلك بإحساس مفرغ بأنه خبيث ما كر ، قوى صارم . وكان تاكيتوس وجوفينال يمثلان شخصين قويين وأصيلين حتى إنه لم يظهر بعدهما من يخالفهما . بيد أن المؤرخين يدينون بالفضل إلى سويتونيوس Suetonius ؛ نحو عام ٦٩ حتى عام ١٤٠) . وقد كان يشغل وظيفة أمين للمحفوظات بحكومة الإمبراطورية تحت حكم هادريان . وقد كان في متناول يده كثير من الوثائق التي يمكن أن نطلق عليها عنوان « مواد مفرسة » . أما عن « سير القياصرة الاثني عشر » فإن هذا المؤلف على الرغم من أنه لا يرقى ، إلى حد بعيد ، إلى مستوى مؤلف بلوتارخ ، إلا أننا نجد فيه عوناً في كل ما أغفل تاكيتوس ذكره .

ولعله من الأصوب أن نذكر هنا السكاتبين الإفريقيين فرونتو Fronto وأبوليوس Apuleius على الرغم من أنهما لا ينتسبان إلى العصر الفضي للأدب اللاتيني . والحقيقة أن فرونتو ، أشهر خطباء عصره ، كان هو مبدع « الأسلوب الجديد » (elocutio novella) الذي قدر له أن يطغى على أدب العصر الفضي والذي كان في حد ذاته مزيجاً غريباً من الأسلوب القديم الدارس والأسلوب العامي وقد تم اكتشاف الرسائل التي تبادلها مع تلميذه ماركوس أوريليوس في سنة ١٨١٥ . غير أن الأسلوب الجديد يظهر في أرق صورة أدبية له وأجملها في مؤلف أبولبيوس (ولد سنة ١٢٣) الذي يحمل عنوان « الميتامورفوسيس » Metamorphoses أو عنوان « الحمار الذهني » . وهذه هي القصة اللاتينية المطولة الوحيدة التي وصلتنا كاملة وهي تحوى الأقصوصة الشعبية القديمة الوحيدة التي تدور حول كيوبيد وبسوخي Psche . وتعتبر هذه القصة التي تصور مغامرة شخص يدعى لوكيوس بعد أن قلب إلى جحش ، نوعاً من الأدب الرمزي إذ تلعب في ذلك إلى أسرار الإلهة إيزيس وإنها في أسلوبها ومضمونها إنما تمثل مؤلفاً من أعظم المؤلفات طرافة في اللغة اللاتينية . كما أن هناك ترجمة رائعة حديثة لها .

وقد أدى الرخاء الاقتصادي الذي عم الولايات الشرقية خلال القرن الأول كما أدى أيضاً فيما يبدو ما كان يكنه أباطرة من أمثال نيرون وهادريان من هوى وميل إلى الحضارة الهلينية إلى إحياء الأدب اليوناني . وترتبط حركة الإحياء هذه في بعض نواحيها بمرحلة « السفسطائية الثانية » وهذا الاصطلاح يستخدم للدلالة على أوجه النشاط التي أصبح يمارسها نوع جديد من الخطباء والمحاضرين الجوالين . وقد نال هؤلاء الرجال ثراء كبيراً وصيتاً ذاتعاً من وراء ظهورهم بين الجماهير ووقوفهم للخطابة والمحاضرة في مدن الشرق العظمى ، بل ومدن إيطاليا والغال . ولعل علمهم كان سطحياً وربما لم يكونوا يحيطون بغير القشور من المعرفة غير أن بلاغتهم كانت عميقة الأثر في النفوس . كما أن شخصياتهم العامة كانت قوية أخاذة ، اكتسبوها بعد طول دربة ومران . وكان هؤلاء بمثابة مزيج من المحاضرين في الجامعات والمعلمين الصحفيين والشخصيات التي تظهر على شاشة التلفزيون في العصر الحديث . كما كانوا يشبهونهم أيضاً في قيامهم في بعض الأحيان باستعراضات كلامية تأخذ بالألباب غير أنهم كانوا يتناولون في أحيان أخرى قضايا خطيرة . وكثير من أشهر هؤلاء المحاضرين والخطباء المتجولين لا يمثلون لدينا سوى أسماء مجردة ولكن بوسعنا أن نحكم على علمهم استناداً إلى الخطب الثمانين التي بقيت لنا من ديو خريستوم Dio Chrysostom (من عام ٤٠ إلى نحو عام ١١٢) والخمسة والخمسين خطبة لأيليوس أرسطيديس Aelius Aristides (وحاضر في روما سنة ١٥٦ . ومن الخطب الشهيرة الخطبة التي ألقاها ديو في حضرة تراجان والتي دارت حول النظام الملكي وكذلك تقرير أرسطيديس لروما . أما فيما عدا هاتين الخطبتين اللتين حظيتا بالاهتمام فإن هذه الطائفة من المؤلفين لم تلق غير الإهمال على الرغم من أن مؤلفاتهم تعد مصدراً ثميناً من المصادر التي تصور حياة العالم اليوناني في عصرهم . وقد وجد هؤلاء السفسطائيون أن لهجة كويني Koine العامية أى اللهجة اليونانية السائدة في الولايات الشرقية

لا تلائم أغراضهم مما أدى إلى إحياء اللهجة الآتيكية في ميدان الخطابة والادب .

وهذه اللهجة الآتيكية إنما تظهر في أروع صورة لها في مؤلفات لوكيان من ساموساتنا في سورية (وولد حوالي عام ١٢٠) وكان من أشد الكتاب الفكاهيين نجاحا في العالم القديم . وكان لوكيان سفسطائيا في مرحلة بعينها من مراحل حياته ولكنه اشتغل بعد ذلك بالفلسفة وكتب المحاورات Dialogues الساخرة التي تقوم عليها شهرته . وتبين « محاوره الموتى » والرحلة إلى القمر التي وردت في مقطوعة بعنوان « التاريخ الحقيقي » على أسلوبه في مهاجمة النزق والذيلة عن طريق السخرية بهما .

أما بلوتارخ من خيرونيا (من حوالي عام ٤٦ إلى عام ١٢٠) فإنه قد اتبع الأسلوب المخالف لذلك وهو أن يزين للفضيلة ويقربها من الآلباب . وكان كاتباً غزير الإنتاج غير أن كتابا واحدا من بين كتبه هو الذي خلف تأثيراً كبيراً وهو الكتاب الطيب الذي يحمل عنوان « سير متماثلة لإغريق ورومان » وقد كان مؤلفه عن السير المتماثلة ، شأن كتاب « سير عظماء الرجال في كبرى أمم العالم » من الكتب التاريخية المفضلة للقراء في أوروبا إبان عصر النهضة . وقد وجد الأمراء في هذه السير نفعا كبيرا باعتبارها هاديا ومرشداً لهم في سلوكهم كما حالف هذه السير التوفيق بأن وقع لهما مترجمون ماهرة مثل أميوت Amyot في فرنسا ونورث North في إنجلترا . ومما يذكر أن شكسبير قد استمد فكرته عن العالم الروماني من ترجمة نورث لبلوتارخ بصفة رئيسية . وثمة مؤرخان قديران قد كتبا عن روما وهما المؤرخ آبيان Appian في عهد أنطونينوس ، وديوكاسيوس Dio Cassius في عهد الاسكندر سيفيروس . وكتب آريان (وسطح نجمه حوالي عام ١٤٠) وهو يوناني من بيثينيا غير أنه كان حاكما لإحدى الولايات الرومانية وقائداً قديراً ، تاريخاً للاسكندر الأكبر يعد أوثق وأصدق تاريخ بين أيدينا .

ولم يحرز الرومان أى تقدم علمى فى عهد الإمبراطورية غير أن جهوداً
مبارة عظيمة قد كرست لأعمال التجميع والتصنيف والحقيقة أن هذا
الجد والمثابرة هو أعظم فضيلة يتحلى بها مؤلف « التاريخ الطبيعى » الذى
وضعه بليني الأكبر . وقد أطلق على هذا المؤلف « مختصر جميع أخطاء العالم
القديم » وهى التسمية التى اكتسبها مؤلفه بالنظر إلى ذبوعه الكبير خلال
العصور الوسطى . وثمة خطأ جسيم واحد هو الذى شاب مؤلف الفيلسوف
الإسكندرى العظيم بطليموس (حوالى ١٥٠) الذى كان معروفاً فى العصور
الوسطى تحت عنوانه العربى « المجسطى » ، والذى روج للنظرية القائلة بأن
الأرض هى مركز الكون حتى أطاح بها كوبرنيكوس . كما كان لجغرافية
بطليموس — سواء من ناحية مميزاتها أو أخطائها أثر كبير على عطاء
المكتشفين فى عصر الاكتشافات الجغرافية . ومن شأن الكاتب حين يصبح
عمدة فى موضوع بعينه أن يتحول إن آجلاً أو عاجلاً إلى عقبة تعرقل طريق
المعرفة، غير أن من الواجب أن نعتز بفضل بطليموس علينا من أجل هذا
المؤلف الثمين ويصدق هذا القول على كل من كلسوس Celsus وغالين
Galen فى الطب وديوسكوروديس Dioscorides فى علم النبات .

ولم تأت الفلسفة بمجديد ، فإن مدارسها فى كل من أثينا والإسكندرية
وغيرهما من مراكز العلم كانت تجتذب إليها الطلاب والدارسين وتشرح
لهم المذاهب القديمة التى تلقتها هى عن السلف . وكان الكلبيون يدعون إلى
القيم الخلقية السائدة فيما سموه « فلسفة الفقراء » وذلك فى الأسواق وفى
ميادين المدن اليونانية . وكان المذهب الكلبي بمثابة جناح يسارى للمذهب
الرواقى ، وكان له تأثير كبير على كثير من الرواقيين فى ذلك العصر مثل
إبيكتيتوس Epictetus . وفى روما لم يكن غير المذهب الكلبي هو الذى
يحتل مكانة ذات بال فى أوائل عصر الإمبراطورية . وكانت الصلة الوثيقة
بين المذهب الرواقى وحزب المعارضة فى مجلس الشيوخ الرومانى فى القرن
الأول هو التزام تقاليد بروتوس وكاتو . غير أن ذلك لا يقضى بالضرورة

بوجود تحالف بين المذهب الرواقى والمعارضة . وفيما بعد عهد دوميتيان أخذت الرواقية جانب الدعوة إلى استقرار النظم الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، وهو ما يعرف بالإنجليزية باسم Establishment . وقد كانت الرواقية هى التى وضعت الأفكار الخاصة بالنظام الملكى التى استوحاها كل من تراجان وهادريان التى أقامت أحد الرواقيين على عرش الإمبراطورية ، يتمثل فى شخص ماركوس أوريليوس . وتمثل المؤلفات الرواقية الضخمة لنا فى كتابات سينيكا وموسونيوس روفوس Musonius Rufus وفى كتيب ابيكتيتوس ، وفى مؤلف ماركوس أوريليوس بعنوان « تأملات » . أما ابيكتيتوس فهو أقربهم جميعاً إلى إثارة فضولنا وتشوقنا . وكان ابيكتيتوس قد أقام بعد أن كان عبداً فيما سبق ، طرده دوميتيان من روما ، مدرسة فى نيكوبوليس Nicopolis اجتذبت إليها الباحثون من جميع الطبقات . وكان يقوم بتلقين مبادئ خلقية صارمة تثير الحمية فى النفوس وتهيب البشر لمواجهة أى موقف من المواقف بالإيمان والثقة بال العناية الإلهية . ووجود الله كان يتأكد بالنسبة للرواقيين عن طريق العقل وهو أهم جزء فى الإنسان . أما آخر المدارس الكبيرة من مدارس الفلسفة التقليدية ، ألا وهى المدرسة الأفلاطونية الجديدة ، فقد قامت على أساس من الجانب الصوفى السكامن فى أفكار أفلاطون وكان داعية هذه المدرسة الأول هو أفلوطين Plotinus (٢٠٥ - ٢٧٠) الذى كان يقوم بالتدريس فى روما فى عهد جالينوس . ويعد مؤلفه الذى يحمل عنوان « طوائف الآلهة » Enneads من بين كتب التصوف العظمى .

وقد نادى بسمو الله واستعلائه وبأنه هو العقل الخالص الذى لا يمكن أن يدركه غير العقل وحده فيقول : « لمتد بعقولنا إليه سبحانه فى صلاتنا لأن هذا هو السبيل الوحيد الذى نستطيع به أن نرفع صلاتنا إليه وحده . الإله الأوحده . ولا يتيسر هذا الامتداد بالعقل إلا عن طريق الرياضة الروحية التى يمارسها الناسك الذى تتمثل جائزته الكبرى فى « رؤيا النعي » .

التي نالها أفلوطين ثلاث، مرات في حياته . وقد حظيت الأفلاطونية بكثير من الأتباع في القرنين الثالث والرابع كما أن فنون العصر تصور «الفيلسوف» عادة وقد رفع بصره إلى السماء في تأمل واستغراق . لقد أصبح الفيلسوف معلماً دينياً .

ولقد كان من الطبيعي أن تنتهي الفلسفة بالدين في عصر كان الدين فيه يستأثر شيئاً فشيئاً بالكثير من عقول البشر وطاقاتهم . ويقوم عدد هائل من النقوش التي عثر عليها في كافة أنحاء العالم الروماني شاهداً على آلاف العبادات والعقائد التي ازدهرت في ظل ديانة تؤمن بتعدد الآلهة وتطرق سبيل اليسر والتساح . فلم تحتف الآلهة الوطنية التي كانت تؤمن بها الشعوب الكلتية والجرمانية والإسبانية ، فقد اكتسبت هذه الآلهة كما اكتسبت عبديتها الطابع الروماني بصورة أو بأخرى ، كما كان لها أيضاً تحت قناعها الجديد أن تجتذب في كثير من الأحيان العبداء الرومانيين الذين كانوا يعادلون بينها وبين الآلهة المعروفة بالفعل . وهكذا قام مذهب التوفيق بين العقائد المختلفة المعروف باسم « سونكريتيزم » Syncretism وهو يعد من أبرز الظواهر الدينية للإمبراطورية في عهدها الأول . وقد يتخذ هذا المذهب صورة زواج إلهي كأن تقترن الآلهة الكلتية روزمرت Rosmerta إلهة التجارة بنظيرها الروماني الإله ميركوري Mercury . وقد يتخذ في أحيان أخرى الإله المحلي اسماً رومانياً كما كان يفعل العدد العديد من عبديته . وهكذا فقد كان الإله مارس بيلاتو كادر Mars Belatucader وهو يمثل اندماجاً بين إله الحرب الروماني ومثيله الكلتى تقام له شعائر العبادة في منطقة صغيرة محدودة بالقرب من سور هادريان . أما عن المدى الكبير الذي يمكن أن تبلغه هذه الحركة القائمة على إدماج العقائد المختلفة فذلك ما يؤكدته مثال آخر من بريطانيا . ففي مدينة ليدنى وفوق تل منخفض يطل على نهر سيفرن أقيم معبد لمعبود كان يعرف في اللغة الكلتية باسم نودنس Nodens وهذا الاسم يبدو من الناحية اللفظية قريباً من اسم أحد آلهة البحر

الآيرلنديين . وليس هذا بغريب لأن تيار نهر سيفرن الجارف الذي يمرق بجانب مدينة ليدنى يمكن له أن يكون إلهاً عظيماً القوة والسلطان . غير أن الرومان قد وحدوا بينه وبين إله الغابات سلفانوس . وليس في ذلك ما يدعو إلى الغرابة أيضاً فهو من هذه الوجهة سيكون إله الصيد في غابة « دين » Dean ، ومع ذلك فإن أعمال التنقيب الذي أجراها السير موتمر هويلو Mortimer Wheeler في المباني القائمة في نطاق المعبد تدل على وجود عقيدة تختص بعلاج الأمراض لها جوانب مثل العلاج بطريق « النوم في المعبد » وهو ما يظهر أيضاً في عبادة اسكولا بيوس في مدينة إيديداوروس . وليس هذا هو كل ما في الأمر ، فإن تصميم أرضية المعبد يشبه إلى حد بعيد تصميم أرضية الكنائس في عهد المسيحية الأول ، ولو أن القرائن التاريخية تشير إلى تاريخ إحياء الديانة الوثنية في عهد جوليان . وهكذا امتزجت المظاهر الدينية الكلتية والرومانية واليونانية في عبادة نودنس وسيلفانوس .

غير أن مثل هذه العبادات لم تكن تحظى بغير أهمية محلية كما كانت وظائفها محدودة . كما أنها — بقدر ما نعلم — لا تستطيع أن تمنح العابد قدراً كبيراً من الحياة الدينية . والمظهر الهام حقيقة للقرنين الأول والثاني هو انتشار الديانات الشرقية العظيمة التي تستأثر بإعجاب كثير من أقطار العالم . ولقد أضحنا بالفعل كيف وفدت عبادات كيبيلي Cybele و باخوس Bacchus وإيزيس إلى روما في أواخر عهد الإمبراطورية ، وكيف أنها اصطدمت في بعض الأحيان بعباد الحكومة . أما في ظل الإمبراطورية فلم يعد لهذا العداء وجود . فقد شجع كاليجيولا على عبادة المعبودين المصريين إيزيس وسيرايس كما ضمهما إلى قائمة عبادات الدولة . وهذا ما فعله أيضاً الإمبراطور كلوديوس بالنسبة للإلهة كيبيلي التي لم يعد كهنتها محصورين فحسب في المعبد المقام على جبل بالاتين . وكانت تتميز كلتا العبادتين بالطقوس المعقدة البالغة الفخامة والأبهة . وكانت تقام في معابد إيزيس

طقوس يومية ، كما تقام الاحتفالات الكبيرة ذات الطقوس البالغة الروعة في مواسم معينة من السنة . ويصف لنا أبوليوس عيد سفينة إيزيس Navigium Isidis في الخامس من شهر مارس حيث يلبس المحتفلون الأفعنة ويسرون في مواكب رائعة وحيث تنزل إلى الماء السفينة المقدسة . ويقال في بعض الأحيان إن هذا العيد هو الأصل الذي نشأت عنه الاحتفالات التنكرية في مدن البحر المتوسط .

وفي شهر نوفمبر كان يجري احتفال « العثور على أزوريس » مع ما يصاحبه من مشاهد درامية مقدسة تمثل الموت والبعث . وكان هناك احتفال آتيس Attis الربيعي ، وهو أعظم الاحتفالات في عبادة كيتيلي . ويستغرق هذا الاحتفال اثني عشر يوما (من ١٢ مارس إلى ٢٥ منه) ويختتم بنوبة من الطرب والمرح والقصف والعريضة في عيد هيلاريا Hilaria (عيد البهجة) . ولقد كرس الباحث البلجيكي العظيم فرانتس كيومنت Franz Cumont حياته كلها لإبراز أهمية هذه الديانات الشرقية جميعها التي كانت طلائع للديانة المسيحية . وليس بوسعنا هنا إلا أن نورد وصفا كاملا بعض الشيء لأهم هذه الأعياد قاطبة ألا وهو عيد ميثراس Mithras . . . وقد انتشرت عبادة ميثراس في العالم الروماني خلال النصف الثاني من القرن الأول الميلادي . وقد أتت من بلاد فارس حيث كانت معروفة منذ أقدم العصور كما حملها العبيد الشرقيون إلى موانئ البحر الأبيض العظمى كما حملها الجنود الرومان إلى جميع أقطار الإمبراطورية حيث كانت قوية النفوذ بين حاميات الراين والدانوب بوجه خاص . وما يستلقت النظر ، انعدام هذه العبادة في العالم اليوناني . والإله ميثراس في صورته الفارسية هو إله النور والوسيط بين الإله الأعلى للكون والإنسانية ، وثمة ملحمة إلهية تحكي قصة حياته في هذه الدنيا . وقد اكتشف الرعاة ميلاده العجيب من علامات الصخور ، وأحضروا إليه الهدايا . وقد قام وهو ما زال شابا يافعا بسلسلة من الأعمال البطولية الفذة التي بلغت ذروتها في ذبحه للثور

الالهى الذى انبثقت عن دماثة جميع النباتات وسلالات الحيوان النافعة للإنسان ، وما إن ارتفع إلى السماء حتى أولى رعايته لأرواح المؤمنين من أشياعه . وقد فقدت الكتابات المقدسة الخاصة بالإله ميثراس . ولكننا على علم ببعض ما كان يجرى فى الاحتفالات ، والمراسيم التى كانت تقام له . فقد كانت هناك سبع درجات للمعتنقين لديانته تحمل أسماء الغراب ، والمستور ، والجندى ، والأسد ، والفارسى ، وعداء الشمس ، والآب . وكانت المراسيم المعقدة تميز حفلات التدشين التى يجرى فيها رفع المئمن من طبقة إلى أخرى . ومن المحتمل أن الدرجات الأربع الأخيرة هى التى يستطيع فيها العضو الجديد أن يشهد الأسرار المقدسة ، ولا بد أن المراسيم التى تختص بميثراس ، والتى كانت تقام فى كهف تحت الأرض ، أو فى معبد يضاء بنور باهر ، ويجمع فيه الأعضاء من مختلف الرتب ، وهم يلبسون أقنعتهم ، وأزيائهم المميزة ، من المشاهد التى تترك أعظم الأثر فى النفوس . وكانت هناك أسرار العباد ، وتثبيت العباد والتناول . وكانت المعابد ملكاً لجماعات المصلين التى كانت فى العادة صغيرة ، لاتزيد فيما يرجح على مائة شخص . وعندما كان عددهم يتجاوز هذا الحد ، تنشأ جماعة جديدة . وكانت النساء مبعديات عن هذه العقيدة . أما معابد ميثراس فكانت تشبهه إلى حد بعيد السكنائس المسيحية الأولى التى كانت تجرى على النمط البازيليكي الرومانى ، أى أنها كانت مبانى مستطيلة الشكل ، تنوسطها قاعة تصطف على جانبيها الأعمدة التى تفصلها عن ممرين جانبيين ، ثم الهيكل ، وقبو تحفظ فيه النصب المقدسة . وكانت هذه المعابد تقام تحت الأرض ، فى كثير من الأحيان ، تخليداً لذكرى الفترة التى كانت عبادة ميثراس تجرى فيها فى المغاور والكهوف . كما كان هناك فن مقدس معقد أيضاً ، أبرز معالمه هو تصوير ميثراس وهو يقتل الثور المقدس بصحبه رفيقاه الإلهيان كوتيس Cautes و كوتوباتيس Cautopates . ويكون هؤلاء جميعاً ثالوثاً من الآلهة . ولعل هذان المساعدان اللذان يحملان المشاعل يمثلان

الشمس في الفجر وعند الغروب في حين أن ميثراس نفسه هو الشمس في أوجها .

وكان من الطبيعي أن يناصر الأباطرة المقاتلون العظماء الذين ظهروا في القرن الثالث ، هذا الإله الذي يحظى بشعبية كبيرة بين الجنود : كما رأينا كيف أن جيوش أوريليان ودقلديانوس حاربت ، تحت شعار إله الشمس التي لا تقهر . كانت هذه الفترة هي ذروة ازدهار هذه العبادة ، بيد أن المسيحية كانت تنظر إليها دائماً نظرة عدا ، لا هوادة فيه ، والسبب في ذلك فيما يبدو هو وجود بعض أوجه التشابه الواضحة بين العقيدتين استغله أعداء المسيحية استغلالاً عاد بأشد الأضرار . وعلى أثر انتصار المسيحية في القرن الرابع ، انحدرت العقيدة الميثراوية إلى الكهوف وإلى المغاور ، بالمعنى الحرفي ، في بعض الحالات مثلما هو الحال مع معبد ميثراس الذي يقع تحت كنيسة القديس كليمنت في روما . ولكن بعض سماتها ومظاهرها عادت إلى الظهور من جديد في بدعة مانيجيوس ، وما تلاها من بدع في العصور الوسطى .

وينبغي أن يقتصر اهتمامنا هنا بالمسيحية على ما كان لها من أثر على تاريخ الإمبراطورية الرومانية وحضارتها . أما أن نتناول في تفصيل ، وفي إسهاب ، حياة السيد المسيح ، وذيوع التبشير بالمسيحية ، وعلاقة المسيحية باليهودية ، وقوانين المسيحية ، وسننها ، وتنظيم الكنيسة المسيحية ، وظهور البدع ، والمهرطقة ، والخلافات اللاهوتية الكبرى فذلك ما يخرج بنا عن موضوعنا .

وتبدو المسيحية ، في نظر المؤرخ الإمبراطورية الرومانية ، على أنها آخر الديانات العالمية وأعظمها ، وقد قدمت شأنها في ذلك ، شأن الديانات السابقة عليها ، عن طريق الطقوس ، والأسرار ، ضرباً من

التجارب الروحية الفردية ، كما دعت إلى وجود حياة بعد الموت ، وإلى الخلاص عن طريق منقذ إلهي . ومثل هذه الأفكار كانت شائعة معروفة بالفعل في العالم اليوناني الروماني . ومن هذه الوجهة ، لم تظهر المسيحية في ثوب غريب غير معهود ، غير أنها كانت في واقع الأمر جديدة تثير الدهشة والعجب في ناحيتين معينتين . فالحياة بعد الموت كما هو في المفهوم المسيحي ليست قاصرة على معتنق الديانة المسيحية فحسب ، بل هي للإنسانية جمعاء ، وقد نالها لهم « مخلص إلهي » يمثل علاوة على ذلك شخصية تاريخية . فيسوع الناصري ، الذي انحدر عن أبوين فقيرين ، في عهد الإمبراطور أوغسطس قام بالدعوة إلى ديانته ، قرابة ثلاث سنوات في الجليل ، وأورشليم . وقضى حياته كلها في فلسطين ، وعلم باللغة الآرامية . كما لا يمكن فهم عمله إلا في ضوء الديانة اليهودية . وكان تعليمه ، هو تعليم « النبي » على النحو الذي ترسم به التقاليد اليهودية أنبياءها . ولعله من الطريف أن نقارن بين عظة الجبل وإحدى محاورات سقراط . فعظة الجبل إنما هي كشف للحقيقة على لسان إنسان ذي بصيرة روحية سامية ، فهو يقول . « الحق ، الحق أقول لكم » . واستطاع المسيح أن يحصل على استجابة سامعية عن طريق ضرب الأمثال . وكان يستمدّها من مجريات الحياة اليومية ليستشهد بها على تعاليمه . وكان سقراط يدخل في محاورته مع واحد أو أكثر من الرفقاء . ولما كان سقراط يتمتع بقوة ذهنية فائقة فقد كان يحملهم على تتبع حججه ومناقشاته حتى يصل بهم إلى النتيجة التي يريدونها ، كما كان السيد المسيح نفسه يحترم التعاليم اليهودية القديمة ، « لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل » .

وكان الكثيرون من أبناء وطنه ، على استعداد لأن يروا فيه مسيح الله الذي طال انتظاره وترقبه . غير أن الأفكار التي دعى إليها لم تكن تصادف هوى في نفوس كهنة أورشليم الرسميين . واستطاعوا أن يحصلوا على حكم

بإعدامه ، وذلك بطريق الصلب ، باعتباره مجرماً عادياً ، وذلك في عهد تيميريوس (٣٠ ميلادية) هذه هي الحقائق التاريخية الصرفة عن حياة يسوع ، ولكن المسيحيين يقررون أن هناك حقائق أخرى ، تفوق هذه الحقائق وتتجاوز نطاقها المحدود ، فهو ابن الله ، وهو علاوة على ذلك وبعد الصلب . . . « قام في اليوم الثالث من بين الأموات » .

وحياة وتعاليم المسيح ، وقيامته وما تنطوى عليها من معان ، تؤلف العقيدة المسيحية ، كما دعا إليها الحواريون . وقد بدأ التعليم بالإنجيل في أورشليم بعد خمسين يوماً من القيامة . وبعد ثلاثين سنة من النشاط الجدى الذى قام به أول الرسل المسيحيين - وعلى رأسهم بطرس الرسول وبولس الرسول - أرسيت دعائم المجتمعات المسيحية في المدن الرئيسية بكل من آسيا وسوريا واليونان ومقدونيا وفي الإسكندرية وروما أيضا . وقد علموا وكتبوا باللهجة الكونية Koine . وفي عهد نيرون اصطدمت المسيحية بسطات الإمبراطورية واستشهد بطرس وبولس في روما وأصبحت المسيحية ذاتها ديانة غير مشروعة (religio non licita) ولم تتخلص المسيحية من هذا الوضع حتى صدور مرسوم ميلانو في عام ٣١٣ .

وكانت المسيحية في ظل هذه الأحوال عرضة للاضطهادات . وقد سبق أن تعرضنا لأبرز هذه الاضطهادات في فصل سابق ولكنه حين يبدو من المنطوق أن يحصى التاريخ المسيحى حالات الاستشهاد بوجه خاص فإن المؤرخ لا يستلقت نظره ذلك بقدر ما يدهش لانتشار المسيحية إلى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية ، بل تخطيها أيضا للحدود الرومانية في واقع الأمر ، وذلك عن طريق تنظيم الهيئة الكهنوتية وظهور كنيسة عالمية قوية الدعائم . وإن هاتين السمتين الأخيرتين هما اللتان تميزان بوجه خاص وضع الكنيسة في القرنين الثانى والثالث عن المسيحية في عهدها الأول ، فقد تقررت الرتب الكهنوتية الخاصة بالشمامس والسكاهن في المجمع اليهودى

ولعل ذلك هو أصل الرتبتين . غير أن وظيفة الأسقف الذي يحكم أبروشيته التي كانت تتألف (في المشرق على الأقل) من مدينة بعينها والأراضي المحيطة بها ، استمدت كما هو واضح من النظم الرومانية . أما المرحلة التالية — وهي مرحلة طويلة الأجل لم تنته حتى مضى جانب كبير من القرن الرابع — فكانت تقوم على تجميع الأبروشيات وظهور كبير الأساقفة ثم الصراع الطويل بين الأساقفة الكبار في العواصم من أجل احتلال مركز الصدارة ، وهو الصراع الذي انتهى بسيادة روما في الغرب والقسطنطينية في الشرق .

وفي المراحل الأولى كان ظهور كنائس تحمل خصائص وطنية أو محلية مرده اختلاف الثقافات في أنحاء الإمبراطورية ، وعلى ذلك فقد كانت هناك مسيحية فلسطينية وهي التي ضمت المسيحية اليهودية الأولى التي انحدرت عن دعوة المسيح وإن انطوت أيضا على مؤثرات وراثية سابقة نجمت عن الحروب اليهودية . وكانت هناك الكنائس الأجنبية البحت مثل تلك التي قامت في مستعمرة هادريان الجديدة المسماة أليسا كايبتولينا والتي بنيت في موقع مدينة أورشليم المخربة . وكانت هناك مسيحية سورية تعلم بكل من اللغتين السريانية واليونانية ، ومقرها الرئيسي مدينة انطاكية . وكانت هناك مسيحية أسيوية ترأسها الكنائس السبع المكرمة وفي فريجيا وكبندوكية ظهر شكل يميز من أشكال المسيحية يتسم بنزعة التقشف والتعصب البادية على « النبوءة الجديدة » التي ابتدعها مونتانيوس Montanus وهو أحد كهنة كيبيلي السابقين . وكانت تقوم ببلاد اليونان كنائس أثينا وكورنثة الشهيرة كما كانت هناك مسيحية مصرية اشتهرت بالباحثين الذين ظهروا في الاسكندرية وبأنها كانت منبع نظام الرهبنة التي ظهر في القرن الرابع . وأخيرا فقد كانت هناك مسيحية الغرب بمركزها العظيمين في روما ، مدينة الرسل وأفريقية . وأصبحت اللغة اللاتينية منذ قرابة سنة ١٥٠ لغة الكنيسة الغربية وأخرجت أفريقية أول أدب مسيحي ظهر باللغة اللاتينية .

وقد استمالت المسيحية الأولى بصفة رئيسية وإن لم تكن بصفة كلية فقراء المدن الكبرى . ولم يكن المسيحيون الأوائل يبالون بالثقافة القديمة بالنظر إلى أنهم كانوا بسطاء أميين ، إذ بدت لهم عديمة القيمة هيئة الشأن لإيمانهم بقرب مجيء المسيح ثانية ، غير أنه بحلول القرن الثاني بدأت المعتقدات الغيبية تذوى وتضمحل شيئاً فشيئاً ، فقد أصبح جمهور المؤمنين يضم جميع الطبقات الاجتماعية ومختلف الوظائف بما في ذلك — كما قبل — أفراد الأسرة الإمبراطورية . وبدأت المسيحية تشعر بالحاجة إلى أن تفسر نفسها لعالم وثني قدر لها ، كما كان واضحاً جلياً ، أن تتعايش معه ، وبخاصة ذلك الفريق الذي تشرب بالتقاليد القديمة وثقف بها ، ذلك لأن الثقافة القديمة واجهتها باعتبارها تقليدياً تعليمياً أولاً وقبل كل شيء . لقد كانت «الدعوة» من الأساليب الرئيسية التي كانت المسيحية تنمي جمهور معتققيها بوساطتها . وكان اعتناق الدين الجديد مسألة فردية . وكان معنى هذه الدعوة أو الهداية سواء تمت بطريق الوعظ أو ضرب المثل أو بالمحاجة أو بالتجربة الصوفية ، أن فرداً تتقف بالثقافة الكلاسيكية القائمة على البلاغة والأدب والفلسفة ينبغي أن تسعى العقيدة المسيحية إلى كسبه ، ثم الاحتفاظ به في حظيرتها . فإذا كان العالم الوثني عدواً لها فهو من ذلك الصنف من الأعداء الذي يتحتم أن يحارب في هذا الميدان بأسلحته هو . ولم يكن مصدر الخطر هو الفكر الوثني وحده ، فالهرطقة داخل الجماعة المسيحية نفسها كانت أشد هولاً وأعظم خطراً ، إذا ما قدر لها أن تزود بمنطق اليونانيين وفلسفتهم كما كان الحال مع ماركيون Marcion و فالنتينوس Valentinus اللذين ينتسبان إلى مذهب الأدريّة . ولقد وصفت الأدريّة بأنها الغول المتعدد الرموس الذي ظهر للفكر الديني والفلسفي في القرنين الثاني والثالث . وجميع ألوان هذا المذهب العديدة تستمد أصولها من الفكر الأفلاطوني والرواقى ، وبخاصة الفكرة القائلة بوجود صلة بين الكلمة الإلهية

« لوجوس ، Logos وذهن العارف الذى يستطيع بها التوصل إلى الحكمة السرية الخفية (gnosis) .

ورغبة فى مواجهة هذا الموقف ذاته ، أخرج الكتاب المسيحيون فى القرن الثانى أعمالهم ، الاحتجاجية ، وأبحاثهم العلمية . وكان الغرض من مؤلفات الاحتجاج هو شرح قضية الديانة المسيحية بالصورة التى يمكن للوثني المثقف أن يفهمها بها . وقد خاطب جوستين Justin وأرستيديس Aristides الإمبراطور ذاته ناحين عليه باللوم . أما « احتجاج » ترتوليان Tertullian فقد كان مرجها لحكام الولايات الرومانية ، أما فى مجال العلم والبحث ، فقد احتلت مركز الصدارة المدرسة المسيحية غير الرسمية فى الاسكندرية التى كان من أعظم أسائها كليمنت (ولد قرابة سنة ١٥٠ م) . وأوريجن (١٨٥ - ٢٥٥ م) .

وقامت الأبحاث حول دراسة نص الكتاب المقدس وتفسيره وتخصصت المدرسة فى تقديم التوجيهات والنصائح للمبتدئين . ويصور كليمنت فى كتابه بعنوان « المقتنعون » Protreptikes المسيحية على أنها الفلسفة الحقة ، حيث أنها تستوعب ، وتتفوق على كل ما تأتى لليونانيين من قبل .

ويمكن أن نطلق على كليمنت وأوريجن بالنظر إلى أساليبيهما فى العمل وحياتهم خارج معاهدهم ، كما يصدق هذا على أمثالهما ، بأنهما سقسطائيان مسيحيان . أما السكاتبان الإفريقيان توتوليان (حوالى ١٦٠ - ٢٢٥ م) وكبيريان Cyprian (حوالى ٢٠٠ - ٢٥٨ م) فإنهما لم يتأثرا بالفلسفة اليونانية ، بل استوحيا عملهما من القانون والخطابة الرومانية . وقد استشهد كبيريان ، أسقف قرطاجة ، خلال اضطهادات الإمبراطور ديكْيوس . وتعد الكنيسة المستطيلة العظيمة التى أقيمت لذكراه واحدة من أروع الآثار الأربعة المسيحية فى إفريقية . وإن كل ما كتبه ترتوليان ليفصح عن

خبرته في ميدان المحاماة بل إن «احتجاجه» يقوم على المبدأ القائل بأن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، كما أن أعماله الجدلية يسودها الحقد المرير والرغبة في الانتقام وهما نزعتان كثيراً ما شوهت المجادلات والمناقشات المسيحية. غير أن طهجة مخالفة لذلك كل المخالفة تسود مؤلفات لاكتانتوس Lactantius (حوالي ٢٥٠ - ٣١٧). واعتقاداً منه أن جذب الأدب المسيحي وافتقاره إلى طلاوة الأسلوب إنما يقومان عقبه في سبيل الوثنيين المثقفين، فقد خاطب هذه الطبقة في كتابه بعنوان «النظم الإلهية» بأسلوب شيشيرون اللاتيني وأغرق كتابه في لغة من الأدب اللاتيني.

وشهد القرن الرابع حركة بعث جزئية للأدب الوثني. ولقد سبق أن ذكرنا المؤرخ أميانوس ماركييلينوس (ولد سنة ٣٣٠). وكان هذا الكاتب اليوناني المنحدر عن إنطاكية والذي تعلم اللاتينية في وقت متأخر من حياته، قد أخذ على نفسه أن يواصل العمل في التاريخ الذي بدأه تاكيتوس، وأصاب في ذلك قسطاً مذهلاً من النجاح. وتوحى السكتب التي آلت إلينا والتي تعالج عهد فالينتيانان بصفة رئيسية بأن كتب أميانوس التي فقدناها جديرة بالاعتناء أيضاً. أما أوسونوس Ausonius (توفي سنة ٣٩٥) الذي كان يقوم بالتدريس في تولوس وبوردو، فقد كان شاعراً غزير الإنتاج وإن كان متفاوت الإجابة.

وعلى الرغم من أن كتابه بعنوان «في ذكرى أساتذة بوردو» قد يثير اهتمام رجال التعليم إلا أنه يصف في حقيقة الأمر أشد الحجرات المشتركة للأساتذة كتابة على مر التاريخ. ولكن مؤلفه بعنوان «نظام المدن النبيلة» فإنه يكشف عن إحساس بالأماكن المختلفة. ومثل هذه الصفة بالإضافة إلى بصيرته بجمال الطبيعة تحيلان قصيدته بعنوان «موسيللا» Mosella قصيدة ممتعة حقاً. ويقال في كثير من الأحيان إنها القصيدة الأولى في الأدب الفرنسي. أما كلوديان (وسطع نجمه فيما بين عامي ٣٩٥ و ٤٠٤) فهو يمثل

شخصية كبرى على الرغم من أن النقش الرسمي الذي كتب على شاهد قبره ويوجد الآن في متحف نابولي) يرفع من شخصه درجات أخرى إذ أنه يضعه في مصاف هومر وفرجيل في شيء من المغالاة . ومع ذلك فإن قصيدته بعنوان « اغتصاب بروزربين » تعد من أروع القصائد الأسطورية في اللغة اللاتينية كما أن قصيدة « قنصلية استيليكو » تعالج موضوعا تاريخيا هاماً على نمط لوكان . وفي النهاية هناك قصيدة *Pervigilium Veneris* إذ أنها تنسب فيما يرجع إلى هذا العصر . وهي قصيدة فريدة في اللغة اللاتينية لروعها التي تثير الخيال وموسيقاها وإيقاعها الجميل وتعالج هذه القصيدة احتفال الربيع للإلهة فينوس في صقلية ، وحسب المرء أن يقال إن هذه القصيدة تشبه لوحة الربيع *Primavera* للرسام بوتشيلي .

ويمكن القول بوجه عام أن المسيحية قد اجتذبت صفوة المفكرين في القرن الرابع . ولا يتضمن منهج هذا الكتاب مناقشة الخلافات اللاهوتية الكبرى التي شغلت أثناسيوس وآريوس ونظائرها ، ولكنه من الجدير بالذكر أن العقول التي اضطرت مع المبدئين اللذين يدقان عن الفهم ألا وهما التجسد والتثليث ، كانت عقولا مدربة على الفلسفة اليونانية . وكان هذا أيضاً حال العلماء الكبار وكيين الكبار وهم بازيل *Basil* وجريجورى من نيسا *Gregory of Nyssa* وجريجورى من نازيانزين *Gregory of Nazianzen* الذين درسوا جميعاً البلاغة والفلسفة في أثينا . واستغل الشاعر برودينتيوس *Prudentius* (ولد عام ٣٤٨) وهو أول شاعر مسيحي مرموق الوزن الغنائى في الشعر اللاتيني كما أفاد من معرفته الواسعة بهوراس وفرجيل في الموضوعات المسيحية التي تناولها . وإن الآباء اللاتين العظام الثلاثة جيروم وأمبروز وأغسطين إنما يسيطرون على الفكر في الغرب . وكان جيروم (٣٤٨ - ٤٢٠) على صلة بجميع التيارات الثقافية سواء القديمة أو الوثنية . وكان قد ولد في دلماتيا *Dalmatia* وتعلم

في روما ، وبدأ حياته الدينية أول الأمر في تريفيز Treves أما دراساته اللاهوتية فقد شرع فيها وهو بانطاكية ثم عاد إلى روما لينوط به البابا داماسوس مهمة مراجعة النص اللاتيني للأناجيل ، ثم توجه إلى مصر لتفقد حياة الرهبان . وفي النهاية (٣٨٩) أسس في أورشليم البيت الديني الذي أتم فيه بحمته العظيم ، فإن ترجمته المعروفة باسم فولجيت Vulgate للكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية ، لم تترك أثرها فحسب على اللغة اللاتينية المستخدمة في الكنائس ، بل أثرت أيضاً على الأدب الوطني في أوروبا الغربية . كما يجب ألا يغيب عن الأذهان أن « تاريخه » Chronicle يعد من أفضل المراجع فيما يخص بتواريخ وسير الكتاب القدماء ونرى في أمبروز (٣٣٧-٣٩٧) حاكماً رومانياً عظيماً في خدمة الكنيسة . فلقد كان حاكماً لمدينة اميليا Aemilia ولمدينة ليجوريا Liguria عندما عين أسقفاً لميلانو التي كانت من أهم كراسي الأسقفية . وأصاب صيتنا ذائعاً باعتباره أسقفاً وواعظاً وكاتباً وسياسياً وكاهناً محنكاً . كما نظم أربعة أناشيد مسيحية تعود من أقدم الأناشيد وأروعها .

ويحسن بنا أن نختم هذا العرض الموجز بأوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) . وبغض النظر عن أثره على الفكر المسيحي فإنه يحتل مثل فيرجيل مكاناً بالغ الأهمية في التاريخ الثقافي الغربي بأكمله . فإنه لما كان فارها في كل ناحية من نواحي الحياة الثقافية في عصره ، فقد أحال كل ذلك في مؤلفاته إلى نون جديد من التجربة كان نموذجاً وفتحاً لعصر جديد . وكان قد تنقف بالثقافة اللاتينية المعروفة في إفريقية (أما اليونانية فلم يكن يجيدها) كما أنه جنح في فترة من حياته إلى مذهب مانيتخا يوس . وكان لمؤلف شيشيرون المعروف باسم « الشجاعة » Hortensius أن شده إلى الفلسفة ثم أصبح استاذاً للبلاغة في روما أولاً ثم في ميلانو . ثم وقع تحت تأثير أمبروز . وفي سنة ٣٨٦ م بتجربة التوبة التي وصفها وصفاً مؤثراً في مؤلفه بعنوان « اعترافات » . فإنه لما كان

يترى في إحدى الحداثق ، وقد تحير فكره واختلط عليه ذهنه لأن دراسته للفلسفة اليونانية بدت له وكأنها قد أفضت به إلى غياهب حالكة الظلمة ، سمع صوت طفل يقول Tolle lege, tolle lege (خذ واقرأ) فأطاع هذا الفأل وفتح دون قصد رسائل بولس ووقع على النص الذي دفعه إلى اعتناق الديانة المسيحية (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٣ : ١٣ — ١٤) وعندما عاد إلى إفريقية انخرط في سلك الكهنوت . وفي سنة ٣٩٥ أصبح أسقفا لهيبو Hippo التي باتت مسرح حياته العامة حتى مماته . ولم يظهر كاتب لاتيني آخر يفوقه سلاسة في الأسلوب وغزارة في المادة وأثرا على النفوس . ولعل كتاب « الاعترافات » بالإضافة إلى الكتاب المتأخر بعنوان « الإنكار » يعدان من أروع السير الذهنية والروحية التي كتبت بقلم أصحابها على مر التاريخ . ولكن أضخم مؤلفاته هو « مدينة الله » . وقد بدأ في مؤلفه هذا في عام ١٣٤٤ أي بعد مضي ثلاث سنوات على استيلاء الأريك على روما ، وقد بلغ عدد أجزائه اثنين وعشرين كتابا ، وكان ذلك بمثابة فلسفة مسيحية للتاريخ . وكان يهدف منه أن يوضح للمسيحيين كيف يمكنهم النظر إلى أعظم حدث دنيوي وقع في ذلك العصر وهو انهيار سلطة روما في الغرب . وفي معرض بحثه الذي يهاجم فيه ويدحض كل المبادئ التي بنى عليها التاريخ في القديم ، ويناقض أيضاً القيم الخلقية التي استند إليها هذا التاريخ ، يقارن بين مدينة العالم ومدينة الله . إن مدن العالم كثيرة متعددة ولا ينبغي أن نمنحها ولاهنا . فهي جميعها مصيرها الزوال ، كما أن قيامها وسقوطها — حتى بالنسبة للإمبراطورية الرومانية — ليس لهما من معنى أو مغزى إلا في نطاق خطة إلهية سامية . ولكن الإنسان ، لكونه إنساناً ، يعتبر مواطناً لمدينة الله . وعند انقضاء الدهر سوف تزول ممالك هذا العالم وبعد مجيء المسيح الثاني ويوم الدينونة ، ستقام مملكة السماء إلى الأبد وعبر التاريخ تهيب بنا أن نترقب العالم الآتي .

ولا ينبغي أن نظن أن المسيحيين كافة كانوا يقرون الاتصال بالثقافة

القديمية ، فقد تساءل ترتوليان قائلاً : « وما شأن أورشليم بأثينا ؟ » . وكان هناك الكثيرون ممن هم على استعداد لأن يجيبوه قائلين : « لا شيء » . ولقد كانت الرهبنة الأولى ، بوجه خاص ، تنبذ الثقافة بالإضافة إلى كل ما ينتصب إلى العالم من متاع ، رغبة في تحقيق القسط الأوفر من التقشف ، بل إن جيروم وأوغسطين كانا يحسان في بعض الأحيان بالخطر الوشيك إزاء اجتذاب الثقافة القديمة لهما مع ماتحويه من أسباب الإغراء الشديد . وقد صاح جيروم مؤنباً نفسه قائلاً : « إنني أتبع شيشيرون لا المسيح » . ويندد أوغسطين في كتابه بعنوان « حول التعليم المسيحي » ، بدوره ، بكل الموضوعات التي يحويها المنهج الدراسي الوثني . ولم يكن هناك مفر من أن يفرض الصراع بين الثقافتين إلى محن عصبية . ولكن العمل المجيد الذي قام به الآباء اليونانيون واللاتين ، كما حاولنا أن نوضحه في هذا العرض الموجز ، كان من شأنه إدماج المسيحية بالثقافة القديمة مما جعل في مكتبة المسيحية أن تنال قبولاً عاماً في العالم الروماني وأن تكتب لها الحياة بعد سقوطه وانهاره . وأن تصبح أشد العوامل فاعلية في ثقافة الغرب .

الختاتمة

ماهى الأسباب التى أدت إلى انهيار سلطان روما فى الغرب؟ ليس هناك من سبيل إلى تجنب هذا السؤال على الرغم من أنه فى المكان الأول يعد من بين تلك المشاكل التاريخية التى وإن كان من الممكن أن تطرح على بساط البحث ، إلا أنه من المتعذر أن نضع لها حلولاً نهائية وإجابات شافية . وهناك قدر هائل من البحوث التى تناولت هذا الموضوع سواء العلمية منها أو غير العلمية ، فترى جييون Gibbon لا يساوره أدنى شك فى الإجابة التالية إذ يقول : « لقد رويت قصة انتصار البرابرة والدين . ولقد أضاف الباحثون المحدثون إلى هذين العاملين الأوليين عوامل أخرى من بينها الصراع بين الطبقات ، والعداء الذى كان قائماً بين الجيش والطبقة الوسطى وفناء الأجناس بفعل بنيتها وإجهاد التربة واستنزاف قواها وتقلب المناخ واختلاط الأجناس وامتزاجها فى روما وإيطاليا عن طريق هجرة الشعوب الشرقية ثم انتشار الملاريا والأوبئة وشيوع الإباحية الجنسية . ولقد أمدت هذه الكارثة العظمى التى نزلت بالإمبراطورية الدعاة الأخلاقيين بمعين لا ينضب من الأمثلة التى يمكنهم الاستناد إليها فى دعواهم ، فلطالما قيل لنا إن التاريخ إنما يعلمنا أن انهيار الإمبراطورية الرومانية إنما يرجع إلى كذا وكذا مما يخطر على بال القائل من الأدران والمباذل التى يرى مهاجمتها . ولكنه من سوء الحظ أن دروس التاريخ ليست بأية حال على هذا القدر من الوضوح . ذلك لأن تقدم المعرفة التاريخية قد بعد بنا أشواطاً كبيرة عن نظريات جييون الهادئة التى كان ينادى بها دون أن يساوره شك فى صحتها . وإن أحداً لا يمكنه ، بغض النظر عن قلة محدودة ، أن يأخذ بذلك الحل القاطع قضية مسلماً بها ، غير أن هناك بعض المقترحات المعينة التى تحظى بقسط

كبير من اتفاق الآراء ، وأول هذه الافتراضات أنه ليس هناك سبب واحد فقط يمكنه في حد ذاته أن يكفل هذه النتيجة . ثانياً: أنه يتحتم على أى حل نهائى يمكن التوصل إليه أن يوضح لنا قبل أن يتسنى لنا الموافقة عليه الأسباب التى دعت إلى بقاء الإمبراطورية الشرقية قائمة طوال ألف سنة بعد انهيار الإمبراطورية الغربية . وفضلاً عن ذلك ففي الإمكان أن نشير إلى عدد من مواطن الضعف فى المجتمع الرومانى ، وقد تختلف التقديرات بعضها عن بعض فى الحكم على مدى خطورة هذا المواطن ولكن لا بد وأن نقاط الضعف مجتمعة كانت السبب إلى حد كبير فى ذلك الانهيار .

وقد أكد الباحث الألمانى ريم "Rehm" الدور الذى لعبته هذه المشكلة فى فكر العالم الغربى . وبين كيف أن أبناء العصور المختلفة عمدوا إلى شرح جوانبها وإيجاد حلول لها تتفق وخبرتهم الخاصة . وما من شك فى أن عصورنا الحديثة إن لم تكن تدرك شيئاً فإنها تدرك خفايا العلوم التطبيقية ولا ريب أن كان هناك مواطن للضعف خطيرة فى مجال العلوم التطبيقية لدى الإمبراطورية الرومانية . فبالقياس إلى معاييرنا الحديثة ، فإنه لم يتحقق لها أى تقدم عام خلال القرون الخمسة التى أعقبت نقل روما للعلوم التطبيقية التى كانت مزدهرة فى العالم الهلينستى . ولا مرأه فى أنه من الممكن أن نعزو حالة الركود هذه ، بقدر محدود ، إلى أثر نظام الرق ، ذلك لأن الرق لا يشجع على الاختراع الذى يميل عادة إلى الاستعاضة عن الجهد البشرى بالآلة ، لأن الرق يوفر مصدراً قليل التكاليف ومتجدداً من الجهد البشرى ، ولقد كان للرق على مر التاريخ أثر كبير على دولاب العمل وعلى الكفاءة البادية فيه ، يبلغ من العمق والفداحة ما كان له من أثر على الأخلاق العامة وعلى الإنسانية جمعاء . ومع ذلك فلا يمكن أن يقوم الرق وحده بالإجابة عن السؤال المطروح إجابة كاملة . فلقد انخفض عدد العبيد فى العالم الرومانى بعد حروب الغزو العظمى التى قامت إبان عهد الجمهورية . فلم يعد هناك من أسواق النخاسة

ما كان على درجة أسواق جزيرة ديلوس من الضخامة. والحقيقة أن الإمبراطورية كانت تتميز في أوائل عهد ما بزيادة الاعتماد على جهد الأحرار من العمال بدلا من العبيد. ولا بد أن هذه الظاهرة بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي قد هيأت الظروف الملائمة للاختراع، غير أنه لم يحدث أى تقدم على نطاق واسع بل لم يحدث أى تقدم يعادل على الأقل المراحل المبكرة للانقلاب الصناعى . ولا يكفي أن نعزو ذلك إلى ميل الرومان إلى النواحي العملية وعزوفهم عن التفكير النظرى فإن بعض الاختراعات التى كان يقدر لها أن تعود بأعظم النفع على العالم الرومانى هى على وجه التحديد الاختراعات التى يمكن أن ننتظرها من لهم مهارات عملية . فلماذا لم يخترع أى فرد من رؤساء العمال الرومانين سرجا لا يضيق الحناق حول عنق دواب النقل حتى يكاد يقتلها خنقا بضغطة على قصبته الهوائية؟ ولم لم يحدث هناك أى تحسن فى تركيب السفن الرومانية التى كان يتسم بقدر كبير من الاضطراب وعدم الإحكام؟ وفوق كل ذلك لماذا لم يخاطر على أى موظف من موظفى دار سك النقود الرومانية أن يأخذ تلك الخطوة السهلة بأن يلجأ إلى عملية طبع النقود بدلا من سكها ، وهو اكتشاف كان لا بد أن يسفر عن نتائج بالغة الأهمية فى مجال نشر المعرفة؟ إن فى ذلك نقطة يصعب تفسيرها مثلها يصعب تفسير عجز حضارة ييرو عن اختراع العجلة .

ولاشك فى أن هذا التخلف فى ميدان العلوم التطبيقية يرتبط بقدر ما يتخلف التعليم . فعلى الرغم من الرعاية التى كان يبديها الأباطرة وحرص المجالس البلدية على تأسيس المدارس وتوفير أسباب البقاء لها ، فإن التعليم فى ظل الإمبراطورية لم ينتشر بالقدر الكافى كما لم يكن عميق الأثر إلى الحد المنشود . وما من شك فى أنه كان من بين مواطن الضعف الخطيرة إهمال العلوم الطبيعية والموضوعات العملية ، ولكنه لا يكفي أن نقول كما يقول بعض النقاد إن الرومان كانوا قانعينراضين عن تلقى نمط من التعليم يقتصر

على الناحية الأدبية فحسب . فإن موطن الضعف الحقيقي هو ذلك الاهتمام الذي لم يكن له ما يبرره والذي أحيطت به مادة البلاغة . وكان مرد ذلك اتجاه يتم عن ضيق أفق وقصر نظر إلى تفضيل ذلك الضرب من التدريب المهني الذي كان يلوح أنه يهيء أسرع سبل النجاح . لقد كان التعليم الروماني يخرج المحامين والمدبرين ومدرسي البلاغة وهو بذلك قد أتاح للرومان قدرات كبيرة على التعبير ودرهمهم على تذوق الأدب واقتنهم المبادئ الأولى للدراسة قواعد السلوك والأخلاق ولسكنه عجز على أن يستحث فيهم الفضول الذهني كما أنه لم يضيف شيئاً إلى المعارف القائمة .

وثمة ناحية أخرى أقل من الناحية السالفة خضوعاً للتقييم الدقيق . وتتمثل في بعض مواطن الضعف السياسية والعسكرية . ويبرز لنا من بينها عجز الرومان على وضع أساس دائم يحظى بالقبول من جميع الأطراف لينظم تتابع الأباطرة على رئاسة الإمبراطورية . ولو أن مبدأ الوراثة قد لقي القبول لأتى دون شك بكثير من الأباطرة الضعاف الفاسدين ، ولسكنه على أية حال كان من الممكن أن يصبح مبدأ واضحاً للجميع ، ولسكن من الممكن أن يظهر معه المعتصبون في ثوبهم الحقيقي . ولو اتبع مبدأ التنبئ بصفة دائمة لوقعت هناك منازعات من أجل الخلافة على الرئاسة ، ولكن الاحتمال الأكبر أن ذلك كان سيتم عن طريق مؤامرات وقتن داخل القصر لا بين صفوف الجنود في ميدان القتال . ولكن الرومان لم يلتزموا على الدوام بأى من النظامين . وعلى ذلك فقد ابتلوا بمساوى كل من النهجين ؛ فبدأ الوراثة أتى ببعض الأباطرة الضعاف خلال القرن الأول ، وأدى النزاع على الخلافة وبخاصة بعد عهد كومودوس إلى كثير من المنازعات التي أصابت الدولة بضعف خطير . ولم يقتصر ذلك فحسب على مجرد الخسارة في القوى البشرية والخسارة في الموارد المادية ، فلقد استشرى الفساد في الجيش حين اكتشف أن سلب العالم المتحضر ونهبه أوفر مغنماً من الدفاع عنه ضد البرابرة .

إن ما لا يزيد على قرن واحد إلا يبضع سنوات هو الحقبة التي تفصل بين جيش ماكسيموس ثراكس وجيش تراجان غير أنهما كانا يقفان على النقيض تماماً في نواحي الضبط والربط والروح المعنوية والحمية للقتال .

وعلى أية حال فإنه لم يكن من المقدر للنظام الدفاعي الذي وضعه أوغسطس لمواجهة العالم البربري أن يظل صالحاً للعمل إلا إذا ما بقيت روما الدولة صاحبة التفوق العسكري البين بالقياس إلى أعدائها . ولم يكن من المقدر أن تبقى الأحوال جامدة لا تتغير على طول الحدود ، فلا بد أن يكتسب البرابرة الطابع الروماني ، على الأقل ، في مجال استيعابهم لطرق القتال الرومانية ولا غرو فقد كان أرمينيوس والآلاريك يخدمان في الجيش الروماني كما أن الجيش الروماني ذاته أخذ ، كما أوضحنا من قبل ، في اكتساب الطابع البربري في اطراد ، وذلك من حيث جنسية جنوده . فإنه في القرن الرابع ذاته باغ البرابرة المنخرطين فيه ، مناصب القيادة العليا . وفي مثل هذه الأحوال لم يكن هناك من أمل في الاحتفاظ بتفوق الرومان العسكري إلا بالاعتماد على موارد فنية علمية غاية في السمو والتفوق مثل استخدام الأسلحة النارية . صحيح أن ثمة طائفة من المنجانيقات المختلفة قد أتاحت لروما في القرنين الثالث والرابع تفوقاً من هذا النوع ولكنه لم يكن يحظى بالمقدرة الكافية من الفاعلية الذي يتيح لها سبقاً واضحاً بينا على إمكانيات العدو . وما إن انتصف القرن الرابع حتى كان بوسع جيش مؤلف من القوط والفاندال والهانيين أن يخوض المعركة ضد جيش روماني على قدم المساواة ، على أقل تقدير . وحتى في هذه المرحلة أيضاً ، فقد كان يتوافر للإمبراطورية قدر من الموارد البشرية يفوق ما يتوافر لأعدائها . ولكنه لم يكن من الميسور إعداد هذه القوى البشرية للحرب دون زيادة الضرائب التي أصبحت بالفعل عبئاً تنوء به الكواهل .

ولم تكن الضرائب القاصمة للظهور سوى عبء واحد من عديد من

الأعباء التي فرضتها الإمبراطورية في عهدها الأخير على مواطنيها . فلتقد بدأت الدولة منذ عهد دقلديانوس في الانحطاط والتحول إلى دولة استبدادية . تتحكم في جميع أوجه النشاط وتوجهها بما يتفق ومصحتها هي وحدها . فقد كان وكلاء الدولة ينتشرون في كل مكان وكانت تعليماتها ولوائحها تنظم كل وجه من أوجه الحياة . ولم يكن لدى مواطني الإمبراطورية في عهدها المتأخر من الوسائل أو الدوافع ما يمكنهم من تحسين مصائرهم ، وقد تجمدوا في وظائفهم المتوارثة وناعت كواهلهم بعبيتين متلازمين هما الضرائب والتضخم المالي ، ونكبوا علاوة على ذلك بالمطالب الحكومية المتصلة من أجل الحصول على قروض وهدايا وجهد بشري ، وتعرضوا لنهم وجشع جيش عرمرم من الموظفين الفاسدين . وأن السيد وولبنك Walbank لمحق فيما ذهب إليه من القول بأنه لم يكن أمام أباطرة القرنين الثالث والرابع أى خيار فيما فعلوا إذا ما كان مقدرآ للدولة أن تبقى قائمة . والحقيقة أن الإصلاحات التي أدخلوها جعلت من الممكن بقاء الدولة إلى حين ، ولكن ثمن ذلك كان باهظا للغاية ، وهو هدم كل نشاط تجارى وصناعى ، والقضاء على الروح العامة . لقد هبط حال المواطن إلى أن أصبح فردآ لا حول له ولا طول ، ولم تعد الدولة وأجهزتها بالنسبة له أجهزة في خدمة الجماهير بل أصبحت شيئآ منفصلا مستقلا لا تمثل مطالبها مطالب الشعب أو تمثل مطالب الشعب مطالبها . ولا بد أن البرابرة كانوا يبدون في نظر الشعب أفضل من هذه الحكومة . وما من شك في أن مطالب الدولة الباهظة كانت هي معول الهدم الأول التي جر إلى سقوط الإمبراطورية الغربية وانهارها في النهاية .

بيد أنه بالنظر إلى أن هذه الأحوال ذاتها كانت قائمة في الشرق ، فلا بد أن نتساءل عن السبب في أنه لم يلقى مثل هذا الانهيار . ولقد سبق أن أوضحنا أن العبء الأعظم لغزوات البرابرة وقع على الغرب الذي كان عليه أن يواجه

أبشع الهجمات من جانب القوط والهانين . ولم يكن في الشرق ما يماثل ملكة الفرنجة في الغال وملكتي الفاندال في إسبانيا وإفريقية . وأهم من ذلك كما أشار باينيز Baynes أن ما كانت تتمتع به آسيا الصغرى من حصانة نسبية كان معناه أن لدى الشرق احتياطي من القوى البشرية والموارد المادية لا تستطيع إيطاليا أن توفره للغرب . واستناداً إلى هذه القوة الدافعة شن جستينيان في أوائل القرن السادس هجماته الكبرى التي بعثت الأمل لحظة من الزمن في استعادة كيان الإمبراطورية .

لقد عرضنا فيما سلف الأسباب التي يعتقد في الوقت الحاضر أنها تمثل العوامل الرئيسية لانهار قوة روما في الغرب . وما من شك في أنه سيكون من الميسور بتقدم المعرفة تتبع آثارها في شيء كبير من التفصيل ، وتقدير أهمية كل سبب بالنسبة للآخر ، بل لعله سيكون من الممكن أن نضيف أسباباً أخرى إليها . ولا ريب في أن لهذا البحث أهمية كبرى على مر التاريخ بالنسبة لتلك الأمم التي ورثت الحضارة الرومانية . ولسكنه يحسن بنا ونحن مقدمون على هذا البحث أن نجنب أنفسنا خطأ افتراض تفوقنا نحن في هذا السبيل ، فإن بريطانيا لم تبدأ في توفير سبل التعليم للجميع حتى عام ١٨٧٠ . وظل الرق قائماً في الولايات المتحدة حتى الحرب الأهلية . كما أنه قد أصبح على مجتمعنا أن يؤدي ثمننا باهظاً حفاظاً على حياته . ثم إنه حتى وإن افترضنا أننا قد أوفينا هذا الثمن حتى هذه الساعة فليس هناك من ضمان أن مطالب الدولة التي تفرضها على الفرد سوف لا تصل إلى حد يتجاوز حدود طاقته . فجدير بالذكر أن ذلك التقدم الهائل الذي أحرزه الإنسان في مجال سيطرته على الطبيعة خلال القرون الثلاثة الماضية لم يصحبه سيطرة الإنسان بدرجة متساوية على نفسه . وهكذا فإنه على الرغم من تفوقنا الذي لا حد له في ميداني العلم للبحث والعلم التطبيقي على الرومان ، فإننا نعاني من معضلة لم يكن لهم بها عهد . فليس لدينا ضمان على تفوقنا ،

بقدر معلوم ، على العلوم التطبيقية لدى أعدائنا الألداء . ونحن إذ نحاول أن نصل إلى هذا المعدل من التفوق إنما نجازف بالتعرض لخطر حقيقي يتمثل في تدمير كل معالم الحضارة تدميراً تاماً فوق كوكبنا هذا .

وقد تعيننا معرفتنا بالماضى على أن نظل يقظين ساهرين في مواجهة الأخطار التي تهددنا . وإن خطر نشوب حرب ذرية يبدو للكثيرين في الوقت الحاضر خطراً حقيقياً داهماً بقدر ما كانت تبدو نهاية العالم قريبة بالنسبة للمسيحيين الأوائل . ولعل ما يهدى من روعنا أن نذكر أن القرن الثاني لم يكن نذيراً بنهاية العالم بل فاتحة عصر سلالة الإمبراطور أنطونينوس الذي كان عصر رخاء ورفاهية كما أن مجتمعتنا أيضاً يواجه أحد أمرين ، إما الدمار وإما الرخاء . والتاريخ الروماني إنما يذكرنا بأن الرخاء أيضاً ينطوي على الأخطار الخاصة به التي تعدّ أخطاراً حقيقية على الرغم من أنها مستورة خفية . وثمة تعقيب يقوم شاهداً على ما نقول كتبه جريجورى العظيم معلقاً فيه على الرخاء الظاهرى الذى كان بادياً على العالم الروماني فى القرن الثانى « لقد كانت الأعمار طويلة والصحة موفورة والرخاء المادى يبسط ظلاله والشعب فى زيادة ونمو ، وكان الهدوء والسلام يسودان حياة الناس اليومية ، ولكنه بينما كان العالم نفسه فى ازدهار كان الرخاء فى قلوب هؤلاء الناس يندوى ويضمحل » .

تقديم

أسماء الأماكن الحديثة ومقابلها باللاتينية

الاسم اللاتيني	الاسم الحديث
Agrigentum	أجريجتو
Alesia	اليس ستي رين
Arretium	أريترو
Arelate	ارليس
Aujusta Vindelicorum	أوجسبرج
Bononia	بولونا
Hippo	بون
Bordigala	بورديه
Aquincum	بودابست
Gades	قادش
Nova Carthago	قرطاجنة
Catania	كاتانا
Deva	تشستر
Corinium	كيرنستر
Camulodonum	كولشستر
Colonia Agrippina	كولون
Byzantium	القسطنطينية
Dyrrachium	دوراتزو
Geneva	جنيف
Glevum	جلوسستر
Byzantium	استنبول
Lambaesis	لامبسا
Lindum	لينكولن
Olisipo	لشبونة
Londinium	لندن
Lugdunum	ليون
Moguntiacum	مينز
Malaca	مالاجا
Lulybaeum	مارسالا
Massilia	مارسيليا
Emerita	مريدا
Massana	مسينا

الاسم اللاتيني		الاسم الحديث	
Mediolanum	ميدولانوم	Milan	ميلان
Neapolis	نيابوليس	Naples	نابولي
Narbo	ناربو	Narbonne	ناربون
Nemausus	نيماسوس	Nimes	نيمي
Naisus	نايسوس	Nish	نيس
Patavium	باتافيوم	Padua	بادوا
Panormus	بانورموس	Palermo	باليرمو
Areminum	اريمينوم	Rimini	ريميني
Saguntum	ساجونتوم	Sagunto	ساجونتو
Caesaraugusta	كايساراوجستا	Saragossa	ساراجوسا
Hadrumctum	هادروميتوم	Sausse	سوس
Spalato	سبالاتو	Split	سبلت
Argentoratun	ارجنتوراتوم	Stasbourg	ستاسبورج
Tingis	تنجيس	Tangier	طنجة
Tauromenium	تاورومنيوم	Taormina	تاورومينا
Tarentum	تارينتوم	Taranto	ترانتو
Tarraco	تاراكو	Tarragona	تاراجونا
Augusta Treverorum	أوجستا تريفرورم	Treves	ترفي
Tergeste	ترجستي	Trieste	تريستي
Vindobona	فيندوبونا	Vienna	فيينا
Viroconium	فيروكونيوم	Wroxeter	روكستر
Eboracum	ابوراكوم	York	يورك

قاموس للمصطلحات

ملحوظة : الاسماء التى ذكرت فى النص فى صيغة الجمع ، ذكرت هنا مفردا
وجمعاً .

Aedile

(الايديل) موظف عمومى فى المدينة يشرف على المنشآت العامة والاسواق ونظم المرور وامداد المدينة بالمياه ، وتوجد هذه الوظيفة فى البلدان أيضا .

Ala

(الآلى) فصيلة من الفرسان يصل عددها بعد عصر أوغسطس الى ٥٠٠ أو ١٠٠٠ جندي يتم تعيبتهم من الولايات .

Annona

(أنونا) ومعناها الحرفى « الحصاد » وهى هيئة امداد روما بالحبوب أصبحت لها أهمية قصوى فى عصر جايوس جراكوس . وقام أوغسطس بتنظيمها على أنها مصلحة أميرية .

Censor

(الكنصور) وهو رجل يعين ليقوم بعمل تعداد للسكان كل خمس سنوات وتقدير قيمة المقاطعات حتى تفرض الضرائب (ذلك فى عام ٤٤٥ ق.م.) ووضعت قائمة اعضاء مجلس الشيوخ تحت اشرافه وبذلك أصبح له نفوذ قوى فى عام ٣١٢ ق.م. وفيما بعد أصبح فى دائرة اختصاصه سلطات واسعة لمراقبة الاخلاق والتصرفات .

Civitates, Civitas

(دويلة) وكانت أثناء الحكم الامبراطورى عبارة عن وحدة محلية ذات حكومة ذاتية وفى الغالب ما تكون هذه الوحدة مدينة ولكن ليس هذا شرطا أساسيا .

Cohortes, Cohors

كانت منذ زمن ماريوس عبارة عن وحدة من الفرقة للتحركات العسكرية وكانت كل عشر وحدات تكون فرقة من ٦٠٠ جندي ، أما فى زمن الامبراطورية فقد أصبح هذا الاسم يطلق على وحدات المشاة من الولايات .

Coloniae

وهم الفلاحون المستأجرون فى عصر الامبراطورية وخاصة من يستأجر المقاطعات الاميرية .

Coloniae, Colonia

(مستعمرة) وهى فى الاصل تعنى استقرار مواطنين رومان أو لاتين فى أرض ما عن طريق مشروع الغرض منه الزراعة أو الدفاع وفيما بعد أصبحت الدولة هى التى تنشئ المستعمرات لاغراض اقتصادية وغالبا ما تكون خارج ايطاليا - وفى عصر الامبراطورية كانت المستعمرات عادة من أجل اسكان الحاربين القدماء .

Coloni, Colonus

وهى تعنى (١) عضو فى مجتمع المستعمرة Colonia
(٢) فلاح مستأجر

Consistorium

وهو عبارة عن مجلس امبراطورى تكون منذ القرن الرابع الميلادى يعقده الامبراطور ويتكون من رؤساء المصالح الاميرية .

Consul

(القنصل) وهى أعلى وظيفة فى عصر الجمهورية وكان هناك قنصلان ينتخبهما الشعب ولفترة طولها عام واحد وكان القنصلان يزاولون سلطات عسكرية نظرا لانهم خلفوا الملوك فى سلطاتهم أما فى عصر الامبراطورية فقد أصبحت القنصلية وظيفة شرفية الى حد كبير .

Consular

(وتعنى قنصل سابق) .

Imperium

(سلطة الامبريوم) وهى أعلى سلطة ادارية يتمتع بها كبار موظفى الجمهورية فى منطقة (وهى الولاية) نفوذهم .

Imperium Infinitum Aequum

(السلطة غير المحدود والمساوية لسلطات الحكام) وهى سلطة ليست لها حدود جغرافية ومساوية لسلطة أى حاكم لولاية .

Iugerum

وهى مقياس رومانى لقياس الاراضى مساوية (١/٥ الفدان) .

Legatus

وهى تعنى (١) مبعوث .

(٢) نائب عن حاكم لولاية .

(٣) قائد الفرقة الرومانية وذلك فى عصر الامبراطورية .

(٤) حاكم لولاية تابعة للامبراطور .

Magistrate

فى عهد الجمهورية كان هو الموظف التنفيذى فى الدولة ينتخبه الشعب ويزاول سلطاته لمدة عام عادة . وأهم هؤلاء الموظفين هم : القنصل الكنصور ، البرايتور ، الكوايستور ، والايديل .

Master of horse

(قائد الفرسان) وهى وظيفة يقوم الدكتاتور بتعيين شخص فيها ليكون نائبا عنه .

Master of soldiers

جاءت فى أواخر عصر الامبراطورية وهى تعنى القائد الاعلى لقوات المشاة والفرسان . وقد تولها البرابرة فيما بعد .

(Modii) Modius

المقياس العام للمكيال الرومانى ، وهو يعادل ١.٥ من المكيال الانجليزى . (وهو ٢ جالون) .

(Municipia) Municipium

وهى تعنى (١) مقاطعة ايطالية تتمتع بالحكم الذاتى .

(٢) مجتمع من مجتمعات الولايات تتمتع بالحكم الذاتى .

وهو أقل مرتبة من (الدويلات (Civitates) التى

كانت فى بلاد الغال وبريطانيا .

Oppidum

بلدة أو مجتمع حضرى ، تطلق بالذات على البلدان الكلتية فى بلاد الغال .

Plebs

كتلة المواطنين الرومان عامة باعتبارها طبقة اخرى غير طبقة الارستقراطية (Patricii)

Populares

اصطلاح يطلق بالذات على الحزب الذي يعتمد على تأييد الطبقات الفقيرة ، وذلك منذ القرن الثاني قبل الميلاد . ولكن هذا الحزب كان في الواقع يقف في وجه الارستقراطية فيما يختص بمصالح الطبقة المتوسطة .

Praetor

— وظيفة من وظائف الجمهورية العامة ، مجال اختصاصها الاساسى هو الاشراف على العدالة . وكان (Praetor Peregrinus) امبراتور الاجانب يفصل في القضايا التي يكون الزوار والاجانب المقيمون في روما طرفا فيها .

Principilaris

كلمة استخدمت في عصر الامبراطورية وهي تطلق على قائد المجموعة الاولى من الفرقة . وبعد تسريح هؤلاء القادة كانوا عادة يجندون للقيام بخدمات مدنية .

Princeps

كلمة اختارها أوغسطس ليصف بها مركزه في الامبراطورية باعتبارها زعيما للدولة . وفيما بعد انتحل الاباطرة الرومان هذا اللقب لانفسهم عند اعتلائهم العرش .

Proconsul

كان هذا اللقب في عصر الجمهورية المتأخر يطلق على حاكم الولاية . أما في عصر الامبراطورية فقد كان يطلق على حاكم ولاية تابعة لمجلس الشيوخ .

Procurator

ظهرت في عصر الامبراطورية وهي تطلق على ضابط مالى تابع للامبراطورية يشرف على الشؤون المالية وشؤون المناجم والعملية والمقاطعات في الولايات .

Publicanus (Publicani)

وهم المقاولون العوام ، وخاصة هؤلاء الذين يختصون بجمع الضرائب من الولايات وكانوا يتمتعون بشراء فاحش في عصر الجمهورية ، ولكن قل شأنهم في عصر الامبراطورية .

Quaestor

وظيفة وجدت في عصر الجمهورية ، اختصاص هذا الموظف الرئيسى هو الشؤون المالية .

Tribune

وهو التربيون العسكرى ، قائد جيش احتياطى ، وقد كان هناك ستة ترابنة في كل فرقة اثناء العصور الاخيرة من الجمهورية .

Tribunes (Tribuni plebis)

وهم ترابنة العامة ، ضباط ينتخبون ليصوتوا مصالح الشعب من بطش الارستقراطية ، وقد كانوا يتمتعون باستخدام حق الاعتراض (Veto) تمتعا فائقا .

محتويات الكتاب

صفحة	
٥	الفصل الأول : مقدمة
٢٠	الفصل الثاني : روما القديمة حتى عام ٠٠ ق.م
٣٤	الفصل الثالث : روما وإيطاليا حتى عام ٢٨٠ ق.م
٦١	الفصل الرابع : روما والبحر المتوسط (٢٨٠ - ١٣٣ ق.م)
١٠٧	الفصل الخامس : تدهور الجمهورية الرومانية وسقوطها (١٣٣ - ٧٨ ق.م)
١٣١	الفصل السادس : تدهور الجمهورية الرومانية وسقوطها من ٧٨ - ٣٠ ق.م
١٧١	الفصل السابع : الحياة الاجتماعية والثقافية في أواخر عصر الجمهورية
١٩٨	الفصل الثامن : أوغسطس
٢٣١	الفصل التاسع : الأدب والفن في عصر أوغسطس
٢٥٧	الفصل العاشر : السلم الامبراطوري (١٤ - ١٩٢ م)
٢٩٠	الفصل الحادى عشر : السلام الرومانى : (١٤ - ١٩٢ م) عظمة الرومان التى لا حد لها
٣٣٦	الفصل الثانى عشر : الانهيار والسقوط ١٩٣ - ٤٧٦ م
٣٦٢	الفصل الثالث عشر : الثقافة القديمة والمسيحية ١٤ - ٤٧٦ م
٣٩٩	تذييل « أسماء الأماكن الحديثة ومقابلتها باللاتينية »
٤٠١	قاموس للمصطلحات